الردود العلمية
في دحض
حجج وأباطيل الصوفية

ردود طائفة من علماء القرن السادس الهجري

تأليف

د. محمد بن أحمد الجوير

مكتبة الرشد
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجوير، محمد أحمد
الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية.../ محمد أحمد الجوير.- الرياض ١٤٢٤هـ
٧١٣ ص ؛ ١٧×٢٤سم
ردمك : ١-٢٥٨-٠١-٩٩٦٠
١- التصوف الاسلامي - دفع مطاعن ٢- البدع في الاسلام
أ- العنوان
ديوي ٢٦٠ ١٤٢٤/٤٤٣٩هـ

رقم الايداع : ١٤٢٤/٤٤٣٩هـ
ردمك : ١-٢٥٨-٠١-٩٩٦٠



الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مكتبة الرشد
ناشرون

المملكة العربية السعودية - الرياض
شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)

ص.ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
Email: alrushd@alrushdryh.com
Website: www. rushd.com

* فرع طريق الملك فهد - الرياض - غرب وزارة البلدية والقروية هاتف ٢٠٥١٨٣٠
* فرع مكة المكرمة - هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة - شارع ذر الغفاري هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ - ٨٣٨٣٤٢٧
* فرع جدة - ميدان الطائرة - هاتف ٦٧٧٦٣٣١
* فرع القصيم - بريدة طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
* فرع أبها - شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام - شارع ابن خلدون هاتف ٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

* القاهرة : مكتبة الرشد / هاتف ٢٧٤٤٦٠٥
* الكويت : مكتبة الرشد / هاتف ٢٦١٢٣٤٧
* بيروت : دار ابن حزم / هاتف ٧٠١٩٧٤
* المغرب : الدار البيضاء / مكتبة العلم / هاتف ٣٠٣٦٠٩
* تونس : دار الكتب المشرقية / هاتف ٨٩٠٨٨٩
* اليمن : صنعاء / دار الآثار / هاتف ٦٠٣٢٥٦
* الاردن : دار الفكر / هاتف ٤٦٥٤٧٦١
* البحرين : مكتبة الغرباء / هاتف ٩٥٧٨٣٣ - ٩٤٥٧٣٣
* الامارات : الشارقة / مكتبة الصحابة / هاتف ٥٦٣٣٥٧٥
* سوريا : دمشق / دار الفكر / هاتف ٢٢١١١٦٦
* قطر : مكتبة ابن القيم / هاتف ٤٨٦٣٥٣٣

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٢).

(٢) سورة النساء، آية (١).

(٣) سورة الأحزاب، آية (٧٠).

أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله على عبده أن هداه إلى صراطه المستقيم، فأراه الحق حقاً ورزقه اتباعه، وأراه الباطل باطلاً ورزقه اجتنابه، وحذّره من مغبة الوقوع في شراك أهل البدع والضلالات والخرافات، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[2].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم من أشد الناس المتمسكين بالشرع والوقوف عند النصوص لأنهم قد عرفوا أن الدين كمل لا يحتاج إلى زيادة وأن أمور الشريعة استبانت ووضحت فلا تحتاج إلى بيان، وإنما الأمر في التسليم والانقياد لأمر الله جل وعلا، فكانوا مثلا يحتذى بالتمسك بالشريعة نصاً وروحا، ولقد وصفهم ابن مسعود رضي الله

(١) سورة الأنعام، آية(١٥٣).

(٢) سورة الأنعام، آية (١٥٩).

عنه بقوله: " خير هذه الأمة أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا "[1].

وكان عصر النبوة الشريفة، عصر صحابة رسول الله ﷺ عصر الطهر والنقاء والصفاء عصر سلامة العقيدة وحسن العمل. وما زال الناس منقادين لهذا الأمر طيلة حياة النبي ﷺ وطيلة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، متبعين الكتاب والسنة لا مبتدعين ولا متكلفين ولا متعنتين، إلا ما كان من حالات فردية يقضى عليها في مهدها من قبل النبي ﷺ وخلفائه، فما تلبث أن تنطفئ كقصة الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا أين نحن من النبي ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء النبي ﷺ فقال: (أنتم قلتم كذا وكذا. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن

(١) شرح السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق وتعليق وتخريج أحاديث شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي – ١٤٠٣هـ) ٢١٤/١.

سنتي فليس مني)[1].

لكن الأمر لم يبق على هذه الحالة بعد هذا العصر، بل بدأ التغير التدريجي في حالة المسلمين إثر اتساع المد الإسلامي في أصقاع المعمورة، وبدأ أصحاب الملل والديانات المنحرفة والأهواء والبدع هجوما شرسا على الأمة الإسلامية في عقيدتها وسلوكياتها بكل ما تحمله من أفكار ومعتقدات فاسدة ومنحرفة، ومن هذه الاتجاهات المنحرفة التي تأثر بها المسلمون "الاتجاه الصوفي" الذي بدأ في الأمة بشكل الزهد والورع، فتدرج الأمر به إلى الاعتقاد الفاسد والقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

والقرن السادس الهجري ليس بدعا من القرون، بل إنه يحتل البداية الفعلية لانتشار الصوفية وطرقها بشكل كبير، في سائر البلاد الإسلامية، واستحكمت بدعها، فقيض الله لدينه من ينافح عنه من علماء الإسلام في ذلك القرن، وطفق يجاهد بقلمه ولسانه حتى وقف

---

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (استانبول: المكتبة الإسلامية) كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ١١٦/٦، وصحيح مسلم أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (استانبول: المكتبة الإسلامية)، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح ١٢٠/٢، رقم الحديث (١٤٠١).

سداً منيعاً وأصبح سهماً مسموماً في نحور هؤلاء المبتدعة في ذلك القرن، ينكر عليهم بدعهم ويبيّن الحق على هدى من الكتاب والسنة.

وكانت أساليب هؤلاء الأعلام الأجلاء متنوّعة في إنكارهم على هؤلاء المبتدعة فمنها تأليف الكتب في الرد على الصوفية المنحرفين وأعلامهم، ومنها الحبس والضرب والهجر والتنفير والقتل وإتلاف مصادرهم المنحرفة، ونقد رموز التصوف والتصريح لهم بالبغض والعداوة والكفر وإصدار الفتاوى الشرعية في هذا الشأن.

وعلى العموم، فإن ردود علماء الإسلام في القرن السادس على أهل الأهواء والبدع ومنهم الصوفية، كانت نابعة من تعاليم هذا الدين لا مجال فيها للأهواء والرأي، بل اتسمت بالاعتدال والتوازن في الأقوال والأفعال مع الإخلاص في ذلك لله تعالى، وكان منهجهم في ذلك الاعتماد على الكتاب والسنة وهما الحكمان اللذان توزن بهما الأعمال فما وافقهما قبل وما خالفهما رد. فكان لتطبيقهم لذلك المنهج أثره الواضح في القرن السادس وعلى من بعده من القرون، فعظم مذهب أهل السنة وعلا وارتفع وقمع مذهب أهل الزيغ والضلال والانحراف وعلى رأسهم المتصوفة.

وأنه من خلال بحثي الذي تقدمت به لكلية أصول الدين بالرياض لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة، لفت نظري تلك

الردود القوية لبعض علماء القرن السادس الهجري ؛ الذين هم في نظر البعض لا ينطبق عليهم وصف السلفية الأمر الذي من شأنه طلب مني استبعاد أقوالهم ؛ رغم أنهم سلكوا منهج السلف في الرد على المخالف. ووفاءً بحق هؤلاء جميعاً وجدت نفسي مؤتمنة لإخراج جهودهم التي جمعتها في الإنكار على بدع الصوفية في كتاب جعلته بعنوان : « **الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية** ».

أسأل الله أن يجعل فيه الخير الوفير، وأن يعم بنفعه عامة المسلمين، إنه سميع مجيب.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

وقد كان إخراج هذا الموضوع المتعلق بهذه الفرقة الضالة مبنياً على أسباب منها :

١- سوء فهم كثير من الناس اليوم لما عليه المتصوفة من البدع حتى ضل البعض نتيجة سوء الفهم والهوى والجهل.

٢- بيان ما عليه المتصوفة اليوم من ضلال وانحراف إنما هو امتداد لأسلافهم على ضوء النصوص الواردة في كتبهم وما نقل عنهم.

٣- النشاط المتزايد لتحقيق مصنفات رموز التصوف وامتلاء المكتبات العامة والخاصة من تراثهم القديم والمنحرف وكذلك النشاط المتزايد من المؤلفين المعاصرين المائلين للتصوف والمعجبين به.

٤- بيان جهود العلماء في الذب عن العقيدة والإنكار على أهل البدع والأهواء عمومًا والصوفية على وجه الخصوص والرد عليهم فكرًا وشخصًا.

٥- فيه ربط الناس بعلمائهم والوقوف على منهجهم في الدعوة إلى الله والإنكار على أهل البدع عامة والصوفية خاصة مما سيعكس هذا البحث إن شاء الله الفائدة المرجوة.

٦- في هذا البحث إن شاء الله كشف وتعرية لانحرافات الفكر الصوفي وتحذير الأمة والأجيال القادمة من أفكار وخزعبلات المتصوفة ،

ومن مغبة الوقوع في شراكها.

٧- احتواء القرن السادس على كوكبة من العلماء الذين حملوا راية الجهاد ضد أهل البدع والانحرافات فكانت العناية بهم والوقوف على مآثرهم في مسائل الاعتقاد تقريرا وردا من أسمى المطالب.

٨- فيه تذكير للمهتمين لإعادة مجد الأمة إلى طريق ربها بالفطنة إلى المنهج، ولزوم طريق السلف الصالح في ذلك ابتعادا عن جر الأمة إلى المضي على سبيل بعض الطوائف التي حادت عن القصد من صوفية وغيرهم، فكان هذا البحث من أجل التنوير والتبصير والتذكير، وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

منهجي في البحث:

إن المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذا الموضوع، هو منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح في الاستدلال وتقرير المسائل، مراعياً في ذلك قواعد البحث العلمي، وهو منهج تاريخي وصفي واستقرائي قائم على تتبع النصوص، ويمكن إبراز هذا المنهج في النقاط التالية:

(١) سورة الذاريات، آية(٥٥).

١- أصحاب هذه الردود في هذا البحث هم الذين وافقوا السلف في الرد على الصوفية ولكنهم ليسوا على منهجهم باطراد[1].

٢- قمت بالاطلاع على كتب التراجم التاريخية وتقصّي جهود العلماء في الرد على الصوفية.

٣- قمت بالاطلاع على مصنفات هؤلاء الأعلام الأجلاّء، وما كتبوه عن أهل الأهواء والبدع وما خصوا به الصوفية ورموزها.

٤- قمت بالاطلاع على كتب التراجم التاريخية الصوفية ومصنفاتهم القديمة والحديثة.

٥- قمت بتقرير المسائل الصوفية من مؤلفاتهم وأقوال أعلامهم أولاً، ثم بيان ردود العلماء في القرن السادس عليهم.

٦- جعلت كتابي« جهود علماء السلف في القرن السادس في الرد على الصوفية » هو الأصل أحيل القارئ غليه في بعض الموضوعات تفادياً للتكرار.

٧- أعقبت ردود العلماء ببعض الآيات والأحاديث والتي تعضد هذه

(١) علماء السلف في هذا القرن قد أفردت ردودهم على الصوفية في كتابي المطبوع تحت عنوان « جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية » الذي هو أصل رسالتي للدكتوراه.

الردود مما له علاقة في الموضوع نفسه.

٨- عزوت الآيات القرآنية في البحث إلى مواضعها من القرآن بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٩- خرّجت الأحاديث النبوية من مظانها في كتب السنة وما كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به غالباً وما لم يكن فيهما عزوته إلى مظانه ما أمكنني ذلك.

١٠- أذكر معلومات المرجع كاملة عند ورود اسمه لأول مرة فقط.

١١- شرحت بعض الكلمات والألفاظ الغامضة.

١٢- عرّفت الفرق والطوائف الواردة في البحث.

١٣- ترجمت للأعلام الوارد ذكرهم في ثنايا البحث ترجمة موجزة ما أمكن ذلك، عدا الصحابة رضوان الله عليهم إلا ما ندر، وتتم الترجمة عند ذكر المترجم له للمرة الأولى، وعندما يتكرر ذكره لا أشير إلى سبق الترجمة تفادياً لكثرة الهوامش.

١٤- ترجمت للأماكن والبلدان الواردة في البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

١٥- اكتفيت بعمل ثبت للمراجع والمصادر في صلب الكتاب في الحواشي السفلية مساهمة في تخفيف حجم الكتاب.

١٦- قمت بعمل فهرس للموضوعات.

خطّة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

فالمقدمة تتضمن ما يلي: أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، ومنهج البحث وخطته.

وأمّا التمهيد فقد اشتمل على التعريف الموجز للصوفية، وبيان نشأة التصوف ومراحل تطوره.

أما الباب الأول: ردود العلماء في القرن السادس على منهج التلقي والاستدلال عند الصوفية، وفيه فصلان:

الفصل الأول: ردودهم على منهج التلقي عند الصوفية.

الفصل الثاني: ردودهم على منهج الاستدلال عند الصوفية.

والباب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على البدع الاعتقادية عند الصوفية، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: ردود العلماء في القرن السادس على عقيدة الحلول ووحدة الوجود والاتحاد عند الصوفية.

الفصل الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على عقيدة الفناء عند الصوفية.

الفصل الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في

العبادات عند الصوفية .

الفصل الرابع: ردود العــلماء في القرن السادس على الغلو في الأولياء عند الصوفية .

والباب الثالث: **ردود العلماء في القرن السادس على البدع في السلوك والأحوال**، وفيه أربعة فصول :

الفصــل الأول: ردود العلماء في القرن السادس علىالبدع في السلوك والأحوال والمقامات عند الصوفية.

الفصل الثاني: ردود العــلماء في القرن السادس على السماع عند الصوفية.

الفصــل الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على اللباس والشعار عند الصوفية.

الفصــل الرابع: ردود العلماء في القرن السادس على الرموز والغموض عند الصوفية.

وأنهيت البحث **بخاتمة** تضمّنت ملخصًا للبحث والتوصيات.

وفي الختام فإنّي أشكر الله سبحانه وتعالى على توفيقه لي لإتمام هذا العمل.

فما كان فيه من صواب وتسديد فهو من توفيقه وفضله ومنته

عليّ، وما كان سوى ذلك فمن نفسي وأستغفر الله، واسأل الله العلي القدير أن ينفع به الإسلام والمسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

والله الموفق

المؤلف

د. محمد بن أحمد الجوير



ويشتمل على :

أولاً: التعريف بالصوفية.

ثانياً: نشأة التصوّف ومراحل تطوّره.

تعريف الصوفية

أولاً : في اللغة :

الصاد والواو والفاء أصلٌ واحد صحيح، وهو الصوف المعروف. والباب كله يرجع إليه. يقال: كبش أصوف وصوفٌ وصائفٌ وصافٌ، كل هذا أن يكون كثير الصوف. ويقولون: أخذ بصوفة قفاه، إذا أخذ بالشعر السائل في نفرته... وأمّا قوله: صاف عن الشرّ، إذا عدل، فهو من باب الإبدال يقال: صاف إذا مال"[1].

الأقوال حول نسبة الصوفية :

تعددت الأقوال حول نسبة الصوفية، واختلف الباحثون حولها. كما اختلف الصوفية أنفسهم في ذلك.

ولعل الراجح هو: النسبة إلى الصوف :

---

(١) مقاييس اللغة ٣/٣٢٢.

انظر: عن ذلك بتوسع كتابنا « جهود علماء السلف في القرن السادس في الرد على الصوفية ».

وممّن نقل هذا عن الصوفية السراج الطوسي[1][2]، والكلاباذي[3][4]، والهجويري[5][6].

ويؤيد هذه النسبة السهروردي[7] بقوله: "كان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا"[8].

---

(١) هو عبدالله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج: زاهد، كان شيخ الصوفية، له كتاب "اللمع في التصوّف"، توفي سنة ٣٧٨هـ (انظر: الأعلام ٤/١٠٤).

(٢) انظر: اللمع في التصوّف. أبي نصر عبدالله السراج الطوسي. تحقيق عبدالحليم محمود. (مصر: دار الكتب الحديثة - ١٣٨٠هـ) ص ٤٠-٤١.

(٣) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الحنفي الكلاباذي، من علماء الصوفية، من أشهر مؤلفاته "التعرف لمذهب أهل التصوف" توفي سنة ٣٨٠هـ (انظر: الموسوعة الصوفية ص ٣٣٨).

(٤) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٧، ٢٨.

(٥) هو أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الغزنوي الجلابي الهجويري، صاحب كتاب "كشف المحجوب، توفي بين سنتي ٤٦٥هـ و ٤٦٩هـ في لاهور. (انظر: الموسوعة الصوفية. د. عبدالمنعم الحنفي ط١ (القاهرة: دار الرشاد - ١٤١٢هـ) ص ٤٠١.

(٦) انظر كشف المحجوب ص ٦٠.

(٧) هو عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد شهاب الدين أبو حفص السهروردي، شيخ الصوفية ببغداد، صاحب كتاب "عوارف المعارف" توفي سنة ٦٣٠هـ (انظر: البداية والنهاية (بيروت: دار الفكر) بدون طبعة وسنة نشره) ١٣/١٣٨.

(٨) عوارف المعارف ص ٦٠.

ثم يذكر أن هذا الاختيار ملائم من حيث الاشتقاق اللغوي، لأنه يقال "تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص"[1].

وممّن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[2] بقوله: "والنسبة في "الصوفية" إلى الصوف لأنه غالب لباس الزهاد"[3].

كما اختار هذا القول ابن خلدون[4] بقوله: قلت: والأظهر إن قيل

---

(١) ن. م ص ٦١.

(٢) هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن الخضر بن محمد الخضر بن علي بن عبدالله ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العبّاس، محدث، حافظ، مفسّر، فقيه، مجتهد، مشارك في شتّى أنواع العلوم، ولد سنة ٦٦١هـ وتوفي سنة ٧٢٨هـ، من مصنّفاته المشهورة "الفتاوي" و"منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" وغيرها كثير جدا.
(انظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة - ١٤١٤هـ) ١/١٦٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٣٦٩.

(٤) هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي الفيلسوف، المؤرخ العالم الاجتماعي، البحّاثه، ولد سنة ٧٣٢هـ بتونس، صاحب المقدّمة المشهورة "مقدمة ابن خلدون" توفي سنة ٨٠٨هـ بالقاهرة (انظر: الأعلام ٣/٣٣٠، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية، فؤاد كامل، وطلال العشري وعبدالرشيد الصادق، وراجعها د. زكي نجيب محمود (بيروت: دار القلم) ص١٤.

بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصّون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس "الصوف"[1][2].

تعريف التصوّف اصطلاحاً:

- تعدّدت الأقوال حول التعريف الاصطلاحي للتصوف عند الصوفية وغيرهم واختلاف الصوفية حول هذا المعنى، لا يقلّ عن اختلافهم الكبير حول أصله في اللغة، إذ احتشدت به كتبهم حتى تجاوز تعريفه المائة عند بعضهم[3] -حسب زعمه-، وزادت تعاريفه عن الألف عند البعض[4]، بل قال بعضهم[5] أنها زهاء الألفين.

ولابن تيمية رأي حول ذلك فهو يقول: "أن الناس تنازعوا في طريقتهم -أي الصوفية- فطائفة ذمت التصوف والصوفية وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم وادّعوا أنهم أفضل

---

(١) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٦٧.

(٢) انظر: بتوسع عن ذلك كتابنا «جهود علماء السلف في القرن السادس في الرد على الصوفية».

(٣) انظر: اللمع ص ٤٧.

(٤) انظر: عوارف المعارف ص ٥٨.

(٥) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوّف ص ٩.

الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، ويرى ابن تيمية رحمه الله أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، ومنهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ويرى ابن تيمية أن من المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة[1].

ويتضّح من هذا النص أن ابن تيمية رحمه الله لم يتجنّ على الصوفية وإنما حكم بأنهم مجتهدون في طاعة الله والمجتهد عرضة للخطأ، وذلك لابتداعهم وخروجهم عن اتباع السنة، كما أنه رحمه الله أوضح صراحة أنه قد انتسب إلى هؤلاء طوائف من أهل البدع والخرافات والزندقة وهؤلاء هم المعنيون في هذا البحث، والذين نحن بصدد بيان جهود العلماء في القرن السادس الهجري في الرد على ضلالاتهم وانحرافاتهم العقدية والسلوكية، ولعل هذا هو الراجح[2].

---

(١) انظر: بتوسع عن التعريف الاصطلاحي للتصوف والاختلاف حوله «كتابنا جهود علماء السلف في القرن السادس في الرد على الصوفية».

(٢) انظر: الفتاوي ١١/١٨، ١٧.

نشأة التصوّف ومراحل تطوّره

نشأة التصوّف ومراحل تطوّره

أولاً: النشأة:

كما اختلف العلماء والباحثون في أصل اشتقاق التصوّف وتعريفه؛ اختلفوا أيضا في تاريخ نشأته وظهوره. هل كان ظهوره قبل الإسلام أم لا؟

ويمكن حصر الآراء التي تناولت هذا الموضوع في رأيين يعدان من أشهرها، وهما:

الرأي الأول: ظهور التصوف قبل الإسلام:

وهؤلاء يرون أن التصوف كان معروفا في الجاهلية قبل الإسلام، وممّن قال بذلك، أبو السراج الطوسي، من الصوفية، والطبري، وابن الجوزي، وهذه أقوالهم.

١- ذهب أبو السراج الطوسي، أن نشأة التصوّف كانت في الجاهلية قبل الإسلام، عندما قال: "وروى عن سفيان الثوري[١]، رحمه الله أنه

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله الكوفي، ثقة، حافظ، فقيه عابد، إمام، حجة، توفي سنة ١٦١هـ، أدرك جماعة من كبار التابعين.
(انظر: تقريب التهذيب ص ٢٤٤، وصفة الصفوة ٣/١٥١).

قال: لو لا أبو هاشم الصوفي[١] ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذكر في الكتاب الذي جمع منه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار[٢] وعن غيره يذكر فيه حديثا: أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف؛ فإن صح ذلك، فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم"[٣].

(١) أبو هاشم الصوفي: هو أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي، أول من تسمى باسم الصوفي من أهل الكوفة، توفي سنة ١٥٠هـ.
يقال أنه من شيوخ النفاق، جبريا في الظاهر، وباطنيا دهريا في الباطن، يقول بالحلول والاتحاد، كان فاسد العقيدة، يسعى بين المسلمين بإثارة الاضطرابات في الإسلام.
(انظر الموسوعة الصوفية د. عبد المنعم الحفني ص ٣٤٢.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار: أبو بكر المطّلبي، المدني، نزيل العراق، إمام المغازي، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، ولد سنة ٨٠هـ، وتوفي سنة ١٥٠هـ وقيل بعدها.
(انظر: تقريب التهذيب ص ٤٦٧، وسير أعلام النبلاء ٧/٣٣-٥٥).

(٣) اللمع ص ٤٢-٤٣.

٢- كما يذهب الإمام الطبري[١] إلى أن التصوّف كان معروفا في الجاهلية وهذا دليله: "وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيزهم إذا انفردوا من منى" إذا كان يوم النحر أتوا لرمي الجمار وأرادوا النحر من منى أخذت صوفه بناحيتي العقبة فحبسوا الناس وقالوا: أجيزي صوفه فلم يجز أحد من الناس حتى ينفروا فإذا نفرت صوفه ومضت خُلي سبيل الناس فانطلقوا بعدهم... قد عرفت ذلك لها العرب وهو دين في أنفسهم من عهد جرهم[٢] وخزاعة[٣]

---

(١) هو محمد بن جرير بن زيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد سنة ٢٢٤هـ في آمد طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي بها سنة ٣١٠هـ. قال الخطيب: كان ابن جرير أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات. من مصنّفاته "تاريخ الطبري" و"جامع البيان في تفسير القرآن".

(انظر: لسان الميزان لابن حجر ط ٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٣٩٠هـ) ٥/١٠٠، والأعلام ٦/٦٩.

(٢) قوم من اليمن نزلوا بمكة، وتزوج منهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهم أصهاره، ثم ألحدوا في الحرم، فأبادهم الله تعالى. (انظر: لسان العرب ٢/٢٦٤).

(٣) قبيلة، سميت بذلك لأنهم انقطعوا عن الأزد لما تفرقت الأزد من اليمن أيام سيل العرم، وأقاموا بمكة، وهم بنو عمرو بن لحي الذي رآه النبي ﷺ يجر قُصبه في النار، وهو الذي غير دين إبراهيم ودعا العرب إلى عبادة الأصنام.

=

وولايتهم"[١].

٣ - وذهب ابن الجوزي[٢] إلى نفس الاتجاه ويؤيد الرواية التي تقول: "كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله عز وجلّ وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم "الصوفية""[٣].

= انظر: اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير الجزري. ضبطه وحقق أصوله، عبداللطيف حسن عبدالرحمن. ط١(بيروت: دار الكتب العلمية - ١٤٢٠هـ) ١/٢٩٧، وكتاب الأنساب، عبدالكريم بن محمد السمعاني، قدم له محمد أحمد حلاق ط١ (بيروت: دار التراث العربي - ١٤١٩هـ) ٢/١٥٤، وقبيلة خزاعة في الجاهلية والإسلام، عبدالقادر فياض حرفوش ط١(دمشق: دار البشائر-١٤١٧هـ) ص٣٩، ٣٧.

(١) تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان) ٢/٢٥٧.

(٢) هو عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، القرشي البكري، البغدادي، الحنبلي، ولد سنة ٥٠٩هـ، أو ٥١٠، وتوفي سنة ٥٩٧، ومن مصنفاته كتاب تلبيس إبليس، وكتاب الموضوعات، وغيرها كثير. كان مضطرباً في باب الصفات. انظر: سير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥، الذيل على طبقات الحنابلة ٣/٣٣٦، البداية والنهاية ١٣/٢٨، شذرات الذهب ٤/٣٢٩، وفيات الأعيان ٣/١٤٠.

(٣) تلبيس إبليس ص٢٠٠.

ويقول: وهم المعروفون بصوفة ولد "الغوث بن مر" وسمي الغوث بن مر "صوفة" لأنه لم يعش لأمه ولد، فنذرت إن عاش لها ولد لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيط الكعبة، فلما رزقت بذلك، فعلت. فقيل له صوفة ولولده من بعده[١].

وفي رواية له أيضا: أن أم هذا الرجل لا تلد إلا إناثا. فقالت لله علي إن ولدت غلاما لأعبِّدنّه للبيت. فولدت الغوث بن مر، فلما ربطته عند البيت أصابه الحر فمرت به وقد سقط واستمرض، فقالت: ما صار ابني إلا صوفة، فسمي صوفة[٢].

الرأي الثاني:

الذين يرون أن هذا الاسم ظهر في عصر الإسلام، ولكن الاختلاف في فترة ظهوره في الإسلام. هل كان في القرن الأول؟ أم في القرن الثاني؟.

وهنا يمكن عرض قولين تناولا ذلك.

(١) انظر: ن.م. ص ٢٠٠، كما ذهب إلى هذا الرأي أحمد الرفاعي الصوفي الذي تنسب إليه الطريقة الرفاعية.

انظر: البرهان المؤيد/ أحمد الرفاعي (القاهرة: الشعب – ١٣٩١هـ) ص ٢٤ بدون رقم الطبعة.

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٠٠.

القول الأول:

زعم أبوالسراج الطوسي من الصوفية في رواية له أن التصوف ظهر في القرن الأول من الهجرة واستدل على قوله بروايتين:

الأولى: قوله: « وأما قول القائل: أنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال؛ لأنه في وقت الحسن البصري[١] -رحمه الله- كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وقد روي عنه أنه قال: رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً يعني من المال فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي »[٢].

الثانية: قال: « روي عن سفيان الثوري -رحمه الله- أنه قال: لولا أبوهاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء »[٣].

القول الثاني:

يرى أصحاب هذا القول أن التصوّف ظهر في عصر الإسلام وفي القرن الثاني من الهجرة واشتهر بعد ذلك، وممّن يرى ذلك:

(١) هو الحسن بن أبيالحسن البصري، واسم أبيه يسار، ثقة، فقيه، فاضل، مشهور، توفي سنة ١١٠هـ وقد قارب التسعين (تقريب التهذيب ص١٦٠).

والدوانيق: جمع دانق، وهو سدس الدرهم. انظر: المعجم الوسيط (١/٢٩٨).

(٢) اللمع ص٤٢.

(٣) ن.م ص٤٢.

١ - القشيري[١] من الصوفية بقوله "... فانفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوّف، واشتهر هذا الاسم -أي التصوف- لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"[٢].

٢ - ابن الجوزي رحمه الله في رواية له راجحة قال فيها: "وهذا الاسم -أي التصوّف- ظهر للقوم قبل سنة مائتين"[٣].

٣ - شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: "في أثناء المائة الثانية صاروا يعبّرون عن ذلك -أي الزهد- بلفظ "الصوف" لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد"[٤].

ويقول رحمه الله عن بداية ظهوره: "أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبدالواحد بن زيد[٥]،

(١) هو عبدالكريم بن هوزان القشيري الصوفي، صاحب كتاب "الرسالة القشيرية" ولد سنة ٣٧٥هـ، من شيوخ الصوفية، مات سنة ٤٦٥هـ (انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/٢٢٧).

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦٣. والطوارق: جمع طارق، وهو الآتي ليلاً أو الحادث. انظر: المعجم الوسيط (٢/٥٥٦).

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٠١.

(٤) الفتاوي ١١/٢٩.

(٥) عبدالواحد بن زيد، الزاهد، القدوة، شيخ العبّاد، أبو عبيدة البصري، قال البخاري =

وعبدالواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية"[١].

وعن اشتهار هذا اللفظ، قال رحمه الله: "أما لفظ "الصوفية" فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلّم به بعد ذلك، وقد نقل عن غير واحد من الأئمة من الشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل[٢] وأبي سليمان الداراني[٣] وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلّم

= عنه: تركوه، وقال النسّائي: متروك الحديث، وقال ابن حبّان: كان ممّن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه، قال عنه الذهبي: عبدالواحد من كبار العبّاد، توفي بعد سنة ١٥٠هـ.
(انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٧/١٧٨).

(١) الفتاوي ١١/٦-٧.

(٢) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المروزي، أبو عبد الله، ولد سنة ١٦٤هـ ببغداد نزيل بغداد أحد الأئمة، حافظ، فقيه، حجة، إمام أهل السنة، امتحن في مسألة القول بخلق القرآن، من مصنّفاته "المسند"، كثيرالأسفار، توفي سنة ٢٤١هـ.
(انظر: تقريب التهذيب ص ٨٤، وسير أعلام النبلاء ١١/١٧٧، والأعلام ١/٢٠٣).

(٣) هو عبد الرحمن بن عطية؛ ويقال عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وهو من أهل "داريا" قرية من قرى دمشق، من أئمة الصوفية، وأعلامهم، مات سنة ٢١٥هـ. =

به، وبعضهم يذكر عن الحسن البصري"[١].

١- ابن خلدون بقوله: "... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالفة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة"[٢].

٢- المستشرقون ومنهم ماسنيون[٣]، ونيكولسون[٤]، اللذين أرجعا نشأة التصوّف إلى حركة الزهد التي ظهرت في القرن الثاني من الهجرة[٥].

= (انظر ترجمته: طبقات الصوفية ص ٢٠، والرسالة القشيرية ص ٧٩، والطبقات الكبرى ١/٧٩-٨٠).

(١) الفتاوي ١١/٥.

(٢) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٦٧.

(٣) لويس ماسنيون، مستشرف فرنسي، تعلم العربية والفارسية والتركية والألمانية والإنجليزية، عني بالتصوّف عناية خاصة، من مؤلفاته فيه: رواية الحلاج، والطواسين للحلاج وغيرها، ولد سنة ١٢٩٢م وتوفي سنة ١٣٨٢م.
(انظر ترجمته: في الأعلام ٥/٢٤٧).

(٤) نيكلسون: هو رينولد ألين نيكولسون، مستشرق إنجليزي، ولد سنة ١٢٨٥م، وتوفي سنة ١٣٦٤م، عالم بالتصوّف، تعلّم في كمبردج، ودرس العربية والفارسية، ودرّسها، من مؤلفاته: دراسات في التصوّف الإسلامي، وفي التصوّف الإسلامي وتاريخه).
(انظر ترجمته: في الأعلام ٣/٣٩).

(٥) انظر دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير: إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي =

ومن خلال ما سبق عرضه يتبيّن أن القول الثاني من الرأي الثاني والذي يذهب أصحابه إلى أن التصوّف ظهر في القرن الثاني من الهجرة هو أعدل الآراء والأقوال وأرجحها في نظري، لقوة استدلال أصحابه وقناعتي بذلك، والله أعلم.

أمّا الذين يحاولون من الصوفية إثبات وجود التصوّف في الجاهلية أو في القرن الأوّل من تاريخ الإسلام؛ إنما ينطلقون من وجهة نظري، من فكرة عامة لدى الصوفية، وهي محاولة ربط جميع أعمالهم وتصرفاتهم وأحوالهم بالدين ربطا وثيقا وهي بطبيعة الحال فكرة خاطئة تحاول صبغ الزهد والورع بالصبغ الصوفي مع الفرق الشاسع بينهما.

لقد فرّق ابن الجوزي بين الزهد والتصوّف، فهو يحترم الزهد، ويذمّ

= ود. عبدالحميد يونس (القاهرة: الشعب) ٩/٣٣٨ "مادة التصوّف"، والتصوّف الإسلامي وتاريخه: رينولد ألين نيكولسون، ترجمة أبو العلاء عفيفي (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٣٦٦هـ) ص ٦٩. وما سنيون ونيكولسون بذلك يخالفان آراء بعض المستشرقين الذين ارجعوا التصوّف إلى أصل هندي أو فارسي أو يوناني.
(انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفاء التفتازاني، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر - ١٩٧٤م) ص ٣٠، ٣٥، ٣٨). والحق أن تلك عوامل مختلفة أحدثت أثرها في التصوّف.

التصوّف. قال رحمه الله: "فالتصوّف مذهب معروف يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمّه أحد، وقد ذمّوا التصوّف"[(١)].

(١) تلبيس إبليس/ عبد الرحمن ابن الجوزي (بيروت: دار الكتب العلمية) بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر
ص ١٦٥.

ثانياً: التطوّر:

كما هو واضح من دراستنا لنشأة التصوّف، والذي كان ظهوره في القرن الثاني الهجري على أعدل الآراء، لكن عند التتبع والاستقراء لتاريخه الطويل، نجده مرّ بمراحل تطوّر خلالها من مرحلة إلى أخرى.

ويمكن تقسيم تاريخ التصوّف إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

وتشمل القرنين الأول والثاني من الهجرة: من المعلوم تاريخيا أن الصدر الأول من تاريخ الإسلام شهد ثورات وفتن وحروب داخلية، كالفتنة التي أودت بحياة الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[(١)]، وما تلاها من حروب واختلافات؛ انقسم المسلمون على إثرها إلى فرق وأحزاب، كان الخلاف بينها، السمة البارزة في تلك الفترة. ولم يكن هذا الخلاف ليبتعد عن الدين، لأن كل فريق من المتنازعين يلجأ إلى نصوص الدين ليؤيد موقفه، إضافة إلى أن حياة المسلمين الاجتماعية في تلك الفترة تغيّرت عما كانت عليه من قبل، فقد فتح المسلمون بلدانا

(١) عندما حاصرت جماعة من البصرة والكوفة ومصر عثمان بن عفّان رضي الله عنه، يطالبونه بالتنحّي عن الخلافة وتسوّروا عليه الجدار وقتلوه يوم الجمعة وهو يقرأ القرآن في بيته بالمدينة سنة ٣٥هـ.
(انظر: أسد الغابة ٥٩٣، ٥٩٤).

كثيرة، وغنموا مغانم كثيرة، فبدأ الثراء الفاحش يظهر في المجتمع الإسلامي مقترنا بحياة البذخ والترف، وظهرت الطبقات الغنية التي انطلقت وراء المتعة الرخيصة، وأسرفت في المجون. كل ذلك كان له أثره البارز في تنمية روح الورع والزهد عند البعض من الصحابة والتابعين الذين آثروا العزلة والابتعاد عن ذلك الجو المشحون بالخلافات والاضطرابات، فدفعهم ذلك إلى الانعزال السياسي، والرغبة عن الدنيا، والانقطاع عن زخرفها، والخلود إلى حياة النسك والزهد والعبادة، واتخاذ أماكن منعزلة عن الناس[1].

ويمكن القول: أن هذه الفترة الزمنية شهدت ظهور عبّاد وزهّاد ونسّاك؛ السمة البارزة فيهم، التمسّك بالمنهج الربّاني، والسير على نهج المصطفى ﷺ، ما عدا بعض المغالاة والتشدد في أمور العبادة، والتي بدرت من البعض -والله أعلم- من غير قصد، ومن هؤلاء على سبيل المثال سعيد بن جبير[2]، الذي

---

(١) انظر: مدخل إلى التصوّف الإسلامي د. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني ص٧٨-٨٢، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطوّرها د. عرفان عبد الحميد فتاح ط١ (بيروت: دار الجيل - ١٤١٣هـ) ص ٥٠، ٤٩.

(٢) سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، ثقة، ثبت، فقيه، قتل بين يدي الحجّاج سنة ٩٥هـ، ولم يكمل الخمسين من عمره.

(انظر: تقريب التهذيب ص ٢٣٤).

بكى حتى عمشت عيناه[1].

وعامر بن عبدالله بن الزبير[2]، الذي كان يواصل الصيام، ويكثر من العبادة حتى قال له والده: يا بني لقد رأيت أبا بكر وعمر ولم يكونا هكذا[3].

وطلْق بن حبيب العنزي[4]، الذي قيل عنه أنه كان لا يركع إذا افتتح سورة "البقرة" حتى يبلغ "العنكبوت" وكان يقول: اشتهي أقوم حتى يشتكي صلبي[5].

وظهر لهذا النوع من الزهد في تلك الحقبة من الزمن، مدارس في المدينة، والبصرة، والكوفة، لها مميزاتها وخصوصياتها وشخصياتها[6].

---

(١) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي ٤٢/٣، والطبقات الكبرى للشعراني ٤٢/١.

(٢) عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو الحارث المدني، ثقة، عابد، مات سنة ١٢١هـ.

(انظر: تقريب التهذيب ص ٢٨٨، وسير أعلام النبلاء ٢١٩/٥).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٢١٩/٥.

(٤) طلْق، بسكون اللام، بن حبيب العنزي، من العلماء العاملين، بصري، صدوق، عابد، رُمي بالإرجاء، مات قبل المائة.

انظر: تقريب التهذيب ص ٢٨٣، وسير أعلام النبلاء ٦٠١/٤).

(٥) انظر: حلية الأولياء ٦٤/٣.

(٦) انظر: التصوّف الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلاء عفيفي. ط ١(مصر: دار المعارف - ١٩٦٣م) ص ٨٦-٨٨، وانظر: التصوّف الإسلامي تاريخه، ومدارسه، وطبيعته وأثره، أحمد توفيق عباد (القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية- ١٩٧٠م) ص ٢٤.

وهكذا لم ينته القرن الثاني حتى شهد نوعا آخر من الزهد، نادى به جمع من خواص المسلمين في البصرة، والكوفة، ومصر، والشام، ونيسابور، عرف هؤلاء بين الناس بالزهّاد والعبّاد، والنسّاك، والبكّائين، والجوعة، والقرّاء، وهذا الزهد انتهى بأصحابه إلى نوع من العبادات فيها تشدد وإسراف وغلو وإفراط، وبرزت كظاهرة اجتماعية منظّمة في صوامع وربط لم يدع الإسلام إليها، ولم يرغّب فيها، وصار مقدمة اتجاه فكري نأى بجانبه عما كان عليه السلف الصالح، ومهّد بدوره إلى بذر بذور التصوّف في تلك الفترة والذي بدأت طلائعه المتمثلة في ظهور الرهبانية والتشدد في العبادة ومخالفة السنة في بعض الأمور[1].

يقول ابن تيمية رحمه الله: "....وظهر أحمد علي الهجيمي[2] في

(١) انظر: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص٥٩، ومقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، د. ناصر عبدالكريم العقل، ط٢ (الرياض – دار الوطن – ١٤١٧هـ) (١/١٢٤-١٢٧).

(٢) أحمد الهجيمي: كان تلميذ شيخ الصوفية في البصرة، عبدالواحد بن زيد، وكان يتكلّم في القدر، وقف داراً بالبصرة للمتعبّدين والمريدين، قال الدار قطني: متروك الحديث، وقال الذهبي: ما كان يدري ما الحديث؛ ولكنه عبدٌ صالح وقع في القدر نعوذ بالله من ترهات الصوفية، توفي سنة ٢٠٠هـ.
(انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٩/٤٠٨).

-البصرة- وبنى دويرة للصوفية؛ هي أول ما بني في الإسلام... ولهؤلاء من التعبّد المحدث طريق يتمسّكون به مع تمسّكهم بغالب التعبّد الشرعي، وصار لهؤلاء حال من السماع والصوت حتى أن أحدهم يموت أو يغشى عليه"[1].

ويقول رحمه الله في موضع آخر: "فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد، وعبدالواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك"[2].

ويمكن القول: أن هذا النوع من الرهبانية والتشدد يمثل مرحلة انتقالية تطوّر فيها هذا النوع من السلوك من طور الزهد إلى طور التصوّف، وأصبحت صورته واضحة جلية عند أمثال:

داود الطائي[3] الذي قال: صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر

(١) الفتاوي ١٠/٣٥٨-٣٥٩.

(٢) ن. م ١١/٦.

(٣) أبو سليمان، داود بن نصير الطائي، الكوفي، أحد الأولياء ثقة، فقيه، زاهد، ولد بعد المائة بسنوات، من كبار أئمة الفقه والرأي، فصيح، عليم بالعربية، مات سنة ١٦٢هـ وقيل سنة ١٦٥هـ.
(انظر: تقريب التهذيب ص ٢٠٠، سير أعلام النبلاء ٧/٤٢٢، حلية الأولياء ٧/٣٤٠).

من الناس فرارك من السبع "(١).

وعبدا لواحد بن زيد (ت١٨٥هـ) الذي صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة(٢).

ورابعة العدوية(٣) التي تعتبر أوّل من تغنى في رياض الصوفية بالحب والعشق الإلهي، ولم يكن ذلك اللون معروفاً من قبل، ومن أقوالها:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا(٤)

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٧٤.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ١/٤٦، وسير أعلام النبلاء ٧/١٧٩.

(٣) رابعة بنت إسماعيل العدوية القيسية، أم الخير، مولاة آل عتيك، الصالحة، المشهورة، كانت من أعيان عصرها، زاهدة، عابدة، ناسكة، تغنت بالشعر، وتكلم فيها أبوداود السجستاني، واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر، توفيت سنة ١٣٥هـ، وقيل سنة ١٨٥هـ، وقبرها بظاهر القدس من شرقية على رأس جبل يسمّى الطور.

(انظر: وفيات الأعيان ٢/٤٨، وسير أعلام النبلاء ٨/٢٤١، والأعلام: ٣/١٠)، والبداية والنهاية (١٠/١٨٦ وما بعدها).

(٤) انظر: أصول التصوّف د. عبد الله حسن زروق ط ١ (القاهرة: مكتبة الزهراء- ١٤١٨هـ) ص ٧١، ومدخل إلى التصوّف الإسلامي ص ١٠٣.

ومما يلاحظ أن بعضا من الصوفية(١)، يحاول إطلاق اسم الصوفية على الزهّاد والعبّاد والمسلمين في العصر الأول من الإسلام، بل يطلق ذلك على الصحابة والتابعين، والحقيقة غير ذلك، فالتصوّف أمر زائد على الزهد، يظهر فيه الغلو والانحرافات، والخرافات الفكرية والسلوكية، وهو مذموم على لسان العلماء، يفهم ذلك من كلام بن الجوزي رحمه الله في قوله: ".. فالتصوّف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمّه أحد وقد ذمّوا التصوّف"(٢).

كما أنكر ابن الجوزي رحمه الله على أبي نعيم الأصفهاني "إضافة التصوف إلى كبار السادات، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومالك والشافعي وأحمد وليس عند هؤلاء القوم خبر من التصوّف"(٣).

---

(١) أمثال السلمي في طبقات الصوفية، والأصفهاني في حلية الأولياء والشعراني في الطبقات الكبرى، والأخير جمع في طبقاته أقوالا منكرة، ولم يستح أن بدأ بالخلفاء الراشدين، ثم نظّم في سلكهم من كان يعمل أعمالا منكرة.

(انظر: ترجمة من سماه بسيده: علي وحشي (ت٩١٧هـ) ص ١٤٩-١٥٠، كنموذج بلغ فيه الانحراف الخلقي مبلغه عند بعض الصوفية.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٠٤.

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي، ص ٢٥.

ثمّ قال رحمه الله تعالى: "فإن قال قائل: إنما عني به الزهد في الدنيا، وهؤلاء زهاد، قلنا: التصوّف مذهب معروف عند الصحابة، لا يقتصر فيه على الزهد، بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه، ولو لا أنه أمر زيد على الزهد ما نقل عن بعض هؤلاء المذكورين ذمّه"[(١)].

بل أن أئمة الصوفية -أنفسهم- يرون أن التصوف أمر مغاير للزهد والعبادة، وفي هذا يقول السهروردي: " التصوّف غير الزهد، فالتصوّف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد، مع مزيد أوصاف وإضافات، لا يكون بدونها الرجل صوفياً، وإن كان زاهداً"[(٢)].

هذه هي المرحلة الأولى للتصوّف، والتي تعدّ بمثابة البذرة الأولى لظهوره، حيث بدأ زهدا وعبادة ونسكا، ثم بدأت المغالاة والتجاوزات والتشدد في أنماط العبادة والسلوك، مما مهّد لتجاوزات وانحرافات أكثر فأكثر، وهي ما سيتم تناوله في المرحلة الثانية للتصوّف.

المرحلة الثانية:

وتشمل القرون الثالث والرابع والخامس من الهجرة.

---

(١) ن. م ص ٢٥.

(٢) عوارف المعارف ص ٥٥.

لاشك أن هذه المرحلة هي امتداد لأفكار المرحلة الأولى، ولكنها تتميّز عنها بأنها أخذت منحىً آخر، عني فيه المتصوفة عناية شديدة، بالدراسة والبحث، حيث اتجهت أفكارهم إلى التعمّق في النفس بكشف أسرارها، والكلام عن معاني لم تكن معروفة من قبل، كالمقامات والأحوال، والعشق والشوق، والخوف والرجاء، والحب والوجد، والغيبة والحضور، والفناء والبقاء[(١)]، وعظمت الشطحات الصوفية، وأحوال البدعة مثل السماع، والتفريق بين الشريعة والحقيقة، ودعاوي العلم اللدنّي، والتلقي من غير الشرع، واختلط التصوّف بالفلسفة، واستعملت لغة الرموز والغموض، وظهرت مصطلحات تمهد لظهور الطرق مثل قول بعضهم علمنا، مذهبنا، طريقتنا، وأصولنا أو القوم.. إلخ[(٢)].

يقول الجنيد (ت٢٩٧هـ): "علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ "[(٣)].

---

(١) سوف يتم التعريف بتلك المصطلحات في الفصول الخاصة بها إن شاء الله.

(٢) انظر: مدخل إلى التصوّف الإسلامي ص ١١١-١١٢، مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ١٢٦/١، وفي الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د. إبراهيم مدكور، (القاهرة: دار المعارف) ٦٨/٢، وكتاب الأربعين في شيوخ الصوفية. أحمد بن محمد الماليني، تقديم وتحقيق وتعليق د. عامر حسن صبري ط١ (بيروت: دار البشائر الإسلامية – ١٤١٧هـ) ص ١٧.

(٣) كتاب الأربعين في شيوخ الصوفية ، ص١٧ .

ويقول أيضا : "مذهبنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة"[1].

ويقول سهل التستري (ت٢٨٣هـ) أصولنا سبعة : التمسّك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله ﷺ وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق[2].

وفي هذه المرحلة أخذ المتصوّفة يصنفون الكتب في التصوّف محاذاة لكتب الفقهاء من أهل السنة ، فصنّفت الكتب التي تحمل أخبار الزهد والزهّاد ، ويتكلّم أصحابها عن الخطرات والوساوس ، وخلطت التصوّف بالحديث والكلام. ومن أشهر هذه الكتب "قوت القلوب" لأبي طالب المكّي (ت ٣٨٦هـ) ، و"حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني[3] (ت٤٣٠هـ) ، وتكلّم الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) في الخواطر والوساوس ، وقد أنكر عليه الإمام أحمد بن حنبل ذلك إنكارا شديداً ، ونهى عن الإطّلاع على كتبه ، كما صنّف لهم عبدالرحمن

(١) كتاب الأربعين في شيوخ الصوفية ص ١٧.

(٢) طبقات الصوفية ص٤٩ .

(٣) هو أبو نعيم احمد بن عبدالله الأصفهاني ، صاحب الحلية ، ولد سنة ٣٣٦هـ ، وتوفي بأصفهان سنة ٤٣٠هـ.
(انظر ترجمته في الطبقات الكبرى. عبد الوهاب بن أحمد المعروف بالشعراني ط١ (بيروت : دار الجيل –١٤٠٨هـ) ١/ ٦٥.

السلمي (ت ٤١٢هـ) في التفسير والحديث والسنن والزهد[1].

وكان لهذا الاتجاه الفكري الصوفي آثاره التي جعلته يعيش مرحلة انتقالية ، حيث كانت سابق عهده لا يبتعد كثيراً عن العبادة والزهد والسلوك ، وتتلقى علومه من صدور الرجال ؛ إلاّ أنه في هذه المرحلة أصبح علماً مدوّناً اكتملت له كل مقدّماته.

يقول ابن خلدون : "فلما كتبت العلوم ودوّنت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة -التصوّف- في طريقتهم. فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس عن الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء فدوّن فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بيّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم ، وصار علم التصوّف في الملة علما مدوّناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط"[2].

(١) انظر : طبقات الصوفية ص ٤ ، وظهر الإسلام. أحمد أمين ط ٣(بيروت : دار الكتاب العربي) ١/ ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، والصوفية نشأتها وتطوّرها. محمد العبدة وطارق عبد الحليم ط٣ (بريطانيا : دار الأرقم –١٤١٤هـ) ص ٢٨. وكتاب الأربعين في شيوخ الصوفية ص١٧.

(٢) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٦٩.

ويقول أبو العلاء عفيفي: "دخل التصوّف بعد ذلك -أي بعد أن كان زهداً- في دور جديد هو دور المواجد والكشف والأذواق، ويقع هذا الدور في القرنين الثالث والرابع اللذين يمثّلان العصر الذهبي للتصوّف الإسلامي[1] في أرقى وأصفى مراتبه"[2].

وشهدت هذه الفترة الزمنية بزوغ فجر الطرق الصوفية في صورتها الأولى كالملامتية[3]، والطيفورية[4]، والخرازية[5]، والنورية[6]، والحلاجية[7][8]، التي أصبحت نواة فيما بعد لظهور الطرق الأكثر

(١) في الحقيقة ليس هناك تصوّف إسلامي، وإنما الدين عند الله الإسلام، قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَم) سورة آل عمران آية رقم (١٩).
وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة آل عمران آية رقم(٨٥).

(٢) التصوّف، الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلاء عفيفي ص ٩٢.

(٣) الملامتية: نسبة إلى لوم النفس، ويطلق عليها القصارية نسبة إلى حمدون القصار (ت٢٧١هـ).

(٤) الطيفورية: نسبة إلى أبي يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ).

(٥) الخرازية: نسبة إلى أبي سعيد الخراز (ت٢٧٧هـ).

(٦) النورية: نسبة إلى أبي الحسين النوري (ت ٢٩٥هـ).

(٧) الحلاجية: نسبة إلى الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ).

(٨) انظر ما سبق: مدخل إلى التصوّف الإسلامي ص ١٢٨، والتصوّف الإسلامي وتاريخه ص ٢٠.

فاعلية وتنظيما وانتشاراً، ويزعم أصحابها أنها تقدم منهجاً إرشادياً للنفس والخلق من خلال تربية الشيخ لمريده. وهي في الحقيقة تقدم الضلالات والانحرافات، يروى عن أبي علي الدقّاق[1] قوله: "الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنه تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفساً فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً"[2].

وفي هذه المرحلة، وفي نهاية القرن الثالث الهجري، وقع المتصوّفة بمشكلة المصطلحات الغامضة المبهمة، التي يستطيع كل متصوّف تفسيرها بما يروق له، وهي مصطلحات تعبّر عنها ألفاظ وكلمات وتراكيب، ولها معان خاصة غير ما يدلّ عليه ظاهرها، ومن هذه المصطلحات على سبيل المثال:

الغيبة والحضور[3]، والسكر والصحو[4]، والجمع والفرق[5]،

(١) الدقّاق: هو أبو علي الحسن بن علي الدقّاق النيسابوري، شيخ الصوفية، برع في الأصول والفقه والعربية، توفي سنة ٤٠٦هـ.
(انظر ترجمته: في شذرات الذهب ٣/١٨٠-١٨١).

(٢) الرسالة القشيرية: ص ٥٧٢.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية ص ١٣٣.

(٤) انظر: اللمع ص ٤١٦، والتعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٣٨، والرسالة القشيرية ص ١٣٤.

(٥) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية. عبد الرزّاق الكاشاني. ص ٤١، والرسالة =

والفناء والبقاء[1].

هذا غيض من فيض، مما تناولته أقلام الصوفية، وانفردوا به دون غيرهم، يقول الكلاباذي:

"إن للقوم عبارات انفردوا بها، واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم"[2].

ويقول القشيري: اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمّن سواهم، تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها. وهذه الطائفة -أي الصوفية- يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجماع والستر على ما بينهم في طريقهم لتكون معاني ألفاظهم مشتبهة على الأجانب غيرة فيهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلّف أو مجلوبة بضرب تصرّف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم"[3].

= القشيرية ص ١٢٦.

(١) انظر: عوارف المعارف ص ٤٧٠، والرسالة القشيرية ص ١٢٨.

(٢) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١١١.

(٣) الرسالة القشيرية ص ١١٧.

وممّن تكلّم بهذه المصطلحات الرمزية الغامضة:

أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ)، وأبو سعيد الخراز[1] (ت٢٧٦هـ)، والنوري[2] (ت٢٩٥)، وأبو حمزة الصوفي[3] (ت٣٠٩هـ) وغيرهم[4].

ولم تنته هذه الفترة الزمنية؛ إلاّ وكانت كلمة الصوفية عامّة في جميع الأصقاع الإسلامية.

---

(١) الخراز: هو أبو سعيد الخراز، واسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد ومن أئمة الصوفية، توفي سنة ٢٧٩هـ.

(انظر: طبقات الصوفية ص ٢٧٩، والطبقات الكبرى ١/٩٢).

(٢) النوري: هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، ولد ونشأ ببغداد، وأصله من خراسان، ويعرف بابن البغوي نسبة إلى قرية "بغشور" وهي بلدة بين هراة ومرو الروذ، وهو من أقران الجنيد، توفي سنة ٢٩٥هـ.

(انظر: طبقات الصوفية ٣٨-٣٩، والرسالة القشيرية ص ٨٨، والطبقات الكبرى ٨٧/١).

(٣) أبو حمزة الخراساني: أصله من نيسابور من محلة "ملقاباذ" صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد، توفي سنة ٣٠٩هـ.

(انظر: الطبقات الكبرى ١٠٣/١).

(٤) لقد وقف الفقهاء في وجه هؤلاء، ورموهم بالزندقة، والحلولية.

(انظر: اللمع ص ٤٧٢، ٤٩٢، ٤٩٥، ٤٩٧ وما بعدها).

ومن المؤكد قولا أن القرنين الثالث والرابع من الهجرة، يمثلان العصر الذهبي للتصوّف في أرقى وأصفى مراتبه، وهذا واضح من خلال ظهور الطرق، وكثرة التصانيف التي أصبح لها تأثير في أجيال التصوّف في القرون التالية، كما هي الحال بالنسبة للقرن الخامس الهجري، الذي يعتبر امتداداً لأفكار القرون السابقة عليه، والتي راجت من خلال مصنّفات أبو عبدالرحمن السلمي[1] (ت٤١٢هـ) والقشيري (ت ٤٦٥هـ)، حتى أخذ التصوّف مكانه عند من حسبوا على أهل السنّة أمثال الهروي[2] (ت٤٨١هـ)، والغزالي (ت٥٠٥هـ).

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي: هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي، السلمي، النيسابوري، ولد سنة ٣٢٥هـ، قال الذهبي: "..شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم، وطبقتهم، وتفسيرهم، قيل: كان يصنع الأحاديث للصوفية" توفي سنة ٤١٢هـ.

(انظر ترجمته: في سير أعلام النبلاء ١٧/٢٤٧-٢٥٥، الأعلام ٦/٩٩).

(٢) الهروي: عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو إسماعيل، شيخ خراسان في عصره، ولد سنة ٣٩٦هـ من كبار الحنابلة، من ذرية أبي أيّوب الأنصاري، إمام، وقدوة، بارعاً في اللغة، حافظا للحديث، مظهراً للسنة، داعياً إليها، من مصنّفاته: "منازل السائرين" توفي سنة ٤٨١هـ.

(انظر ترجمته: في سير أعلام النبلاء ١٨/٥٠٣، والأعلام ٤/١٢٢).

ومن أشهر رموز التصوّف في هذه المرحلة الخطيرة:

الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ)، وذو النون[1] المصري (ت٢٤١هـ)، وأبو يزيد البسطامي (ت ٢٦٠هـ)، والجنيد[2] (ت ٢٩٨هـ)، والحلاج (ت ٣٠٩هـ)، وأبو طالب المكّي (ت ٣٨٦هـ)، وعبدالرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) وأبو نعيم الأصفهاني (ت٤٣٠هـ)، وعلي الهجويري (ت ٤٧٠هـ) وغيرهم.

وكذلك الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي تزعّم مدرسة الكشف في هذه الحقبة من الزمن[3].

---

(١) أبو الفيض ذو النون المصري. اسمه ثوبان بن إبراهيم، توفي سنة ٢٤٥هـ (انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص ١٠، والطبقات الكبرى. عبدالوهاب الشعراني ط١ (بيروت: دار الجيل – ١٤٠٨هـ) ١/٧٠.

(٢) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، توفي سنة ٢٦٧هـ (انظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦).

(٣) انظر: التصوّف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ص ٢٧، ٢٥، كما كان للتصوّف في القرن الثالث مدارس في بغداد ومؤسسها أبو الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)، وفي مصر والشام ومؤسسها ذو النون المصري (ت ٢٤٥هـ)، وفي نيسابور ومؤسسها حمدون القصار (ت٢٧١).

(انظر: التصوّف الثورة الروحية في الإسلام أبو العلاء عفيفي ص ٩٤، ٩٨، ١٠١).

المرحلة الثالثة:

وتشمل القرون السادس والسابع وما بعدها:

سبق الإشارة إلى أن المرحلة الأولى كان يغلب عليها الزهد، ولم يخرج عن هذا المفهوم، إلا بعض التجاوزات، كما أن المرحلة الثانية أصبحت مرحلة تدوين وحفظ لمقوّمات التصوّف، ولكن في المرحلة الثالثة، نجد أن التصوّف نحى فيها منحاً خطيراً، وذلك عندما مزج أفكاره بالفكر الفلسفي، وعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنها، مصطلحات فلسفية.

يقول ابن خلدون: "عني الصوفية أشد عناية بالأبحاث العقلية وبالمجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجد والكشف والتصرّفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات والرموز والمصطلحات التي يكتنفها الغموض"[١].

وفي هذه المرحلة، وبالأخص في القرن السادس الهجري، كانت البداية الفعلية للطرق الصوفية الأكثر تنظيما وانتشارا، حيث ظهرت الطريقة القادرية[٢]، والطريقة الرفاعية[٣]، والطريقة السهروردية[٤]،

(١) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٧٣-٤٧٤ "بتصرّف".

(٢) القادرية: نسبة لعبد القار الجيلاني (ت٥٦١هـ).

(٣) الرفاعية: نسبة لأبي العباس أحمد بن أبي الحسن الرفاعي (ت٥٤٠هـ).

(٤) السهروردية: نسبة إلى شهاب الدين أبو الفتح محي الدين السهروردي المقتول (ت ٥٨٧هـ).

ثم تتابعت الطرق ونشطت في العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري نشاطا ملحوظا في الشرق والمغرب، ففي المغرب ظهرت الطريقة الشاذلية[١]، والطريقة الأحمدية[٢]، والطريقة البرهامية[٣]، وظهرت في فارس الطريقة الكبراوية[٤]، وظهرت الطريقة الششتية[٥] في وسط آسيا والتي كان لها تأثير كبير في الهند، وظهرت في القرن الثامن الهجري الطريقة النقشبندية[٦]، والطريقة البكتاشية[٧]، ثم ظهرت فيما بعد الطريقة التجانية[٨] المشهورة، وتفرعت بعد ذلك بعض الطرق إلى طرق فرعية، سادت العالم الإسلامي، وانتشرت في أرجائه، وقد كانت هذه الطرق في بداياتها متمسّكة بظاهر الشرع ملتزمة لتعاليمه ولكن سرعان ما تسرّبت كثير من الأفكار الفلسفية، والنظريات الغنوصية[٩] إلى دوائر

(١) الشاذلية: نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ).

(٢) الأحمدية: أسّسها أحمد البدوي (ت ٦٧٥هـ).

(٣) البرهامية: أسّسها إبراهيم الدسوقي (ت ٦٧٦هـ).

(٤) الكبراوية: نسبة إلى نجم الدين كبرى (ت ٦١٨هـ).

(٥) الششتية: أسّسها معين الدين حسن ششتي (ت ٦٣٣هـ).

(٦) النقشبندية: أسّسها بهاء الدين محمد بن محمد النجاري المعروف بشاه نقشبند (ت ٧٩١).

(٧) البكتاشية: أسّسها حاج بكتاش (ت ٧٣٨هـ).

(٨) التجانية: نسبة إلى أحمد التجاني (ت ١٢٣٠هـ).

(٩) الغنوصية: غنوص في أساسه معرفة أشياء دينية تسمو على مستوى عامة المؤمنين، ثم تحول الغنوص إلى المعتقدات السرية والخفية، بل الملحدة أحياناً، والغنوصية: مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفة والدين، ويقوم على أساس فكرة

=

هذه الطرق، وأصبحت تتردد في أشعارهم ومدائحهم، وأذكارهم كثير من البدع في العبادات والمنكرات في العقائد،

واستغلّ بعض أتباع تلك الطرق ممارسات فيها نوع من الدجل والشعوذة، وسادت في أوساطهم كثير من الخرافات والأباطيل[1].

وكان لكثير من هذه الطرق الصوفية[2] دورها الفعال في التأثير على مريديها بما تمثّله من مجالس عهر وفجور أكثر منه مجالس ذكر وعبادة، فيها أطرب الأصوات وألطف الرقص، وأغرى الأشعار الغرامية، وهي بلا شك تمثّل خطراً على الأمة لهذه الممارسات التي تجري داخلها، والخارجة عن تعاليم الإسلام، لما تمثله من انحرافات وخرافات استغلها المستعمرون، فقاموا

= الصدور، ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض.

انظر: المعجم الفلسفي/ إعداد مجمّع اللغة العربية (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – ١٣٩٩هـ) ص ١٣٣.

(١) انظر: مدخل إلى التصوّف الإسلامي ص ٢٨٦-٢٩٨. وطائفة الختمية. أصولها التاريخية وأهم تعاليمها د. أحمد محمد جلي ط ١(بيروت: دار خضر للطباعة والنشر - ١٤١٢هـ) ص ٩.

(٢) لفظ الطريقة الصوفية تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى أحد مشايخ الصوفية المشهورين الذي زعم لنفسه الترقي في ميادين التصوف ويدعي لنفسه رتبة من مراتب الأولياء عند الصوفية، ولهذه الطرق أذكار وأوراد خاصة بهم مبتدعة، ويخضعون لنظام معين في السلوك.

بتغذيتها ودعمها لتحقيق مآربهم التي ينشدونها من تمزيق وتفريق لوحدة المسلمين. ولطالما كان من بعض أهل هذه الطرق مطية لرجال السياسة يستخدمونهم في فتنة العامة، ليوطدوا لهم أسباب الملك والغلبة[1].

ومن أبرز ملامح هذه المرحلة وخاصة في القرن السابع الهجري، تلك الانحرافات والكفريات التي نادى بها أصحابها مثل: القول بوحدة الوجود، والاتحاد، والوحدة المطلقة، لذا فلا غرو أن اعتبر هذا القرن هو قمة الانحراف الصوفي، فقد برز منه رجال أشبه ما يكونون بالفلاسفة كالسهروردي المقتول صاحب حكمة الإشراق[2].

(١) انظر: الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي. ط٣(القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٦٨م) ٣٥/٢

(٢) الإشراق الفلسفي الصوفي هو عين الإشراق الفلسفي عند فلاسفة اليونان أمثال: سقراط وأفلاطون وأفلوطين، وغيرهم من الهنود والفرس، والذي يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة إلى مرحلة الكشف والإخبار عن المغيبات – هكذا يزعمون باطلا- والإشراقية مذهب حركي عقلي، وهذا المذهب يمكن أن يعد استمرارا لنظرية العقول العشرة "نظرية الفيض".

انظر: أضواء على التصوّف د. طلعت غنام (القاهرة: عالم الكتب) ص ٣٠، وأصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي. د. محمد علي أبو ريان (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية) ص ٢٠٠.

وابن عربي، الذي اكتملت على يده فكرة وحدة الوجود[(١)] ... وابن سبعين[(٢)] صاحب فكرة الوحدة المطلقة[(٣)]، وتابعهم جماعة من شعراء الفرس أمثال: فريد الدين العطّار[(٤)]، ... وجلال الدين

(١) وحدة الوجود أصبحت مدرسة من مدراس التصوّف في هذه الفترة الزمنية. (انظر: التصوّف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ص ٢٧، ٢٩).

(٢) ابن سبعين: هو أبو محمد عبدا لحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد الإشبيلي المرسي الرقوطي الأصل، الصوفي المشهور، ولد سنة ٦١٣هـ بالأندلس وتوفي سنة ٦٦٧هـ بمكة وقيل ٦٦٩هـ منتحرا بقطع شرايين يده، وهو من فلاسفة الصوفية وملاحدتهم. (انظر ترجمته: في طبقات الشعراني ١/٢٠٣، وشذرات الذهب ٥/٣٢٩).

(٣) الوحدة المطلقة: تعني عند الصوفية أن جميع مخلوقاته هي عينه، فهو عين ما ظهر، وعين ما بطن.

(انظر: مصرع التصوف، برهان الدين البقاعي، تحقيق وتعليق عبدالرحمن الوكيل، طبع على نفقة أحد المحسنين، تحت إشراف رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء — الرياض — ١٤١٥هـ، ص٦٤).

(٤) فريد الدين العطار: أبو حامد محمد بن أبي بكر إبراهيم، فريد الدين العطّار، ولد سنة ٥١٣هـ في "كادكر" إحدى قرى نيسابور، وكان أبوه عطّارا، فاشتغل بصناعة والده، مات العطّار مذبوحا على يد المغول سنة ٦٢٧هـ وقيل سنة ٦٠٦هـ وقيل سنة ٦١٧هـ، وقبره مزار عظيم، من مصنّفاته: "تذكرة الأولياء" و"منطق الطير". (انظر: الموسوعة الصوفية د. عبد المنعم الحفني ص ٢٩٧، والصوفية في الإسلام. نيكلسون. ترجمة وتعليق نور الدين شريبة (مصر: مكتبة الخانجي — ١٣٧١هـ) ص ٣٥ هامش (٣).

الرومي[(١)]، ... وابن الفارض[(٢)] الذي يحلو للبعض أن يطلق عليه "سلطان العاشقين والكل من هؤلاء يرمي إلى أن يقيم التصوف على دعائم فلسفية، فاختلط التصوّف بالفلسفة اختلاطا كبيراً[(٣)].

لذا اعتبرت هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوّف.

(١) جلال الدين الرومي: هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي القونوي الرومي جلال الدين، إليه تنسب الطريقة المولوية، ولد في بلخ من بلاد فارس سنة ٦٠٤هـ وانتقل مع أبيه إلى بغداد في الرابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصرية، له رحلات حتى استقرّ به المقام في قونية سنة ٦٢٣هـ، تصوّف سنة ٦٤٢هـ فشغل في الرياضة وسماع الموسيقى، ونظم الأشعار، توفي سنة ٦٧٢هـ. (انظر ترجمته: في الأعلام ٧/٣٠).

(٢) ابن الفارض: هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار ولوفاة، المعروف بابن الفارض، ولد سنة ٥٧٦هـ، وهو أشعر المتصوّفين، ويلقّب بسلطان العاشقين، ذهب إلى مكة، واعتزل بواد فيها، وعاد إلى مصر بعد ١٥ عاما، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر، وقصده الناس للزيارة، توفي سنة ٦٣٢هـ بالقاهرة.

(انظر ترجمته: وفيات الأعيان ٣/١٢٦-١٢٧، وشذرات الذهب ٥/١٤٩-١٥٣، والأعلام ٥/٥٥-٥٦).

(٣) انظر: الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ٢/٦٩، والصوفية نشأتها وتطوّرها محمد العبدة وطارق عبد الحليم ص ٢٤.

أمّا القرون التالية، فما هي إلا تفريعات، وشروح لكتب أشهر رموز التصوّف.

ففي القرن الثامن مثلا نرى الكاشاني يشرح كتاب "فصوص الحكم" لابن عربي وكتاب "الغاية الكبرى" لابن الفارض دون أن يأتي بجديد.

كما ازداد الاهتمام في تراجم أعلام التصوّف، ومن أشهرها "الطبقات الكبرى" للشعراني (ت ٩٧٣هـ)، ثم اختلط الأمر على الصوفية فيما بعد، وانتشرت الفوضى بينهم، وبدأت مرحلة الدراويش[١]، وظهرت ألقاب شيخ السجادة، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية، والخليفة، وعمّت الفوضى بين الشيوخ والمريدين، واستحال التصوّف في بعض مظاهره شيئا من الشعوذة والدجل[٢]، وخير وصف للتصوّف في هذه الفترة ما قاله أحمد أمين: "انقلبت بعد ذلك الصوفية إلى دروشة، وانحط التصوّف كثيرا حتى قال بعضهم: "كان التصوّف حالاً فصار مالاً، وكان احتسابا فصار اكتساباً، وكان استتاراً فصار اشتهاراً، وكان اتباعا للسلف فصار ابتياعاً للعلف، وكان عمارة

(١) الدراويش: جمع درويش، وهو بالفارسية الفقير والمسكين، وعند الصوفية الزاهد، الجوال. انظر: المعجم الوسيط (١/٢٨٠).

(٢) انظر: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ١/٢٦٤. والتصوّف الإسلامي: مفهومه وتطوّره، ومكانته من الدين والحياة د. حسن عاصي. ط١ (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٤١٤هـ) ص ٧٣.

للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تعففاً فصار تكلفاً، وكان تخلّقا فصار تملّقاً، وكان سقماً فصار لقماً، وكان قناعة فصار فجاعة، و كان تجريدا فصار ثريدا" وكثرت التكايا والزوايا والطرق، ومنها كان الشيوخ هم سلطة كبيرة على المريدين يأمرونهم أن يكونوا كالريشة في مهب الريح، وكان لكل نوع من هذه الطرق أذكار وأوراد، وامتزجت هذه الطرق بالشعوذة والاحتيال"[١].

ومن أشهر رموز التصوّف في هذه المرحلة إضافة إلى ما ذكر: عدي بن مسافر[٢] (ت ٥٥٧هـ)، وأحمد الرفاعي[٣] (٥٧٨هـ)، ونجم الدين

(١) ظهر الإسلام. أحمد أمين، ٤/٢٣٠-٢٣١.

(٢) عدي بن مسافر بن إسماعيل الشامي ثم الهكاري، الزاهد، شرف الدين: أبوالفضل، من شيوخ الصوفية، تنسب إليه الطائفة العدوية، غلافية اليزيديون، وقد قالوا: "أن زيارة قبره أفضل من الحج وزيارة القدس ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٥٥٧هـ، وقيل ٥٥٥هـ، عاش تسعين سنة. (انظر ترجمته: في الطبقات الكبرى ١/١٣٧، وشذرات الذهب ٤/١٧٩-١٨٠، ووفيات الأعيان ٢/٤١٧-٤١٨).

(٣) الرفاعي: هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية مغربي الأصل ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق تفقه وتصوّف، فانضم إليه خلق كثير من الفقراء، كانوا يعتقدون به، وكان يسكن قرية أم عبيده بالبطائح بين واسط والبصرة، وتوفي بها سنة ٥٧٧هـ، وقبره محط الرحال لسالكي طريقته.

الكبرى[1] (ت ٦١٨هـ)، وأحمد البدوي[2] (ت ٦٧٥هـ) والدسوقي[3] (ت٦٧٦هـ)، والنقشبندي[4] (ت ٧٩١هـ)،

= (انظر ترجمته: الطبقات الكبرى ١٤٠/١، سير أعلام النبلاء ٧٧/٢١، الأعلام ١٧٤/١).

(١) نجم الدين الكبرى: أبو الجناب أحمد عمر الخيوقي الخوارزمي الملقب "بالطاقة الكبرى" ولقبه الآخر "الشيخ ولي تراشط" وهو مؤسس سلسلة الكبروية، مات سنة ٦١٨هـ، وهو من كبار صوفية القرن السادس وأوائل القرن السابع، وقد ترك مصنّفات كثيرة، وتثقّف على يده جماعة من كبار الصوفية. (انظر: تاريخ التصوّف في الإسلام. د. قاسم غني، ص ٦٩٣.

(٢) البدوي: أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي ولد بمدينة فاس بالمغرب، وانتقل إلى طنطا بأرض مصر، وبها توفي سنة ٦٧٥هـ، وقبره فيها تشد إليه الرحال يوم مولده، وتنسب إليه الطريقة الأحمدية. (انظر ترجمته: في الطبقات الكبرى ١٨٣/١، والأعلام ١٧٥/١).

(٣) الدسوقي: إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد الدسوقي، من كبار المتصوفين، من أهل دسوق (بغربية مصر) ولد سنة ٦٣٣هـ تفقّه أول أمره على المذهب الشافعي، ثم تصوّف وتشيّخ وكثر مريدوه، له شعر ينحو فيه منحى ابن الفارض في وحدة الوجود، توفي سنة ٦٧٦هـ. (انظر ترجمته: في الطبقات الكبرى ١٦٥/١، والأعلام ٥٩/١).

(٤) النقشبندي: محمد بهاء الدين الشاه نقشبندي الأوسي النجاري ولد سنة ٧١٧هـ في قصر العارفان، قرية من قرى بخارى، تلقى علوم الطريقة من شيخه: محمد بابا السماسي، حكيت عنه كرامات، وذكرت عنه أحوال عجيبة، توفي سنة ٧٩١هـ وله ٧٤ عاماً، ودفن في بستانه الذي أمر به، وبني على قبره قبة عظيمة ويستغيث به أتباعه حتى اليوم.

=

والتجاني[1] (١٢٣٠هـ) وغيرهم.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن نبتة التصوّف لم تكن إسلامية، بل هي نتيجة مؤثّرات خارجية جرّاء احتكاك المسلمين مع الثقافات الأجنبية الأخرى إبّان الفتوحات الإسلامية، وترجمة كتب اليونان الفلسفية، وجلبها للديار الإسلامية.

ومن أهمّ مصادر هذه المؤثرات:

المصدر اليهودي.

المصدر النصراني.

المصدر الهندي.

= (انظر ترجمته: في كتاب المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية، محمد أمين الكردي. ط١ (مصر: مطبعة السعادة –١٣٢٩هـ) ص ١٠٨، ١٤٢).

(١) التجاني: أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم التجاني المضاري، شيخ الطريقة التجانية بالمغرب، ولد سنة ١١٥٠هـ بقرية "عين ماضي" بالجزائر، وتوفي سنة ١٢٣٠هـ، وتعتبر التجانية من أكفر الطرق الصوفية؛ لما تعتقده من اعتقادات فاسدة، كتفضيل وردهم المسمى "صلاة الفاتح لما أغلق" على القرآن ستة آلاف مرة، واعتقادهم أن الولاية ختمت بشيخهم أحمد التجاني. (انظر: ترجمته في الأعلام ٢٤٥/١، والتجانية. علي بن محمد الدخيل الله (الرياض: دار طيبة) ص ١١٦، ٤٠، ١٩٩).

المصدر اليوناني.

والمصدر الفارسي[(١)].

---

(١) وفي تحقيق لمجلة الهلال المصرية " فإن التصوّف في حقيقته خرج من أفكار ومعتقدات مجوسية، وبوذية، ومسيحية، ويهودية، ويونانية وهذه حقيقة يعترف بها المستشرقون الذين درسوا هذا النوع من التصوّف الإسلامي، فهذا "فون كريمر" يقول: إن في التصوّف عنصرين مختلفين أولهما مسيحي رهباني والثاني هندي بوذي.

ويذهب المستشرق "ثولك" إلى أن التصوّف مأخوذ من أصل مجوسي، كما أن مؤسسي فرق الصوفية الأوائل كانوا من نفس ذلك الأصل المجوسي، وكذلك يقول المستشرق الهولاندي "دوزي": أن التصوّف جاء إلى الصوفية من فارس، ، حيث كان موجودا قبل البعثة المحمّدية. أمّا المستشرق "جولدزيهر" فقد فرّق بين تيارين مختلفين في التصوّف أولهما الزهد، وهذا في نظره قريب من روح الإسلام، وإن كان متأثرا إلى حد كبير بالرهبانية المسيحية. والثاني التصوّف بمعناه الحقيقي وما يتصل به من كلام في المعرفة والأحوال والأذواق، وهو متأثر من ناحية بالأفلاطونية الحديثة، ومن ناحية أخرى بالبوذية الهندية".

(مجلة الهلال، يونية ١٩٨٥م، ١٢ رمضان ١٤٠٥هـ) ص ١٠٦.

ويقول أحمد أمين: "ثم إن التصوّف لما كان مختلطاً مع الفقه في العصر الأوّل كان إسلاميا بحتاً، وكان الزهد طوعاً للأوامر الإسلامية، وظلّ كذلك طول العهد الأيوبي... فلمّا دخل في الإسلام كثير من الأمم الأخرى وأهل الديانات الأخرى كالنصارى، واليهود، والفرس، والهنود، وانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية =

= الحديثة استمد التصوّف من كل هذه المنابع، فلوّن عند بعض الناس بالزرادشتية الفارسية، وبالمذاهب الهندية، ولوّن عند بعض الناس بالنصرانية، وعند بعضهم بالأفلاطونية الحديثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلّها بعضها ببعض، وكانت نزعات مختلفة، وطرق مختلفة على مدى العصور"

(ظهر الإسلام/ أحمد أمين ٢/٥٨).

ولمزيد من الإطّلاع على هذه المؤثرات في القضايا العقدية والسلوكية للتصوّف، انظر: نظرية الإتصال عند الصوفية/ د. سارة آل جلوي ط١(جدة: دار المنارة — ١٤١١هـ، ص ٣١٩-٣٥٠، والمصادر العامّة للتلقي عند الصوفية/ صادق سليم صادق ط١(الرياض: مكتبة الرشد —١٤١٥هـ) ص ٦٣-٩٣).

وسوف أقوم بإذن الله تعالى، ومن خلال فصول ومباحث الرسالة ببيان بعض تلك المؤثرات ما أمكن ذلك وباختصار شديد.

انظر: بتوسع عن نشأة التصوف وتطوره « كتابنا جهود علماء السلف في القرن السادس والرد على الصوفية ».

الباب الأوّل

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في التلقّي والاستدلال

وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: ردودهم على منهج الصوفية في التلقّي.

الفصل الثاني: ردودهم على منهج الصوفية في الاستدلال.

الفصل الأول

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في التلقي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الكشف.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في «الوجود».

تعريف المنهج لغة :

- قال ابن فارس: "النون والهاء والجيم أصلان متباينان، الأوّل في النهج، الطريق، ونهج لي الأمر: أوضحه.
- والآخر: الانقطاع. وأتانا فلان بنهج، إذا أتى مبهوراً، منقطع النفس. وضربت فلاناً حتى أنهج، أي سقط"[1].

تعريف المنهج اصطلاحاً :

- هو "الطريق المؤدي إلى التعرّف على الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العلمية، تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة"[2].

التلقي لغة :

- قال ابن منظور: "والتلقي هو الاستقبال؛ ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/٣٦١ مادة نهج.

(٢) العلم والبحث العلمي، حسين عبد الحميد رشوان (الإسكندرية: المكتب الجامعي) ص ١٤٣-١٤٥، بدون ذكر رقم الطبعة وتاريخها، ومناهج البحث العلمي عند العرب، جلال محمد عبد الحميد موسى، ط١(بيروت: دار الكتاب اللبناني – ١٩٧٢م) ص ٢٧٣.

يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾"[1].

التلقّي اصطلاحاً :

- التلقّي في اصطلاح الفقهاء "تلقّي العلم: استقباله وأخذه بحرص"[2].
- ولكنه باصطلاح الصوفية هو: "أخذك ما يرد من الحق عليك"[3].

(١) سورة فصّلت آية رقم(٣٥).

(٢) معجم لغة الفقهاء ص ١٢٤.

(٣) اصطلاحات الصوفية لمحي الدين بن عربي ص٢٢.

المبحث الأول

ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الكشف

المطلب الأول : منهج الصوفية في الكشف.

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الكشف.

الكشف لغةً:

- قال ابن فارس: "الكاف والشين والفاء، أصل صحيح، يدل على سرو الشيء عن الشيء، كالثوب يسري عن البدن. يقال كشفت الثوب، وغيره اكشفه"[(١)].

الكشف اصطلاحاً:

- عرّفه الجرجاني بأنه "الإطلاع إلى ما وراء الحجاب، من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشعوراً"[(٢)].

(١) معجم مقاييس اللغة ١٨١/٥-١٨٢.

(٢) التعريفات، للجرجاني، ص ٢٣٧.

المطلب الأول
منهج الصوفية في الكشف

لقد نهج الصوفية في تلقّي علومهم منهجاً خاصاً، خالفوا فيه ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية المتبعة للكتاب والسنّة، وقد اعتبرت الصوفية منهج الكشف عندها من أرقى مناهج المعرفة، وطريقاً موصلاً إلى اليقين -بزعمهم-، لذلك أهمل غلاة الصوفية الاهتمام بالعلوم الشرعية، وزهدوا فيها، ورغبوا الناس عنها، وذلك لاعتمادهم على العلوم اللدنّية، الإلهامية، دون الاعتماد على النقل والعقل.

وحثّوا أتباعهم باتخاذ منهج الكشف وما يوصل إليه من الذوق والخطرات والإسراء والمعراج، والإلهام والرؤى، والهواتف، وغيرها من مناهج التلقّي عندهم، والشواهد على ذلك كثيرة.

وسأحاول كشف ذلك من مصنّفاتهم ومصادرهم المعتبرة، وبيان مناهجهم في ذلك.

وممّا يؤكد اهتمام الصوفية بالكشف وأهميته عندهم، أن أكثر مؤلفاتهم تحمل أسماء من قبيل "الكشف" و"الفتوحات" و"النفحات" و"مكاشفة القلوب" ونحو ذلك.

ولا ريب أن هذا الاهتمام الزائد بالكشف والفتح قد جعل منه هدفا مستقلا يطلب لذاته، فركّز القوم جهودهم على التنظير له، وبيان مزاياه.

قال القشيري: " قد درج أشياخ الطريق كلهم، على أن أحداً منهم لم يتصوّر قط الطريق، إلا بعد تبحّره في علوم الشريعة، ووصوله إلى مقام الكشف، الذي يستغني به عن الاستدلال... فإن حجج القوم أظهر من حجج غيرهم لتأييدها بالكشف"[1].

ويقول الغزالي: "... الكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى"[2].

ويعزو الغزالي حقيقة المعرفة إلى الكشف حيث يعتبر المعرفة الحقّة هي ما كانت ذوقية كشفية، يتوصّل إليها عن طريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات الذميمة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وإذا انكشف له سر الملكوت، وانفتح عن وجه القلب

---

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهّاب الشعراني، تحقيق وتقديم طه عبد الباقي سرور ومحمد عيد الشافعي (بيروت: مكتبة المعارف)١/٦٣، دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

(٢) الإحياء ١٢/٣.

حجاب العزّة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، تجلّت فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها[1].

ويقول الكلاباذي: أن طريقة الكشف لدى الصوفية لا يمكن الاستدلال عليها بالعقل والحس، وإنما هي عن طريق المواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات[2].

ويلغ الشطح بالصوفية، حتى قال الخواص: "لا يبلغ أحد مقام الإخلاص في الأعمال حتى يصير يعرف ما وراء الجدار، وينظر ما يفعله الناس في قعور بيوتهم في بلاد آخر، فهناك يعرف يقينا هذا الكشف"[3].

وعن طريق منهج الصوفية في الكشف، نجدهم يعرضون القرآن الكريم والسنة المطهرة عليه، فإن خالفاه أخذوا به، وأعرضوا عنهما، يقول الغزالي:

"هم الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي، لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هم عليه؛ نظروا إلى السمع[4]،

---

(١) انظر: ن.م ١٩/٣.

(٢) انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاباذي ص ١٠٠.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١٥٩/١.

(٤) أي القرآن والسنة مصدرا التشريع عند أهل السنة والجماعة.

والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين؛ قرروه، وما خالف؛ أولوه، فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد، فلا تستقر له فيها قدم، ولا يتيقن له موقف"[١].

وعلّلوا منهجهم هذا، بما رزقوا من إلهام -حسب زعمهم- فقالوا: "فإذا عرفت هذا، فاعلم أن ميل أهل التصوّف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم، وتحصيل ما صنّفه المصنّفون"[٢].

ويعتقد الصوفية أن الكشف لا يحصل إلا عن طريق الرياضة، ومقصود الرياضة عندهم؛ تفريغ القلب بتحصيل الكشف المزعوم.

يقول الغزالي: "وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وأن لم يكن له مكان مظلم، فليلقي رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء، وإزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الربوبية"[٣].

والكشف -المزعوم- عند الصوفية له وسائل، ذكر ذلك السهروردي بقوله:

---

(١) إحياء علوم الدين ١/١٠٤.

(٢) ن.م ٣/١٩.

(٣) الإحياء ٣/٧٦.

"وقد يتجرد الحقائق من غير لبسه المثال، فيكون ذلك كشفا، وإخبارا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية، وتارة بالسماع، وقد يسمع في باطنه، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه، كالهواتف"[١].

ومن المهم بيان بعض الوسائل المعينة للكشف عند الصوفية، والتي لاقت ردودا من العلماء في القرن السادس الهجري منها:

أولاً: الرؤية:

فالرؤية لغة:

- قال ابن منظور: "الرؤية بالعين، تتعدى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين، والرؤية: النظر بالعين، والقلب"[٢].

الرؤية اصطلاحا:

- قال الجرجاني: هي "المشاهدة بالبصر حيث كان؛ أي في الدنيا والآخرة"[٣].

الرؤية عند الصوفية:

تعد الرؤية من أرقى مناهج التلقي عند الصوفية، إذ تشتمل على

---

(١) عوارف المعارف ص ٢٠٠.

(٢) لسان العرب ٥/٨٤، مادة رأي.

(٣) التعريفات ص ١٥١.

دعاوي: رؤية الله سبحانه وتعالى، ورؤية الخضر -عليه السلام-، ورؤية الأنبياء وخاصة نبينا محمد ﷺ يقظة ومجالسته ومصافحته.

أ - رؤية الله سبحانه وتعالى:

لقد زعم غلاة الصوفية رؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا وذلك بتجليه ببعض الأولياء.

ولقد نقل السراج الطوسي عن حال جماعة من أهل الشام: "أنهم يدّعون الرؤية بالقلوب، كالرؤية بالعيان في الآخرة"[١].

ويؤكد بعض مصنّفي الصوفية اعتقادهم برؤية الله عز وجل في الدنيا، فقد نقل أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب" كما نقل الغزالي في إحيائه عن بعض الصوفية، أن الله يتجلّى في الدنيا لأوليائه.

وقد ساقوا بذلك حكاية في هذا الشأن، فقالوا أن أبا تراب النخشبي قال لمريد له: لو رأيت أبا يزيد البسطامي مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة[٢].

---

(١) اللمع ص ٥٤٤.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٣٥٦/٤، وقوت القلوب لأبي طالب محمد بن علي المكي (القاهرة، مطبعة الأنوار المحمدية ١٤٠٥هـ) ٨١/٢.

ب - رؤية الخضر عليه السلام:

من يطّلع على مصنّفات الصوفية المعتبرة، التي عليها المعول في جميع أقوالهم وأفعالهم؛ يجد أن شخصية الخضر عليه السلام، حظيت باعتناء خاص بحيث أصبح الاعتقاد بالأخذ عنه، ولقياه أمرا حقيقيا لايقبل الجدل، والاعتقاد بأنه ولي، لانبي، وأنه حي باق لم يمت، هما دعامتان من دعائم مذهب الصوفية، بنوا عليها أمورا شتى، مثل القول بتفضيل الأولياء على الأنبياء، وجواز الاكتفاء بالعلم اللدنّي والإلهام والكشف عن أدلة الشرع وأوامره ونواهيه، وكذلك إثبات ولاية، أو كرامة شخص ما تحت دعوى لقيا أو رؤية الخضر، وأنّه قال فيه أو عنه كذا، وكذا.

ورؤية الخضر من المسائل المتواترة عند الصوفية، ولا يكاد يوجد مرجع من مراجعهم الرئيسة؛ إلا وقد ذكرت حكايات وروايات عن رؤيته ومقابلته، ومنها على سبيل المثال:

يقول ابن عطاء الله السكندري عن حياة الخضر:

"واعلم أن بقاء الخضر قد أجمعت عليه هذه الطائفة، وتواترت عن أولياء كل عصر لقاؤه والأخذ عنه، واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حد التواتر الذي لايمكن جحده"[١].

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ط٢ (القاهرة: مكتبة عالم الفكر - ١٤١٣هـ) ص٨١.

ويقول أبو العباس المرسي: أنه صافح الخضر مثبتا دعوى حياته:

"وأما الخضر -عليه السلام- فهو حي، وقد صافحته بكفي هذا.. فلو جاءني الآن ألف فقيه[1] يجادلوني في ذلك، ويقولون بموت الخضر ما رجعت إليهم"[2].

ويقول إبراهيم الخواص مثبتا حياة الخضر من خلال مقابلته له:

"لقيني الخضر عليه السلام، فسألني الصحبة، فخفت أن يفسد عليّ توكّلي بسكوني إليه ففارقته"[3].

كما زعموا مقابلته ومحادثته، يقول الشاذلي: "لقيت الخضر -عليه السلام- في صحراء عيذاب، صامتا في المقام والرحيل"[4].

وحكى عن محمد بن علي الترمذي زعمه أنه يجتمع بالخضر -عليه السلام-، ويزوره كل يوم أحد، ويتحادثان معاً[5].

---

(١) يقصد بذلك فقهاء أهل السنة.

(٢) لطائف المنن والأخلاق للشعراني، تقديم عبد الحليم محمود. ط٢(القاهرة: عالم الفكر-١٣٩٦هـ) ص ٤٨٠، وجامع كرامات الأولياء، يوسف النبهاني، تحقيق ومراجعة إراهيم عطوة عوض (بيروت: المكتبة الثقافية -١٤٠٨هـ) ٥٢١/١٠.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٤٠.

(٤) الطبقات الكبرى ٥/٢.

(٥) انظر: كشف المحجوب للهجويري، ترجمة محمود أبو العزائم (دار التراث العربي) ص ١٦٩-١٧٠.

ومن مزاعم الصوفية، أن الخضر عليه السلام يصاحبهم في أسفارهم فقد سئل إبراهيم الخواص: حدثنا عن شيء من عجائب أسفارك، قال: "أعجب مالقيت إن الخضر طلب مني الصحبة، فرفضت، لأنني لم أكن أريد أن يكون لشخص حظوة لدى قلبي، وأن أشغل قلبي بأحد غير الله"[1].

وحكى القشيري عن بلال الخواص أنه قال: "كنت في تيه بني إسرائيل، فإذا رجل يماشيني فقال: أخوك الخضر، فقلت له أريد أن أسألك فقال: سل، فقلت... ما تقول في بشر بن الحارث الحافي، فقال: لم يخلق بعده مثله"[2].

وكما يزعم الصوفية مقابلة الخضر عليه السلام؛ يزعمون أيضا التكلّم معه، ومطالبته بالدعاء لهم، وتخليصهم من الشرور.

يقول بشر الحافي: "دخلت داري يوماً، فإذا رجل جالس في الدار، فقلت: كيف دخلت داري بغير إذني؟ فقال: أنا أخوك الخضر ادع الله تعالى لي فقال -عليه السلام- هون الله عليك طاعته فقلت زدني فقال:

---

(١) ن.م ص ٤١٣.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٧١.

وسترها عليك"[١].

ويقول شقيق البلخي: "لقيني إبراهيم بن أدهم بمكّة، فقال لي: اجتمعت بالخضر -عليه السلام- فقدم لي قدحا أخضر فيه رائحة السكباج، فقال لي: كل يا إبراهيم، فرددته عليه، فقال إني سمعت الملائكة تقول من أعطي فلم يأخذ سأل فلا يعطى"[٢].

وهم عندما يحكون هذه الروايات؛ يعتقدون بحياة الخضر عليه السلام. فقد رد أبو العباس المرسي على ابن الجوزي، أحد علماء القرن السادس في مسألة وجود الخضر من عدمه، فقال: "ولا تغتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبي الفرج ابن الجوزي في كتاب سماه "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر"، أنكر فيه وجود الخضر وقال: من قال إنه موجود فإنما قال ذلك لهواجس ووساوس وهوس قام به، واستدل على عدم وجوده بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[٣] قال أبو المرسي: فعجب لهذا الرجل كيف استدل

---

(١) الطبقات الكبرى ١/٧٢.

(٢) ن. م ١/٧٦. والسكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل.
(انظر: المعجم الوسيط ١/٤٣٨).

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٤.

بهذه الآية ولا دليل فيها"[١].

والحكايات والروايات حول لقاء الخضر ومكالمته، ومجالسته، والأخذ منه كثيرة جدا يتناقلها الخلف عن السلف تتضّح في مصنّفاتهم وتراجم ساداتهم[٢].

جـ - رؤية الرسول ﷺ يقظة:

للصوفية اعتقاد خاص، ومنهج مميّز في التلقي عن النبي ﷺ يقظة بعد موته، ويعتبرون هذا المنهج في التلقي من أوثق المناهج التي يستقون منها علومهم، ومعارفهم ومصنّفات شيوخ الصوفية تطفح بذكر الروايات والحكايات المزعومة بمقابلته ﷺ، ومشافهته بل وأخذهم عنه

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله الإسكندري ص ٨٣-٨٤.
وسوف أوضّح رد ابن الجوزي على الصوفية في هذه المسألة كاملا ضمن ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الكشف.

(٢) ولمزيد من الإطّلاع على الحكايات والروايات في الاعتقاد في الخضر عليه السلام وحياته ومقابلته والتحدث معه ومجالسته راجع:
الطبقات الكبرى ١/٩٨، ٨٢، ٢/٨٤، والرسالة القشيرية ص ٦٤، وطبقات الصوفية للسلمي ص ١٢، وغير ذلك من كتب التراجم الصوفية التي امتلأت بالحديث عنه، وأخباره، ومن لقيه منهم وما قاله لأولئك.

ﷺ التوجيهات. وقد نقل تلك الروايات والحكايات أكثر من علم من أعلام الصوفية ممّن كان لهم قصب السبق في علوم القوم، واعتبروا هذه الرؤية مصدرا وثيقاً من مصادر التلقي عندهم؛ وإليك بعضاً منها:

يقول الغزالي: "ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات، والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد"[1].

ويزعم أحد الصوفية مصافحته لرسول الله ﷺ، فيقول أبو العبّاس المرسي عن شيخه الشاذلي "والله ما صافحت بهذه اليد إلا رسول الله ﷺ"[2].

وزعم أحمد الغزالي[3] هو الآخر أنه يرى رسول الله ﷺ يقظة،

---

(١) المنقذ من الضلال/ الغزالي، تحقيق عبد المنعم العاني (دار الحكمة) ص ٨٤ دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

(٢) لطائف المنن للإسكندري ص ٩٥.

(٣) أحمد الغزالي أبو الفتوح، أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الغزالي، شهاب الدين، صوفي فقيه، واعظ، من تصانيفه مختصر الإحياء لأخيه أبي حامد الغزالي، توفي بقزوين سنة ٥٢٠هـ. ووصف بأنه آية في الكذب.

(انظر: معجم المؤلفين ١/ ٩٠، والمنتظم ١٧/ ٢٣٨).

وأنه يسأله عن كل ما يشكل عليه، فيدله على الصواب[1].

ثانيا: الرؤى المنامية:

تحتل الرؤى المنامية مكانة بارزة في منهج التلقي عند الصوفية، وقد عنوا بهذا المنهج أيما عناية، فمؤلفات أعلامهم تزخر بالحكايات والروايات حول هذه المسألة؛ بل أفردها البعض، كالكلاباذي[2]، والقشيري[3]، بمباحث خاصّة.

وأقحم الصوفية المسائل الفقهية في مناماتهم المزعومة.

وذكر عن بعضهم: "أنه صلّى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة، ثم نام، فرأى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إن مالكا والليث اختلفا في الضحى، فمالك يقول: ثنتا عشرة ركعة، والليث يقول ثمانية، فضرب ﷺ بين وركي ابن سعدون وقال: رأي مالك هو الصواب، ثلاث مرات"[4].

---

(١) انظر: المنتظم ١٧/ ٢٣٩، ولم أعثر على هذا الكلام في مرجع صوفي من المراجع المتوفّرة لديّ، وهو بلاشك من افتراءات الصوفية.

(٢) انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٧٩.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية ص ٥٦٠.

(٤) جامع كرامات الأولياء/ يوسف النبهاني، ط٣(بيروت: المكتبة الشعبية – ١٣٩٨هـ) ١/ ١٧٦.

وزعموا باطلا مخاطبة الرسول ﷺ ليدعو لهم، قال أبو بكر الكتاني: "رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت أدع الله لي ألاّ يميت قلبي، فقال؛ قل في كل يوم أربعين مرة: ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت"[1].

كما زعم أحمد الرفاعي أن الله خاطبه في المنام بقوله: " ماتريد يا أحمد؟ فقال: أريد ما تريده؛ قال تعالى: لك المراد، ولك مني كل يوم مائة حاجة مقضية"[2].

وحكى الكلاباذي أن محمد الكتاني كانت عادته أن يرى النبي مناما كل ليلة اثنين وخميس، ويسأله عن مسائل، فيجيبه عنها[3].

كما زعم الرفاعي أن الرسول ﷺ خاطبه ومدله يده الشريفة، فقبلها الرفاعي، وشاهد ذلك الحاضرون من العارفين[4].

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٦٣، والطقبات الكبرى ١/ ١١٠.

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ٦٩.

(٣) التعرّف على مذهب أهل التصوّف ص ١٧٩-١٨٠.

(٤) انظر: تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب محمد أمين الكردي، تحقيق محمد علي إدلبي، (يبروت ودمشق: دار الإيمان -١٤١٣هـ). ص ٥١ بدون ذكر رقم الطبعة.

وقال بنان[1]: "رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بنان فقلت: لبيك يا رسول الله فقال: من أكل بشره نفس أعمى الله عين قلبه، فانتبهت وعقدت ألا أشبع بعدها أبدا"[2].

ويحكي السلمي عن بشر الحافي قوله: "رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتباعك لسنتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي، وأهل بيتي هو الذي بلغك منازل الأبرار"[3].

وبلغ ببعض الصوفية أن ادعى رؤية الله جلّ وعلا في المنام.

قال الجنيد: "رأيت في المنام كأني واقف بين يدي الله تعالى فقال: يا أبا القاسم من أين لك هذا الكلام الذي تقول؟ فقلت: لا أقول إلا حقا، فقال: صدقت"[4].

---

(١) بنان: هو ابو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال، واسطي الأصل، سكن مصر، وأقام فيها، صحب الجنيد، مات بمصر سنة ٣١٦هـ. (انظر: طبقات الصوفية ص ٦٩).

(٢) طبقات الشعراني ١/ ٩٨.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٧٠ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٥٦٩.

وقال أبو يزيد البسطامي: "رأيت ربي عزّ وجلّ في المنام فقلت: كيف الطريق إليك، فقال: اترك نفسك وتعال"[1].

ثالثاً: المعراج:

- المعراج لغة: قال ابن فارس "العين والراء والجيم ثلاثة أصول منها العروج: الارتقاء: يقال عرج يعرج عروجاً، ومعراجاً.
- والمعراج: المصعد. قال تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[2] أي تصعد[3].
- وعرج، يعرج عروجاً: أي ارتقى.
- والمعراج: شبه سلم أو درجة تعرج منه الملائكة إذا قبضت والجمع معارج ومعاريج، يقال: عرج بالروح والعمل: صعد بهما[4].

(١) ن.م ص ٥٦٣.

(٢) سورة المعارج آية (٤).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة ٤/٣٠٢ مادة عرج.

(٤) انظر: لسان العرب ٩/١٢٠، مادة عرج.

المعراج اصطلاحا:

- عند أهل السنة: "صعوده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع وما فوقها، حيث فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، وأوحى إليه ما أوحى، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل"[1].

المعراج عند الصوفية:

ولكن الصوفية يقصدون به معناً يحاكون به معراج النبي ﷺ. فادعى أبو يزيد البسطامي عروجه إلى السماء، والكلام مع الله سبحانه مشافهة، وزعم أن الله أراه السبع الآرضين.

فقال: "أدخلت في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفلي فأراني الآرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوف بي في السموات، فأراني ما فيها من الجنّات، إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال لي: سلني أي شيء حتى أهبه فقلت: ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته، فاسلك إياه فقال: أنت عبدي حقا تعبدني

(١) الإسراء والمعراج، خالد سيد علي ط١(الكويت: مكتبة التراث والإيمان، دمشق، وبيروت: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع-١٤١٩هـ) ص ١٢٩.

لأجلي صدقا لأفعلنّ بك"[1].

وكان يقول لي معراج كمعراج النبي ﷺ[2].

وهذا فيه دلالة على اعتقاد الصوفية بالمعراج البدني وجعله منهجاً من مناهج التلقّي عندهم.

غير أنهم أيضا يقولون بالمعراج الروحي، فلأبي يزيد البسطامي قول آخر يقول فيه: "عرج بروحي، فخرقت الملكوت، فما مررت بروح نبي إلا سلمت عليه، وأقرأتها السلام غير روح محمد ﷺ فإنه كان حول روحه ألف حجاب من نور"[3].

ويقول أيضا: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت"[4]، ونحن أخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت"[5] يعني الله مباشرة.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/٧٠، وغيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية لأبي عبدالله النفزي الرندي، تحقيق عبدالحليم محمود ومحمود الشريف. ط١ (مصر: مطبعة السعادة ١٣٨٠هـ) ص ٣٠٥.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٠٧.

(٣) النور من كلمات أبي طيفور للسهلجي ضمن كتاب شطحات الصوفية. د. عبدالرحمن بدوي ط٢ (الكويت: وكالة المطبوعات –١٩٧٦م) ص ١١١-١١٢.

(٤) ويقصد بذلك صحابة الرسول ﷺ والتابعين وسلف هذه الأمة.

(٥) الجواهر والدرر للشعراني بهامش الابريز للدباغ (الناشر: محمد بن أحمد بن حسن =

بل زعم سهل التستري أنه كلّم الله تعالى، فقال: "أنا منذ ثلاثين سنة أكلّم الله، والناس يتوهمون أني أكلّمهم"[1].

وذكر السهروردي أن من السالكين -يقصد الصوفية- من يعرج قلبه وباطنه، ومعناه، وحقيقته في طبقات السموات كعروج محمد ﷺ بظاهره وقلبه، حتى يتخلّص من نفسه المطمئنة، وخواطرها الصادقة، وذلك لأن الخاطر رسول، والرسول إلى من بعُد، وهذا السالك قريب، فيتخلف عنه خاطر النفس، وخاطر الملك لقربه، كتخلف جبريل عليه السلام ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ[2].

مما سبق يتبيّن أن الصوفية اتخذت من المعراج منهجا في تلقي علومهم عن الله عزّ وجلّ عن طريق مكالمتهم معه، ومجالستهم له.

= الطحاوي) ص ٢٨٦، والفتوحات المكية لابن عربي، تقديم محمد عبد الرحمن المرغشلي ط١(بيروت: مكتبة التحقيق لدار إحياء التراث الإسلامي –١٤١٨هـ) ١/١٣٩.

(١) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٧، والأنوار القدسية ٢/٦٩، وعزا الغزالي هذا القول إلى الجنيد.
(انظر: الإحياء ٢/٢٢٧)

(٢) انظر: عوارف المعارف ص ٤١٧-٤١٨.

رابعاً: الإلهام والذوق والخواطر:

الإلهام لغة:

- قال ابن منظور: "مايلقي في الروع" أو "أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل، أو الترك، وهو نوع من الوحي، يخصّ الله به من يشاء من عباده"[(١)].

- الإلهام اصطلاحا:

- يطلق على الإلهام "العلم اللدنّي"، كما بيّن ذلك ابن القيّم رحمه الله بقوله: "... والعلم اللدنّي: هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاما، بلا سبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سمي لدنّياً"[(٢)].

الإلهام عند الصوفية:

يعتقد بعض الصوفية أنه لا فرق بين وحي الأنبياء، وإلهام الأولياء، إلا أن النبي يرى الملك الذي يحمل الوحي، ومن هؤلاء الغزالي الذي قال:

---

(١) لسان العرب ١٢/٣٤٦ مادة (لهم).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم/ تحقيق محمد حامد فقي (بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٩٢هـ) ٣/٤٣١، بدون رقم الطبعة وسنة النشر.

"ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة"[(١)].

والإلهام حجة قوية عند الصوفية، فهو من المناهج المعتبرة للتلقّي عندهم.

يقول أبو يزيد البسطامي: "أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين فلان؟ قالوا مات. عن فلان. أين هو؟ قالوا مات"[(٢)].

ونقل عنه أيضاً في قصة طويلة يقول فيها: "علمي من الله إلهاماً من عنده" مستدلا بإلهام الله تعالى لأم موسى، والخضر في قصة السفينة وغيرها[(٣)].

وحكى الشعراني عن بعضهم أنه من أنكر قول القائل: حدثني قلبي عن ربي بقوله: "لا إنكار؛ لأن المراد. أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء"[(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢١.

(٢) الفتوحات المكية ١/٣٦٥.

(٣) انظر: النور من كلمات أبي طيفور، ص ١١٣.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/٦٨.

وروي أن رجلا دخل على الحلاج، فرآه يكتب شيئاً فقال له ما هذا؟ فقال: كلام نزل على قلبي من الله تعالى[1].

والوصول إلى هذا النوع من المناهج للتلقّي عند الصوفية يتم عن طريق الرياضة، وتفريغ القلب، وهذا لا يتأتّى -بزعمهم- إلا بخلوة في مكان مظلم، فيلف المريد رأسه في جيبه، أو يتدثّر بكساء أو إزار، ففي هذه الحالة -كما يزعم الغزالي- يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الربوبية[2].

- قال ابن فارس: "الذال والواو والقاف أصل واحد، وهو اختبار الشيء من جهة تطعّم"[3].
- وقال ابن عربي: "اعلم أن الذوق عند القوم، أول مبادئ التجلّي وهو حال يفجأ العبد في قلبه"[4].

---

(١) انظر: روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين، أحمد الوتري، ترتيب وتبويب وتحقيق وتعليق د. منير محمود الوتري، ط١(بغداد: مطبعة المعارف – ١٩٧٦م) ص ٣٤.

(٢) انظر: الإحياء ٧٦/٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٣٦٤/٢.

(٤) الفتوحات المكية، لابن عربي (القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى – ١٣٢٩هـ) ٥٤٨/٢، وانظر: اصطلاحات الصوفية لابن عربي ص١٣.

الـذوق:

الذوق لغة:

قال ابن فارس: « الذال والواو والقاف أصل واحد، وهو اختبار الشيء من جهة تطعّم »[1].

الذوق اصطلاحا:

قال ابن عربي: « اعلم أن الذوق عند القوم، أو لمبادئ التجلّي وهو حال يفجأ العبد في قلبه »[2].

الذوق عند الصوفية:

ومراد الصوفية بالذوق هو الذي يقتصر على نتائج التجليات الإلهية، وهو الذي يستدلون به على تصحيح كثير من الاحوال عندهم، لما يجدونه -بزعمهم- من آثار ولذّة، كمن يستدل على حل السماع الصوفي، لما يذوّقه من أثره على نفسه من تصحيح لحال أو تهيّج لشوق إليه ونحو ذلك[3].

لذا قالوا: "وأمّا الذوق، فهو كالمشاهدة، والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية"[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغو ٣٦٤/٢.

(٢) الفتوحات المكية، لابن عربي (القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى-١٣٢٩هـ) ٥٤٨/٢، وانظر: اصطلاحات الصوفية لابن عربي ص١٣.

(٣) انظر: عوارف المعارف ص١٧٣ والإحياء ٢٧٩/٢.

(٤) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٩٢. وطريق الصوفية بعيد عن الكتاب والسنة.

وأيضاً هذا الذوق الصوفي، هو الذي جعلوه حاكما لا محكوماً عليه في كثير من الأمور، وقدموه على الشرع في حال وجود تعارض بينهما، فقد قالوا: "الموفّقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسمع -يريد الأدلّة الشرعية- فما وافق ماشاهدوه بنور اليقين قرّروه، وما خالف أوّلوه" وقال عن الأدلة الشرعية: "فأمّا من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرّد فلا يستقر له قدم ولا يتعيّن له موقف"[(١)].

والصورة أوضح فيما قاله جعفر الخلدي[(٢)]: "لو تركني الصوفية لجئتكم بأسانيد الدنيا، لقد مضيت إلى عبّاس الدوري[(٣)]، وأنا حدث، فكتبت عنه مجلسا واحدا، وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية، فقال: "إيش هذا معك؟ فأريته إياه، فقال: "ويحك تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عبّاس"[(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين ١٠٤/١. والموفقون بمراد الصوفية هم أئمة الصوفية ومشايخهم ومن سار على نهجهم، أما مرادهم بمن يأخذ المعرفة من السمع المجرد فهم أهل السنة والجماعة.

(٢) جعفر الخلدي: جعفر بن محمد بن نصير الخلدي، أبو محمد الخواص، صحب الجنيد والنوري ورويماً، توفي سنة ٣٤٨هـ، (انظر حلية الأولياء ٣٨١/١٠).

(٣) عبّاس الدوري: عبّاس بن محمد بن حاتم الدوري، أبو الفضل البغدادي، خوارزمي الأصل، ثقة حافظ، توفي سنة ٢٩١هـ، (انظر: تقريب التهذيب ص ٢٩٤).

(٤) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، عبد الرؤوف المناوي ط١ (القاهرة: مطبعة =

الخواطـر:

الخواطر في اللغة:

- جمع خاطر وهو: ما يخطر بالقلب من تدبير أو أمر أو رأي أو معنى، وهو الهاجس[(١)].

الخاطر اصطلاحا:

- هو: "ما يرد على العقل من الأفكار عفواً من غير تعمّد لإحضارها ولايكون له استقرار في النفس"[(٢)].

الخواطر عند الصوفية:

هي: "ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانيا كان أو ملكيا أو نفسيا أو شيطانياً"[(٣)].

= الزاوية التجانية) ٢٤/٢، وتاريخ بغداد ٢٢٧/٧.

وعلم الخرق: علوم الصوفية، وعلم الورق: علوم أهل السنة والجماعة، وذلك بمفهوم الصوفية !!.

(١) انظر: لسان العرب ١٣٦/٤، والمعجم الوسيط ص ٢٤٣، وأساس البلاغة ص١١٢، ومعجم لغة الفقهاء ص ١٧٠.

(٢) معجم لغة الفقهاء ص ١٧٠.

(٣) التعريفات ص ١٢٩، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص ١٧٧، واصطلاحات الصوفية لابن عربي ص ١٤-١٥.

- وإلى هذا المفهوم ذهب القشيري بقوله عن الخواطر أنها: "خطابات ترد على الضمائر، فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك، أو إلقاء شيطان، أو أحاديث نفس، أو من الحق سبحانه، فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس وإذا كان من الله سبحانه، وكان لقاؤه في القلب فهو الخاطر"[١].
- وفي عبارة واضحة وصريحة بيّن أحد أئمتهم ماهية تلك الواردات والخواطر بقوله: "ما يتلقى الأنبياء والأولياء وغيرهم من المغيبات فإنها قد ترد عليهم في أسطر مكتوبة وقد ترد بسماع صوت، قد يكون لذيذا، وقد يكون هائلا، وقد يشاهدون صور الكائن وقد يرون صورا حسنة إنسانية تخاطبهم في غاية الحسن، فتناجيهم بالغيب"[٢].

وجملة القول: إن الخواطر وما في معناها عند الصوفية كلها تدور حول الإطّلاع على الغيب واتخاذها منهجاً من مناهج التلقّي عندهم.

ومما سبق اتضح كيف جعل الصوفية هذه الوسائل من رؤية الله ﷻ ورؤية الرسول ﷺ يقظة ورؤية الخضر -عليه السلام-، والرؤى المنامية والمعراج والإلهام والذوق والخواطر طريقاً موصلاً إلى الكشف المزعوم؛ الذي اعتبروه من أرقى منهاج التلقي عندهم.

(١) الرسالة القشيرية ص ١٥٦.

(٢) حكمة الإشراق/ شهاب الدين يحيى سهروردي (نشر المعهد الفرنسي في إيران بعناية المستشرق هنري كربين، طهران- ١٩٥٣م) ص ٢٤٠-٢٤١.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الكشف

لقد تحدث علماء القرن السادس عن منهج الصوفية في الكشف بمختلف وسائله التي برزت في ذلك العصر، باعتباره منهجا من مناهج التلقي الهامة عند الصوفية، وقد كان رد هؤلاء العلماء رحمهم الله مستمد من الكتاب والسنة، لذا فقد بيّنوا ما يخالف ذلك من المناهج الدخيلة، ومن ذلك منهج الصوفية في الكشف.

لقد بيّن سلفنا الصالح أن الكشف، وقع للرسول ﷺ، وحكم بمقتضاه ففي صحيح مسلم: (صلّى بنا رسول الله ﷺ يوما ثم انصرف فقال: "يا فلان: لا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلّى، كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه إني والله لأبصر من ورائي، كما أبصر من بين يدي)[١].

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها ٣١٩/١.

كما وقع الكشف للصحابة رضي الله عنهم فعملوا بمقتضاه، كما حدث لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ابنته عائشة[1] رضي الله عنها.

ومع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في ندائه سارية وهو على المنبر[2].

ولكن عندما ادعى الصوفية كشفا يصادم الشرع، قيّض الله لدينه

---

(١) عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: "إن أبا بكر الصديق كان نحلها جادّ عشرين وسقا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة، قال: والله يابنيّه، ما من الناس أحد أحبّ إلي غنى بعدي منك، ولا أعز عليّ فقرا بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقا، فلو كنت حددتيه واحتزيته كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله، قالت عائشة: فقلت يا ابت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى،؟ فقال أبو بكر ذو بطن بنت خارجة، أراها جارية".
(موطأ الإمام مالك، إعداد أحمد راتب عرموش، ط٦(بيروت: دار النفائس — ١٤٠٢هـ) كتاب الأقضية، مالايجوز من النحل، ص٥٣٣، رقم الحديث ١٤٣٤) بدون رقم الطبعة.

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي (بيروت: دار الفكر) ٤/٤٤، دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر. والإحياء ٣/٢٤-٢٥.

من يذب عنه على منهج صحيح قوامه الكتاب والسنة. وقام هؤلاء العلماء الأجلاّء بدحض مفتريات ومزاعم الصوفية في هذا المجال.

فقد أشار ابن الجوزي رحمه الله إلى أن أبا طالب المكي في كتابه "قوت القلوب" قد اكثر من ترديد قول: "قال بعض المكاشفين"[1] "يعني الذين يدعون الكشف، وعلّق رحمه الله على هذا الكلام بقوله: "هذا كلام فارغ"[2].

وانتقد أبا حامد الغزالي عندما صنّف كتاب "الإحياء على طريقة القوم... وتكلّم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه"[3].

وأنكر ابن الجوزي على الصوفية ما يقع لهم عن طريق الكشف المزعوم، وتسمية الغزالي لهم بأرباب الأحوال فهو يقول: "ثم مَنْ أرباب الأحوال حتى يعملوا بواقعاتهم؟ كلا والله، إن لنا شريعة لو رام أبو بكر الصدّيق أن يخرج عنها إلى العمل برأيه لم يقبل منه"[4].

---

(١) قوت القلوب ١/١٤٢، وقد ذهب الغزالي في كتابه "الإحياء" إلى نفس الاتجاه، انظر الإحياء ٣/٢٦.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

(٣) ن.م، ص ١٦٦.

(٤) تلبيس إبليس ص ٣٥٥.

وعندما زعم الصوفية أن صفاء القلب، يوجب تجلي العلوم فيه، أنكر عليهم ابن العربي المالكي[1] بقوله: « ولا ينكر أحد من الإسلاميين لا من الفقهاء، ولا من المتكلمين أن صفاء القلب وطهارته مقصود شرعي؛ إنما المستنكر أن صفاءه يوجب بجلي العلوم فيه بذاته وإنما الحق بمداومة الطاعات، والتفكر في ملكوت الأرض والسموات يكون ذلك من إدامة المعرفة علماً على النجاة، ويكون عمارة للبدن بالطاعات، وقد قام الدليل الشرعي على أن العلم قبل العمل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2] وكل من علم أن ملكوت الله في أرضه وسمائه الذي فيها بدنه، ومخلوقاته، لم يصدقه إلاّ في طاعته، فإن قصر، فبفوات علمه بما قصر فيه، وعما قصر عنه، وعما قصر به[3].

---

(١) ابن العربي: هو محمد بن عبدالله بن عبدالله بن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي، ولد سنة ٤٦٨هـ، صاحب عارضة الأحوذي، وأحكام القرآن والعواصم من القواصم، توفي سنة ٥٤٣هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٩٧/٢٠، ومعجم المؤلفين (٤٥٦/٣)، ومرآة الجنين ٢٧٩/٣، الديباج المذهب ٢٥٤/٢.

(٢) سورة فاطر آية ٢٨.

(٣) انظر: العواصم من القواصم لابن العربي المالكي، تحقيق عمار الطالبي ط١ (الدوحة: دار الثقافة — ١٤١٣هـ) ص ١٨.

وقال ابن العربي وقولهم: إنه إذا صفا قلبه تجلّت فيه المعلومات! «خطأ بحت، ودعوة عريضة لا برهان عليها من الفعل، ولا من جهة السمع »[1].

كما أنكر ابن العربي المالكي رحمه الله على الصوفية زعمهم أن صفاء القلب سبب لانكشاف أسرار الملكوت، وقال عن ذلك: "إنه خطأ بحت ودعوى عريضة لا برهان عليها من العقل ولا من جهة السمع.. فإن أرادوا أن صفاء القلوب يكشف هذه العلوم فباطل مطلقاً، وإن أرادوا أن الفكر في المخلوقات والآيات يوصل إليها فباطل أيضاً قطعاً، وما أعلمني بما يحومون حوله ويسفّون عليه"[2].

وقد سخر ابن الجوزي من مقالة الغزالي في كيفية الوصول إلى مرحلة الكشف بالرياضة وتفريغ القلب عن طريق الخلوة والمكان المظلم قائلاً:

" وانظروا إلى هذه الترتيبيات، والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق، وأن الذي يشاهده جلال

---

(١) قانون التأويل للقاضي أبي بكر محمد بن العربي، دراسة وتحقيق محمد السليماني، ط١(دار القبلة للثقافة الإسلامية: جدة، مؤسسة علوم القرآن: بيروت-١٤٠٦هـ)، ص ٥٥٥،٥٥٨.

(٢) نفس المرجع: ص٥٥٨، ٥٥٥.

الربوبية. وقرّر رحمه الله أن ما يقع للشخص حينذاك ؛ إنما هو من قبيل الوساوس والخيالات الفاسدة، التي يكون سببها في بعض الأحيان التقلل من المطعم[1]. وهو ما تزعمه الصوفية زهداً.

أما موقف علماء القرن السادس من منهج الصوفية، القائم على مايزعمونه من رؤية الله سبحانه ورؤية الخضر -عليه السلام-، ورؤية الرسول ﷺ يقظة، والرؤى المنامية، والإلهام، والخطرات والوساوس، فتمثل بعناية السلف في تأصيل ما يوافق المنهج الشرعي، مستمدا من الكتاب والسنة، وردّ ما قام عليه منهج الصوفية المخالف في ذلك، ولقد اهتم هؤلاء العلماء الأجلاّء لما رأوه من خوض من قلّ علمه وكثر جهله وضلّ في هذه المسائل ضلالا كبيراً، وأضلّ غيره وسار في ركب أهل البدع والأهواء ولهذا بيّن هؤلاء المنهج الصحيح في ذلك، وبيّنوا متى يكون العمل في ذلك صحيحا، ومتى يكون مردوداً ودحضوا افتراءات المبتدعة وخاصة الصوفية.

فأنكر ابن الجوزي على الصوفية زعمهم رؤية الله جلّ وعلا بالأبصار في الدنيا، "وأنهم لا ينكرون أن يكون بعض من تلقاهم في

(١) انظر : تلبيس إبليس ص ١٧٤.

السكك وأن قوما يجيزون مع ذلك مصافحته، وملازمته وملامسته، ويدّعون أنهم يزورونه، ويزورهم، وهم يسمون بالعراق أصحاب الباطن وأصحاب الوساوس، وأصحاب الخطرات. وقولهم هذا فوق القبيح نعوذ بالله من الخذلان"[1].

وهذه الرؤية إمّا أن تكون بحلول الله في بعض مخلوقاته، أو تكون بظهوره عزّ وجلّ في خلق آدمي، وفي ذلك تشبيه الله بمخلوقاته تعالى عن ذلك علوّا كبيراً.

كما انتقد رحمه الله قول أبي تراب النخشبي من أن رؤية أبا يزيد مرة واحدة أنفع من رؤية الله سبعين مرة بقوله: "هذا فوق الجنون بدرجات"[2].

كما نقل رحمه الله قصة لشخص يدعى: أبا شعيب المقفع[3]، نقلها عنه بعض الصوفية، وخلاصتها أنه كان يصلي، فلاح له في المحراب نور وأنه رفض التصديق بذلك وقال: اخسأ يا ملعون. قال ابن الجوزي "هذه الحكاية توهم أن الرجل رأى الله عزّ وجلّ. فلمّا أنكر

(١) تلبيس إبليس ص ٣٥٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٥٤.

(٣) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من مراجع.

عوقب"[1].

فهذه القصة وغيرها تؤيد ما ذهب إليه غلاة الصوفية من إمكان رؤية الله عزّ وجلّ في الدنيا وتجليه لأوليائه، وإلا فإن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الشياطين تتعرّض للصوفية لتفتنهم، ولكنهم -أي الصوفية- يحملون ذلك دائما على مرادهم.

وذكر المازري[2] اختلاف الناس في حقيقة الرؤية، وبيّن أن غير الإسلاميين لهم أقوال كثيرة منكرة؛ لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع؛ فاضطربت أقوالهم -وهؤلاء هم الصوفية- قال ممّن ينتمي منهم إلى الفلسفة: أن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي، كالنقوش، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها. قال المازري: وهذا أشد فسادا من الأوّل، لكونه تحكما لا برهان عليه.

(١) تلبيس إبليس ١٧٣-١٧٤.

(٢) هو أبوعبدالله، محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المالكي، ولد سنة ٤٤٣، من تصانيفه المعلم بفوائد مسلم، توفي سنة ٥٣٦هـ.

انظر: ترجمته في وفيات الأعيان ٢٨٥/٤، سير أعلام النبلاء ١٠٤/٢٠، مرآة الجنان ٢٦٧/٣، شذرات الذهب ١١٤/٤.

قال: والصحيح، ما عليه أهل السنة: "أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها، فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها الله تعالى في حال اليقظة، ومهما يقع منها على خلاف المعتقد، فهو كما يقع في اليقظة.

وقال: وتلك الاعتقادات تارة بحضرة الملك، فيقع بعدها ما يسر، أو بحضرة الشيطان، فيقع بعدها ما يضر والعلم عند الله"[1].

ولقد أنكر القاضي عيّاض[2] رؤية الله في المنام، ونقل عن أبي بكر الباقلاني قوله: "رؤية الله تعالى في المنام أوهام وخواطر في القلب بأمثال لا تليق به بالحقيقة، ويتعالى الله سبحانه عنها"[3].

ومما زعمته الصوفية باطلا رؤية الخضر ولقائه وأنه على قيد الحياة

(١) فتح الباري ٣٦٩/١٢-٣٧٠.

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي الأندلسي، السبتي، المالكي، ولد سنة ٤٧٦، وتوفي سنة ٥٤٤هـ، من مصنفاته الشفا، وترتيب المدارك، وإكمال المعلم.

انظر: ترجمته في وفيات الأعيان ٤٨٥/٣، وشذرات الذهب ١٣٨/٤، وسير أعلام النبلاء ٢١٤/٢، والديباج المذهب ٤٩/٢).

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عيّاض/ تحقيق د. يحيى إسماعيل. ط١ (المنصورة: دار الوفاء ١٤١٩هـ) ٢٢٠/٧.

فاستغنوا -بزعمهم- بالعلم اللدنّي والإلهام، محتجّين بقصّة الخضر مع موسى عليهما السلام.

وقد تصدى علماء القرن السادس لهذا الزعم، ومن أشدهم إنكارا ابن الجوزي رحمه الله الذي وقف في وجه هؤلاء المبتدعة ودحض أقوالهم، واقترن ردّه بالأدلة والبراهين الساطعة القاطعة، فهاجم الصوفية في هذه المسألة من جانبين:

الأول: تفنيد ما يحتجون به بالكشف عن حال كثير مما يحتجون به من الأحاديث وبيان ضعفها.

الثاني: الاحتجاج عليهم بدليل الكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أمّا الجانب الأول: فقد أشار إليه ابن كثير رحمه الله بقوله: "قد تصدى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه: "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر"[(1)] للأحاديث الواردة في ذلك من

---

(١) عجالة المنتظر شرح حالة الخضر: مصنف نفيس لابن الجوزي رحمه الله اختصره في نحو اثنتين وعشرين ورقة -وقال في أول المختصر: تكررت مسائل العوام عن حياة الخضر، وتكرر جوابي بتقبيح دعوى وجوده اليوم، فرأيت بعض من قد سمع الحديث، قد جمع أحاديث باطلة يثبت بها بقاءه، وعرفت أن جماعة من متنمي الزهّاد يدّعي عند العامة لقائه، فقال لي بعض أصحابي: لو كشفت عوار هذه =

المرفوعات، فبيّن أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين ممن بعدهم فبيّن ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وحالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد".

ثم نقل عنه قوله: "المعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن إليه النفس أنه اجتمع برسول الله ﷺ"[(1)].

وقال ابن الجوزي في الموضوعات: "قلت: وأمّا حديث اجتماعه مع جبريل ففيه عدة مجاهيل لا يُعرفون وقد أغرى خلق كثير من المهوّسين

= الدعاوى بمجموع، كان بذلك دون غيرك المسموع. ثم ذكر أن سبب ذلك الإدعاء هو الجهل وكثرة الغفلة، وحب الصيت والذكر، ثم شرح رحمه الله في بيان أنه ليس بباق في الدنيا بالقرآن والسنة وإجماع المحصلين من أهل النقل والمعقول.
(انظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٧هـ) ٥/١٦٠-١٦١).
قلت: ولم أجد هذا المصنّف مطبوعاً ولا مخطوطاً، وقد ذكر هذا المصنّف كثير من أهل العلم كابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٥/١٦٠، وابن كثير في البداية والنهاية ١/٣٣٠، وأشار إليه ابن حجر العسقلاني في الزهر النضر في حال الخضر، ونقل عنه ابن القيّم في المنار المنيف، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/١١٢٥.

(١) البداية والنهاية ١/٣٣٤-٣٣٥.

بأن الخضر حي إلى اليوم، وردّدوا أنه التقى بعلي بن أبي طالب، وبعمر بن عبد العزيز، وأن خلقا كثيرا من الصالحين رأوه.... وانتشر الأمر إلى أن جماعة من المتصنعين بالزهد يقولون: رأيناه وكلمناه، فوا عجبا أَلَهُمْ فيه علامة يعرفونه بها؟ وهل يجوز لعاقل أن يلتقي شخصا فيقول له الشخص: أن الخضر، فيصدقه"[1].

أمّا الجانب الثاني وهو احتجاجه رحمه الله عليهم بموته وعدم بقائه فيثبت الدليل عليهم بالقرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء والمعقول.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[2] فلو دام البقاء كان خالداً[3].

قال رحمه الله: "فالخضر إن كان بشرا فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح"[4].

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي ٣/٣١٤-٣١٥.

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٤.

(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيّم، تحقيق عبد الرحمن المعلمي أعده وأخرجه منصور السماري ط٢(الرياض: دار العاصمة — ١٤١٩هـ) ص ٦٠.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١/٣٣٤.

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[1].

فالخضر إن كان نبيا أو وليا فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حيّا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره"[2].

ومن السنة:

استدل بقوله ﷺ: « **أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مئة سنة فيها لا يبقى على ظهر الأرض ممن هو اليوم عليها أحد** »[3].

وبقوله ﷺ أيضاً: « **ما من نفس منفوسة يأتي عليها مئة سنة وهي يومئذ حيّة** »[4][5].

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/٣٣٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم/ باب السحر في العلم، ١/٣٧، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم" ٤/١٩٦٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ "لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم" ٤/١٩٦٦،

(٥) انظر المنار المنيف ص ٦١، ٦٠.

وبعد بيانه الأحاديث التي دلّت على موت الخضر عليه السلام قال ابن الجوزي: "فهذه الأحاديث الصحاح، تقطع دابر دعوة حياة الخضر"[1].

وأمّا إجماع المحقّقين من العلماء:

- ذكر ابن الجوزي في "عجالة المنتظر" من قال بموت الخضر من الأئمة كالبخاري وعلي بن موسى الرضا[2]، والإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي[3]، وأبو الحسين بن المنادي[4]، والإمام القاضي أبو يعلى محمد بن

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٣٦.

(٢) علي بن موسى الرضا: من أئمة آل البيت، جده جعفر الصادق. ولد بالمدينة سنة ١٤٨هـ مات بطوس سنة ٢٠٣هـ، والرافضة يعدّونه من الأئمة الاثني عشر.
(انظر ترجمته: في سير أعلام النبلاء ٩/٣٨٧-٣٩٣).

(٣) إبراهيم الحربي: أبو إسحاق، إبراهيم بن بشير بن عبدالله الحربي، محدث حافظ من أئمة أهل السنة ولد سنة ١٩٨هـ، أصله من مرو، ومن شيوخه الإمام أحمد بن حنبل، من أئمة اللغة له (غريب الحديث) توفي سنة ٢٨٥هـ.
(انظر ترجمته: في تاريخ بغداد ٦/٢٧-٤٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٦).

(٤) أبو الحسن المنادي: أبو الحسن أحمد بن جعفر البغدادي المعروف بابن المنادي من أئمة أهل السنة توفي سنة ٣٣٦هـ.

=

الحسين بن الفراء[1] الحنبلي الذي حكاه عن أبي طاهر بن الغباري[2][3].

وأمّا من المعقول:

- فقد ردّ ابن الجوزي مزاعم الصوفية بحياة الخضر من عشرة أوجه من أقواها:

= (انظر ترجمته: في طبقات الحنابلة ٢/٣-٦، تاريخ بغداد ٤/٦٩-٧٠ وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٦١)، مرآة الجنان ٢/٢٠٩، البداية والنهاية ١١/٧٩، والمنتظم ١٢/٣٧٩، وشذرات الذهب ٢/١٩٠.

(١) أبو يعلى: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد، أبو يعلى المعروف بابن الفراء، شيخ الحنابلة، ولد سنة ٣٨٠هـ، درس وأفتى سنين عديدة، عالم عصره في الأصول والفروع، من أهل بغداد، له ردود على بعض الفرق المبتدعة وله عدة مصنّفات. توفي سنة ٤٥٨هـ.
(انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٨/٨٩، والأعلام ٦/٩٩، وتاريخ بغداد ٢/٢٥٦).

(٢) أبو طاهر الغباري: أبو طاهر محمد بن أحمد بن محمد الغباري، من فقهاء الحنابلة توفي سنة ٤٣٢هـ.
(انظر: طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (بيروت: دار المعرفة)٢/١٨٨).

(٣) انظر: المنار المنيف ص ٦٠-٦١، والبداية والنهاية ١/٣٣٥.

١- أنه لو كان الخضر قبل نوح لركب معه في السفينة، ولم ينقل هذا أحد.

٢- أنه قد اتفق العلماء أن نوحا لما نزل عن السفينة مات من كان معه، ثم مات نسلهم، ولم يبق غير نسل نوح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾[1]، وهذا يبطل قول من قال: أنه كان قبل نوح.

٣- أن هذا لو كان صحيحاً أن بشرا من بني آدم يعيش من حين يولد إلى آخر الدهر، ومولده قبل نوح لكان هذا من أعظم الآيات والعجائب، وكان خبره في القرآن مذكوراً في غير موضع، لأنه من أعظم آيات الربوبية، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى من استحياه ألف سنة إلا خمسين عاما، وجعله آية، فكيف بمن أحياه إلى آخر الدهر؟ وهكذا قال بعض أهل العلم: ما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان.

٤- أن القول بحياة الخضر قول على الله بلا علم، وذلك حرام بنص القرآن. أما المقدمة الثانية: فظاهرة. أما الأولى فإن حياته لو كانت

(١) الصّافّات: آية ٧٧.

ثابتة، لدل عليها القرآن، أو السنة، أو إجماع الأمة، فهذا كتاب الله تعالى فأين منه حياة الخضر؟ وهذه سنة رسوله ﷺ فأين فيها ما يدل على ذلك بوجه؟ وهؤلاء علماء الأمة وهل أجمعوا على حياته؟.

٥- أن غاية ما يتمسّك به من ذهب إلى حياته – من الصوفية- حكايات منقولة، يخبر بها الرجل: أنه رأي الخضر، فيا لله العجب! هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه؟ وكثير من هؤلاء يغتر بقوله: أنا الخضر.

ومعلوم أنه لا يجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله، فأين للرائي أن المخبر له صادق: لا يكذب؟.

٦- أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن، ولم يصاحبه، وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[1].

فكيف يرضى لنفسه بمفارقته لمثل موسى، ثم يجتمع بجهله العباد الخارجين عن الشريعة -مثل الصوفية - الذين لا يحضرون جمعة ولا جماعة، ولا مجلس علم، ولا يعرفون من الشريعة شيئاً؟. وكل

(١) سورة الكهف آية ٧٨.

منهم يقول قال الخضر، وجاءني الخضر، وأوصاني الخضر!.

فيا عجبا له أيفارق كليم الله تعالى، ويدور على صحبة الجهّال، ومن لا يعرف كيف يتوضأ، ولا كيف يصلّي؟!.

٧- أن الأمّة مجمعة على أن الذي يقول: أن الخضر، لو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا، لم يلتفت إلى قوله، ولم يحتج به في الدين، إلاّ أن يقال إنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ ولا تابعه، أو يقول هذا الجاهل: إنه لم يرسل إليه، وفي هذا من الكفر ما فيه.

٨- أنه لو كان حيا لكان جهاده الكفّار، ورباطه في سبيل الله ومقامه في الصف ساعة، وحضوره الجمعة والجماعة، ويعلمه العلم أفضل له بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات. وهل هذا إلا من أعظم الطعن عليه والعيب له"[١].

كما دلّ على موت الخضر، وعدم بقائه ما جاء في الحديث: (اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض)[٢].

قال ابن الجوزي: "ولم يكن الخضر منهم، ولو كان يومئذٍ حيّاً،

---

(١) المنار المنيف ص ٦١-٦٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم ١٣٨٤/٣.

لورد على هذا العموم، فإنه كان ممّن يعبد الله قطعاً"[١].

وقال رحمه الله: "أن من قال أنه موجود قائما، قال ذلك لهواجس و وساوس"[٢].

وقال ابن الجوزي: "اعلم وفّقك الله – أن البلية- في مثل هذه الأشياء تقع من ثلاث جهات:

أحدها: الجهل بالمنقولات، فنرى خلقا كثيرا يرون الشيء مسندا، فيبنون عليه، ولا يعرفون صحته من سقمه، وهذه علة قد عمّت جمهور العلماء -اليوم- في كل فن من العلوم، فإذا قيل لأحدهما؛ قال: هو سماعي، وعندي بإسناد، وكمن أدخل في حديث رسول الله ﷺ ما ليس منه، فكيف بمثل هذا؟.

والثانية: سلامة الصدور وكثرة الغفلة، عند قوم من الأخيار، فيرى أحدهم شخصا، فيغيب عنه، أو يرى منه ما يشبه الكرامة

---

(١) الزهر النضر في حال الخضر لابن حجر العسقلاني قدم له وحققه وخرّج نصوصه صلاح الدين مقبول أحمد ط١(نيودلهي: مجمع البحوث الإسلامية – ١٤٠٨هـ) ص ٩٤.

(٢) كشف الظنون/ حاجي خليفة (مكّة المكرّمة: المكتبة الفيصلية) ١١٢٥/٢، دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

وقد سمع أقواما يقولون الخضر حي -فيقولون- رأينا الخضر. وربما رأى أحدهم شخصا اسمه الخضر، فيتوهمه خضر موسى، وربما لقيه شيطان من الإنس أو من الجن، فقال: أنا الخضر، يريك أنك رجل صالح.

الثالثة: حب الصيت والذكر، وهو يختص بالملتمسين، فيقول قائلهم: لقيت الخضر، فجعل له جاها بين القوام، وهؤلاء قد اختصروا على دنيء الثياب... ليروا بعين الزهد، واستعملوا خشوع الأبدان، ليقال عنهم أهل تقوى، ولم يتعبوا جوارحهم في التعبد، وأن التعبّد نصب صعب، وادعاء زهد نصب سهل"[1].

وردّ ابن الجوزي -رحمه الله- على الصوفية دعوى حياة الخضر عليه السلام وتلقيهم منه، يُعدُّ من أقوى الردود التي تلقاها أهل السنة بالقبول وتوارثوها جيلاً بعد جيل.

وقد ساق ابن عساكر[2] من علماء القرن السادس، إنكار ابن الجوزي

(١) الزهر النضر في حياة الخضر ص ٣٥-٣٦.

(٢) ابن عساكر: أبو القاسم، علي بن الحسن هبة الله بن عبدالله بن الحسين المعروف بابن عساكر، ولد سنة ٤٩٩هـ، كان فهيماً، حافظا، متقناً، ذكيّاً، ورعاً، فقيهاً، حسن السمت، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، إمام المحدثين في وقته، انتهت إليه الرياسة في الحفظ، شيخ الإسلام، ومحدث الشام، ناصر السنة وقامع البدعة، حسن السيرة والسريرة، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له ميول أشعرية، إذ اشتهر عنه دفاعه عن المذهب الأشعري في كتابه المشهور شهرة واسعة "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري" ومن مصنّفاته =

للصوفية بادعائهم القول بحياة الخضر، والتحدث معه والأخذ منه[1].

ونقل ابن الجوزي إنكار إبراهيم الحربي بن إسحاق لّما سئل عن تعمير الخضر، فأنكر ذلك وقال: هو متقادم الموت، ولما قيل له أن طائفة من أهل زماننا يرونه ويروون عنه، قال: من أحال على غائب حي أو مفقود ميت لم ينتصف منه، وما ألقى ذكر هذا بين الناس إلاّ الشيطان[2].

وقد ردّ ابن عطية[3] على ادعاء الصوفية بقاء الخضر وعدم موته بقوله:

= أيضا تاريخ مدينة دمشق، توفي سنة ٥٧١هـ.

(انظر ترجمته في: معجم المؤلفين ٤٢٧/٢، وشذرات الذهب ٢٣٩/٤، وسير أعلام النبلاء ٥٦٧/٢٠، ٥٥٦، ومرآة الجنان ٣٩٣/٣، والمنتظم ٢٢٤/١٨، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ٦٥٠/٢).

(١) انظر: ترجمة (الخضر عليه السلام) في تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ١٤٤/٥.

(٢) انظر: الموضوعات ٣١٧/١، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر ١٦٤/٥، والمنتظم ٣٦٤/١، والمنار المنيف ص٥٩.

(٣) ابن عطيّة: أبو محمد، عبدالحق بن أبي بكر غالب بن تمّام بن عبدالرؤوف بن عبدالله بن تمّام بن عطيّة المحاربي الغرناطي المالكي، ولد سنة ٤٨٠هـ وقيل ٤٨١هـ، فقيه، حافظ، مشهور، إماماً في الفقه والتفسير والعربية، من أوعية العلم، ذكيّاً، فطناً، أخذ الناس عنه من مصنّفاته المشهورة: المحرر الوجيز في التفسير وقد أثنى عليه شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله، توفي سنة ٥٤١هـ بمدينة الورقة، وقيل سنة ٥٤٢هـ.

(انظر: الصلة ٣٦٧/١، ٣٦٨، معجم المؤلفين ٥٩/٢، وبغية الملتمس ص٣٣٩، وسير أعلام النبلاء ٥٨٨/١٩، وفتاوي ابن تيمية ١٩٤/٢، الديباج المذهب ٥٧/٢).

"ولو كان الخضر عليه السلام حيّاً ... لكان له في ملة الإسلام ظهور، ويستدل من السنة على موت الخضر بقوله ﷺ: « **أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد** »[1].

وقول الخضر: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾[2]، يقتضي أن الخضر نبي

وقال أيضا "الخضر نبي عند الجمهور".

لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا توحى إليه[3].

وهذا فيه رد على دعوى الصوفية أن الخضر ولي وليس بنبي.

وقال الفخر الرازي[4] من علماء الكلام في القرن السادس والذي دحض أقوال الصوفية واعتقاداتهم في هذه المسألة في معرض حديثه عن الخضر عليه السلام وهل هو نبي أم ولي قال:

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣٨٦/٩، والحديث سبق تخريجه انظر ص ١٩٤ .

(٢) سورة الكهف آية ٨٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٣٥٦/٩.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الرازي، فخر الدين، مفسر، أصولي، اشتغل بالفلسفة وعلم الكلام، ثم رجع في آخر حياته ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٠٦.

من مصنفاته: مفاتيح الغيب، المحصول في علم الأصول، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين.

انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢١، ولسان الميزان ٤٢٦/٤، ومعجم المؤلفين ٥٥٨/٣.

"والأكثرون أن ذلك العبد كان نبيا، واحتجوا عليه بوجود الحجة الأولى: أنه تعالى قال ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾[1] والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[3] والمراد من هذه الرحمة، النبوّة.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[4] وكل من علمه الله لا بواسطة البشر، وجب أن يكون نبيا يعلم الأمور بالوحي.

الحجة الثالثة: أن موسى عليه السلام قال: ﴿ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[5]، والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم.

الحجة الرابعة: أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى، حيث قال: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾[6].

وأما موسى، فإنه أظهر التواضع، حيث قال: ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾[7]، وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى، ومن لا

---

(١) سورة الكهف، آية (٦٥).

(٢) سورة الزخرف، آية (٣٢).

(٣) سورة القصص، آية (٨٦).

(٤) سورة الكهف، آية (٦٥).

(٥) سورة الكهف، آية (٦٦).

(٦) سورة الكهف، آية (٦٨).

(٧) سورة الكهف، آية (٦٩).

يكون نبياً ، لا يكون فوق النبي.

الحجة الخامسة: احتج الأصم على نبوّته بقوله في أثناء القصّة ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾[١]، ومعناه فعلته بوحي الله، وهو يدل على النبوّة.

الحجة السادسة: ما روى أن موسى عليه السلام، لما وصل إليه قال السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل فقال موسى -عليه السلام-: من عرفك هذا؟ قال الذي بعثك إليّ.

قالوا: وهذا يدل على أنه عرف ذلك بالوحي، والوحي لا يكون إلاّ مع النبوّة»[٢].

والذي عليه الجمهور، أن الخضر -عليه السلام- نبي[٣]، والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[٤] ووجه الاستدلال بالآية القرآنية الكريمة، أن الرحمة تكرّر إطلاقها في القرآن الكريم على النبوة، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

(١) سورة الكهف، آية (٨٢).

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي ط٢ (طهران: دار الكتب العلمية) ٢١/١٤٨-١٤٩.

(٣) نسبة إلى الجمهور: الآلوسي في روح المعاني ١٥/٣٢٠، وأبوحيان في تفسيره تفسير البحر المحيط ط٢ (دار الفكر - بيروت - ١٤٠٣هـ) ٦/١٤٧.
والقرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦)، والشاطبي في الموافقات، تحقيق عبدالله دراز - دار المعرفة - بيروت) (٢/١٩٦).

(٤) سورة الكهف، الآية (٦٥).

رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴾[٢] وإطلاق إيتاء العلم، دليل على نبوته أيضاً، وقد أطلق هذا القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ ... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ... ﴾[٣]،

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾[٤]، فهذه الأدلة قرائن تهدي إلى القول بنبوته -عليه السلام-[٥].

وممن قال نبوته من العلماء: الثعلبي، وابن عباس، ووهب بن منبه، وجاء القول برسالته عن إسماعيل بن أبي زياد، ومحمد بن إسحاق، وأبي الحسن الرماني، وابن الجوزي[٦].

ومن الأدلة على نبوة الخضر: أن موسى -عليه الصلاة والسلام-

(١) سورة الزخرف، الآيتان (٣١-٣٢).

(٢) سورة القصص، من الآية (٨٦).

(٣) سورة النساء، من الآية (١١٣).

(٤) سورة يوسف، من الآية (٦٨).

(٥) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (بيروت - عالم الكتب) (٤/١٦٧).

(٦) انظر الزهر النضر في حال الخضر ص٦٨.

طلب مصاحبة الخضر، لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به، فلو كان الخضر ولياً ولم يكن نبياً، لم يكن معصوماً وموسى أراد أن يتعلم منه زيادة علم على ما عنده من التوراة، فلو كان ما عند الخضر مجرد الإلهام، فمعلون أنه ليس بعلم ولا تشريع، ولا يفيد اليقين، لجواز أن يكون للشيطان فيه مدخل، فهل يُعقل أن يمضي موسى -عليه الصلاة والسلام- حقباً من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ويتواضع له، ويتبعه في صورة مستفيد منه، ليتعلم منه شيئاً للشيطان فيه مدخل هل يستقيم هذا في العقل؟[1].

ومن الأدلة القرآنية على نبوته عليه السلام: تعليله لما فعل بقوله: ﴿... فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[2] و: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا...﴾[3]، وقوله: ﴿... فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا...﴾[4]، فهذا يدل على أنه كان واثقاً من نتيجة عمله، جازماً بها، وهي غيب، لا يُدرك إلا بوحي نبوة، ولو كان إلهاماً لقال: فرجوت أن يكون كذا، ولم يجز به أبداً[5].

ومن الأدلة على نبوته قول ابن حجر العسقلاني: « والذي لا

---

(١) انظر البداية والنهاية ١/٣٠٤، وخواطر دينية، عبدالله بن محمد الغماري، ط١ (مصر - مكتبة القاهرة - ١٣٨٨هـ) ص٦٤.

(٢) سورة الكهف، من الآية (٧٩).

(٣) سورة الكهف، من الآية (٨١).

(٤) سورة الكهف من الآية (٨٢).

(٥) انظر: خواطر دينية ص٦٤.

يُتوقَف منه: الجزم بنبوته »[1].

وقول الآلوسي بعد أن نسب القول بنبوته إلى الجمهور: «...والمنصور ما عليه الجمهور وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين »[2].

واعتقاد المخرفين من الصوفية وغيرهم نبوة الخضر -عليه السلام- « أول عقدة تحل من الزندقة، اعتقاد كون الخضر نبياً؛ لأن الزنادقة يتزعمون بكونه غير نبي، إلى أن الولي أفضل من النبي »[3].

أمّا زعم الصوفية رؤية الرسول ﷺ يقظة لا مناماً، فلا تتأتى لأحد، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، ومن رأى ما يوهم ذلك فإنه من تلبيس إبليس.

ومعلوم، ما قد حدث من حوادث في عهد الصحابة، كانت الحاجة فيها إلى ظهوره ﷺ شديدة، وعلى سبيل المثال: اختلاف المهاجرين والأنصار على الخلافة، واستمرار هذا الخلاف عدة أيام، فلو ظهر ﷺ لهم وأخبرهم بأن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه؛ لانقطع النزاع، فكيف لا يظهر في اليقظة لأفضل الناس من بعده في أمرهم ويظهر لجهلة الصوفية؟!

ففي مثل هذه الحوادث لم يرد أن النبي ﷺ ظهر لأصحابه يقظة

---

(١) الزهر النضر ص١٦٢.

(٢) روح المعاني ١٥/٣٢٠.

(٣) الزهر النضر ص٦٧،

ليفصل بينهم مع أنهم أصحابه، فكيف يظهر لمن هو دونهم منزلة وتقوى؟!

وقد أنكر العلماء على الصوفية تلك الدعوى الزائفة، قال ابن الجوزي في أحد الصوفية الذي ادّعى رؤية الرسول ﷺ يقظة، فسأله عن كل ما يشكل عليه قائلا: "وقد كانت له نكت، إلا أن الغالب على كلامه التخليط، والأحاديث الموضوعة المصنوعة، والحكايات الفارغة، والمعاني الفاسدة... ومن ذلك أنه كان كلما أشكل عليه شيء رأى رسول الله ﷺ في اليقظة، فسأله عن ذلك فدله على الصواب"[(١)].

كما استشهد ابن الجوزي على كذب أحمد الغزالي برؤية الرسول ﷺ وسؤاله. بقول محدث الصوفية محمد بن طاهر المقدسي الذي قال: أن أحمد الغزالي آية في الكذب، وكان يزعم أنه يرى رسول الله ﷺ عياناً في اليقظة لا في نومه، وكان يذكر على المنبر أنه كلما أشكل عليه أمر رأى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فدله على الصواب.

وقال ابن الجوزي، كان أحمد الغزالي يتعصّب لإبليس ويعذره[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية ١٢/١٩٦، والصوفي هو أحمد الغزالي.

(٢) انظر المنتظم ١٧/٢٣٨، ٢٣٩، والقصاص والمذكرين لابن الجوزي. تحقيق د. قاسم السامرائي ط١(الرياض: دار أمية ١٤٠٣هـ) ص ١٥٦.

وانتقد ابن الجوزي الصوفية، عندما زعموا أنهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء والسماع منهم، واقتباس الفوائد منهم، فقال رحمه الله "إن ذلك الاعتقاد يعود إلى قلة علمهم بالسنن، والإسلام، والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم"[(١)].

كما رد ابن العربي المالكي على الصوفية زعمهم رؤية الملائكة والأنبياء عليهم السلام، وسماع كلامهم بقوله:

"وأمّا دعواهم رؤية الملائكة والأنبياء وسماع كلامهم، فذلك ممكن للكافر والمؤمن، فأما رؤية الكافر له، فعقوبة، وحجة وبلاء، وفتنة، وأما رؤية المؤمن فكرامة. ولو كان رؤيتهم للملائكة -كما يقولون- لصفاء القلب، فيتجلون فيه؛ لاقتصرت رؤيتهم على القلب الصقيل، ولم يرهم قلب الصدأ، قد تراكم بالرين، وهذا مما يمنعونه سرا، ولا يقدرون عليه جهرا؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام"[(٢)].

وذم ابن عقيل[(٣)] الصوفية لتعويلهم على ما يرونه حتى أفسدوا

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٦.

(٢) العواصم من القواصم ص ٣٥.

(٣) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل الحنبلي، أبوالوفاء، العالم المشهور، صاحب كتاب الفنون، ولد سنة ٤٣١هـ، وتوفي سنة ٥١٣.

=

أعمالهم. فقال: "ما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين، فهؤلاء يفسدون العقول بتوهمات شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال، ويهدمون قوانين الأديان.

وقال: "وقد خبرت طريق الفريقين؛ غاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح، والمتكلّمون عندي خير من الصوفية، ما لله طائفة أجلّ من قوم حدثوا عنه، وما أحدثوا، وعولوا على ما رووا لا على ما رأوا"[1].

وأنكر ابن العربي المالكي على الصوفية زعمهم رؤية النبيﷺ يقظة بعد موته قائلا: "وشذ بعض الصالحين -يعني الصوفية- فزعم أنها -أي الرؤية- تقع بعين الرأس حقيقة"[2].

وقال رحمه الله أيضا: "وزعمت طائفة من الصوفية أن الباري إنما

= انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/٤٤٣، والذيل على طبقات الحنابلة ٣/١١٨، والبداية والنهاية ١٢/١٨٤، والمنتظم ١٧/١٧٩، ومعجم المؤلفين ٢/٤٧٧.

(١) الآداب الشرعية، محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق وضبط وتخريج أحاديث وتقديم شعيب الأرناؤوط وعمر القيّام، ط٢(بيروت: مؤسسة الرسالة –١٤١٧هـ) ١/٢٢٨.

(٢) فتح الباري ١٢/٤٠٠-٤٠١، وشرح المواهب اللدنّية/ محمد عبدالباقي الزرقاني ط١(مصر: المطبعة الأزهرية – ١٣٢٥هـ) ٥/٢٩٩.

ضرب الأمثال في المنام لانتقاش العلوم في اللوح المحفوظ. دون الكشف الصريح، واستدلوا بحديث لا أصل له في الدين "والناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا"[1]، فتظهر لهم عند الموت حقائق كانت عندهم مشروحة بالمثال، وهذه نزعة فلسفية وإعراض عن الحق قصية، بل نحن الآن في حقائق واضحة وأمور عبرت عنها عبارات لائحة"[2].

وقال رحمه الله، وحديث (الناس نيام..)، ليس له أصل في الدين ولا يدخل في منزلة من منازل السقيم.

وقال: وليس بخبر، وإنما هو مثل ضربه بعض الحكماء ليظهروا بذلك فضل الآخرة على الدنيا[3].

وزعم الصوفية برؤية الله سبحانه، ورؤية الخضر عليه السلام، ورؤية النبيﷺ هذا كله في غاية تزكية النفس لكي تجد آذانا صاغية لدى

(١) انظر: الحلية ٧/٥٢، وطبقات الصوفية ص ٤٨، والإحياء ٤/٢٣.
وقال الحافظ العراقي حديث "الناس نيام..." لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزي إلى علي بن أبي طالب.
(انظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين العراقي، بهامش إحياء علوم الدين للغزالي (بيروت: دار المعرفة) ٤/٢٣.

(٢) قانون التأويل لابن العربي المالكي، ص ٥٦٧-٥٦٨.

(٣) انظر: العواصم من القواصم ص ١٤، ١٣.

العوام، وقد وجدت!، وتلقتها العقول الفارغة -حتى أصبح ذلك منهجا فريدا للصوفية في التلقي، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾[2].

وأمّا الإلهام والذوق والخطرات، فعندما اعتمد الصوفية في تشريعهم لا على المنقول ولا على المعقول، واعتمدوا على ما يسمونه "العلم اللدنّي" أو الإلهام، وعلى أذواقهم، وما يعرض عليهم من هواجس وخواطر متكئين على بعض الآيات والأحاديث في هذا المجال، بعد أن لووا أعناقها؛ أنكر عليهم ذلك علماء القرن السادس، وردّوا عليهم افتراءاتهم الباطلة.

ومن هؤلاء العلماء ابن الجوزي، الذي بدأ أولا بإثبات الإلهام، لكنه يؤكد أنه ليس علماً مستقلاً، أو كما يسميه الصوفية "باطناً" يختصون به. بل يراه ابن الجوزي ثمرة للعلم الشرعي والتقوى.

يقول: "أمّا أن يترك العلم -يعني الشرعي- ويقول أنه يعتمد على الإلهام والخواطر، فليس هذا بشيء، إذ لو لا العلم النقلي ما عرفنا ما

(١) سورة النجم آية (٣٢).

(٢) سورة الكهف آية (٥).

يقع في النفس أمِن الإلهام، أو الوسوسة من الشيطان؟".

ويؤكد رحمه الله أن "المُلْهَمَ" لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه".

ثم قال: "واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول كما أن العلوم النقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية".

ويقول في معرض ردّه على البسطامي دعواه تلقي علمه عن طريق الإلهام من الله بقوله: "هذا من قلّة العلم. إذ لو كان عالما لعلم أن الإلهام للشيء لا ينافي العلم ولا يتسع به عنه. ولا يُنكر أن الله عزّ وجلّ يلهم الإنسان الشيء".

كما ردّ عليه قوله "أخذوا علمهم ميتا عن ميت....." قائلا: "أصلح ما ينسب إليه هذا القائل أنه ما يدري ما في ضمن هذا القول، وإلا فهذا طعن على الشريعة"[1].

(١) تلبيس إبليس ص ٣٢٢-٣٢٣. وعندما يقول الصوفية أن ميلهم إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية كما سبق بيانه ص١٦١؛ فهم بذلك يحاربون العلم الذي حثّ عليه الإسلام وأعلى من شأنه وأهله لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾. سورة الزمر، آية (٩)، وقوله ﷺ: (العلماء هم ورثة الأنبياء) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول =

وعَـدَّ ابـن عقـيل مـزاعم الصـوفية في الإلهـام والـذوق مـن إلقـاء الشياطين ووساوسهم.

فقال: "ومن قال: حدثني قلبي عن ربي، فقد صرّح أنه غني عن الرسول، ومن صرّح بذلك فقد كفر".

وقال: "فهذه كلمة مدسوسة في الشريعة، تحتها هذه الزندقة ومن رأيناه يزري على النقل، علمنا أنه قد عطّل أمر الشرع، وما يؤمن هذا القائل "حدثني قلبي عن ربي" أن يكون ذلك من إلقاء الشياطين، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾[1].

وهذا هو الظاهر؛ لأنه ترك الدليل المعصوم، وعوّل على ما يلقى في قلبه الذي لم تثبت حراسته من الوساوس وهؤلاء يسمّون ما يقربهم خاطراً"[2].

= والعمل ١/٢٥، والحديث عن أبي الدرداء -ﷺ-. لذا لم نجدهم يكلفوا أنفسهم بمعرفة النصوص الشرعية، ولم يلزموا أنفسهم بذلك؛ بل كان مستندهم في طلب العلم والمعرفة، من خلال هذه المناهج التي ارتضوها لأنفسهم، وهم يعلمون أنهم لم يحسنوا صنعاً.

(١) سورة الأنعام آية ١٢١.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٧٥.

(مناهج الأدلة، لابن رشد، نشر وتحقيق د. عبدالحليم محمود الطبعة الخامسة ص ٧٣-٧٤).

وقد ردّ عمر بن محمد النسفي[1] أحد علماء الكلام في القرن السادس الإلهام، فقال "أسباب العلم للخلق ثلاثة الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل. والإلهام ليس من أسباب المعرفة عند أهل الحق"[2].

كذلك هاجم الفلاسفة أنصار الاستدلال العقلي، محاولة الصوفية إقحام الإلهام في مناهج تلقي المعرفة، يقول الفيلسوف ابن رشد[3]: "وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقا نظرية، أعني

---

(١) هو عمرو بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفي السمرقندي، أبوحفص، من متأخري الماتريدية، توفي سنة ٥٣٧هـ.

انظر: ترجمته في معجم الأدباء ١٦/٧٠، والجواهر المضية ٢/٦٥٧، ومعجم المؤلفين ٢/٥٧٠، وشذرات الذهب ٤/١١٥.

(٢) (العقائد النسفية، أبي حفص عمر النسفي (بغداد: مكتبة المتنبي – ١٣٢٦هـ) ص ٤٥).

(٣) هو أبوالوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المسمى بابن رشد الحفيد، ولد سنة ٥٢٠هـ، من أخطر الفلاسفة من مؤلفاته: تهافت التهافت، ومناهج الأدلة، وفصل المقال، توفي سنة ٥٩٤هـ، وقيل سنة ٥٩٥هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٢١/٣٠٧، والديباج المذهب ٢/٢٥٧، ومرآة الجنان ٣/٤٧٩، والنجوم الزاهرة ٦/١٥٤، وشذرات الذهب ٤/٣٢٠.

مركبة من مقدسات وأقيسه؛ وإنما يزعمون: أن المعرفة بالله، وبغيره من الموجودات، شيء يلقى في القلب عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالفكرة على المطلوب ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾[2]، ومثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[3] إلى أشباه ذلك يظن أنها عاضدة لهذا المعنى. ونحن نقول: "إن هذه الطريقة وإن سلمنا بوجودها فإنها ليست عامة للناس بما هم ناس. ولو كانت هذه الطريقة هي المقصود للناس، لبطلت طريقة النظر، ولكان وجودها بالناس عبثا. والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار، وتنبيه على طرق النظر، نعم لسنا ننكر أن تكون إماتة الشهوات شرطا في صحة النظر، مثلما تكون الصحة شرطا في ذلك، إلا أن إماتة الشهوات ليس هي التي تفيد المعرفة بذاتها وإن كانت شرطا فيها، كما أن الصحة شرط

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٨٢).

(٢) سورة العنكبوت، آية (٦٩).

(٣) سورة الأنفال، آية (٢٩).

في التعلم، وإن كانت ليست مفيدة له"[1].

والإلهام الحقيقي لا يمكن أن يناقض تعاليم الشريعة الإسلامية، ويخرج على حدودها، ومن ثم ينبغي إخضاع كل ما كان من هذا النوع لقواعد وأحكام الشريعة، ونصوصها ويعرض عليها، ويوزن بميزانها؛ فإن كان مأمور به أو مباحا قُبل به، وإلاّ ردّ.

أمّا ما يزعمه غلاة الصوفية، فلا يعدو كونه أوهام ووساوس شيطانية وخيالات فاسدة استولت على عقولهم.

ومنهج الصوفية في الذوق، يعتمد هو الآخر على ترك الأخذ من الكتاب والسنة إذ يعتبر داخلا في دائرة الإلهام، فنجد غلاتهم يعتمدون عليه ويحكمونه في كل أمر، والكتاب والسنة لا يشكلان شيئا في ميزان الإلهام والذوق معتقدين الاستغناء عنهما، وهم يزعمون أنه يثبت لديهم بصريح الذوق ما يخالف صريح النقل، حتى أصبح ذلك منهجا قامت عليه عقيدة الصوفية، واختلفت أفكارهم لاختلاف اذواقهم.

ولقد أنكر ابن الجوزي على الصوفية اعتمادهم على أذواقهم، منتقداً إياهم، فقال: "لما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم،

---

(١) مناهج الأدلة لابن رشد، نشر وتحقيق د. عبدالحليم محمود، الطبعة الخامسة ص٧٣-٧٤.



وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبّد، وسموا ذلك العلم: العلم الباطن، نهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر"[1].

وسخر منهم رحمه الله عندما قدموا أذواقهم على العلوم الشرعية، ووجّه نقده لبعضهم عندما قال: "لو تركني الصوفية لجئتكم بأسانيد الدنيا[2]، فقال: من أكبر المعاندة لله عزّ وجلّ الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل العلم، لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه، وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه، ولكن الناهين عن ذلك ما تفطّنوا لما فعلوا"[3].

ومّما يحسن الاستدلال به لبطلان أذواق الصوفية التي يبنون عليها أحوالهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم الفاسدة؛ الذوق الشرعي الذي يستلهمه المرء من القرآن الكريم، ومن أحاديث المصطفى الأمين ﷺ.

ذلك أن القلب إذا وجد حلاوة الإيمان بإخلاص العبودية لله وحده، ولم يكن شيء أحب إليه من ذلك، صرف الله عنه السوء والفحشاء، ولقد أخبر الله في كتابه من ذلك بقوله جل شأنه:

(١) تلبيس إبليس ص ٣٢٨.

(٢) راجع ص ١٨١ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٩.

﴿... كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1].

فإخلاص العبودية لله تعالى من شأنه تذوق حلاوة الإيمان ولذّته.

والذي اشرأبّ حب الإيمان بقلبه، ووجد حلاوته ولذة المذاق في هذا الإخلاص، ينعكس كل ذلك على وجدانه فيصبح الخوف والرجاء كجناحي الطائر عنده. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾[2].

وأخبر المصطفى الكريم ﷺ عن الأمور التي يسببها تذوّق المرء طعم وحلاوة الإيمان بقوله: (ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً)[3].

فأخبر ﷺ أن للإيمان طعماً وأن القلب يذوّقه، كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

(١) سورة يوسف آية ٢٤.

(٢) سورة الإسراء ٥٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على رض بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن ١/٦٢، والحديث عن العبّاس بن عبدالمطّلب.

فأخبر ﷺ أن لإدراك حقيقة الإيمان حلاوة يتذوّقها قلب المسلم بقوله : (ثلاث من كنّ فيه ، وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لايحبّه إلا لله ، ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

فهذا هو الذوق الحقيقي الذي أمر به الشرع ؛ لا ذوق الصوفية المعتمد على الآراء والهواجس الشيطانية.

أمّا منهجهم في تلقي علومهم عن طريق الخطرات والوساوس ، فقد واجهت نقدا شديدا من العلماء في القرن السادس ، الذين بيّنوا خطر ذلك على عقيدة المسلم.

فقد أنكر ابن الجوزي رحمه الله على الصوفية قولهم بالخطرات والوساوس واستدل بما رواه بسنده ، أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سئل عن الخطرات والوساوس ، فقال : ما تكلّم فيها الصحابة والتابعون[2].

وفي معرض نقده لمصنّفي الصوفية ، قال : ".. ثم جاء أقوام ، فتكلّموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات ، وصنّفوا في ذلك

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١/ ٩-١٠.

(٢) انظر تلبيس إبليس ص ١٦٦.

مثل الحارث المحاسبي"[1].

ونقل ابن الجوزي رحمه الله إنكار أبا زرعة[2] على الحارث المحاسبي عندما سئل عنه ، فحذّر منه ومن كتبه التي تتكلّم عن الوساوس والخطرات قائلاً للسائل : "إياك وهذه الكتب ، هذه الكتب كتب بدع وضلالات ؛ عليك بالأثر ؛ فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب ، قيل له : في هذه الكتب عبرة ! ، فقال : من لم يكن له في كتاب الله عزّ وجلّ عبرة ، فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن مالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والأئمة المتقدمة صنّفوا هذه الكتب على الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟ ! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم ، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبدالرحيم الدبلي[3] ، ومرة بحاتم الأصم[4] ، ومرة

(١) ن.م ص ١٦٦.

(٢) عبيدالله بن عبدالكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء ، أبوزرعة الرازي ، من حفاظ الحديث ، من الريّ ، ولد سنة ٢٠٠هـ ، زار بغداد وحدّث بها وجالس أحمد بن حنبل ، توفي بالريّ سنة ٢٦٤هـ .

(انظر ترجمته في : طبقات الحنابلة (١/ ١٩١) ، ومعجم المؤلفين (٢/ ٣٥١) ، والأعلام (٤/ ١٩٤) .

(٣) عبدالرحيم الدبلي : لم أعثر له على ترجمة فيما لدي من مراجع .

(٤) حاتم الأصم : أبوعبدالرحمن حاتم بن علوان الأصم ، من قدماء المشايخ الصوفية بخراسان من أهل بلخ ، توفي سنة ٢٣٧هـ (انظر : الطبقات الكبرى ١/ ٨٠) .

بشقيق[١] ، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع"[٢].

كما نقل ابن الجوزي في الرد على أصحاب الخطرات قول أبي جعفر، من باب الرد على الصوفية بأقوال شيوخهم فقال:

"وعن أبي جعفر قال: من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره، فلا تعده في ديوان الرجال"[٣].

وقد وقف العلماء في وجه الصوفية، الذين زعموا عروج أوليائهم إلى السماء، والتكلّم مع الله، ودحضوا أقوالهم؛ بل وكفّروهم لخروجهم عن الشريعة.

فقد كفّر القاضي عياض الصوفية، الذين اعتقدوا بالعروج البدني للأولياء، فقال رحمه الله:

"من ادّعى مجالسة الله؛ والعروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد

(١) هو شقيق البلخي: أبوعلي، شقيق بن إبراهيم الأزدي، من أهل بلخ، من مشاهير المشايخ الصوفية بخراسان، أول من تكلم بعلوم الأحوال، أي علوم الصوفية وهو أستاذ حاتم الأصم، توفي سنة ١٩٤هـ.
(انظر ترجمته في: طبقات الصوفية ص١٧، والطبقات الكبرى ٧٦/١، والموسوعة الصوفية للحفني ص٢٤٧).

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٦-١٦٧.

(٣) تلبيس إبليس ص ١٦٨.

الأشخاص؛ كقول بعض المتصوّفة.

وقال رحمه الله: وكذلك من ادّعى منهم - من غلاة الصوفية - أنه يوحى إليه، وان لم يدّع النبوة، وأنه يصعد إلى السماء ويدخل إلى الجنّة.. فهؤلاء كلهم كفّار، مكذّبون للنبيﷺ؛ لأن النبيﷺ أخبر أنه خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأخبر عنه الله تعالى، أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس"[١].

وأنكر ابن الجوزي رحمه الله على أبي يزيد البسطامي ما كان يزعمه من معراجه البدني إلى الله؛ واستشهد بإنكار أهل بسطام عليه عندما قال: لي معراج كما كان للنبيﷺ معراج، فأخرجوه من بسطام، فهام حتى مات[٢].

هذه بعض ردود علماء القرن السادس الهجري على افتراءات الصوفية حول منهجهم في الكشف وما تضمنته من وسائل وأساليب.

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض اليحصبي، تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت: دار الكتاب العربي) ١٠٦٧/٢، ١٠٧١، بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

(٢) انظر تلبيس إبليس ص ١٦٧.

المبحث الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الوجد

المطلب الأول: منهج الصوفية في الوجد.

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الوجد.

الوجد لغة:

- الإدراك، وجد مطلوبه؛ والشيء يجده، وبه وجْداً في الحب، وكذا في الحزن، والوجد: الغنى، الواجد فلان: أرى من نفسه الوجْد، والمصدر: وجداً، وجدة، وجداً، ووجودا، ووجداناً وإجداناً[(١)].
- قال بن فارس: الواو والجيم والدال: يدلّ على أصل واحد، وهو الشيء يلفيه. ووجدْت الضالة وجدانا. وحكى بعضهم: وجدت في الغضب وجداناً[(٢)].

الوجد اصطلاحاً:

- عرّفه الجرجاني بقوله: "ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل هو: بروق تلمع ثم تخمد سريعا"[(٣)].

---

(١) انظر: لسان العرب ٢١٨/١٥، مادة وجد، ومختار الصحاح ص ٧١٠، مادة وجد، والقاموس المحيط ٣٥٦/١، باب الدال فصل الواو.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٨٦/٦.

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٣٢٣.

المطلب الأول
منهج الصوفية في الوجد

حاول الغزالي تحديد مفهوم الوجد لما رأى تشعّب التعاريف عند القوم، فحاول أن يستخلص من مجموعها خلاصة جامعة تبيّن المراد فقال: "والأقاويل المقررة في السماع، والوجد كثيرة...، فلنشتغل بتفهم المعنى الذي الوجد عبارة عنه، فنقول: إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع، وهو وارد حق جديد عقيب السماع، يجده المستمع من نفسه، وتلك الحالة لا تخلو عن مسمّيين: فإنها إما ترجع إلى مكاشفات، ومشاهدات من قبيل العلوم والتنبهات، وإما أن ترجع إلى تغيرات ليست من العلوم، بل هي كالشوق والخوف والحزن...، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها...، فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه"[(١)].

ومن خلال هذا التعريف عند الغزالي يتبيّن أن من أقوى مثيرات الوجْد وبواعثه عند الصوفية، السماع ولذلك قالوا:

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٣/٢.

"الوجْد عبارة عمّا يوجد عند السماع"[1].

والوسائل المؤدية إلى الوجْد عند الصوفية تتنوّع ؛ فقد يحدث الوجد عند سماع كلام منثور، وقد يحدث عند سماع القرآن، وقد يحدث عند سماع الأشعار المطربة الملحّنة.

فقد روى الغزالي حكايات دالة على أن الصوفية يظهر عليهم الوجْد عند سماع القرآن، فينتج الصعق والشهق، والزعق، والغشي، وتمزيق الثياب[2].

كما أنه يحدث عند القوم نتيجة سماع الأشعار المطربة، الملحنة، بأصوات القوالين[3]، كما جاء عن الدقّي[4]، أنه قام ليلة، إلى شطر

(١) ن. م ٢/٢٩٢.

(٢) انظر: الإحياء ٢/٢٩٧.

(٣) القوّالون: جمع قوّال وهو الذي ينشد للصوفية أشعارهم، فيطربون، ويسمّى أيضا "المنشد"، وهو ما يعرف الآن بالفنّان أو المطرب أو المغني، وهي أسماء مترادفة لمعنى واحد..

(٤) الدقّي: أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقّي من أقران أبي علي الروذباري، صحب أبا عبد الله بن الجلاء، مات بعد الخمسين وثلاثمائة.
(انظر ترجمته: في الرسالة القشيرية ص ١١١، وطبقات الصوفية ص ١٠٩، والطبقات الكبرى ١/١١٩).

الليلة، وهو يتخبّط، ويسقط على رأسه، ويقوم والخلق يبكون، والقوالون يقولون هذا البيت:

بالله ما ردد فــؤاد مكتئب ... ليس له من حبيبه خلف[1].

وحكي عن أبي الحسين النوري أنه حضر مجلساً، فسمع هذا البيت:

ما زلت أنزل من ودادك منزلا ... تتحيّر الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع على جذع شجرة، قد قطعت وبقيت أصولها مثل السيوف، فصار يردد البيت والدم يخرج من رجليه، فورمت قدماه وعاش بعدها أياماً ثم مات[2].

وذكر عن أبي الحسين النوري أيضا أنه اجتمع مع جماعة من المشايخ في دعوة فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين النوري ساكت، فقال: ثم رفع رأسه فأنشدهم هذه الأبيات:

رب ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شجو صدحت في فنن
فبكائي ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقني
هي تشكو فلا أفهمها ... وإذا أشكو فلا تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها ... وهي أيضا بالجوى تعرفني

(١) انظر: اللمع ص ٣٦٤.

(٢) انظر: الإحياء ٢/٢٩١، والرسالة القشيرية ص ٥٢٣.

قال: فما بقي في القوم أحد إلا قام وتواجد[1].

وهكذا من خلال أقوال الصوفية في الوجد تبيّن أنه سبب عندهم لانكشاف الأمور الغيبية عندما يصل بهم هذا التواجد إلى حد الاضطراب والتخبّط والهيجان، حتى اعتبروا ذلك منهجاً من مناهج التلقّي عندهم التي بنوا عليها اعتقاداتهم وسلوكياتهم ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

(١) انظر: اللمع ص ٣٧٩، والإحياء ٢/٢٩٩.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الوجد

وقف العلماء في القرن السادس الهجري في وجه المبتدعة من المتصوفة الذي اعتقدوا أن الوجد والذوق من مناهج التلقّي عندهم لكشف العلوم الإلهية، ودحضوا مزاعمهم الباطلة.

وممّن شدّد الإنكار عليهم ابن الجوزي رحمه الله الذي وجّه نقده لمسالكهم في هذا المعتقد وبيّن بطلانه قائلاً:

"ومن يدّعي الوجد، ويتحفّظ من أن تزل قدمه، ثم يتعدى إلى تخريق الثياب، وفعل المنكرات في الشرع، فإنا نعلم قطعاً أن الشيطان يلعب به.

ثم قال رحمه الله: واعلم وفّقك الله أن قلوب الصحابة كانت أصفى القلوب، وما كانوا يزيدون عن الوجد على البكاء والخشوع، فجرى من بعض غرائبهم نحو ما أنكرناه، فبالغ رسول الله ﷺ في الإنكار عليه.

واستشهد ابن الجوزي بحديث العرباض بن سارية بقوله: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب)[1].

كما روى بسنده عن أبي حازم أنه قال: مرّ ابن عمر رضي الله عنه برجل ساقطا من العراق، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: إذا قرأ عليه القرآن يصيبه هذا. قال: إنّا لنخشى الله عزّ وجلّ وما نسقط[2].

ولم تكن حالة صحابة رسول الله ﷺ ما كان يفعله بعض جهّال الصوفية؛ بل كانوا يمتثلون قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[3].

وعندما زعم الصوفية، أنهم لا يستطيعون دفع هذا الوجد لغلبته أنكر ابن الجوزي عليهم ادّعاءهم بقوله: إن أول الوجد انزعاج في الباطن، فإن كفّ الإنسان بنفسه كيلا يطلع على حالة ييئس الشيطان منه، فبعد عنه. وإن أهمل الإنسان نفسه، ولم يبال بظهور وجده أو أحب إطلاع الناس على نفسه، نفخ فيه الشيطان، فانزعج على قدر نفخه.

(١) انظر: المسند للإمام أحمد ١٢٦/٤.

(٢) انظر تلبيس إبليس ص ٢٥٠-٢٥٢.

(٣) سورة الأنفال آية (٢).

ثم قال رحمه الله: وهذا التواجد الذي يتضمن حركات المتواجدين وقوة صياحهم، وتخبطهم، فظاهره أنه من عمل الشيطان، وقد أعانهم عليه[1].

وأنكر رحمه الله على الصوفية تخزيقهم الثياب المطروحة عند الوجد، ثم يدعون هذه حالة فقال: "ولا خير في حالة تنافي الشرع، أفتراهم عبيد نفوسهم أم أمروا أن يعملوا بأرائهم؟"[2].

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٥٧.

(٢) تلبيس إبليس ص٢٠٤، وقال ابن القيم رحمه الله في المدارج: "وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين: بخلاف هذا، وهو إحالة الحال على العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به وقبول حكمه، فإن وافقه العلم، وإلا كان حالاً فاسداً، منحرفاً عن أحوال الصادقين بحسب بُعده عن العلم، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه والعلم راعٍ والحال من رعيته، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد، وغايته: الانسلاخ من العلم والدين، كما لو جرى ذلك لمن جرى له" مدارج السالكين ٢٨٨/٢، وقال رحمه الله أيضاً في الروح "فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائن من كان" الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء للإمام ابن قيم الجوزية دراسة وتحقيق د. بسام علي العموش ط٢ (الرياض: دار ابن تيمية للنشر والتوزيع – ١٤١٢هـ) ٧٧٣/٢.

وأنكر ابن الجوزي على الصوفية ظنّهم وزعمهم الفاسد أن الوجد تقرّب إلى الله تعالى قائلا: ".. وإنما يظنّونه قربة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجدا وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب والتخبيط -وهو ما يفعله الصوفية- وكل ذلك بمعزل عن طريق السلف، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوفا من الوعيد، وشوقا من الوعد، وندماً على تفريط"[1].

ولما كان من آثار الوجد عند الصوفية رمي الثياب، وتمزيقها فقد سئل ابن عقيل رحمه الله عن تواجد الصوفية وتمزيقهم الثياب، فقال: خطأ وحرام، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال، وعن شق الجيوب، فقال له قائل: إنهم لا يعقلون ما يفعلون، قال: إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطرب يغلب عليهم، فيزيل عقولهم، أثموا لما يدخل عليهم من التخريق وغيره، مما يفسد، ولا يسقط عنهم خطاب

(١) مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق كمال علي الجمل، (المنصورة: مكتبة الإيمان) ص ١٥٤ بدون رقم الطبعة وسنة النشر.

الشرع، لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنب هذه المواضع التي تفضي إلى ذلك، كما هم منهيون عن شرب المسكر، فإذا سكروا، وجرى منهم فساد الأموال، لم يسقط الخطاب بسكرهم.

ثم قال رحمه الله: وهذا الطرب الذي يسميه أهل التصوّف وجداً، إن صدقوا فيه، فسكر طبع، وإن كذبوا، فنبيذ، ومع الصحو فلا سلامة منه مع الحالتين، وتجنب مواضع الريب واجب"[1].

فبيّن رحمه الله أن في ذلك مخالفة للشرع، وإضاعة للأموال وإفساداً للعقول.

ونقل ابن الجوزي عن الصوري[2]، أنه أنشده بعض مشايخه في ذم الصوفية، وما يفعلونه من تواجد وغيره فقال:

أهل التصوف قد مضوا	صار التصوّف مخرقة
صار التصوّف صيحة	وتواجدا ومطبقة
كذبتك نفسك ليس ذا	سنن الطريق المخلقة

(١) تلبيس إبليس ص ٢٦١.

(٢) الصوري: محمد بن علي بن عبد الله بن محمد الصوري (أبو عبد الله)، محدث، حافظ، توفي سنة ٤١٤هـ،

(انظر ترجمته: في المنتظم ١٥/٣٢٢، معجم المؤلفين ٣/٥٢٠).

حـتى تكـون بعـين مـن ... مـنه العـيون المحدقـة

تجـري عليـك صروفـه ... وهمـوم سـرك مطرقـة [1]

وقال ابن عقيل مستنكراً ما يفعله الصوفية من تواجد يؤدي إلى فساد العقول قائلاً :

".. وأما التواجد والحركة والتخريق فالأشبه بداعية الحق الخمود، ثكلت نفسي حين اسمع القرآن ولا أخشع، وأسمع كلام الطرقيين -الصوفية- فيظهر مني الانزعاج، هذا أدلّ دليل على أن الطباع تورث ما تورث من التغيرات، وأن ذلك الكلام صدر عن طبع، فأهاج طبعا، وللحق ثقل، فلا يغرنّكم تحرّك الطباع بالأسجاع والألحان، فإنما هو كعمل الأوتار والأصوات، وهل نهت الشريعة عن سكر العُقار، إلا لما يؤدي إليه من هذا الفساد؟"[2].

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٧٨.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٣٠٨/٢.

وحيث إن الوجد أحد متولدات السماع وآثاره، فسوف يتم التوسّع في الرد على الصوفية فيه في المبحث الخاص بالسماع.

الفصل الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الاستدلال

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الإستدلال بالقرآن الكريم.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الإستدلال بالسنة.

المبحث الثالث: موقف العلماء في القرن السادس من منهج الصوفية في الإستدلال بأقوال وأفعال مشايخ الصوفية، ومصنفاتهم.

تعريف الاستدلال لغةً :

- هو : "من دلّ على الشيء إذا أرشد إليه"[1] ، "والدليل ما يستدل به"[2] ، و"هو المرشد والكاشف"[3] .
- و"دلّ" عليه وإليه : أرشد ، يقال : دلّه على الطريق ونحوه ، و"استدل" عليه طلبه أن يُدل عليه ، وبالشيء اتخذه دليلا عليه[4] .

تعريف الاستدلال اصطلاحاً :

- هو "إقامة الدليل على صحة الدعوى"[5] .
- وقال الجرجاني : "تقرير الدليل لإثبات المدلول"[6] .

---

(١) معجم لغة الفقهاء ص ٤٠ .

(٢) مختار الصحاح ص ٢٠٩ ، مادة "دلل" ولسان العرب ٣٩٤/٤ ، مادة "دلل" .

(٣) المصباح المنير ، ص ٧٦ مادة "دلل" .

(٤) انظر المعجم الوسيط ص ٢٩٤ ، مادة "دل" ، وأساس البلاغة ص ٣١ ، مادة "دلل" .

(٥) معجم لغة الفقهاء ص٤٠ .

(٦) انظر : التعريفات للجرجاني ص٣٤ .

المبحث الأول

ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن الكريم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : منهج الصوفية بالاستدلال بالقرآن .

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن .

المطلب الأول
منهج الصوفية بالاستدلال بالقرآن

من الأسس والركائز الهامة التي بنى عليها الصوفية منهجهم في الاستدلال على مسائلهم العقائدية والتعبدية والسلوكية ؛ اتباع طريق التأويل ، أو ما يسمى عندهم بالتفسير الإشاري[١] ، الذي يعتمد على المزاج القلبي ، ذلك المنهج المعتمد على صرف النصوص الشرعية عن مرادها الشرعي إلى مراد بعيد الاحتمال ، اعتمادا على الخواطر والوساوس والرؤى الخالية من الضوابط ، حتى طوعوا الآيات القرآنية وفق ما تمليه رغباتهم وشهواتهم ؛ زاعمين أن للقرآن ظاهر وباطن ، والظاهر عندهم للعوام ، وهم أهل الشريعة ، والباطن للخواص وهم أهل الحقيقة والعارفين ، حتى ظهر ما يسمى عندهم بمصطلح "الحقيقة والشريعة" حيث فرّقوا بينهما ، حتى أصبح تكأة للتأويل والتفسير

---

(١) التفسير الإشاري : يختص بعلوم الخاطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات وهو ما تفردت به الصوفية ، وهذه العلوم لا تعلم إلا بالمنازلات والمواجيد (انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٠) ، وقد فسروا آي الذكر الحكيم على هذا الأساس بزعمهم .



الإشاري عندهم ، وذلك للتخلص من أحكام الشريعة.

الحقيقة والشريعة عند الصوفية[١] :

الحقيقة من أعظم غايات الصوفية ، وقد عرّفوها ، بأنها "سلب آثار أو صافك عنك بأوصافه ، -يعني الله جلّ وعلا- بأنه الفاعل منك : لا أنت"[٢].

وهي عندهم تعني مشاهدة الربوبية[٣].

أمّا الشريعة : فهي أمر التزام العبودية مما ورد به التكليف من الأمر والنهي ، والإباحة والحظر[٤].

---

(١) يزعم الصوفية أن الشريعة هي ما أوحاه الله إلى رسوله ، وأما الحقيقة فهي عندهم المعرفة العقلية التي وصلوا إليها بذوقهم وصارت من الدين بغض النظر عن موافقتها للشريعة أو مخالفتها ، ويجب التنبيه إلى أن من وسائل المعرفة عند الصوفية الذوق ، ولهذا اختلفت أفكارهم لاختلاف أذواقهم.

(٢) اصطلاحات الصوفية لابن عربي ص ١٤.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٥٥ ، ومعجم مصطلحات الصوفية للحفني ص ٧٩.

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٥٥ ، والتعريفات ص ١٦٧.

وعند الصوفية الشريعة بواسطة الرسل، والحقيقة تقريب بلا واسطة[1]، وربما يشار بالشريعة إلى الواجبات والأمر والزجر، وبالحقيقة إلى المكاشفات والمشاهدات؛ فالشريعة وجود الأفعال، والحقيقة شهود الأفعال؛ والشريعة أن تعبد الله، والحقيقة أن تشهده[2].

وللحقيقة والشريعة أركان عند الصوفية، يقول الهجويري:

"ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة:

الأوّل: العلم بذات الله.

الثاني: العلم بصفات الله وأحكامها.

الثالث: العلم بأفعال الله.

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة:

الأوّل الكتاب، الثاني: السنة، والثالث: الإجماع"[3].

ومن مزاعم بعض الصوفية في التفريق بين الحقيقة والشريعة، ما قاله الشبلي عندما سئل عن الفرق بين لسان العلم، ولسان الحقيقة، قال:

---

(١) يعني عن طريق الكشف والإلهام.

(٢) انظر: جامع الأصول في الأولياء/ أحمد الكمشخانوي النقشبندي (مصر: دار الكتب العربية الكبرى – ١٣٣١هـ) ص ٤٢، بدون رقم الطبعة.

(٣) كشف المحجوب ص ١٨.

لسان العلم ما تأدى إلينا بواسطة، ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا واسطة، فقيل له: ولسان الحق ما هو؟ قال ما ليس للخلق عليه طريق، ويقصد بهذا القول: أي بيان علمه والكشف عنه بالعبارة[1].

وممّا يثبت هذه التفرقة بين الشريعة والحقيقة عند الصوفية إنكار الهجويري عليهم، ووصف من يقول بذلك بالنفاق والزندقة، يقول: "إن ظاهر الحقيقة بلا باطن نفاق وباطن الحقيقة بلا ظاهر زندقة"[2].

وقالوا: إن للإسلام وشرائعه وللقرآن والحديث ظاهر وباطن يقول الطوسي: "إن العلم ظاهر وباطن... ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[3]. فالمستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوّف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك، فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام

---

(١) اللمع ص ٤٣٠. ولسان العلم عنده وقومه هي علوم أهل السنة والجماعة، أما لسان الحقيقة، فهي علوم الصوفية المزعومة.

(٢) كشف المحجوب ص ١٨.

(٣) سورة النساء آية ٨٣.

ظاهر وباطن"[١].

ولما كان الصوفية يزعمون أنهم أهل الحقيقة، وخُصُّوا بذلك، فلا غرو أن نجد منهم مَنْ يُعلي مِنْ قدر علومهم، ويحطّ من قدر علم وعلماء الشريعة.

يقول أبو يزيد البسطامي، وهو يخاطب علماء الرسوم - علماء الشريعة: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون حدثني فلان، وأين هو قالوا: مات، عن فلان، وأين هو قالوا: مات"[٢].

وقال بعض الصوفية: "لا تقطعوا بما علمتموه من الكتاب والسنة، ولو كان حقا في نفسه"[٣].

كما يقول الجنيد بهذا الشأن: "المريد الصادق غني عن العلم والعلماء[٤]، وإذا أراد الله بالمريد خيراً أوقفه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القرّاء"[٥].

---

(١) انظر: اللمع ص ٤٤، ٤٣.

(٢) الفتوحات المكيّة لابن عربي ١/٢٨٠. وعلماء الرسوم هم أهل التصوف بزعمه !!.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/١٧٥. وهذا فيه دلالة قاطعة على عدم اعتمادهم على االكتاب والسنة في تلقي علومهم.

(٤) أي علم الشريعة وعلمائها.

(٥) ن. م ١/٨٥. والقراء بمفهوم الصوفية هم أهل السنة والجماعة.

ومن صور تقليلهم من شأن علماء الشريعة، يقول الترمذي الملقّب عندهم بالحكيم: "أكثر الشريعة جاءت على فهم العامة"[١].

وهذا السراج الطوسي يهاجم الفقهاء؛ لأن علمهم -بزعمه- أقرب إلى حظوظ النفس، وأن علومهم قد يحتاج إليها في العمر مرّة، وعلوم الصوفية يحتاج إليها دائما[٢].

ويبرر الغزالي بعده عن علوم الشريعة، وميله والمتصوّفة إلى علوم الحقيقة بقوله: اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، ولذلك لم يتعلّموا ولم يحرصوا على دراسة العلم، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدات والإقبال على الله، ويقطع الإنسان همه من المال والولد، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن ولا يكتب حديثا"[٣].

وبلغ بهم حد الغلو أن جعلوا علم الباطن -الحقيقة- حاكما على علم الظاهر -الشريعة-، يقول أبو طالب المكيّ:

---

(١) ختم الأولياء للترمذي ص ٢٣٧. والعامة هم أهل السنة والجماعة بمفهوم الصوفية.

(٢) انظر: اللمع ص ٣٦.

(٣) الإحياء ٣/٢١.

"أهل الظاهر هم: أهل الخير واللسان، وعلماء الباطن: هم أرباب القلوب والعيان.... وعلمُ الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف حتى يأتي الحاكم بحكم فيه"[١].

وقد ترتب على أقوالهم ودعاويهم في التفريق بين الحقيقة والشريعة، وزعمهم بتلقي علومهم بدون واسطة؛ أن فسروا القرآن تفسيرا إشارياً، نهجوا فيه إلى تأويل الآيات القرآنية عن معناها الحقيقي الذي جاءت به الشريعة، حتى أصبح ذلك منهجا خاصا عندهم للاستدلال على صحة عقائدهم وأفكارهم ومستنداً لها.

وقد طفحت كتب الصوفية بهذا النوع من التأويل الفاسد للقرآن من خلال هذا المنهج الذي ارتضوه في الاستدلال.

وسأسوق هنا بعض النماذج من الآيات القرآنية التي شطحوا في تفسيرها تفسيرا إشاريا، وقام العلماء بتفنيدها والرد على أصحابها، فمن هذه الآيات:

في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾[٢].

سئل الجنيد وهو من ساداتهم عن معناها فقال: لا تنس العمل به.

---

(١) قوت القلوب ١/١٥٨.

(٢) سورة الأعلى آية ٦.

وعندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾[١]، قال: تركوا العمل به، فقال السائل: لا يفضض الله فاك[٢]!.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ ﴾[٣]. قال أبو سعيد الخرّاز، معنى "المتوسم" هو الذي يعرف الوسم وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات التي يبديها على الفريقين من أوليائه وأعدائه[٤].

وهذا القول فيه دلالة واضحة على الزعم بمعرفة ما في الغيب!.

وقال أبو حامد الغزالي في قوله تعالى: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[٥]. قال: إنما عني إبراهيم عليه السلام بالذهب والفضّة، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٩.

(٢) انظر: حقائق التفسير للسلمي ورقة ١٩٨، ٨٢: مخطوط بالمكتبة المركزية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برقم٣٧٨٧/ف و٩٩٠٢، وحلية الأولياء ١٠/٢٧٠.

(٣) سورة الحجر آية ٧٥.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية ص ٣٢٣، والموسوعة الصوفية للحفني ص ١٣٨.

(٥) سورة إبراهيم آية ٣٥.

الحجارة، وإنما عني بعبادته حبه والاغترار به[1].

وقال السلمي في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ ﴾[2]. قال أبوعثمان: غرقى في الذنوب، وقال الواسطي[3]، غرقى في رؤية أفعالهم، وقال الجنيد: أسارى في أسباب الدنيا إلى قطع العلائق[4].

ومن صور تفسيرهم للقرآن على غير مراده، استدلالهم بعدم التشاغل في المال بقوله تعالى: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾[5].

روى الطوسي عن أبي عمر بن علوان قال: حمل أبو الحسين النوري ثلاثمائة دينار ثمن عقار بيع له، وجلس على قنطرة، وجعل يرمي واحدا منها إلى الماء، ويقول جئتيني تريدي أن تخدعيني فيك بمثل

---

(١) انظر الإحياء ٣/٢٣٥، وميزان العمل للغزالي، كتب هوامشه أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية –١٤٠٩هـ) ص ١٥٤.

(٢) سورة البقرة آية ٨٥.

(٣) أبو بكر محمد بن موسى الواسطي، أصله من فرغانه، من أصحاب الجنيد والنوري، من علماء مشايخ الصوفية، توفي بمرو بعد العشرين وثلاثمائة من الهجرة. انظر طبقات الصوفية ص ٧٢.

(٤) انظر: حقائق التفسير ورقة ١٥ رقم المخطوط ٩٩٠٢.

(٥) سورة ص آية ٣٣.

هذا، قال السراج: فقال بعض الناس: لو أنفقها في سبيل الله كان خيرا لهُ فقلت: إن كانت تلك الدنانير تشغله عن الله طرفة عين: كان الواجب أن يرميها في الماء دفعة واحدة، حتى يكون أسرع لخلاصه من فتنتها؛ كما قال ﷻ: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾[1].

وقال الطوسي: استدل الصوفية بها على جواز إضاعة المال حتى لا يكون سببا للتشاغل عن الله[2].

كما استدل الشبلي[3] بها على جواز إحراق الثياب والخبز والأطعمة، وما ينتفع به الناس من منافعهم ومصالحهم[4].

ومن صور تأويلاتهم للقرآن، ما ذكره السلمي في قوله تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[5] قال: أي من هواجس نفسه، ووساوس

---

(١) سورة ص آية ٣٣.

(٢) انظر: اللمع ص ٤٨٤.

(٣) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، ويقال اسمه جعفر بن يونس، خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، توفي سنة ٣٣٤هـ، ودفن في مقبره الخيزران (انظر: طبقات الصوفية ص ٨٢، والطبقات الكبرى ١/١٠٣).

(٤) انظر: حلية الأولياء ١٠/٣٧٤.

(٥) سورة آل عمران آية ٩٧.

الشيطان[1].

وسئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2]، قال: لمن كان الله قلبه[3]!!.

وقد أضاف السلمي الضر إلى المس، والخير إلى الإرادة، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ... ﴾[4].

وقال السلمي أيضا في فاتحة الكتاب: إن الصوفية قالوا: إنما سميت فاتحة الكتاب؛ لأنها أوائل ما فاتحناك به من خطابنا، فإن تأدبت، وإلا حُرمت لطائف ما بعد.

---

(١) انظر حقائق التفسير ورقة ٣٣ رقم المخطوط ٩٩٠٢.

(٢) سورة ق آية ٣٧.

(٣) انظر: اللمع ص ١٢٨، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٢. وتفسيراتهم هذه لآي القرآن خاطئة على غير مرادها عند أهل السنة والجماعة أهل الحق. وسيأتي بيان ذلك في المطلب التالي.

(٤) سورة يونس آية ١٠٧.

وقال في قول الإنسان "آمين" أي: قاصدون نحوك[1].

ونجد لسورة الفاتحة تأويلاً آخر عند الغزالي حيث يقول: "إن هذه السورة فاتحة الكتاب، ومفتاح الجنة، وإنما كانت مفتاحا؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، ومعاني الفاتحة ترجع إلى ثمانية.."[2].

وقال السلمي في قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾[3] قال الحسين -الحلاج-: لا مكر أبين فيه من مكر الحق بعباده، حيث أوهمهم أن لهم سبيلا إليه بحال[4].

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[5]: أي ما نذهب من ولي لله، إلا ونأت بخير منه أو مثله[6].

---

(١) انظر: حقائق التفسير ورقة ١٦ رقم المخطوط ٩٩٠٢.

(٢) جواهر القرآن/ للغزالي، تحقيق د. محمد رشيد رضا قباني، ط٣(بيروت: دار إحياء العلوم ١٤١١هـ) ص٧١.

(٣) سورة الرعد آية ٤٢.

(٤) انظر: حقائق التفسير ورقة ١٣٥ رقم المخطوط ٩٩٠٢.

(٥) سورة البقرة آية ١٠٦.

(٦) انظر لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ص ٢٢.

ويمضي الصوفية في غلوهم وتعسّفهم في تفسير وتأويل آيات القرآن، فقد قالوا في معنى "البقرة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[1].

قالوا: إن بقرة الإنسان: نفسه[2].

مما سبق يتبيّن كيف استدل الصوفية في الآيات القرآنية؛ ذلك الاستدلال القائم على التأويل والتفسير الإشاري، الذي ارتضوه منهجا خاصاً لهم أضفوا عليه هالة من التقديس، حتى آل بهم الأمر إلى عقد أبواب كاملة في مصنّفاتهم، كما فعل صاحب كتاب "لطائف المنن" بل صنّفوا كتبا بكاملها لأجل هذا النوع من التفسير كما هو الحال بالنسبة للسلمي في كتابه "حقائق التفسير" وغيره كثير.

(١) سورة البقرة آية ٦٧.

(٢) انظر لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ص ١٦٣.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن

استنكر علماء القرن السادس، ما أقدم عليه الصوفية من تعسّف وتخبط في تأويل آيات القرآن الكريم، تأويلا أخرجها عن مقصودها الشرعي، التي جاءت به الشريعة، وبيّنوا فساد منهج استدلال الصوفية في القرآن الكريم عن طريق هذا التأويل الفاسد أو ما أسموه بالتفسير الإشاري.

فمن هؤلاء العلماء الأجلاّء الذين شدّدوا الإنكار على منهج الصوفية في الاستدلال ابن عقيل رحمه الله، الذي بيّن ضرر الصوفية، وما يقدمون عليه من إثارة الشبهات، والشكوك بين الناس، فقال: "ما على الشريعة أضرّ من المتكلمين والمتصوّفة، فهؤلاء يفسدون العقول بتوهمات شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال، ويهدمون قوانين الأديان.

ثم قال: وقد خبرت طريق الفريقين، غاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح، والمتكلمون عندي خير من الصوفية، لأن المتكلّمين قد

يـردون الشـك، والصـوفية يوهمـون التشـبيه والإشـكال، والـثقة بالأشـخاص ضـلال، مـا لله طائفـة أجـل مـن قـوم حدثـوا عـنه، ومـا أحدثوا، وعوّلوا بما رووا لا على ما رأوا"[1].

وشـدّد ابن الجوزي رحمه الله الإنكار على مصنّفي الصوفية الذين نهجوا في تفسير القرآن الكريم منهجا خطيرا، استدلوا به على تحقيق غاياتهم ومآربهم الفاسدة فقال:

"ومازال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً وجاء أبو عبد الرحمن السلمي، فصنّف لهم كتاب السنن، وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم"[2]. وقال عنه: إن أكثره هذيان لا يحل"[3].

وأكد بن عقيل رحمه الله: أنهم وضعوا تلك الطريقة لاجتذاب

---

(١) الأداب الشرعية لابن مفلح ١/٢٢٨، وتلبيس إبليس ص ٣٧٥.
ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم ط١ (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -١٤٠١هـ) ٨/٦٥-٦٨.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

(٣) ن. م ص ٣٣٢.

العقول والقلوب، فقال:

"فإن قال قائل هم أهل نظافة ومحاريب وحسن سمت، وأخلاق. قال: فقلت لهم لو لم يضعوا طريقة يجتذبون بها قلوب أمثالكم لم يدم لهم عيش، والذي وصفتهم به رهبانية النصرانية، ولو رأيت نظافة أهل التطفيل على الموائد، ومخانيث بغداد، ودماثة المغنيات، لعلمت أن طريقتهم طريقة الفكاهة، والخداع، وهل يخدع الناس إلا بالطريقة، أو لسان، فإذا لم يكن للقوم قدم في العلم ولا طريقة فبماذا يجتذبون به قلوب أرباب الأموال؟. واعلم أن حمل التكليف صعب، ولا أسهل على أهل الخلاعة من مفارقة الجماعة، ولا أصعب عليهم من حجر ومنع صدر عن أوامر الشرع ونواهيه"[1].

وانتقد ابن عقيل تقسيم الصوفية للشريعة والحقيقة فقال: "هذا قبيح؛ لأن الشريعة ما وصفه الحق لصالح الخلق وتعبداتهم، فما الحقيقة بعدها سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور ومخدوع"[2].

وعدّ ابن الجوزي أكثر الصوفية من الجهّال، عندما فرّقوا بين

---

(١) ن. م ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) ن. م ص ٣٢٥.

الشريعة والحقيقة فقال: "وقد فرّق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة، وهذا جهل من قائله، لأن الشريعة كلها حقائق"[(١)]، وقال أيضاً: «وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس العلم الباطن»[(٢)].

واحتج على الصوفية بما أنكره جماعة من قدمائهم عليهم، عندما أعرضوا عن ظواهر الشرع.

ومنها على سبيل المثال: ما قاله أبو بكر الدقّاق، وهو من أقران الجنيد "كنت مارا في تيه بني إسرائيل، فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر"[(٣)].

وابن الجوزي رحمه الله، ينتقد الصوفية في تفريقهم بين الحقيقة والشريعة، عندما جعلوا العلم هو ما يصل إلينا بواسطة، والتصوّف أو لسان الحقيقة يصل لهم بلا واسطة، فيقول على لسان أبي حفص بن

---

(١) ن.م ص ٣٢٤.

(٢) ن. م ص٣٢١.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٤، وانظر: كلام الدقّاق في الرسالة القشيرية ص ٥٣٩، واللمع ص ٢٨٦.

شاهين: "من الصوفية من رأى الاشتغال بالعلم بطالة. وقالوا نحن علومنا بلا واسطة. قال: وما كان المتقدمون في التصوّف إلا رؤساء في القرآن والفقه والحديث والتفسير. ولكن هؤلاء أحبّوا البطالة"[(١)].

ثم يذكر رحمه الله قولاً للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يعتمد عليه الصوفية في نظرتهم للتصوّف، فقد ذكر علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: "علم الباطن سرّ من أسرار الله عزّ وجلّ، وحكم من أحكام الله تعالى يقذفه الله عزّ وجلّ في قلوب من يشاء من أوليائه". قال ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له عن النبي ﷺ"[(٢)].

وقبّح ابن عقيل رحمه الله الصوفية عندما فرّقوا بين الشريعة والحقيقة قائلا: "فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرّغ الخالين من الإثبات، وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمال، مرقعات وصوف، وبيّن أعمال الخلفاء الملحدة، أكل وشرب ورقص وسماع، وإهمال لأحكام الشرع، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة، حتى جاءت المتصوّفة، فجاءوا بوضع أهل الخلاعة، فأول ما وضعوا أسماء وقالوا:

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٢٣.

(٢) ن. م ص ٣٢١.



حقيقة وشريعة، وهذا قبيح"[1].

وقد أنكر عليهم عبد القادر الجيلاني من صوفية القرن السادس تفريقهم بين الحقيقة والشريعة بقوله: "كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة، فهي باطلة"[2].

ومن جهة تأويل الصوفية لآي الذكر الحكيم، فقد ردّ ابن الجوزي على أبي حمزة الخرساني عندما أضاف المكر إلى الله فقال: "انظروا وفقكم الله إلى هذه الحماقة، وتسمية المغنم به مكرا، وإضافة المكر بهذا إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى مقتضي قول هذا، أن الأنبياء لا يأكلون ولا يشربون، بل يكونون مشغولين بالله عزّ وجلّ. فما أجرأ هذا القائل على مثل هذه الألفاظ القباح، وهل يجوز أن يوصف الله عزّ وجلّ بالمكر

---

(١) ن. م ص ٣٧٤.

(٢) (الطبقات الكبرى: ١/١٣١).

ولو نظرنا إلى المصدر الحقيقي لهذه البدعة - أعني بها التفرقة بين الحقيقة والشريعة، نجد أنها بدأت عند الشيعة، الذين قالوا أن لكل شيء ظاهر وباطن، وأن للقرآن ظاهر وباطن، فكل آية بل كل كلمة منه لها ظاهر وباطن، وهذا الباطن لا ينكشف إلا للخواص، ويعنون بهم أنفسهم، لذا نرى من أخذ بهذه البدعة من الصوفية قد تتبعوا طريقة التأويل، واستعملوا بها أساليب ومصطلحات الشيعة، وزادوها غموضاً.

على ما نعقله من معنى المكر؟، وإنما معنى مكره وخداعه أن يجازي الماكرين والخادعين، وإني لأتعجب من هؤلاء، وقد كانوا يتورعون من اللقمة، والكلمة، كيف انبسطوا في تفسير القرآن إلى ما هذا حدّه"[1].

كما أنكر ابن الجوزي على أبي عبد الرحمن السلمي تفسيره لبعض آيات القرآن وكفر من يقول بذلك.

وكان السلمي قد ذكر في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[2] قال: "قال الحسين -الحلاج- لا مكر أبين من مكر الحق بعباده، حيث أوهمهم أن لهم سبيلا.

قال ابن الجوزي: ومن تأمّل معنى هذا؛ علم أنه كفر محض لأنه يشير إلى أنه كالهزء واللعب، ولكن الحسين هذا هو الحلاج، وهذا يليق بذاك"[3].

وقبّح ابن الجوزي تفسير السلمي لفاتحة الكتاب فقال:

"وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسيره القرآن من كلامه الذي أكثره هذيان، لا يحل نحو مجلدين سماهما" حقائق التفسير" فقال في فاتحة الكتاب عنهم، أنهم قالوا: إنما سميت فاتحة الكتاب، لأنها

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) سورة الرعد آية ٤٢.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٣٢.

أوائل ما فاتحناك به من خطابنا؛ فإن تأدبت بذلك، وإلاّ حرمت لطائف ما بعد!، وقال في قول الإنسان "آمين" أي: قاصدون نحوك. قال ابن الجوزي: وهذا قبيح؛ لأنه لا يختلف المفسرون أن الفاتحة ليست من أول ما نزل.

أمّا عن قول الإنسان "آمين" أي قاصدون نحوك، قال ابن الجوزي هذا قبيح؛ لأنه ليس من (أمّ)؛ لأنه لو كان كذلك لكانت الميم مشدّدة[1].

وعندما فسّر الغزالي سورة الفاتحة بما يروق له، وتأوّل آياتها حسبما تمليه أهواؤه؛ أنكر ابن العربي المالكي من علماء القرن السادس ذلك على الغزالي، واعتبر ذلك تطاول على كلام الله وعلى الشريعة.

قال: "... وهذا كله تعد على القرآن وعلى الشريعة وعلى العلم"[2].

وروى ابن الجوزي بسنده عن جعفر بن محمد الخالدي، أنه قال:

---

(١) انظر: ن.م ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) سراج المريدين لابن العربي المالكي مخطوط رقم ١٩٥/ب، نقلا عن قانون التأويل ابن العربي المالكي، دراسة وتحقيق محمد السلماني.

ط١(جدة: دار القبلة للثقافة الإسلاميةن بيروت: مؤسسة علوم القرآن - ١٤٠٦هـ) ص ٥٤٧. الهامش.

حضرت شيخنا الجنيد، وقد سأله كيسان عن قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[1] قال الجنيد: لا تنسى العمل به، وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾[2] قال له الجنيد: تركوا العمل، فقال؛ لا يفضض الله فاك.

رد ابن الجوزي على هذه التفسيرات مستنكرا إياها، فقال: قلت: أما قوله: لا تنسى العمل به، فتفسير لا وجه له، والغلط منه ظاهر؛ لأنه فسّره على أنه نهي، وليس كذلك، إنما هو خبر لا نهي، وتقديره: فما تنسى؛ إذ لو كان نهيا، كان مجزوماً، فتفسيره على خلاف إجماع العلماء. وكذلك قوله: ودرسوا ما فيه، إنما هو من الدرس الذي هو التلاوة من قوله عزّ وجلّ: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[3]. لا من دروس الشيء الذي هو هلاكه"[4].

وكفّر القاضي عياض من استخف بالقرآن الكريم أو شيء منه؛ والتأويل الفاسد أو التفسير الإشاري يدخل ضمن ذلك؛ فقال:

---

(١) سورة الأعلى آية (٦).

(٢) سورة الأعراف آية (١٦٩).

(٣) سورة آل عمران (٧٩).

(٤) تلبيس إبليس ص ٣٣١.

"اعلم أن من استخف بالقرآن أو بالمصحف، أو شيء منه، أو جحد حرفا منه، أو كذب بشيء مما صرّح به منه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته وهو عالم بذلك، أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر بإجماع المسلمين"[1].

وقد قال المصطفى ﷺ **« من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار »**[2].

والتأويل الفاسد للقرآن لازمه اتهام الشارع بكتمان الحق وعدم نصح الخلق. ومن أخطر المخاطر على عقيدة المرء ودينه، أن يعتقد وجوب تأويل النصوص الشرعية من غير برهان من الله.

وعندما فسّر الصوفية معنى المتوسّم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[3] بالعارف والعالم بما في الغيب، ردّ هذا التفسير علماء القرن السادس كابن العربي المالكي، وذلك عندما بيّنوا معناها الشرعي، و أبانوا معنى الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على

---

(١) انظر: الشفا ٢/١١٠١، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٢٧٥.

(٢) انظر: سنن الترمذي للحافظ ابن عيسى محمد الترمذي، ضبط ومراجعة أصول وتصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، نشر محمد عبدالمحسن الكتبي، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، ٤/٢٦٨.

(٣) سورة الحجر آية ٧٥.

مطلوب غيرها، أو أن المتوسم هو الناظر والمتفرّس والمعتبر والمتفكّر وهي أقوال متقاربة المعنى[1].

وتفسير الصوفية للمتوسّم ادعاء للغيب لا ريب، وأمور الغيب لا يعلمها إلاّ الله سبحانه، أنظر إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[2] والآيات الكريمة التي تنفي علم الغيب لأحد سوى الله كثيرة، ومضمونها رد صارم على جميع المبتدعة من صوفية وغيرهم، فهل يعي هؤلاء القوم ذلك؟.

كما فنّد ابن الجوزي وابن عطية تفسير الصوفية لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[3] عندما قالت الصوفية: "أن المقصود في "الآية" هو الولي. فذهب العلماء على خلاف ما ذهبت إليه الصوفية، وقالوا: أن المراد بالنسخ إما رفع اللفظ، أو الحكم أو تبديل الآية بغيرها أو رفع الحكم مع بقاء اللفظ.

وإن المقصود بالآية هي الآية القرآنية من كلام الله، والمقصود بخير منها أي بألين منها وأيسر على الناس، وأنفع وأكثر للأجر، أو مثلها:

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٦.

(٢) سورة الأنعام آية ٥٩.

(٣) سورة البقرة آية ١٠٦

أي في الثواب والمنفعة[1].

وبهذا يبطل تفسير الصوفية للآية.

وأنكر ابن الجوزي على السلمي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾[2]، وقال: إنما الآية على وجه الإنكار، ومعناها: إذا أسرتموهم فديتموهم، وإذا حاربتموهم قبلتوهم، وهؤلاء -أي الصوفية- قد فسروها على ما يوجب المدح.

ورد على الصوفية تفسيرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[3]، وقال: هذا في غاية القبح؛ لأن لفظ الآية لفظ الخبر ومعناه الأمر وتقديرها من دخل الحرم فأمنوه وهؤلاء -أي الصوفية- قد فسّروها على الخبر، ثم لا يصح لهم لأنه كم من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس والوساوس[4].

وأنكر على الغزالي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ط٤ (بيروت: المكتب الإسلامي - ١٤٠٧هـ) ١/١٢٧، ١٢٨، والمحرر الوجيز لابن عطية ١/٤٣٢، وانظر سبب نزول الآية الكريمة في تفسير البغوي ١/١٣٣.

(٢) سورة البقرة آية ٨٥.

(٣) سورة آل عمران آية ٩٧.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٣٢.

نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[1] قائلا: وهذا شيء لم يقله أحد من المفسّرين، وقد قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾[2].

ومعلوم أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع لأجل العصمة، لأنه مستحيل. ثم ذكر مع نفسه من يتصوّره في حقه الإشراك والكفر، فخاف أن يدخل نفسه معهم، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾، ومعلوم أن العرب أولاده، وقد عبد أكثرهم الأصنام"[3].

وعندما فسّر الصوفية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[4] بأن المراد: أي لمن كان الله قلبه.

رد ابن الجوزي هذا التفسير وقال أن المراد بالقلب هو العقل[5].

وفي تفسير الصوفية للآية اعتقاد واضح بالحلول.

وأنكر ابن العربي المالكي على السلمي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف آية ٨٩.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٣٣.

(٤) سورة ق آية ٣٧.

(٥) انظر: زاد المسير ٨/٢٢.

يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ ...﴾[1] عندما أضاف الضر إلى المس، والخير إلى الإرادة.

قال ابن العربي: "إنه سبحانه خالق الضر ومنشئه، ومبدعه ومخترعه على الانفراد، فذكر بأبلغ أنواع الخلق وهو الإيصال له إلى العبد والاتصال به ردا على من يقول: أنه لا يخلق إلاّ الخير والضر الذي لا كسب فيه للعبد، فأما المضرة التي يكتسبها العبد لنفسه فلا يخلقها عند المبتدعة -ومنهم الصوفية- إلا العبد، والضرر عندنا هو الألم الذي لا نفع يوازيه، أو يوفى عليه ويقع جزاءً أو قصاصاً أو عقاباً. وهذه الآية رد على هؤلاء المبتدعة -ومنهم الصوفية- فإنه إضافة إلى نفسه، وأخبر أنه متصل بالعبد لفعله، فهو المنفرد بخلق الضرر من غير شريك يعضده، وكذلك ينفرد بكشفه من غير نصير ينجده"[2].

وقال رحمه الله في ردّه على أصحاب التفسير الإشاري: "ثم نظرنا في طائفة نبغت يقال لهم أصحاب الإشارات -الصوفية- جاءوا بألفاظ الشريعة من بابها، وأقروها على نصابها، لكنهم زعموا أن وراءها معاني غامضة خفية وقعت الإشارة إليها من ظواهر هذه الألفاظ، فعبروا إليها بالفكر، واعتبروا منها

(١) سورة يونس آية ١٠٧.

(٢) قانون التأويل لابن العربي ص ٥٢٠-٥٢١.

في سبيل الذكر، فقالوا أن في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾[1] الإشارة فيه إلى خلع الدنيا والآخرة من قلبه، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾[2] أي لا يكون لك معتمد ومستند غيري.

قال القاضي ابن العربي: هذه إشارة بعيدة أو قل معدومة، فإنها إلى غير مشار، وما أمر بطرح النعل إلا لأحد وجهين:

إمّا لأنهما كانا من جلد غير مذكّى، أو لئلاّ تطأ الأرض المقدسة بنعل تكرمة لها، كما لا يدخل الكعبة بها... فأمّا تفريغ قلبه، فعند سماع كلام الله يفرغ ضرورة، ألا ترى أن النبيﷺ إذا سمع كلام جبريل -عليه السلام- معه في الوحي لا يبقى له فراغ لغيره، فكيف مع سماع كلام الله؟.

فهذا معلوم: ولا يحتاج إليه بعبارة، ولا بإشارة، وهي حكمة شاذة وإشارة في برودات أو إلى تعطّل بحسب المقاصد، وأمّا إبقاء العصا فقد بيّن الله تعالى الفائدة منه، ومن يعتمد على عصا من طول القيام يقال له: إنه على غير الله يعتمد؟ هذه خرافة، فدع عنك نهياً. صيح في حجراته، وعوِّل على كتاب الله[3].

(١) سورة طه آية ١٢.

(٢) سورة النمل آية ١٠.

(٣) انظر: العواصم من القواصم لابن العربي ص ١٩٩، ١٩٨، ١٩٣.



وعندما قالت الصوفية: إن الله لما خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

ولم يقل: إني خالق عرشًا ولا سماءً ولا أرضاً ولا جنّة ولا ناراً، ولا شجراً ولا حيواناً، حتى خلق آدم، وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فما الحكمة فيه؟.

أنكر ذلك ابن العربي المالكي على الصوفية، واعتبره تكلّفاً منهم فيما يستغني عنه، وبيّن أن مدارك خواطرهم اختلفت في بيان ما تكلّفوا سؤاله، فركّب كل واحد منهم على ذلك فناً من فنون المقاصد عظيماً، وولجوا مفازة لا يقطعها المهارى، ولا يزال الفكر منها حياري، حتى أدخلها المتأخرون في كل آية وحرف، وغادروا في سبيلها رذيه كل جَلَديَّة وحرْف[2].

ورد ابن العربي المالكي وابن الجوزي وابن عطية تفسير الصوفية معنى البقرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[3]

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.

(٢) انظر قانون التأويل ص ٥١٨ – ٥١٩.

(٣) سورة البقرة آية ٦٧.



وقالوا أن المراد بالبقرة هي من جنس الحيوان[1]، وليست نفس الإنسان كما قالت بذلك الصوفية[2].

كما رد ابن الجوزي وابن العربي المالكي مزاعم الصوفية في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[3] عندما استدلوا بها على جواز إضاعة المال وتقطيع الثياب وإحراقها، وجميع ما ينتفع به الناس.

قال ابن الجوزي: "لقد أبان هؤلاء القوم عن جهل بالشرع وعدم عقل وقد بينا أن الشرع أمر بحفظ المال وأن لا يسلم إلا إلى رشيد، وجعله قواماً للآدمي، والعقل يشهد بأنه إنما خلق للمصالح. فإذا رمى به الإنسان، فقد أفسد ما هو سبب صلاحه؛ وجهل حكمه الواضع، واعتذار السراج[4] له أقبح من فعله؛ لأنه إن كان خاف فتنة فينبغي أن يرميه إلى فقير ويتخلّص، ومن جهل هؤلاء حملهم القرآن على رأيهم الفاسد، لأنه يحتج بمسح السوق والأعناق، ويظن جواز الفساد، والفساد لا يجوز في شريعة، وإنما

---

(١) انظر قصة البقرة وأمر بني إسرائيل بذبحها في زاد المسير ٩٦/١، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣٣٩/١-٣٤٠.

(٢) انظر: زاد المسير ٩٦/١، والمحرر الوجيز ٣٤٠/١.

(٣) سورة ص آية ٣٣.

(٤) أبي السراج الطوسي صاحب اللمع.



مسح بيده عليها، وقال أنت في سبيل الله"[1].

هذه بعض ردود علماء القرن السادس تجاه منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن الذي اعتمدوا فيه على التأويل والتفسير الإشاري فرده هؤلاء العلماء الأجلاّء وكان منهجهم في ذلك الاعتماد على الكتاب والسنة المطهّرة بعيداً عن الغلو والتعسّف.

ويلزم الصوفية أن يزنوا خواطرهم، وأعمالهم، وأقوالهم بميزان الشريعة، وقد قامت الحجة عليهم بأقوال ساداتهم، وقد قال أبوسليمان الداراني: "ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة"[2].

وقال الجنيد: "مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة"[3].

وقال أيضا: "علمنا هذا مستمد بحديث رسول الله ﷺ"[4].

ولا أدري إلى أي كتاب، وإلى أي سنة، يستدل غلاة الصوفية في

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٥٨، وانظر تفسير الآية عند ابن العربي المالكي في أحكام القرآن ٤/٦٧، وابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٧/١٣٢.

(٢) طبقات الصوفية ص ٢٠، والرسالة القشيرية ص ٧٩.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٨٦.

(٤) ن. م ص ٨٦.

أفعالهم وأقوالهم وتأويلاتهم وتفسيراتهم للقرآن؟! ولكن، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: "وقد كان أوائل الصوفية يقرّون التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبّس الشيطان عليهم لقلة علمهم"[1].

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٨.

ولقد تأثر الصوفية في تأويلاتهم لآي القرآن بالشيعة عندما جعلوا لكل آية ظاهر وباطن، يقول المستشرق نيكلسون: "استطاع الصوفية -متبعين في ذلك الشيعة- أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلا يلائم أغراضهم، على أن كل آية، بل كل كلمة في القرآن تخفي وراءها معنى باطنا لا يكشفه إلا الله للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في أوقات وجدهم، ومن هنا نستطيع أن نتصوّر كيف سهل على الصوفية بعد أن سلموا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلا من القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم أيّاً كانت".

(في التصوّف الإسلامي/ نيكلسون ص ٧٦).

المبحث الثاني

ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة.

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة.

المطلب الأول
منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم، ومكانتها في الإسلام، مكانة عالية رفيعة، فهي الشارحة والموضحة لآيات الأحكام في القرآن.

وقد أدخل على السنة، أحاديث موضوعة مكذوبة على الرسول ﷺ. وفيها الأحاديث الضعيفة التي لا يستدل بها، ولا تقوم بها حجّة.

وللصوفية منهج خاص بالاستدلال بها، ذلك أنهم اتخذوا الأحاديث الضعيفة، وما وضعوه منها؛ منهجا خاصّا للاستدلال على صحة أقوالهم وأفعالهم، وبلغ الأمر بهم أن ردوا الأحاديث الصحيحة؛ زعما منهم بأنها لا تفيد اليقين، وإنما تفيد الظن، واتخذوا ذلك ركنا وأساساً متيناً لقاعدتهم الاستدلالية.

فعقائدهم، وأخلاقهم، وآدابهم، وسلوكياتهم، وعباداتهم، بنوها على ذلك المنهج في الاستدلال.

فمثلا، نجدهم يستدلون على جواز التواجد، والحركة، والرقص أثناء السماع، بما روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ، إذ نزل جبريل، فقال: يا رسول الله، إن فقراء أمتك يدخلون

الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد الأعرابي:

قد لسعت حيّة الهوى كبدي   فلا طبيب لهـا ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به   فعنده رقيتي وترياقـي

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه، حتى سقط رداؤه عن منكبه، فلما فرغوا. أوى كل واحد منهم إلى مكانه. قال معاوية بن أبي سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية ليس لكريم من لم يهتز عند سماع الحبيب، ثم قسم رداء رسول الله ﷺ على من حضر أربعمائة قطعة"(١).

واستدلوا أيضا بجواز السماع بما ثبت أن جاريتين كانتا تضربان بالدف وتغنيان، وعائشة معهن، وكان ذلك بحضرة رسول الله ﷺ فلم ينكر شيئا من ذلك، ولمّا أنكر أبو بكر رضي الله عنه عليهن، قال

(١) عوارف المعارف ص ١٨٩، وصفوة التصوّف، محمد بن طاهر المقدسي، مراجعة وتدقيق أحمد الشرباصي (مصر: مطبعة دار التأليف) ص ١١٢، بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

دعهما، فأخذوا عن ذلك إباحة ضرب الدفوف أثناء السماع(١).

ومن أشهر الأحاديث الموضوعة التي استدلوا بها -وفق منهجهم- في القول بحياة الخضر -عليه السلام-.

فرووا حديثا مكذوبا فيه "يلتقي الخضر وإلياس في كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات بسم الله وماشاء الله، لايسوق الخير إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"(٢).

وكذلك حديث "إن الخضر في البحر، واليسع في البر، يجتمعان كل ليلة عند الردم الذي بناه ذو القرنين بين الناس، وبين يأجوج ومأجوج، ويحجان ويعتمران كل عام ويشربان من ماء زمزم شربة تكفيهما إلى قابل"(٣).

وعلى هذا الاستدلال جعلوا الخضر حجة لهم في صحة أقوالهم -كما يزعمون-.

(١) انظر: الرسالة القشيرية ص ٤٦٦، وعوارف المعارف ص ١٦١، وإحياء علوم الدين ٢٧٨/٢. وانظر الحديث في صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ٢٦٦/٤.

(٢) ذكره ابن حجر في الزهر النضر في حال الخضر ص ٧٥.

(وانظر: تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، ص ٥١٤، والإحياء ٣١٦/١.

(٣) ذكره ابن حجر في الزهر النضر في حال الخضر ص ٧٥.

ومن منهجهم في ذلك محاربة الدين بالكف عن الاستدلال بالحديث وكذلك الاستهزاء بعلماء الأمة.

فقد روى عن أبي سليمان الداراني أنه قال: "إذا طلب الرجل الحديث، أو تزوج أو سافر في طلب المعاش، فقد ركن إلى الدنيا"[(١)].

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري:

"نعم الرجل أنت لو لا رغبتك في الدنيا، قال: وفي ماذا رغبت؟! قالت: في الحديث"[(٢)].

وقد قالوا: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت"[(٣)].

ومن الأحاديث التي فهمها بعض الصوفية على خلاف مرادها في الشرع؛ الأحاديث التي تنهى عن ادخار المال والطعام ولو ليوم واحد.

قال بعض الصوفية: "أنه ﷺ لم يدخر شيئا لغد"[(٤)].

---

(١) الإحياء ٦١/١، ٢٤/٢.

(٢) الإحياء ٢٣٧/٢.

(٣) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية/ للمناوي، ط١(مصر: مطبعة وورشة تجليد الأنوار – ١٣٥٧هـ) ٢٤٦/١.

(٤) اللمع للطوسي ص ٣٥.

وقال الغزالي: "إن رسول الله ﷺ كان أسخى الناس، كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شيء، ولم يجد من يعطيه، وفاجأه الليل، لم يأوِ إلى فراشه حتى يتبرّأ منه، إلى من يحتاج إليه"[(١)].

ومنهج استدلالهم في العبادات لا يبتعد عن ذلك فوضعوا أحاديث

---

(١) الإحياء ٣٦١/٢، وقد ذكر الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء عن هذا الحديث: "أخرجه ابو داورد من حديث بلال في حديث طويل أهدي صاحب فدك لرسول الله ﷺ أربع ركائب عليهم كسورة وطعام وبيع بلال لذلك ووفاء دينه ورسول الله ﷺ قاعد في المسجد وحده.

وفيه قال: "فضل شيء" قلت: نعم، ديناران، قال: "انظر أن تريحني منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما فلم يأتنا أحد فبات في المسجد حتى أصبح وظلّ في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العتمة دعاني فقال: "ما فعل الذي قبلك؟" قلت: قد أراحك الله منه؛ فكبر وحمد الله شفقا من أن يدرك الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه.. الحديث، وللبخاري من حديث عقبة بن الحارث: ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته. ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسلا: كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته". (١) (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بهامش إحياء علوم الدين ٣٦٠/٢).

استدلوا بها على صيام النصف من شعبان، وكذلك ما يسمى عندهم بصلاة الرغائب[1].

وكان من منهجهم في الاستدلال على ترك الزواج قائما على وضع الأحاديث الباطلة، فقد احتجوا بحديث يروونه عن رسول الله ﷺ وفيه: "خيركم بعد المئتين خفيف الحاذ، قيل يا رسول الله، وما خفيف الحاذ، قال: الذي لا أهل له ولا ولد"[2].

كما استدل الصوفية على لزوم خلوتهم بما رووه عن الرسول ﷺ أنه قال: "من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[3].

هكذا كان منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة على صحة أقوالهم وأفعالهم، استدلال بالأحاديث الموضوعة والضعيفة، وإذا استدلوا بالأحاديث الصحيحة، فهم يزعمون أنها لا تفيد اليقين، ولذلك لجئوا إلى تأويلها التأويل الذي أخرجها عن مرادها الشرعي.

---

(١) انظر: الإحياء ١/٢٠٢، وقوت القلوب ١/٧٤.

(٢) عوارف المعارف ص ١٥٢.

(٣) ن. م ص ٢٠٨، والرسالة القشيرية ص ٣٠٢.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة.

أكد علماء القرن السادس على التمسك بالسنة النبوية الشريعة قولا وعملا، وعملوا على تطهيرها من دنس المفترين عليها، وشددوا على ذلك، ودحضوا المزاعم والأقاويل الكاذبة، وبيّنوا الأحاديث الصحيحة، والأحاديث الضعيفة، والموضوعة، وردوها على أصحابها.

ووقفوا في وجه المبتدعة الصوفية، الذين دأبوا على وضع الأحاديث التي تتناسب وعقائدهم ومذاهبهم الفاسدة، وفنّدوا أقوالهم بالحجّة الساطعة، النابعة من هدي الكتاب والسنة.

ومن هؤلاء ابن الجوزي الذي عدّ بعض الصوفية من الوضّاعين للحديث الذين لعب الشيطان بعقولهم، فقال: "قوم كانوا يقصدون وضع الحديث، نصرة لمذهبهم، وسوّل لهم الشيطان ذلك، وهذا مذكور عند قوم من السالمية"[1].

---

(١) السالمية: تنسب إلى عبد الله بن محمد بن أحمد بن سالم الكبير، بصري، مات سنة ٢٩٧هـ، كما تنسب أيضا إلى ابنه أبي الحسن أحمد بن محمد "ابن سالم =



وذكر رحمه الله عنهم: "أنهم قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب؛ ليحثّوا الناس بزعمهم على الخير، ويزجروهم عن الشر، وهذا تعاط على الشريعة، ومضمون فعلهم، أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى تتمة، فقد أتممناها"[1].

ووجه نقده الشديد لبعض الصوفية الذين وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب، فقال: "فمن ذلك أن قوماً منهم كانوا يضعون أحاديث الترغيب والترهيب، ولبّس عليهم إبليس، بأننا نقصد حثّ الناس على الخير، وكفّهم عن الشر، وهذا افتيات منهم على الشريعة؛ لأنها عندهم على هذا الفعل ناقصة تحتاج إلى تتمة.

قال رحمه الله: وهذه من أقبح التدليس؛ لأن الشريعة سياسة إلهية، ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلى سياسة

= الكبير" مات سنة ٣٦٠هـ، وهو أستاذ أبي طالب المكي، والسالمية فرع من السهلية، وهذه الطائفة تدّعي أن القرآن قديم، وهو حرف وأصوات قديمة أزلية، لازمة لنفس الله أزلاً وأبدا، وهي من الفرق الصوفية.

(انظر فتاوى ابن تيمية ٦/٥٢٤، ١٢/٣١٩-٣٢٠، والكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة، محمود عبد الرؤوف القاسم. ط٢(الأردن: المكتبة الإسلامية –١٤١٣هـ) ص ٣٥٥.

(١) الموضوعات لابن الجوزي ١/٢٠.

الخلق[1]، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾[3].

وقال ﷺ: « **من كذب علي متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار** »[4][5].

وقد نبّه ابن العربي المالكي عن فساد الناس وتغيّر المذاهب وحدوث البدع، وظهور الفتن والأهواء، وتلاعب الشيطان بالناس وتزيينه لهم طريق الكذب على الرسول ﷺ، وتزايد الأمر حتى غلب الكذب الصدقَ، فأقبلوا على الضعيف والباطل من الأحاديث – كما هي حال الصوفية- وأدبروا عن الصحيح والحق، وقد قال: ابن سيرين[6]: لم

(١) ن. م ١/٢٢.

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٣) سورة الرعد آية ٤١.

(٤) صحيح البخاري كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ١/٣٥.

(٥) انظر: تلبيس إبليس ص ١٣٢، ١٢٤.

(٦) ابن سيرين: محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر ابن عمرة البصري ثقة، ثبت، عابد، قال محمد جرير الطبري: كان ابن سيرين فقيها، عالما، ورعا، وأديبا، كثير الحديث، صدوقا، شهد له أهل العلم والفضل بذلك، وهو حجّة، توفي سنة ١١٠هـ. (انظر: تقريب التهذيب ص٤٨٣، وسير أعلام النبلاء ٤/٦٠٦).

يكن الناس يسألون عن الأشياء، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم، إن هذا العلم دين فانظروا ممّن تأخذون دينكم"[١].

وممّن شدد عليهم الإنكار ابن عقيل رحمه الله، فقد نقل عن شيخه أبو الفضل الهمداني قوله:

"فمبتدعة الإسلام، والواضعون للأحاديث، أشد من الملحدين؛ لأن الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم كأهل بلد سعوا في إفساد أحواله، والملحدون كالمعاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن، فهو شر على الإسلام، من غير المدالسين له"[٢].

ووجّه ابن الجوزي نقده الشديد لمصنّف الصوفية محمد بن طاهر المقدسي وكتابه "صفوة التصوّف" الذي ملأه مؤلفه بالأحاديث الموضوعة والضعيفة فقال رحمه الله عنه: "يضحك منه من يراه، ويعجب من استشهاده على مذهب الصوفية بالأحاديث التي لا تناسب

---

(١) انظر: عارضة الأحوذي ٢٣٨/٧، ٢٣٣.

(٢) الموضوعات لابن الجوزي ٤٤/١.

بما يحتج له من نصرة الصوفية"[١].

كما انتقده ابن عساكر بقوله: جمع ابن طاهر أطراف الصحيح وأبي داود والترمذي والنسّائي وابن ماجه وأخطأ في مواضع خطأً فاحشاً. وقال عنه ابن ناصر شيخ ابن الجوزي: كان لحنه ذا تصحيف قرأ: "وإن جبينه ليتقصد عرقا" بالقاف، فقلت بالفاء، فكابرني!!.

وقال عنه أيضا: كان يذهب مذهب الإباحية"[٢].

ونقل ابن الجوزي عن أبي سعد بن السمعاني[٣] قوله: سألت

---

(١) المنتظم ١٣٦/١٧.

(٢) انظر المنتظم ١٣٧/١٧.

(٣) السمعاني: هو أبو سعد، عبدالكريم بن أبي بكر محمد بن أبي منصور بن محمد بن عبدالجبّار التميمي السمعاني الخراساني المروزي، ولد سنة ٥٠٦هـ بمرو، فقيه، حافظ، واعظ، خطيب، عفيفا، حسن الأخلاق، ظريف الشمائل، سريع الفهم، أفتى ووعظ وساد أهل بيته صدوقا، ثقة، ديّناً، جميل السيرة، مليح التصانيف، من تصانيفه: الأنساب، والتحبير في المعجم الكبير وغيرها. توفي رحمه الله سنة ٥٦٢هـ بمرو.

(انظر ترجمته: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، محمد بن محمود بن النجّار، حققه وعلّق عليه وقدم لهم د. قيصر أبو فرج ط١(حيدر آباد: مطبعة مجلس =

إسماعيل الحافظ عن ابن طاهر، فتوقف، ثم أساء الثناء عليه، وكان سيئ الرأي فيه[١].

ونموذج آخر من محدثي ومصنّفي الصوفية الذي وجد نقدا شديدا من العلماء في القرن السادس. قال ابن الجوزي: "وجاء أبو حامد الغزالي وصنّف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلّم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه"[٢].

وبيّن رحمه الله السبب في جهل وضلال الصوفية حيث قال: "وكان السبب في تصنيف هؤلاء هذه الأشياء قلة علمهم بالسنة والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم"[٣].

وفصّل ابن الجوزي رحمه الله أحوال الصوفية كاشفا عوارها وما جعلته منهجا لها في الاستدلال فقال:

= دائرة المعارف العثمانية — ١٣٩٩هـ) ص ١٧٣، وشذرات الذهب ٢٠٦/٤، ومعجم المؤلفين ٢١١/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٢/٢٠).

(١) انظر: المنتظم ١٣٧/١٧.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٦.

(٣) ن. م ص ١٦٦.



"تأملت أحوال الصوفية والزهاد، فوجدت أكثرها منحرفا عن الشريعة بين جهل بالشرع، وابتداع بالرأي، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها، وبأحاديث لها أسباب، وجمهورها لا يثبت من ذلك أنهم سمعوا في القرآن ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾[٢]، ثم سمعوا في الحديث: (للدنيا أهون على الله من شاة ميتة، على أهلها)[٣] فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها"[٤].

وينتقد ابن الجوزي الصوفية ويرد على من تطاول على السنة النبوية، فيقول عمّن وضع الحديث: "قوم شق عليهم الحفظ، فضربوا نقد الوقت، وربما رأوا أن المحفوظ معروف، فأتوا بما يقرب مما يحصل مقصودهم، وهؤلاء قسمان: أحدهما القصّاص، ومعظم البلاء منهم يجري، لأنهم

---

(١) سورة آل عمران أية ١٨٥.

(٢) سورة الحديد آية ٢٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٢٩/١، وصحّح الحديث بمجموع الطرق والشواهد الشيخ الألباني رحمه الله في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ط١ (الرياض: مكتبة المعارف — ١٤١٢هـ) ٦٣٠/٥، رقم (٢٤٨٢).

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي (بيروت: المكتبة العلمية) ص ٢٥، بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

يريدون أحاديث تتفق وترقق، والصحاح تقلُّ فيها هذا. ثم إن الحفظ يشق عليهم ويتفق عدم الدين، ومن يحضرهم جهّال فيقولون"[1].

وأنكر رحمه الله على بعض القصّاص في زمانه -القرن السادس- تصنيفهم لبعض الكتب، وتعجب لما وصل بهؤلاء من الوقاحة، في الاستدلال بما رووه من أحاديث باطلة، وقد أورد ابن الجوزي شيئا منها[2].

وبيّن المنهج الذي اتبعه هؤلاء القصّاص في رواية الأحاديث والاستدلال بها، حتى قال: "وفي القصّاص من يسمع الأحاديث الموضوعة فيرويها وهو يعلم أنها كذب. فيؤذي بها الناس، وربما سمعها من أفواه العوام فرواها.. وربما سمع كلام الحسن أو سرى السقطي فقال: قال رسول الله"[3].

واعتبر ابن الجوزي استدلال الصوفية ترك الزواج ومحاربته، والترهيب منه من الرهبانية التي نهى الإسلام عنها، وأكد أن منهجهم في ذلك من تلبيس إبليس عليهم[4].

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٩.

(٢) انظر: ن. م ١/ ٣٠ وما بعدها.

(٣) القصاص والمذكرين ص ٣٠٩.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٩٢/ ٢٩٤.



ودحض علماء القرن السادس أحاديث الصوفية التي رووها كذباً كالاستدلال على جواز صلاة النصف من شعبان، وصلاة الرغائب وغيرها من البدع.

فقال ابن العربي المالكي: ذكر أبو عيسى في ذلك حديث الحجاج بن ارطأة عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، وطعن البخاري فيه من وجهين، أحدهما: أن الحجاج لم يسمع من يحيى بن أبي كثير، ولم يسمع يحيى بن عروة فالحديث مقطوع في موضعين، وأيضا، فإن الحجاج ليس بحجة، قال: وليس في ليله النصف من شعبان حديث يساوي سماعه، ثم قال كسوفا قمريا، فأجمع الخلق للكسوف، واتفق لهم مع الكسوف تلك الليلة، واتصلت لهم الليلتان، فما رأيت منكرا قط كان أجمع منه ولا أخجل[1].

ورد ابن الجوزي الأحاديث التي استدل بها الصوفية على جواز صلاة الرغائب وصلاة النصف من شعبان، واعتبرها من الأحاديث

---

(١) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث، عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بابن شامة، دراسة وتحقيق عادل العباس (مصر: مكتبة ابن سينا) ص ٥٤-٥٥، بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

الموضوعة والمكذوبة على رسول الله ﷺ[1].

ودحض أبوبكر السمعاني[2]، وابن الجوزي مزاعم الصوفية بجواز صلاة الرغائب، واستدلالهم بما رووه من أحاديث، وبينوا أن جميع الأحاديث المروية في فضل هذه الصلاة كذب وباطل لا تصحّ.

وفي ذلك يقول ابن رجب -رحمه الله-: « وأما الصلاة -صلاة الرغائب- فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء ومن ذكر

---

(١) سيأتي بيان استدلال الصوفية على هاتين الصلاتين، ورد العلماء عليها في الباب الثالث.

(٢) السمعاني : أبوبكر ، محمد بن منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني ، التميمي ، المروزي ، تاج الإسلام، ولد بمرو سنة ٤٦٦هـ ، وقيل : ٤٦٧هـ ، محدث ، حافظ ، فقيه ، أديب ، مؤرخ ، نسابة ، واعظ، شاب نشأ في عبادة الله تعالى ، فتبحر في علم الحديث ، ومعرفة الرجال والأسانيد ، حفظ المتون ، جمع الخلال الجميلة من الإنصاف والتواضع والتودد . توفي بمرو سنة ٥١٠هـ .

(انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٤/٢٩ ، سير أعلام النبلاء ١٩/٣٧١ ، مرآة الجنان ٣/٢٠٠ ، معجم المؤلفين ٣/٧٣٤) .

ذلك من أعيان العلماء والمتأخرين من الحفاظ إسماعيل الأنصاري[1]، وأبوبكر السمعاني، وأبوالفضل بن ناصر وأبوالفرج ابن الجوزي وغيرهم، وإنما لم يذكرها المتقدمون لأنها أحدثت بعدهم، وأول ما ظهرت بعد الأربعمائة »[2].

ورد علماء القرن السادس على مزاعم وافتراءات الصوفية باستدلالهم على وجوب التجرد من المال، وذلك بإضاعته.

قال ابن الجوزي، وأمّا كلام المحاسبي، فخطأ يدل على الجهل بالعلم، وقوله: " إن الله عزّ وجلّ نهى عباده عن جمع المال، وأن رسول الله ﷺ نهى أمته عن جمع المال، فهذا محال؛ إنما النهي عن سوء القصد بالجمع، وعن جمعه من غير حله"[3].

---

(١) إسماعيل الأنصاري: إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، أبوإسحاق الأنصاري، الإمام، الثقة، ولد سنة بضع ومئة، وتوفي سنة ثمانين ومئة.
انظر: سير أعلام النبلاء ٨/٢٢٨.

(٢) لطائف المعارف عبدالرحمن بن شهاب الدين بن رجب، تحقيق ياسين محمد السواس، ط١ (دمشق وبيروت: دار ابن كثير -١٤١٣هـ) ص ٢٢٨، والموضوعات لابن الجوزي ٢/٤٣٨، ٤٤٣.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٢٢.

ثم قال رحمه الله : " وأما استدلالهم على أن ترك المال الحلال أفضل من جمعه، فهذا استدلال محال وباطل، لم يقل به الرسول ﷺ قط "[١].

وقال : "وهذا كله بخلاف الشرع والعقل، وسوء فهم للمراد بالمال "[٢].

والشارع الحكيم قد أمرنا بحفظ الأموال، لأن فيها قوام هذه الحياة، وفيها التعفف عن مسألة الناس.

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾[٣]، ونهى الرسول ﷺ عن إضاعة المال في الحديث الشريف الذي جاء فيه (إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففوا الناس)[٤].

والآيات والأحاديث التي تحث على كسب المال بالطرق المشروعة، وتنهى عن تبذيره كثيرة جداً.

(١) ن.م ص ١٧٩.

(٢) ن.م ص ١٧٨.

(٣) سورة النساء آية ٥.

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الوصايا، باب : (أن تترك ورثتك أغنياء خير من أن يتكففوا الناس) ٣/١٨٦ ، والحديث رواه سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.

ورد ابن الجوزي رحمه الله على الصوفية أحاديثهم التي استدلوا بها على جواز خلوتهم فقال : "قلت : وقد عمل جماعة من المتصوّفة والمتزهّدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوما، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين، فيهذي، ويخيّل إليه أنه يتكلّم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحاً، فإن الإخلاص يتعلّق بقصد القلوب لا بفعل البدن، فلله درُّ العلم!"[١].

وقال في موضع آخر : وأمّا الأربعينية[٢]، فحديث فارغ، رتبوه على حديث لا أصل له، وهذا الحديث لا يصحّ عن رسول الله ﷺ.

قال ابن عدي : هو متن منكر[٣].

وقد أنكر ابن الجوزي على الصوفية استدلالهم بالأحاديث الموضوعة والضعيفة على القول بحياة الخضر -عليه السلام- والتلقي عنه[٤].

وأكد علماء القرن السادس على قيام الصوفية بوضع الأحاديث

(١) الموضوعات لابن الجوزي ٣/٣٨٩.

(٢) الأربعينية : سيأتي الحديث عنها في العبادات في الباب الثالث.

(٣) انظر : تلبيس إبليس ص ٢١٨ ، وانظر : الموضوعات لابن الجوزي ٣/٣٨٨، ٣٨٩.

(٤) انظر ما سبق ص١٩١وما بعدها .

الباطلة وانتقدوهم إزاء ذلك ورموهم بالكذب والزندقة، فذكر القاضي عياض أن من الكاذبين على رسول الله ﷺ من يصنع عليه ما لم يقله أصلا، إما ترافقا واستخفافا، كالزنادقة، وأشباههم من الصوفية ممن لم يرج للدين وقارا أو حسبة بزعمهم، أو تدينا كجهلة المتعبّدة -الصوفية- الذين وضعوا الأحاديث في الفضائل والرغائب، أو إغرابا وسمعة كفسقة المحدثين[1]، أو تعصّبا واحتجاجا كدعاة المبتدعين، ومتعصبي المذاهب -ومنهم الصوفية بطبيعة الحال- ومنهم من يكذب، فيدّعي سماع ما لم يسمع أو لقاء من لم يلق ويحدث أحاديثهم الصحيحة عنهم، فهؤلاء كذابون[2].

---

(١) مثل محدّث الصوفية محمد بن طاهر المقدسي في كتابه "صفوة التصوّف".

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق يحيى إسماعيل ط١(المنصورة: دار الوفاء ١٤١٩هـ)١/١٥٣-١٥٤، ١٥٥.



المبحث الثالث

ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال الشيوخ ومصنفاتهم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال مشايخهم ومصنّفاتهم.

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال مشايخ الصوفية ومصنّفاتهم.

المطلب الأول
منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال مشايخهم ومصنّفاتهم

اعتبر الصوفية الاستدلال بأفعال وأقوال مشايخهم من أرقى مناهج الاستدلال لديهم، فاعتنوا بتدوين أخبارهم في الكثير من مصنّفاتهم[1]، وتوارثوها جيلا بعد جيل، حتى أضفوا عليها القدسية التامة، وجعلوها المعين الذي يستقون منه علومهم ومعارفهم، وألبسوا هذه المصنّفات وهؤلاء الشيوخ ثوب العصمة من الخطأ والزلل والنسيان، بل بلغ الأمر بغلاتهم أن ادعوا الألوهية لبعض الأئمة المشايخ.

قال بعضهم: "من لم يعتقد في شيخه الكمال، لا يفلح على يديه أبدا"[2].

وقال علي الدقّاق: "من دخل في صحبة شيخ، ثم اعترض عليه بعد ذلك فقد نقض عهد الصحبة، ووجب عليه تجديد العهد"[3].

---

(١) كالرسالة القشيرية، واللمع، وقوت القلوب، وعوارف المعارف، والتعرف لمذهب أهل التصوف، وإحياء علوم الدين، والطبقات الكبرى وغيرها.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ١/١٧٤.

(٣) ن. م ١/٧٤.

وقال القشيري: "إن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصي والمخالفات"[١].

ويقول أيضا: " ومن رده قلب شيخ من الشيوخ، فلا محالة يرى غُبّ ذلك، ولو بعد حين، وهو الشقي المحروم"[٢].

ويقول أبو يزيد البسطامي: "من لم يكن له أستاذ، فإمامه الشيطان"[٣]، كما يقولون: "من ادّعى الطريق بلا شيخ، كان شيخه إبليس"[٤].

قال القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقّاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا، فهو عابد هواه، ولا يجد نفاذا..."[٥].

والصوفية يعلون من قدر مشايخهم، بل وأوصلوهم مقام النبوة،

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٣٢.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٧٧.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥٧٢.

(٤) الأنوار القدسية ١/١٧٤.

(٥) الرسالة القشيرية ص ٥٧٢.

"فلا يجيزون الاعتراض على المشايخ، ويلزمون الاتباع طاعة عمياء، حتى قالوا: "من قال لأستاذه لِمَ؟ لا يفلح، لأن الشيخ في أهله كالنبي في أمته"[١].

ويبالغ الصوفية في العلاقة بين المريد وشيخه والعكس، وخاصة علاقة المريد بشيخه، حتى أصبحت هذه العلاقة تشكل منهجا خاصا للاستدلال بأقوال المشايخ.

يقول السهروردي: "فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه، وتأدب بآدابه، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد، ويكون مقام الشيخ مستودع نفائس الحال، وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال"[٢].

وسعياً من الصوفية لتحقيق قبول منهج استدلالهم بأقوال وأفعال المشايخ زعموا أن مجرد الإنكار على الشيخ لا يجوز، ومن ينكر عليه،

(١) غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية / لأبي عبد الله التفزي الرندي ١/١٩٧، وتنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، ص ٥٥٩، وعوارف المعارف ص ٣٧٠. وسيأتي رد العلماء على هذه البدعة في المطلب التالي.

(٢) عوارف المعارف ص ٩٣.

ستعاجله العقوبة حتماً"[1].

ويعتقد الصوفية أن الشيخ واسطة بين الله ومريديه، وأنه أمين الإلهام، كما أن جبريل عليه السلام، كان أميناً للوحي، يقول السهروردي: "فالشيخ ينقي بذر الكلام عن ثوب الهوى ويسلمه إلى الله، ويسأل المعونة والسداد. ثم يقول: فيكون كلامه بالحق من الحق، والشيخ للمريدين أمين الإلهام، كما أن جبريل أمين الوحي. فكما لا يخون جبريل في الوحي، لا يخون الشيخ في الإلهام. وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فالشيخ مقيد برسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا، لا يتكلم بهوى النفس"[2].

وكما أن الصوفية يتلقون علومهم من مشايخهم الأحياء؛ فإن المريدين يتلقون عن أشياخهم المقبورين، وعن ذلك يقول علي الخواص: "... إنما كان مشايخ القوم يجيبون تلامذتهم من قبورهم دون مشايخ الفقهاء في الفقه؛ ليصدق الفقراء -أي الصوفية- في اعتقادهم في أشياخهم، دون الفقهاء، فلو صدق الفقيه، لأجابه الإمام الشافعي

(١) انظر: الطبقات الكبرى للشعراني ٢/٢٠.

(٢) عوارف المعارف ص ٣٧٠.

-رحمه الله- وخاطبه مشافهة"[1].

ويعلي القشيري من مكانة شيوخ الصوفية -ويزعم- قوة استدلالهم وحججهم، فيقول: "فإن هؤلاء -الصوفية- حججهم في مسائلهم أظهر من كل أحد، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب، والناس، إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيب، فهو لهم ظهور... فهم من أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال"[2].

كما استدلوا بأقوال أئمتهم ومشايخهم، وعظموهم أشد تعظيم، وجعلوا أقوالهم هي المعيار في الأخذ والرد؛ وقدموها على الكتاب والسنة.

يقول معروف الكرخي[3]: "كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/١٥٤.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٧٠.

(٣) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، ويقال معروف الفيرزان يلقب بالزاهد، معروف بالورع، توفي سنة ٢٠٠هـ، وقبره في بغداد. (انظر ترجمته في صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري. تخريج أحاديثه د. محمد رواس قلعجي. ط٢ (بيروت: دار المعرفة – ١٣٩٩هـ) ص ٣/٣١٨، وطبقات الصوفية. أبي عبدالرحمن السلمي. ترتيب أحمد الشرباصي (مطابع الشعب – ١٣٨٠هـ) ص ٢١.

مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك مؤول أو منسوخ"[1].

ما سبق غيض من فيض من أقوال الصوفية عن مشايخهم، وغلوّهم فيهم فهم يلزمون الأتباع باتباع مشايخهم وطاعتهم دون اعتراض، وجعلوا ذلك شرعا، يستدلون به على ما يرمون إليه.

وإليك بعضا من هؤلاء الأئمة والمشايخ الذين غلت الصوفية في حقهم وقدرهم ومصنّفاتهم أيضا:

- الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ).
- محمد بن علي الترمذي المعروف بالحكيم (ت ٣٢٠هـ) وكتابه "رياضة النفوس" و "ختم الولاية".
- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت ٣٧٨هـ) وكتابه "اللمع".
- أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ) وكتابه "قوت القلوب"
- أبو عبدالرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) وكتابه "سنن الصوفية"،

(١) انظر: رسالة الإمام أبي الحسن الكرخي في الأصول ص (١٦٩/١٧٠ ملحق في تأسيس النظر لأبي زيد عبد الله الدبوسي مكتبة الكليات الأزهرية). وهذا فيه دلالة قاطعة على تقديم الصوفية أذواقهم على النصوص الشرعية، وسيأتي الرد عليهم في هذه المسألة في المطلب التالي.

"طبقات الصوفية"، "حقائق التفسير".

- أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) صاحب "الحلية".
- وعبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) صاحب "الرسالة القشيرية"، "ولطائف الإشارات".
- أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) الذي صنف عدة مصنّفات من أشهرها "إحياء علوم الدين".
- محمد طاهر المقدسي[1] (٥٠٧هـ) الذي صنّف "صفوة التصوّف".
- أحمد بن محمد الغزالي(ت ٥٢٠هـ) اختصر كتاب أخيه أبو حامد الغزالي "الإحياء".
- عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ) من مصنّفاته "الغنية"، "الفتح الرباني"، "وفتوح الغيب".

هؤلاء الأئمة والمشايخ ومصنفاتهم، يشكلون القاعدة الأساسية التي بنى عليها الصوفية منهجهم في التلقي.

(١) محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، أبوالفضل ابن القيسراني الظاهري، الصوفي، ولد ببيت المقدس سنة ٤٤٨هـ، وتوفي سنة ٥٠٧هـ ببغداد من مصنفاته: « صفوة التصوف ».
(انظر: ترجمته: في سير أعلام النبلاء ٣٦١/١٩، والأعلام ١٧١/٦).

وقد وجدت أقوال وأفعال أئمة ومشايخ الصوفية، وكذا الأئمة والمشايخ أنفسهم ومصنفاتهم نقدا شديدا من علماء القرن السادس الهجري، هذا ما سنتناوله في المطلب الثاني.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال الشيوخ المتصوّفة ومصنّفاتهم

من خلال ما سبق، اتضح جليا مدى الغلو الذي بلغ شأواً كبيراً عند الصوفية في أوليائهم ومشايخهم ومصنّفاتهم، حتى أصبحت أقوال وأفعال ومصنّفات أولئك، تشكل منهجا راسخا في الفكر الصوفي يستدل بها السلف عن الخلف في أمور الدين، ولقد أحسّ علماء القرن السادس بخطورة ذلك على العقيدة والشريعة الإسلامية، فهبوا للدفاع عنها ونصرة الدين، فوقفوا في وجه هؤلاء المبتدعة، ودحضوا أقوالهم، وأفعالهم بالحجج والأدلة والبراهين الساطعة.

ومن هؤلاء الجهابذة ابن الجوزي رحمه الله، الذي أنكر قول مشايخ الصوفية، من قال لأستاذه لِمَ، لم يفلح!! فقال:

"هكذا دعاة الصوفية، يقولون الشيخ يسلم له حاله، ومالنا أحد يسلم إليه حاله، فإن الآدمي يرد عن مراداته بالشرع والعقل، والبهائم، بالسوط!!"[1].

(١) تلبيس إبليس ص ٢٤٨. وزعم الصوفية هذا فيه خلاف لما أورده أهل السنة والجماعة من آداب المتعلم بين يدي العالم، واحترام العلماء وتوقيرهم يختلف =

وانتقد ابن عقيل مشايخ الصوفية في عصره بقوله :

"والله لقد رأيت مشايخ في عصري -القرن السادس- ما بان لهم سن في تبسم فضلا عن ضحك ، مع إدمان مخالطتي لهم ؛ كالشيخ أبي القاسم بن زيدان ، وعبد الملك بن بشران[1] ، وأبي طاهر بن العلاف ، والجنيد ، والدينوري"[2].

وحكى ابن الجوزي أن القوم يقلدون في أفعالهم مشايخهم دون دليل ؛ فقال :

"إن من الصوفية قوم يقرون بالإسلام ؛ إلا أنهم يقلدون في أفعالهم".

وقال رحمه الله : "وأن هذه الكلمة ، جعلها الصوفية ترفيها لقلوب المتقدمين وسلطنه سلكوها على الأتباع والمريدين"[3].

= عن ذلة الخضوع عند مريدي الصوفية

(١) هو عبدالملك بن محمد بن عبدالله بن بشران بن محمد الأموي ، مولاهم ، البغدادي ، ولد سنة ٣٤١هـ ، محدث ، واعظ ، توفي في ربيع الآخر سنة ٤٣٠هـ ، وله إحدى وتسعون سنة . (انظر : ترجمته في شذرات الذهب ٢٤٦/٣ ، ومعجم المؤلفين ٣٢٢/٢) .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٦٠.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٧٢.

ثم حذّر رحمه الله من الاستماع إلى هؤلاء ؛ بأخذ أقوالهم والاقتداء بهم فقال :

"فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرّغ الخالين من الإثبات ، وإنما هم زنادقة ، جمعوا بين مدارع العمال : مرقعات وصوف ، وبين أعمال الخلفاء والملحدة : أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع"[1].

ولما سمع ابن عقيل رحمه الله بعض الصوفية يقول : إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم ؛ حداها الحادي إلى الله بالأناشيد. واعتقدوا ذلك قربة يتقرب بها إلى الله.

انتقد من يقول ذلك ، ورد عليه قوله ، فقال :

"لا كرامة لهذا القائل ، إنّا نحدي القلوب بوعد الله في القرآن ووعيده ، وسنة الرسول ﷺ ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[2].

وما قال : وإذا أنشدت عليه القصائد طربت.

قال : وما قلتم فهو كفر ، وإنما خدعكم الشيطان ؛ لأن من اعتقد

(١) ن.م ص ٣٧٤.

(٢) سورة الأنفال آية ٢.

الحرام أو المكروه قربة، كان بهذا الاعتقاد كافرا، وأنتم زنادقة في زي عبّاد"[1].

ورد ابن الجوزي رحمه الله على القشيري عندما قال: أن حجج الصوفية أظهر من حجج كل أحد...، فقال: من له أدنى فهم يعرف أن هذا الكلام تخليط شيوخهم من غير اتباع دليل، ولا شبهه، فهم يفعلون ما يأمرونهم به، وما رأوهم عليه"[2].

ثم بيّن رحمه الله كيف أخذ السلف منهم عن الخلف، وما يترتب عليه من جهل مركب، توارثته الأجيال الصوفية جيلا بعد جيل.

وقال: "ولما قلّ علم الصوفية بالشرع؛ فصدر منهم من الأفعال والأقوال ما لا يحل، ثم تشبه بهم من ليس منهم، وتسمى باسمهم...، ذمّهم خلق من العلماء وعابوهم"[3].

وذكر ابن عقيل رحمه الله في معرض ذمّه للصوفية أنهم: "يسلمون أنفسهم إلى شيوخهم، فإن عولوا إلى مرتبة شيخه، قيل الشيخ لا يُعترض عليه... فإن قبل أمرداً قيل؛ رحمه؛ وأن خلا بأجنبية، قيل،

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٤٦، ٢٥٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٦٤.

(٣) ن.م ص ٣٧١.

بنته..، وأن قسّم ثوبا على غير أربابه من غير رضا مالك؛ قيل حكم الخرقة.

قال ابن عقيل: وليس لنا شيخ نسلم إليه حاله؛ إذ ليس لنا شيخ غير داخل في التكليف ولو كان لنا شيخ يسلم إليه حاله؛ لكان ذلك الشيخ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه.

قال رحمه الله: وقد قال: أبو بكر إن اعوججت فقوّموني، ولم يقل فسلموا إليّ!!"[1].

فإن من خرج عن النقل والعقل، فليس بمعدود في الناس، وليس أحد من الخلق إلا وهو مستدل. فنسأل الله عزّ وجلّ العصمة من تخليط المريدين والأشياخ"[2].

وانتقد ابن الجوزي رحمه الله بشدة ما أجمع عليه مشايخ الصوفية، من تلاعب بالشريعة فقال: "أنظروا إخواني -عصمنا الله وإياكم- من تلبيس إبليس -إلى تلاعب هؤلاء الجهلة بالشريعة وإجماع مشايخهم- الذي لا يساوي إجماع بعرة"[3].

---

(١) ن.م ص ٣٧٣.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢١٨.

(٣) ن.م ص ٢٦٣.

وقال في حق مشايخ الصوفية: "... وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم، فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم؛ إذ لا محاباة في الحق، وإن لم يصح عنهم حذرنا من مثل هذا القول...، ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم إننا لم نقصد ببيان غلط الغالط؛ إلا تنزيه الشريعة، والغيرة عليها من الدخل وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم.

ومضى يقول: "واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص، ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه؛ كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح صلوات الله عليه من الأمور الخارقة، ولم ينظر إليه، فادّعى فيه الإلهية"[1].

وتعظيم الأباء والشيوخ أمر معلوم عند المشركين؛ إذ قد اعترضوا على النبي ﷺ، وزعموا أن أشياخهم وعظماءهم أولى بالوحي من النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾[2].

ولما عرض عليهم النبي ﷺ الحق بالحجة القاطعة والبرهان الساطع،

(١) ن.م ص ١٦٩.

(٢) سورة الزخرف آية ٣١.

اعترضوا عليه بآبائهم، قال تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

حتى كان تعظيمهم لآبائهم، مانعا لهم من معرفة الحق. وهذا هو حال غلاة الصوفية مع أئمتهم ومشايخهم.

ولم تكن ردود علماء القرن السادس مقتصرة على رد أقوال وأفعال مشايخ الصوفية ونقدها؛ بل أبانوا رحمهم الله، ما في مصنّفات القوم من ضلال، وحذّروا الناس منها ومن مصنّفيها -أئمة ومشايخ الصوفية- التي هي في الأصل منبع هذه الافتراءات والضلالات، إذ يعتمدون عليها، ويتخذونها حجّة لهم.

ومن هؤلاء ابن الجوزي رحمه الله الذي تحدث على سبيل الإنكار بإسهاب عن بعض تلك الشخصيات ومصنّفاتهم، وأوجز الحديث عن بعضها.

فأول إشارة له رحمه الله عن هذه المصنّفات تعطينا حكما إجماليا عليها فهو يقول: "وجمهور هذه التصانيف التي صنّفت لهم -أي الصوفية- لا تستند إلى أصل، وإنما تلقفها بعضهم عن بعض،

(١) سورة الزخرف آية ٢٣ .

ودوّنوها، وقد سمّوها بالعلم الباطن"[(١)].

ثم بيّن رحمه الله السبب في تصنيفهم لها بقوله: "كان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء، قلة علمهم بالسنن والإسلام، والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنما استحسنوها؛ لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد. وما رأوا حالة أحسن من حاله هؤلاء القوم. في الصورة، ولا كلاما أرق من كلامهم، وفي

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٦، وكتّاب المتصوفة، كالقشيري، والسراج الطوسي، وأبوطالب المكي، والسلمي، وأبونعيم... وغيرهم جعلوا عمدتهم في ذلك ما يرويه أحدهم عن شيخه، وجَعْلُ قول الشيخ أصلاً للمذهب، ثم يأخذون بعد ذلك في الاستدلال على صحته من هنا وهناك، وقد يكون المرويُّ عندهم لا سند له من كتاب ولا سنة، ولا من فعل أحدٍ من الصحابة بخلاف المصنفين في الزهد من أئمة السلف كالإمام أحمد في كتابه "الزهد" وابن المبارك كذلك، وابن الجوزي في "صفوة الصفوة" فإنهم يذكرون الزُّهاد الأوائل من الصحابة والتابعين ومن يليهم مشيرين إلى منهجهم وسلوكهم؛ فهؤلاء جميعاً جعلوا أصولهم في النقل والرواية فعل الرسول ﷺ وقوله ثم فعل الصحابة وأقوالهم، ومن اقتدى بهم ولزم سنتهم.
انظر: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة. د. محمد الجَليند ط٣ (الرياض: دار اللواء –١٤١٠هـ) ص٤٧.

سير السلف نوع خشونة، ثم ميلٌ للناس إلى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرة النظافة والتعبّد، وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تحيل إليها"[(١)].

وقال رحمه الله: "وضع لهم جماعة من المتقدمين كتبا فيها دفائن قبيحة وأحاديث غير صحيحة. ويأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة، مثل كتب الحارث المحاسبي، وأبي عبد الله الترمذي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتاب الإحياء لأبي حامد الطوسي"[(٢)].

وقال في موضع آخر: وقد صنّف من لا علم له بالنقل كتبا فيها الموضوع... والمحال...، مثل الحارث المحاسبي، وأبو طالب المكي، وأبو حامد الطوسي، فإنهم أدرجوا في كتبهم أحاديث باطلة ولا يعلمون أنها كذب[(٣)]، وانتقد ابن الجوزي هؤلاء المصنّفين بشدة:

فوجّه نقده إلى أبي طالب المكي وكتابه قوت القلوب فقال: "وصنّف لهم ابو طالب المكي "قوت القلوب" فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى اصل من صلوات الأيّام والليالي، وغير

(١) ن. م ١٦٦.
(٢) صيد الخاطر ص ٤٧١.
(٣) انظر القصاص والمذكرين ص ٣٠٩.



ذلك من الموضوع. وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول: "قال بعض المكاشفين"، وهذا كلام فارغ. وذكر فيه عن بعض الصوفية: أن الله عزّ وجلّ يتجلّى في الدنيا لأوليائه.

ثم ساق بسنده خبر دخول أبي طالب إلى بغداد أن قال: "فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلّط في كلامه، فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضرّ من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه. فامتنع عن الكلام على الناس بعد ذلك"، ثم نقل عن الخطيب البغدادي قوله: "وصنّف أبو طالب المكي كتاب سمّاه "قوت القلوب" على لسان الصوفية وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات"[(١)].

ثم تكلّم عن تقسيمات السماع التي اخترعها أبو طالب المكي فقال:

"احتجّ لهم أبو طالب المكي على جواز السماع بمنامات. وقسم السماع إلى أنواع، وعلّق ابن الجوزي قائلا: " وهو تقسيم صوفي لا أصل له"[(٢)].

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٥، وانظر: تاريخ بغداد ٨٩/٣، والمنتظم ٣٨٥/١٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٤٤.

وكان ابن الجوزي قد انتقد الحارث المحاسبي بقوله: "ثم جاء أقوام فتكلّموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنّفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي"[(١)].

كما اعتبر الحكيم الترمذي بتصنيفه "رياضة النفوس" " ابتداء شرع برأيه الفاسد"[(٢)].

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢١٧، ٢١٠

قلت: هذا هو الحكيم الترمذي الصوفي، وليس أبا عيسى الترمذي صاحب "السنن". كانت وفاة الحكيم الترمذي سنة ٣٢٠هـ، وقد هجر في ترمذ بسبب تصنيفه "ختم الولاية"!.

وقال كمال الدين ابن العديم في جزئه "الملحة في الرد على أبي طلحة" وهذا الحكيم الترمذي لم يكن من أهل الحديث، ولا رواية له، ولا علم له بطرقه وصناعته، وإنما كان في الكلام على إشارات الصوفية والطرائق، ودعوى الكشف عن الأمور الغامضة والحقائق، حتى خرج في ذلك عن قاعدة الفقهاء، واستحق الطعن عليه بذلك والإزراء، وطعن عليه أئمة الفقهاء في علم الشريعة ما فارق به الجماعة، وملأ كتبه الفظيعة بالأحاديث الموضوعة، وحشاها بالأخبار التي ليست بمروية ولا مسموعة، وعلل فيها جميع الأمور الرعية التي لا يعقل معناها بعلل ما أضعفها وما أوهاها".

=

وقال رحمه الله عن أبي السراج الطوسي وكتابه اللمع : "صنّف لهم أبو نصر السراج كتابا سمّاه "لمع الصوفية" ذكر فيه .... الاعتقاد القبيح والكلام المرذول"[١].

وقال رحمه الله : وهو ينتقد أبو عبد الرحمن السلمي ومصنّفاته :

"جاء أبو عبد الرحمن السلمي ، فصنّف لهم كتاب "السنن" وجمع لهم "حقائق التفسير" ، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم".

ثم نقل بسنده عن الخطيب البغدادي عن محمد بن يوسف القطان أنه قال: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة...وكان يضع للصوفية الأحاديث"[٢].

كما تحدّث ابن الجوزي عن كتاب أبو عبد الرحمن السلمي "سنن الصوفية" منتقدا إياه قائلا : "صنّف أبو عبد الرحمن السلمي كتابا سماه

= (لسان الميزان/ أحمد بن حجر العسقلاني ط٢(بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي – ١٣٩٠هـ) ٥/٣٠٩).

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٤ ، المنتظم ١٥/١٥١ ، وتاريخ بغداد ٢/٢٤٨.

"سنن الصوفية" فقال في أواخر الكتاب: باب في جوامع رخصهم. فذكر فيه الرقص والغناء والنظر إلى الوجه الحسن" وبعد أن رد ابن الجوزي ما استدل به السلمي من أحاديث مبيّنا أنه لا أصل لها ، علّق قائلا : "ثم قد كان ينبغي لأبي عبد الرحمن السلمي ؛ إذ ذكر النظر إلى المستحسن أن يقيّده بالنظر إلى وجه الزوجة أو المملوكة. فأما إطلاقه ففيه سوء ظن"[١].

كما وجّه نقده الشديد لتفسير السلمي قائلا : "جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها حقائق التفسير إلى أن قال: " ولقد هممت أن أثبت منه هاهنا كثيرا، فرأيت أن الزمان يضيع في كتابة شيء بين الكفر والخطأ والهذيان"[٢].

ثمّ وجّه نقده لأبي نعيم الإصبهاني وكتابه حلية الأولياء قائلا : " وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنّف لهم كتاب "الحلية" وذكر فيه في حدود التصوّف أشياء منكرة قبيحة. ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، وسادات الصحابة رضي الله عنهم. فذكر عنهم ما فيه العجب ، وذكر منهم شريحا القاضي والحسن البصري وسفيان

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) ن. م ص ٣٣١-٣٣٢.



الثوري وأحمد بن حنبل"[1].

وعندما تكلّم عن إباحتهم السماع ومناظرتهم في ذلك قال: " وقد احتج لهم أقوام مفتونون بحب التصوّف بما لا حجّة فيه... ومنهم أبو نعيم الأصفهاني"[2].

ثم انتقد ابن الجوزي القشيري ورسالته، وتفسيره بقوله: "صنّف لهم عبد الكريم ابن هوزان القشيري كتاب "الرسالة"، فذكر فيها العجائب من الكلام في الغناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال. والوجد والوجود. والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات. والتجلّي والمحاضرة والمكاشفة، واللوائح والطوالع، واللوامع والتكوين والتمكين، والشريعة والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيره[3] أعجب منه"[4].

وعلّق رحمه الله على زعم القشيري بأن الصوفية هم أهل الوصال

(١) ن. م ص ١٦٥.

(٢) ن. م ص ٢٣٩.

(٣) اسمه لطائف الإشارات طبع في ثلاثة مجلّدات كبار/ تحقيق د. إبراهيم بسيوني.

(٤) تلبيس إبليس ص ١٦٥.

والناس أهل الاستدلال بقوله: من له أدنى فهم يعرف أن هذا الكلام تخليط فإن من خرج عن النقل والعقل، فليس بمقدور من الناس. وليس أحد من الخلق إلا وهو مستدل. وذكر الوصال حديث فارغ.

فنسأل الله عزّ وجلّ العصمة من تخليط المريدين والأشياخ"[1].

كما انتقد ابن الجوزي أبو حامد الغزالي بشدّة، وكتابه إحياء علوم الدين على وجه الخصوص. ومما قاله عن الإحياء "وصنّفه -أي الغزالي- على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه...وقد جمعت أغلاط الكتاب وسميته "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء"[2] وأشرت إلى بعض ذلك في كتابي المسمّى تلبيس إبليس..."[3].

وقد بيّن رحمه الله أن الغزالي قد ذكر في كتابه الإحياء من الأحاديث الموضوعة، وما لا يصح غير قليل. وسبب ذلك قلّة معرفته بالنقل إلى أن قال "فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف. وإنما نقلَ

(١) ن. م ص ٢١٨.

(٢) ذكره ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٥٢/٣، وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين (بيروت: دار الفكر - ١٤٠٢هـ ٥٢١/١)، ولم أعثر على هذا الكتاب مطبوعاً أو مخطوطاً.

(٣) المنتظم ١٢٥/١٧.

نقل حاطب ليل[1].

وقد أشار ابن الجوزي في مطلع كلامه عنه إلى أن أحد شيوخ المغاربة ويقال له: محمد بن أبي الفرج[2]، كان إذا ذكر الغزالي قال: الغزالي المجوسي. وكان يقول: الغزالي ملحد"[3].

وقد انتقد ابن الجوزي كتاب الإحياء قائلا: "جاء أبو حامد الغزالي فصنّف لهم كتاب الإحياء على طريق القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلّم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه"[4].

وهو مع اعترافه لأبي حامد الغزالي بالإمامة والفقه، يشير مع ذلك إلى أن دخوله في التصوّف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه"[5].

(١) ن.م ١٧/١٢٦.

(٢) محمد بن أبي الفرج: أبو عبد الله المالكي المعروف بالزكي المغربي من أهل صقلية، رحل إلى العراق وخراسان والهند، ومات بأصبهان سنة ٥١٠هـ.
(انظر: المنتظم ١٧/١٥٢).

(٣) المنتظم: ١٧/١٥٢.

(٤) تلبيس إبليس ص ١٦٦.

(٥) ن.م ص ١٨١.

وهو يعتبر أن "تصوفه غيَّر فتواه"[1].

وهو يتعجب ويأسف لصدور مثل هذا الكلام من فقيه عالم مثل أبي حامد، يقول: "ولقد عجبت لأبي حامد الغزالي الفقيه، كيف نزل مع القوم من رتبة الفقه إلى مذاهبهم" وعدّ ذلك أمراً في غاية القبح"[2].

ثمّ يقول متعجّبا: " عجبت من هذا الرجل كيف سلبه حب مذهب التصوّف عن أصول الفقه ومذهب الشافعي"[3].

كما يقول: "لقد طال تعجّبي عن أبي حامد كيف يحكي هذه الأشياء في معرض الاستحسان والرضى عن قائلها"[4].

ويقول معلّقا على بعض الأخبار الغريبة للصوفية التي يحكيها الغزالي: "أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد الغزالي. كيف حكى هذه الأشياء، ولم ينكرها؟ وكيف ينكرها وقد أتى بها في معرض التعلّم... وإنّي لأتعجب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة.... فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه

(١) ن.م ص١٧٦ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢١٣.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٦١.

(٤) ن.م ص ٣٤٠ .

بالتصوّف"[1].

وممّن انتقد الغزالي بشدة ابن عقيل، الذي قام أعظم قيام في الذمّ والتشنيع، وزيّف ما فيه من التمويه والترقيع، وجزم بأن كثيرا من مباحثه زندقة خالصة، لا يقبل لصاحبها صرف ولا عدل"[2].

كما نقده محمد بن علي المازري وألّف في ذلك مصنّفا بعنوان "الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء"[3]، بيّن ما فيه من الواهي والتفلسف، وأن الناس في زمانه استحسنوا من الغزالي فتاواه في الإحياء، والتي مبناها على ما لا حقيقة له، وفيه "الإحياء" كثير من الآثار عن النبيﷺ، لفق عليه الثابت بغير الثابت وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله، وأورد من نزعات الأولياء، ونفثات الأصفياء، ما يجل موقعه، لكن مزج فيه النافع مع الضار، كإطلاقات يحكيها عن بعضهم لا يجوز إطلاقها لشناعتها.

وذكر أن كتاب الإحياء تضمّن جمل من مذاهب الموحدين

---

(١) ن. م ص ٣٥٣.

(٢) انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني، محمود شكري الألوسي ط٢ (الرياض: مطبعة الرياض – ١٣٩١هـ) ٢/٣٦٩-٣٧٠.

(٣) هذا الكتاب لم أجده مطبوعا ولا مخطوطاً.

والمتصوّفة وأصحاب الإشارات والفلاسفة وأنه –أي الإحياء– متردد بين هذه الطرائق[1].

ووجّه قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين القرطبي[2] نقده الشديد للغزالي ومصنّفه الإحياء، وممّا قاله:

"إن بعض من يعظ ممّن كان ينتحل رسم الفقه، ثم تبرّأ منه شغفا بالشرعة الغزالية والنحلة الصوفية، أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصّب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدين؟! وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سرِّ الربوبية الذي يسفر عن

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٠، وتاريخ الإسلام وفيات ٥٠٥هـ، وطبقات الشافعية ٦/٢٤٠-٢٤٢.

(٢) ابن حمدين القرطبي: أبو عبدالله، محمد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي الأندلسي المالكي، ولد سنة ٤٣٩هـ، ذكيا، بارعا في العلم، شاعرا، حميد الأحكام، حافظا، فطناً، من بيت علم وفضل وجلالة، أجل رجال الأندلس، له ميول أشعرية، توفي رحمه الله سنة ٥٠٨هـ.
(انظر ترجمته: في الصلة ٢/٥٣٩، والغنية ص ٤٦، وسير أعلام النبلاء ١٩/٤٢٢، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ٢/٦٤٤ هامش رقم(١)).

قِناعه، ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته التي رفع لهم أعلامها، وشرع أحكامها"[١].

وكان يحط على الغزالي في طريقة التصوّف وكفره، وألّف في الردّ عليه[٢].

كما وجّه القاضي عيّاض نقده الشديد للغزالي ومصنّفه الإحياء فقال: "والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف الفظيعة، غلا في طريقة التصوّف، وتجرّد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألّف فيه تواليفه المشهورة، أخذ فيها مواضيع، ساءت به ظنون أمه، والله أعلم بسرّه، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب، وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتثل ذلك"[٣].

كما انتقده أبو بكر ابن العربي بقوله: "كان أبو حامد تاجا في هامة الليالي، وعقداً في لبة المعالي، حتى أوغل في التصوّف، وأكثر معهم التصرّف، فخرج على الحقيقة، وجاء في أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٢، ٤٩٤.

(٢) انظر: ن.م ١٩/٤٢٢، والمعيار المعرب ١٢/١٨٥.

(٣) ن.م ١٩/٣٢٧.

فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين، فإذا ذكروه في حيّز العدم، وقرعوا عليه السن من ندم، وقاموا في التأسّف عليه على قدم، فإذا لقيته رأيته رجلا قد علا في نفسه، ابن وقته، لا يبالي بغده ولا أمسه، فوا حسرتي عليه أي شخص أفسد من ذاته، وأي علم خاط وخلط فيه مفرداته..."[١].

وقال ابن العربي المالكي في موضع آخر عن شيخه الغزالي:

"شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر"[٢].

كما انتقد ابن العربي المالكي الحارث المحاسبي لإيراده الأحاديث الضعيفة وبعض الموضوعة في كتبه وتصانيفه، واعتماده عليها وجعلها "أصولا" يبنى على ما تضمّنته المعاني والأحكام، حيث قال عند شرح حديث "الحلال بيّن والحرام بيّن...".

---

(١) العواصم من القواصم ص ٧٨-٧٩.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية/ تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة (دار الكتب - ١٩٧١م)١/٥، ونقض المنطق لابن تيمية / تصحيح محمد حامد الفقي، (القاهرة: مكتبة السنة المحمّدية) ص ٥٦ بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر، وانظر البداية والنهاية ١٢/٢٢٩.

"أجل من تكلّم في عالمنا وكبيرنا: الحارث بن أسد، فمن الأصول التي زعم: قول عطية السعدي عن النبيﷺ: لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس".

ونحو هذا من الأخبار، وأطال القول في ذلك وأفاد فيما أعاد، وحدد فيما أورد لو لا تعلّقه بأحاديث ضعاف وبناء الأصول عليها، فإن أوقف عليها علماء الحديث سخروا من ذلك وهزؤوا به. مع أنه لقي أخبار الدنيا فيه كابن أبي شيبة وغيره...."[١].

ومن العلماء الذين وجّهوا نقدهم الشديد لكتاب الغزالي "الإحياء" العالم أبي الحسن بن سكرة[٢] الذي زيّف مواضع إحياء علوم الدين وبيّن زيفها في

(١) عارضة الأحوذي بشرح سنن الترمذي لابن العربي المالكي، وضع حواشيه جمال مرعشلي ط١(بيروت: دار الكتب العلمية – ١٤١٨هـ) ٣/١٦٢.

(٢) ابن سكرة: حسين بن محمد بن فيرة بن حيون الصرفي السرقسطي الأندلسي المعروف بابن سكرة الصدفي، ولد سنة ٤٥٤هـ، عالم جم، بارع في الحديث وفنونه، حافظ، متفقن ثقة، مأمون، ذا دين متين، وخلق حسن وصيانة محدث، زاهد، ورع، توفي رحمه الله سنة ٥١٤هـ.

(انظر ترجمته: معجم المؤلفين ١/٦٤١، شذرات الذهب ٤/٤٣، وبغية الملتمس، أحمد بن يحيى الضبي، تحقيق د. روجيه عبدالرحمن السويفي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية-١٤١٧هـ) ص ٢٣٠، والغنية للقاضي عياض، ط١، دار الغرب الإسلامي) ص ١٣١، الديباج المذهب ١/٣٣٠).

مصنّف مفيد سمّاه "إحياء ميت الإحياء في الرد على كتاب الإحياء"[١].

كما انتقد ابن رشد من علماء الكلام في القرن السادس الغزالي ومصنّفاته وحذّر منها، وبيّن أنه كان مذبذباً، غير ملتزم بمذهب معيّن، يقول عنه: "ولم يلزم الغزالي مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشعرية أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف، حتى أنه كما قيل:

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معديا فعدناني

وقال: والذي يجب على أئمة المسلمين أن ينهوا عن كتبه إلا ممّن كان من أهل العلم"[٢].

كما وجّه ابن الجوزي نقده لمحدث الصوفية، محمد بن طاهر المقدسي، ومصنّفه "صفوة التصوّف" وبيّن الضلال الذي يفتريه قائلا: "هذا الكتاب يضحك منه من يراه، ويعجب من استشهاده على مذاهب

(١) البداية والنهاية ١٢/١٧٤، وانظر سير أعلام النبلاء ١٩/٣٤٢، ولم اعثر على هذا المصنّف مطبوعا ولا مخطوطا.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال/ محمد بن أحمد بن رشد، ضمن كتاب فلسفة ابن رشد، تصحيح ومراجعة وضبط أصول مصطفى عبد الجواد عمران ط٣(مصر: المكتبة المحمودية التجارية – ١٣٨٨هـ) ص ٢٧.

الصوفية بالأحاديث التي تناسب ما يحتج له من نصرة التصوّف"[1].

ونقل -رحمه الله- كلام شيخه ابن ناصر في جرح عدالة ابن طاهر بقوله: "محمد بن طاهر لا يحتج به، صنّف كتاباً في جواز النظر إلى الأمرد، وأورد فيه حكاية عن يحيى بن معين، قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها، فقيل له تصلي عليها؟ قال: صلى الله عليها وعلى كل مليح، ثم قال: كان يذهب مذهب الإباحية"[2].

وقال ابن الجوزي الذي كرّر اتهامه له بأنه غير ثقة، ثم يقول بعد أن ساق عدة أمثلة من استدلالاته التي يقول ابن الجوزي عنها أنها ليست بشيء، وقد يعثر على مثلها جاهل، فيغتر بها ويتهمه بالتلاعب بالشريعة، والبعد عن فهم معاني الأحاديث[3].

كما أساء الثناء عليه محمد بن عبد الواحد الدقّاق[4] من علماء

---

(١) المنتظم ١٧/١٣٦.

(٢) المنتظم ١٧/١٣٤، وانظر تلبيس إبليس ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) انظر تلبيس إبليس ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٤) الدقّاق: أبو عبدالله، محمد بن عبدالواحد بن محمد الأصبهاني، المعروف بالدقّاق، محدثاً، حافظاً، ثرياً، متبعاً، ديّناً، فقيراً، طلب الحديث بطوس وهراة، وبلخ، وبخارى، وسمرقند، توفي سنة ٥١٦هـ.

=

القرن السادس.

وقال: "كان صوفيا ملامتيا... له كتاب "صفوة التصوّف" وله أدنى معرفة بالحديث... وذكر لي عنه الإباحية"[1].

وانتقد ابن الجوزي، أحمد بن محمد الغزالي شقيق أبي حامد الغزالي فقال عنه: "إن الغالب على كلامه التخليط وروايته الأحاديث الموضوعة، والحكايات الفارغة والمعاني الفاسدة..وكان يتعصّب لإبليس ويعذره"، وبعد أن ساق ابن الجوزي عددا من الحكايات والمقالات الباطلة التي قالها على منبر الوعظ، وكتبت عنه ثم عرضت عليه وأقرّ بخطه عليها بأنها له ومن كلامه، عدّ ابن الجوزي ذلك كله من الهذيان والجهالات والحماقات[2].

وبالجملة فقد نهى علماء القرن السادس من النظر في كتب المبتدعة، والمتصوّفة على رأس هؤلاء، وحذّروا منهم ومن أفكارهم ورواياتهم

= (انظر ترجمته: في شذرات الذهب ٤/٥٣، ومعجم المؤلفين ٣/٤٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٩/٤٧٤، وكشف الظنون٦/٨٤).

(١) انظر: المنتظم ١٧/١٣٧، وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٦٤..

(٢) انظر: المنتظم ١٧/٢٣٩، ٢٣٨، والقصاص والمذكرين لابن الجوزي ٣١٣-٣١٦.

البدعية المخالفة للآثار والسنن المنقولة عن الصحابة والسلف.

وبيَّن ابن العربي المالكي القاعدة السليمة في قبول الرواية في أمور الدين، يقول -رحمه الله- « إنما ذكرت لكم هذا، لتحترزوا من الخلق، وخاصة من المفسرين، والمؤرخين، وأهل الآداب فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين، أو على بدعة مصرين، فلا تبالوا بما رووا ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث، ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً؛ إلا للطبري وغير ذلك هو الموت الأحمر، والداء الأكبر، فإنهم ينشئون أحاديث فيها استخفاف بالصحابة والسلف والاستخفاف بهم، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم، وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا، وعن الحق إلى الهوى، فإذا قطعتم أصل الباطل، واقتصرتم على رواية العدول؛ سلمتم من الحبائل، ولم تطووا كشحاً على هذه الغوائل، ومن أشد شيء على الناس جاهل غافل، أو مبتدع محتال، فإذا صنتم أسماعكم، وأبصاركم عن مطالعة الباطل، كنتم على منهج السلف سائرين، وعن سبيل الباطل ناكبين »[1].

---

(١) العواصم من القواصم ص٣٥٢، وطوى كشحه على أمر: أي استمر عليه، والغوائل: جمع غائلة وهي الفساد والشر.

انظر: لسان العرب ٩٩/١٢، المعجم الوسيط ٦٦٦/٢.

وحث عبد الله بن الخشاب النحوي[1] على الاستنان بالسنة والتبرّء من الفتن والمذاهب المحدثة قائلا:

واستن بالسلف الماضي وكن رجلا ... مبرأً من دواعي الغي والفتن

ودع مذاهب قوم أحدثت إثما ... فيها خلاف على الآثار والسنن[2]

ومما سبق بيانه تتبيّن ردود علماء القرن السادس المنكرة لمنهج الاستدلال عند الصوفية بالقرآن والسنة، وبأقوال وأفعال مشايخ وأئمة الصوفية ومصنفاتهم.

هؤلاء العلماء الذين بيّنوا من خلال ردودهم على الصوفية الحق الذي يجب اتباعه، فكانوا حقا ناصحين لأمتهم، ذابين عن عقيدتهم

---

(١) ابن الخشّاب: هو أبو محمد، عبدالله بن أحمد بن أحمد بن عبدالله بن نصر، البغدادي ابن الخشّاب، ولد سنة ٤٩٢هـ، له معرفة تامة بالأدب واللغة والنحو والحديث، حجة الإسلام، ما من علم من العلوم إلا كانت له فيه يد حسنة، عالما بالتفسير والحديث والفرائض والحساب والقراءات، توفي رحمه الله في رمضان سنة ٥٦٧هـ.

(انظر ترجمته: الذيل على طبقات الحنابلة ٢٦٥/٣، وسير أعلام النبلاء ٥٢٣/٢٠، وشذرات الذهب ٢٢٠/٤، والمنتظم ١٩٨/١٨، ومرآة الجنان ٣٨١/٣، والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ ومعجم المؤلفين ٢٧٤/٢).

(٢) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة ٢٧/٣.

الدخن، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا سطوة سلطان جائر، كانوا بعيدين عن الغلو والشطح الذي انتهجته الصوفية.

لقد كان الأساس والمرتكز الذي اعتمد عليه هؤلاء العلماء الأجلاّء هو المنهج الشرعي المعتمد على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح.

والأدلة من القرآن والسنة مستفيضة في هذا الجانب، فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء آية ٥٩.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) سورة النساء آية ١١٥.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطاً ثم قال: "هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال هذه سبل على كل سبيلٍ شيطان يدعوا إليه ثم تلا: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1]،[2].

ومعلوم أن مناهج التلقي والاستدلال عند أهل السنة والجماعة تعتمد على القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع والعقل والفطرة[3].

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٣٥/١.

(٣) انظر عن ذلك بالتفصيل: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن ط٤ (الرياض: مكتبة الرشد - ١٤١٨هـ) ص٤٩-٢١٦، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية ص٩٧-١٢٥.

الباب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس
على البدع الاعتقادية عند الصوفية

الفصل الأول : ردود العلماء في القرن السادس على الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية .

الفصل الثاني : ردود العلماء في القرن السادس على بدعة الفناء عند الصوفية .

الفصل الثالث : ردود العلماء في القرن السادس على البدع في العبادات عند الصوفية .

الفصل الرابع : ردود العلماء في القرن السادس على الغلو في الأولياء عند الصوفية .

تعريف البدعة لغة واصطلاحاً:

البدعة لغة:

قال ابن فارس: "الباء والدال والعين، أصلان لشيئين:

أحدهما: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال سابق، مثال والله بديع السموات والأرض.

الثاني: الانقطاع والكلال كقولهم: أبدعت الراحلة إذا كلت وعطبت"[١].

تعريف البدعة اصطلاحاً:

للعلماء في تعريف البدعة اصطلاحاً تعريفات عدّة، ورغم الاختلاف اللفظي بينها؛ إلاّ أنها تؤدي في الجملة لمضمون واحد.

ولعلّ من أهم هذه التعريفات:

١- تعريف الشاطبي: قال رحمه الله: أنها طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه"[٢].

---

(١) مقاييس اللغة ١/٢٠٩، ٢١٠.

(٢) الاعتصام للشاطبي أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبدالرزاق المهدي ط١(بيروت: دار الكتاب العربي –١٤١٧هـ) ١/٢٧.

٢- تعريف ابن رجب: بيّن رحمه الله أن المراد بالبدعة "هي ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه، فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعة لغة"[١].

٣- تعريف الطرطوشي: قال الطرطوشي رحمه الله في أصل البدعة: أصل هذه الكلمة من الاختراع وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذى، ولا ألف مثله، ومنه قولهم: أبدع الله الخلق، أي خلقهم ابتداءً و منه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣]: أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض. وهذا الاسم يدخل في ما تخترعه القلوب، وفي ما تنطق به الألسنة، وفيما تفعله الجوارح"[٤].

٤- تعريف ابن تيمية: قال رحمه الله: والبدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله ﷺ، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا

---

(١) جامع العلوم والحكم/ عبد الرحمن بن رجب ط٢(بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية -١٤١٠هـ) ص ٢٦٥.

(٢) سورة البقرة آية ١١٧.

(٣) سورة الأحقاف آية ٩.

(٤) الحوادث والبدع للطرطوشي، تحقيق عبدالمجيد تركي ط١(دار الغرب الإسلامي -١٤١٠هـ) ص ١٠٨ دون ذكر مكان الطبع.

استحباب، فأمّا ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية، فهو من الدين الذي شرعه الله، وإن تنازع أولوا الأمر في بعض ذلك، وسواء كان هذا مفعولاً على عهد النبي ﷺ أو لم يكن"(١).

والمتأمل في هذه التعريفات، يخرج بمعالم رئيسة لحد البدعة الشرعية من أهمّها: أن البدعة في الدين ليس لها أصل في الشرع؛ بل هي إحداث في الدين كما أن البدع كلها مذمومة بالشرع.

قال ابن شامة: "قد غلب لفظ البدعة على الحدث المكروه في الدين مهما أطلق هذا اللفظ"(٢).

تعريف العقيدة لغة واصطلاحاً:

العقيدة لغة:

- قال ابن فارس: "العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شدّ وشدّة وثوق"(٣).

---

(١) مجموع الفتاوي ٤/١٠٨، ١٠٧.

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث، لابن شامة، ص ٣١.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤/٨٦.



- ويقال: عقدت الحبل عقدا من باب ضرب فانعقد، والعقدة ما يمسكه ويوثقه، ومنه قيل عقدت البيع ونحوه، وعقدت اليمين، وعقدتها بالتشديد، واعتقدت كذا، عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة، ما يدين الإنسان به، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك"(١).
- وهي بفتح العين، جمع عقائد، ما عقد عليه القلب، واطمأنّ إليه وصدقه(٢).

والعقيدة بهذه المعاني السابقة، تشتمل على التوثيق، والإحكام، والربط بقوة.

العقيدة اصطلاحاً:

ولفظة العقيدة تستعمل عند الإطلاق لتدل على ما يعقد عليه الإنسان قلبه من حق أو باطل.

أما عند التقييد، فقد عرّف بعض الباحثين المعاصرين "العقيدة الإسلامية" بقوله: "الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته

---

(١) انظر: المصباح المنير ص ١٦٠.

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء ص ٢٨٨، والمعجم الوسيط ٢/٦١٤.

وربوبيته وأسمائه وصفاته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره ، وما أجمع عليه السلف الصالح ، والتسليم لله - تعالى - في الحكم والأمر والقدر والشرع ، ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع" [1] .

---

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة ، د. ناصر العقل ط١ (دار الوطن : الرياض) ص٩ ، وانظر : العقيدة أولاً لو كانوا يعلمون ، د. عبدالعزيز القارئ (القاهرة : مطبعة المدني) ص١٠ .

والعقيدة في الله ، د. عمر سليمان الأشقر ، ط٦ (الكويت : مكتبة الفلاح - ١٤٠٩هـ) ص٩ .

الفصل الأول

ردود العلماء في القرن السادس على الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية

المبحث الأول: الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على أهل الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية .

تعريف الحلول لغة واصطلاحا :

الحلول لغة :

مصدر، وعند العلماء: عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر[1].

ويقول الفيروزآبادي :

يقال: " حلّ المكان وحلّ به ويحلُّ حلاًّ وحلولاً، إذا نزل به"[2].

الحلول اصطلاحاً :

- عرّفه الحفني بقوله: "إن الله تعالى يحل في العارفين"[3].

---

(١) المعجم الوسيط ١/١٩٤.

(٢) القاموس المحيط ٣/٣٧٠ مادة حلّ.

(٣) معجم مصطلحات الصوفية ص ٨٢. والتسمية بالعارف من بدع الصوفية، وراءها الكيد للشريعة ؛ إذ أن الغاية عندهم المعرفة وحدها لا العبادة، أما الغاية الحقة عند أهل السنة والجماعة فهي العبادة والإيمان الصحيح الخالص لله وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات، آية: ٥٦].

تعريف وحدة الوجود :

هي مذهب فلسفي صوفي يوحّد بين الله والعالم، ولا يقر إلا بوجود واحد هو الله، وكل ما عداه أعراض وتعيينات له"[1].

تعريف الاتحاد لغة واصطلاحا :

الاتحاد لغة :

- يقال: اتحد الشيئان اتحادا إذا صارا شيئا واحدا[2].
- وهو مصدر اتحد ؛ امتزاج الأشياء حتى تصير شيئا واحداً[3].

الاتحاد اصطلاحاً :

- عرّفه الصوفية بأنه هو تصيير الذاتين واحدة، وهو شهود الوجود الحق الواحد المطلق، ومثل: الاتحاد: امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئا واحداً[4].

---

(١) الموسوعة العربية الميسّرة، إشراف محمد شفيق غربال (القاهرة: دار إحياء التراث العربي –١٩٦٥م) ٢/١٩٤٥.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/١٠١٦. مادّة "وحد"، ص ٢٥٩.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء ص ١٩.

(٤) انظر: التعريفات ص ٢٢، ومعجم مصطلحات الصوفية ص٩، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص ٤٩.

المبحث الأول
الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية

من عقائد الصوفية القول بالحلول، ويقصدون بذلك أن روح الله سبحانه وتعالى حلّت في بعض الأجسام التي اصطفاها واختارها؛ فانقلبت هذه الأجسام البشرية إلى آلهة تسير على الأرض، وتعيش بين الناس.

ومن أشهر المتصوّفة القائلين بهذه النظرية، الحلاّج، الذي يقول مبيّنا الأمور التي إذا قام بها الإنسان تحل فيه روح الله:

"من هذّب نفسه في الطاعة، وصبر عن اللذات والشهوات، ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفوا ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حلّ فيه روح الإله الذي حلّ في عيسى بن مريم.

ولم يرد حينئذ شيئا؛ إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى.

وجاء في كتاب أتباعه له "يا ذا اللذات، ومنتهى غاية الشهوات، نشهد أنك المقصود في كل زمان بصورة، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور، ونحن نستجيرك، ونرجوا رحمتك يا علاّم الغيوب"[1].

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط٣(بيروت: دار المعرفة =

ونقل الطوسي عن أبي يزيد البسطامي زعمه أن الله رفعه إليه وقال له إن خلقك يحبون أن يروك، وطلب أبو يزيد أن يحل فيه الله، بحيث إذا رآه الخلق يصبحون كأنهم رأوا الله وهذا قوله:

"رفعني مرة -يعني الله، تعالى عمّا يقول علواً كبيراً- فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك: فقلت زيّنّي بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا"[1].

ويزعم الصوفية أن الله، قد حلّ في كل شيء، وحتى الكلاب -تعالى الله-.

قال أبو الحسين النوري، لما سمع نباح الكلاب: لبيك وسعديك[2].

وتتّضح هذه العقيدة عند القوم بمقولة الشبلي، عندما زاره بعض أصحابه، ثم خرجوا من عنده فقال: أنا معكم حيثما كنتم، أنتم في

= - ١٩٧١م) ١٠/٣٥٥، والفرق بين الفرق/ عبد القاهر البغدادي ص ٢٦٣.
تعالى الله عما يقول هذا الظالم علواً كبيراً.

(١) اللمع ص ٤٦١. يعني: أن الله حلَّ به فأصبح هو الإله، (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) سورة الكهف، آية ٥.

(٢) انظر: ن.م ص ٤٩٢. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

رعايتي وكلأي.

يقول الطوسي معلقا على هذا الكلام: "أراد بقوله ذلك؛ أن الله تعالى معكم حيثما كنتم وهو يرعاكم"[1].

ويؤكد الحلاّج هذا الاعتقاد بقوله: "رأيت ربي بعين ربي، فقال: "من أنت؟" قلت: "أنت"[2].

كما يؤكدها في أبياته الشعرية التي يقول فيها:

أنا أنت بلا شك   سبحانك سبحاني
توحيدك توحيدي   وعصيانك عصياني

ويقول زاعما أن الله يظهر حالاً في مخلوقاته:

سبحان من أظهر ناسوته   سرَّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً   في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه   كظلمة الحاجب بالحاجب[3].

(١) ن.م ص ٤٧٨.

(٢) طواسين الحلاّج اعتناء ما سنيون ص ١٦٧.

(٣) انظر: ديوان الحلاّج صنفه وأصلحه د. كامل مصطفى الشيبي ط١(بغداد: مطبعة المعارف – ١٣٩٤هـ) ص ٢١، والطواسين ص ١٣٠، وإيقاظ الهمم لابن عجيبة ص ١٣٠ بدون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

كما يقول: "أنا الحق[1] وما في الجبة سوى الله"[2].

ويقول الحلاّج مقررا مذهبه، ومذهب غلاة الصوفية بحلول الروح الإلهية في روحه:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنـــا
فـإذا أبصرتني أبصرتـــــه ... وإذا أبصرته أبصرتنـــا[3]

وفي الأبيات التالية يصرّح الحلاّج، بما يدل دلالة واضحة على الحلول التام، إذ هو يصف فيها روحه والروح الإلهية في حالة مزج تام. يقول:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شـــيء منـــــي ... فإذا أنت في كل حال[4]

ويقول:

اقتلوني يا ثقاتـــــي ... إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتـــــي ... وحياتي في مماتي[5].

(١) ويعني الصوفية بالحق: الله تبارك وتعالى.

(٢) جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوّف، محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ط١ (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه – ١٣٨٧هـ) ١/٢٦٦.

(٣) الطواسين ص ١٣٤.

(٤) الطواسين ص ١٣٤، وديوان الحلاّج ص ٥٠

(٥) ديوان الحلاّج ص ٢٤.

ويستدل الطوسي على الاعتقاد بالحلول بما رواه عن الشبلي أنه قال:

"إن متحابين ركبا سفينة في البحر، فسقط أحدهما في البحر وغرق، فألقى الآخر نفسه في البحر، فأخرجهما الغوّاصون سالمين، فقال الأوّل لصاحبه: أما أنا، فقد سقطت في البحر، أنت لم رميت نفسك في البحر؟ فقال له: أنا غائب بك عن نفسي، توهمت أنّي أنت"[1].

ويمكن سبر اعتقاد الصوفية بالقول بالحلول من خلال بعض أدعيتهم، فقد كان الحلاّج يدعو بدعاء فيه الحلول، يقول:

"يا إله الآلهة، ويا رب الأرباب، ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم، رد إليّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك، يا هو أنا، وأنا هو لا فرق بين آنيتي وهويتك؛ إلاّ الحدث والقدم، ثم رفع رأسه، ونظر إليّ وضحك في وجهي ضحكات، ثم قال: يا أبا إسحاق أما ترى أن ربي ضرب قدمه وحدّثني حتى استهلك حديثي في قدمه، فلم يبق لي صفه، إلا صفه القدم، ونطقي في تلك الصفة، والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث، ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون عليّ، ويشهدون بكفري،

(١) اللمع ص ٤٣٧.

ويسعون إلى قتلي، وهم بذلك معذورون، ولكل ما يفعلون مأجورون"[1].

ويزعم الصوفية أن لاعتقادهم بالحلول سند من الشريعة، فهم يستدلون على هذه النظرية بحديث (فإذا أحببته كنت سمعه....)[2].

ويمكن الاستدلال بزعمهم بالقول بالحلول بما ينكره عليهم مشايخهم: قال الطوسي وهو حجّة عندهم مثبتا هذه العقيدة عند القوم ومنكراً عليهم:

"...وزعمت الحلولية أن الحق تعالى ذكره؛ اصطفى أجساماً حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية... وإنما ضلت الحلولية إن صح عنهم ذلك؛ لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي هي صفة القادر، ومن الشواهد التي تدل على قدرة وصفة الصانع، فتاهت عند ذلك. وبلغني أن منهم من قال بالأنوار، ومنهم من قال بالنظر إلى الشواهد المستحسنات نظرا بجهل. ومنهم من قال: حال في المستحسنات فقط. ومنهم من قال: على الدوام. ومنهم من قال: وقتا دون وقت فيما

(١) انظر: جمهرة الأولياء ٢/١٧١.

(٢) انظر: ختم الأولياء ص ٤٩٥. والحديث في صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٧/١٩٠، وسيأتي الرد على استدلالهم بهذا الحديث بالمبحث التالي.

بلغني، فمن صح عنه شيء من هذه المقالات فهو ضال بإجماع الأمة، كافر يلزمه الكفر فيما أشار إليه. قال: والأجسام التي اصطفاها الله تعالى أجسام أوليائه وأصفيائه، اصطفاها بطاعته وخدمته، وزيّنها بهدايته، وبيّن فضلها على خلقه. والله تعالى موصوف بما وصف به نفسه، وكما وصف به نفسه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. والذي غلط في الحلول لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق؛ لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، وإنما يحل في القلوب الإيمان، والتصديق له والتوحيد والمعرفة"[1].

أيضاً يستدل باعتقادهم بالحلول بما أنكره عليهم أبو عمرو الدمشقي الصوفي الذي يقول: "كيف يجوز أن يحل الحق في شخص هو أنشأه ملازماً للنقص، وكان عنه مستغنياً، وهو القاهر بجبارته البائن بصفاته عن صفاته خليقته كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن كما كان"[2].

ومّما سبق اتضحت نظرية الحلول عند الصوفية من خلال أقوال

(١) اللمع ص ٥٤١-٥٤٢.

(٢) أصول الملامتية وغلطات الصوفية/ أبي عبد الرحمن السلمي، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الفتاح أحمد الغاوي محمود (١٤٠٥هـ) ص ١٩٩. دون ذكر رقم المطبعة والناشر.

وحكايات رموزهم التي لا ينتابها شك.

أما نظرية وحدة الوجود فهي من النظريات الأساسية عند الصوفية، ولا تخلو مصنّفات القوم من تناول هذه النظرية بالإثبات والدفاع عنها، والاعتقاد بها كركيزة أساسية من ركائز عقائدهم وفكرهم. فعند التتبع والاستقصاء لمقولات وحكايات هؤلاء، نجد التلميح تارة، والتصريح تارة أخرى في هذه الدعوى.

فالصوفية تزعم أنه لا يرى في هذا الوجود سوى الله، يقول الغزالي: "العارفون -بعد العروج إلى سماء الحقيقة- اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق لكن منهم من كان له هذه الحال عرفانا علمياً، ومنهم من صار له ذلك حالا ذوقيا. وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة، واستوفيت فيها عقولهم، فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبق فيهم متسع لا لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضاً.

فلم يكن عندهم إلا الله تعالى، فسكروا سكرا رفع دون سلطان عقولهم، فقال أحدهم: "أنا الحق"[1]، وقال الآخر: "سبحاني ما أعظم شأني"[2]، وقال

---

(١) القائل هو الحلاّج.

(٢) القائل هو أبو يزيد البسطامي.



آخر: "مافي الجبه إلاّ الله"[1]، وكلام العشّاق حال السكر يطوى ولا يحكى"[2].

ويؤكد الحلاج هذه النظرية بقوله:

أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق[3].

ويعترف الحلاّج نفسه بمذهبه في وحدة الوجود" فيقول في (طواسين

---

(١) القائل هو الحلاّج.

(٢) مشكاة الأنوار ومصنّفات الأسرار/ الغزالي، ط١(بيروت: عالم الكتب-١٤٠٧هـ) ص ١٣٩-١٤٠.

وقد رجّح أبو العلاء عفيفي أن يكون هذا الاعتقاد للغزالي في وحدة الوجود هو نهاية تفكير هذا الرجل وذلك بقوله: "وهكذا وصل الغزالي في نهاية تفكيره إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية وحدة الوجود، ولم نجد في كتب الغزالي الأخرى.. مثل هذا التصريح بالوحدة الوجودية.. فهل نرى في "المشكاة" تحوّلا في موقف الغزالي من الحقيقة الوجودية، ومثلا واضحا نحو نزعة الصوفية القائلين بوحدة الوجود".

(مشكاة الأنوار/ أبو حامد الغزالي، تحقيق أبو العلاء عفيفي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر – ١٣٨٣هـ) ص ١٤-١٥، دون ذكر رقم الطبعة).

(٣) أخبار الحلاّج، نشر وتصحيح وتعليق ماسنيون وكراوس. (باريس: مطبعة القلم ومكتبة لاروز – ١٩٣٦م) ص ١٠٨.



الصفاء):

"... دع الخليقة لتكون أنت هو أو هو أنت من حيث: الحقيقة.."[1].

ويقول -أيضاً-: "لكني ليس يستتر عني -يقصد الله سبحانه وتعالى- لحظة. فأستريح حتى استهلت ناسويتي في لاهويته. وتلاشى جسمي في أنوار ذاته، فلا عين لي ولا أثر"[2].

ونجد الشبلي ينحو هذا الاتجاه، عندما قال له الجنيد: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت، فأظهرته على رؤوس الملأ"، فرد عليه الشبلي بقوله: "أنا أقول وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري"[3].

وذكر الطوسي أن أبا حمزة الصوفي[4] دخل دار الحارث المحاسبي؛ فثغت شاة الحارث، فشهق أبو حمزة شهقة وقال: "لبيك يا سيدي"!!،

(١) الطواسين ص ٢٣.

(٢) ن. م ص ٣٣.

(٣) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) هو محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي، توفي سنة تسع وستين ومائتين.

انظر: حلية الأولياء ١٠/٣٢٠، وقال الذهبي في ترجمته: "ولأبي حمزة انحراف وشطح". انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/١٦٦.

فأنكر عليه الحارث المحاسبي، فقال له أبو حمزة: إن إنكارك عليّ يشبه أحوال المريدين المبتدئين"[1].

أي الذين لم يصلوا بعد إلى التحقيق من وحدة الوجود.

وأبو حمزة هنا جعل الشاة هي الله -تعالى الله عمّا يقول علوّاً كبيراً.

ومثل هذا ما قاله أبو الحسين النوري عندما سمع كلبا يعوي فقال: "لبيك وسعديك"[2].

وأيضاً نجد هذه النظرية تتمثل في قول الحلاّج:

قل لإخوان رأوني ميتا ... فبكوني إذ رأوني حزنا

أتظنون بأني ميتكم ... لست ذاك الميّت والله أنا![3].

والصورة أوضح هنا أيضا:

أنا سر الحق ما الحق أنا ... بل أنا حق مفرق بيننا

أنا عين الله في الأشياء فهل ... ظاهر في الكون إلا عيننا[4].

ويقول مصرّحا بنظرية وحدة الوجود:

(١) اللمع ص ٤٩٥.

(٢) ن. م ص ٤٩٢.

(٣) الطواسين ص ١٨٣.

(٤) ن. م ص ١٨٤.

"وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق"[1] .

ويقول أبو مدين التلمساني[2] :

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادا بصدق مراد

قال عنه ابن عربي أنه يعد واحداً من ثمانية عشر نفسا ظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان[3] .

وهذا هو عين الوجود.

ونرى الحلاّج زعيم وحدة الوجود عند الصوفية وهو ينفي الإثنينية ؛ ويثبت وجودا واحدا :

" فقد نقل عن عبد الودود بن سعيد بن عبد الغني[4] الزاهد أنه قال: فكتب للحلاج كيف الطريق إلى الله : قال: الطريق بين اثنين،

(١) ن.م ص ١٨٣.

(٢) التلمساني: أبو مدين، شعيب بن الحسن المغربي الأنصاري، الأندلسي، التلمساني، صوفي، أصله من الأندلس ولد بأشبيلية سنة ٥٢٠هـ وأقام بفاس، وسكن بجاية، يلقبه ابن عربي بشيخ الشيوخ، توفي سنة ٥٨٩هـ بتلمسان.
(انظر ترجمته: معجم المؤلفين ٨١٥/١، والموسوعة الصوفية للحفني ص ٣٥٩، والطبقات الكبرى ١٥٤/١).

(٣) انظر: الموسوعة الصوفية للحفني ص ٣٥٩.

(٤) لم أقف له على ترجمة بما لدي من مراجع .

وليس مع الله أحد، فقلت: بيّن: قال من لم يقف على إشارتنا لم ترشده عبارتنا ثم قال:

أأنت أم أنا هذا في إلهين   حاشاك حاشاك من إثبات اثنين[1]

ممّا سبق يتبيّن أن غلاة الصوفية على مذهب وحدة الوجود، ويبقى واضحا أن التوحيد عندهم هو في الحقيقة وحدة الوجود لا غير.

يقول الغزالي: "جمع الموجودات مرآة للوجود الحق، فالظاهر بذاته هو الله سبحانه، وما سواه فآيات ظهوره ودلائل نوره"[2] .

وهو يستدل بقوله ﷺ في الحديث الشريف: « **إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني، قال: يا رب! كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟** ... الخ»[3] .

فهذا الحديث عند الصوفية صريح أن العبد والربّ شيء واحد، وأن صفات العبد كلها صفات للرب على الحقيقة سواءً منها صفات

(١) أخبار الحلاّج ص ٥٧.

(٢) معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي ط٤(بيروت: دار الآفاق الجديدة – ١٩٨٠م) ص ٥،

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، ١٩٩٠/٤، رقم الحديث (٢٥٦٩).
وستأتي الإشارة إلى بطلان استدلالهم بهذا الحديث بالمبحث التالي .

الكمال، أو صفات النقص، فالله سبحانه -بزعمهم- المريض، والجائع، والعطشان، فلا فرق بين خالق ومخلوق، صح بهذا أن الوجود واحد هو الله تعالى[1].

أمّا عن نظرية الاتحاد عند الصوفية فهي نظرية ثابتة من خلال حكايات القوم، ولا يفرّقون بينها وبين الحلول، فنجد التصريح بهما معاً في حكاياتهم وأقوالهم.

فالحلاّج يزعم أن الذات الإلهية حلت فيه أو اتحد بها وأنه خلع أوصافه البشرية، واتصف بأوصاف الله تعالى، ولقد وصل إلى هذه المرحلة والمقام كما يزعم من خلال تجاريه الصوفية، ومجاهداته في الطريق الصوفي، وزعم أن من هذّب في الطاعة جسمه، وملك نفسه، ارتقى إلى مقام المقربين، فإن لم يبق فيه من البرية نصيب، حل فيه روح الله الذي كان منه عيسى بن مريم، وأن فعله حينئذ فعل الله[2].

كما تتضح نظريته الاتحادية من خلال أبياته الشعرية التي يقول فيها:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني

(١) انظر مشكاة الأنوار، ص١٤٥. سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

(٢) الطواسين ص ١٣٥.



وتوحيدك توحيدي وعصيانك عصياني

وإسخاطك إسخاطي وغفرانك غفراني[1].

ويؤكد تلك بقوله:

لست بالتوحيد ألهو غير أني عنه أسهو

كيف أسهو؟ كيف ألهو؟ وصحيح أني هو؟![2].

ويقول أيضا مؤكدا هذه النظرية:

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناديت إياك أم ناجيت إيـاي

يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري يا جملتي وتباعضي وأجزائي[3].

كما يقول:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت: من أنت؟ قال: أنت!

ففي فنائي فنا فنائي وفي فنائي وُجدت أنت

في محو اسمي ورسم جسمي سألت عني فقلت: أنت[4].

ويصوّر الغزالي هذه النظرية عند الصوفية من خلال ما حكاه عن

(١) ديوان الحلاّج ص ٥٨، وإيقاظ الهمم ص ٢٠٣.

(٢) ديوان الحلاّج ص ٦٢.

(٣) ديوان الحلاّج ص ١٩.

(٤) ن.م ص ٢٦.

أبي تراب النخشبي[1] : "أنه كان معجبا ببعض المريدين، فكان يدنيه، ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواده، فقال له أبو تراب يوما: لو رأيت أبا يزيد؟! فقال: إني عنه لمشغول. فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت ابا يزيد! هاج وجد المريد فقال: ويحك! ما أصنع بأبي يزيد، وقد رأيت الله تعالى، فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك! تغتر بالله عزّ وجلّ، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة؛ كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرةّ!، قال: فبهت الفتى من قوله، وأنكره، فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى، عندك، فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عن الله قد ظهر له، على مقداره؟ وعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة، قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الفيضة - وكان يأوي إلى فيضة فيها سباع، قال: فمر بنا وقد قلب فروه على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد، فانظر إليه! فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميّت، فتعاونا على

(١) النخشبي : أبوتراب عسكر بن محمد النخشبي ، من مشايخ خراسان المشهورين، مات سنة ٢٤٥هـ في البادية فنهشته السباع . (انظر ترجمته في الطبقات الكبرى ٨٣/١ ، وطبقات الصوفية ص٣٤) .

دفنه، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن كان صاحبكم صادقا، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآه انكشف له سر قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك"[1].

هكذا اعتقد غلاة الصوفية في أبي يزيد البسطامي الإلهية!.

وهكذا تتضح هذه العقيدة الراسخة في عقول القوم من خلال ما سطرته أقلامهم!.

ولقد أثبت غلاة الصوفية من خلال ما سبق من أقوال وحكايات حول هذه العقائد أو النظريات الثلاث: الحلول ووحدة الوجود والاتحاد، فزعموا حلول الله واتحاده في المصطفين من البشر، بل وصل بهم الغلو أن جعلوا الوجود واحدا، فما ثم غير الله -تعالى الله-[2] .

(١) الإحياء ٣٥٦/٤.

(٢) انظر تعريفات شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – لهذه النظريات الفاسدة في مجموع الفتاوى (١٧١/٢-١٧٢) .

المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية

عند تتبع واستقراء ردود علماء القرن السادس الهجري على أهل البدع والأهواء ومنهم الصوفية المبتدعة - محل البحث ؛ فإننا نجد أنفسنا أمام منهج فريد في الرد على المخالف، ذلك أن هؤلاء العلماء الأجلاّء رحمهم الله غالبا ما يتبعون المنهج الإجمالي في ردودهم على المخالفين ؛ وعليه فإن قضايا الحلول ووحدة الوجود والاتحاد غالبا ما يتناولها هؤلاء العلماء الذين نحن بصدد بيان أقوالهم وردودهم في الرد على الصوفية إجمالا ؛ فنجد في أساليبهم رحمهم الله، القول : أهل الحلول والاتحاد، أو أهل الحلول ووحدة الوجود.. وهكذا[1].

لقد أنكر ابن الجوزي على غلاة الصوفية، قولهم بالحلول، وما زعمته جماعة من الحلولية من أن الحق تعالى اصطفى أجساما حلّ فيها

(١) وعلى هذا الأساس، فإن هذا الفصل ستكون الردود فيه في هذه القضايا مجملة، وهو ما لمسته عند التتبع والاستقراء لردود العلماء وغيرهم من الصوفية أنفسهم، أو من الفلاسفة والمتكلّمين.

بمعاني الربوبية، وقول بعضهم هو حال في المستحسنات، وما زعمته طائفة منهم رؤية الله عزّ وجلّ في الدنيا في صفة الآدمي.

حتى حكم على قوم منهم بالضياع وفساد العقائد والقول بالحلول والاتحاد[1].

وأنكر على أبي حمزة قوله لمّا صاح غراب على سطح جامع طرسوس[2]، وإذا سمع صوتا مثل هبوب الرياح، وخرير الماء، وصياح الطيور، أو ثغاء الشاة: لبيك لبيك، حتى رمي بالزندقة[3]،

(١) انظر: تلبيس إبليس، ص١٦٤.

(٢) مدينة بالشام بين أنطاكية وحلب، كانت موطناً للصالحين والزهاد. انظر: معجم البلدان (٤/٢٨)

(٣) الزندقة: "أن لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق، وقيل الزنديق معناه الملحد والدهري، وهذه الكلمة أصلها فارسي معرب وأصله "زندة" وهو من يقول بدوام الدهر، وفي شرح المقاصد. وإن كان باعترافه بنبوة النبي ﷺ وإظهاره شعائر الإسلام يبطن العقائد التي هي كفر بالاتفاق خصّ باسم الزنديق، وهو في الأصل منسوب إلى "زند" اسم كتاب أظهره مزدك في أيام "قباذ"، وزعم أنه تأويل كتاب المجوس الذي جاء به زرادشت، يزعمون أنه نبيه".

(جامع العلوم في اصطلاحات العلوم والفنون، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، هذّبه وصحّحه محمود بن علي الحيدر آبادي -١٣٢٩هـ ٢/١٥٦-١٥٧، بدون ذكر رقم الطبعة، ومكان الطبع).

والحلول[1].

وكذلك أنكر على أبي يزيد البسطامي دعاويه حلوله بالله عزّ وجلّ، وقبّحها، وعدّ ذلك من الجهل، والتعاطي على رحمة الله[2].

وممّن أنكر على الصوفية قولهم بالحلول فخر الدين الرازي أحد علماء الكلام بالقرن السادس، وبيّن تأثّرهم بالشيعة الروافض، وقال وهو يصف الحلولية من الصوفية: "وهم طائفة من القوم الذين ذكرناهم يرون في أنفسهم أحوالا عجيبة، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول والاتحاد، فيدّعون دعاوي عظيمة، وأوّل من أظهر هذه المقالة في الإسلام الروافض، فإنهم ادّعوا الحلول في حقّ أئمتهم"[3].

وقال: واستفاد الصوفية من أقوال غلاة الشيعة في بناء مذهبهم

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ١٧٠، ١٦٩.

(٢) انظر: ن. م ص ٢٤٦. وزعم الصوفية أن النظر إلى أبي يزيد البسطامي أنفع من رؤية الله سبعين مرة قول ظاهره البطلان والفساد؛ لأن أعظم لذّة للمؤمنين، هي لذّة النظر إلى وجه الله تعالى، يقول تعالى: (لِلذِينَ آمَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) سورة يونس، آية (٢٦)، والزيادة في مذهب أهل السنة والجماعة هي النظر إلى وجهه الكريم، وليست تلك إلا للمؤمنين المتقين، لا الصوفية المخرفين الضالين.

(٣) (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١١٦).

الحلولي، إذ إن غلاة الشيعة سبقوا الحلاّج، فنادوا بحلول الله في علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-[1].

ولقد أجمع الفقهاء من أهل السنة والجماعة على إنكار الاعتقاد بالحلول، وإنزال أشد العقوبة على معتنقها لخطورتها على العقيدة، يقول القاضي عياض: "وأجمع فقهاء بغداد أيّام المقتدر[2] من المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي[3] على قتل الحلاّج، وصلبه؛ لدعواه

---

(١) (انظر: ن.م ص ١١٦).

(٢) المقتدر: هو أبوالفضل جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم العباسي، ولد سنة ٢٨٢هـ. وبويع له بالخلافة سنة ٢٩٥هـ، وخُلع مرتين وأعيد، وكان حسن الخلق ذو عقل، غير أنه كان يؤثر اللعب، غير ناهض بأعباء الخلافة، قتل سنة ٣٢٠هـ. انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١١/١٧٠، وشذرات الذهب (٢/٢٨٤).

(٣) أبو عمر المالكي: محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن جماد، أبو عمر القاضي الأزدي، ولد بالبصرة سنة ٢٤٣هـ، ولي قضاء مدينة المنصورة سنة ٢٦٤هـ، وتدرج حتى تولّى قضاء القضاء سنة ٣١٧هـ، وكان يضرب بعقله المثل من الفصاحة والبلاغة، وكان من أكبر صواب أحكامه وأصوبها، قتله الحسين بن منصور الحلاّج سنة ٣٠٩هـ. (انظر ترجمته: في المنتظم ١٥/٣١٣، والبداية والنهاية ١١/١٧٢).

الإلهية، والقول بالحلول؛ وقوله: أنا الحق، مع تمسّكه في الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته"[1].

ونقل ابن عساكر ما أنشده أبو علي بن أبي السمرأ[2] منكرا على الصوفية معتقداتهم ومنها - الزعم بالحلول، في قوله:

عجبت من عصبة نمت وسمت ... باسم التقى والنهي وهم جهلة

وساوس النفس علمهم ولهم ... مقاله في الحلول مفتعلة

تصوّف القوم كي يبلغهم ... لباسهم ما تبلغ المسألة

لو أن ما هم عليه من رغد ... ما جعل القوم زيهم مثله

وقد تأتي لهم بزيهم ... من الورى ما تعاطت القتلة

إذا تأملتهم رأيتهم ... نوكى[3] كسالى أذلة

ونقل ابن الجوزي بيتين لبعض الشُكُولِلة الذي أنشد لبعضهم في ذم الحلول، قال فيها:

---

(١) الشفا بتعريف المصطفى للقاضي عياض، ٢/١٠٩١.

(٢) لم أقف له على ترجمة فيما لديَّ من مراجع.

(٣) نوكى: أي حمقى. انظر: المقاييس في اللغة لابن فارس (ص١٠٠٤). مادة: نوك.

(٤) انظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، ١/٤٢٠-٤٢١.

أرى جيل التصوف شر جيل — وقـل لهـم وأهـون بـالحـلول

أقـال الله حيـن عشقتمـوه — كلوا أكل البهائم وارقصوا لي[(١)]

ولّما كان الحلاّج من أولئك الغلاة الذين تزعموا القول بالحلول، وفي معرض الرد عليه يقول ابن الجوزي:

"اختلف الناس حول الحلاّج، اختلافا كبيرا، فمن أقام عليه الحد من علماء زمانه، حكموا عليه بميزان الشرع الحكيم، واقتصوا منه القصاص الذي يشفي القلوب، ولم يعتمد هؤلاء على أقوال مفتراه على هذا الرجل، وقد بذلوا جهودهم في استتابته، وبحثوا سبيل الاعتذار عن أقواله، فأبى الحلاّج، واستكبر، وظل على ضلاله، فحذروا الناس من شرّه، وأقاموا عليه الحد.

ونقل ابن الجوزي قول أبي بكر الصولي[(٢)]: "قد رأيت الحلاّج وجالسته، فرأيت رجلا يتعاقل، وغبيا يتبالغ، وفاجرا يتزهّد، وكان

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٧٨، والقائل هو أبي إسحاق الشيرازي.

(٢) أبو بكر الصولي: محمد بن يحيى بن عبد الله أبو بكر الصولي، وقد يعرف بالشطرنجي، من أكابر علماء الأدب عاصر ثلاثة من خلفاء بني العبّاس هم الراضي والمكتفي والمقتدر، توفي سنة ٣٣٥هـ.

(انظر: الأعلام ١٣٦/٧).



ظاهره أنه ناسك صوفي، فإذا علم أن أهل البلدة يرون الاعتزال صار معتزلا، ويرون الإمام صار إماما، وأراهم أن عنده علما من إمامتهم، أو رأى أهل السنة صار سنيّا، وكان خفيف الحركة مشعبذا، متعالج الطبّ، وجرّب الكيمياء، وكان مع جهله خبيثا"[(١)].

وقال ابن الجوزي: وكان الحلاّج يدّعي الربوبية عندما بعث كتابا عنوانه من الرحمن الرحيم، إلى فلان بن فلان، وعندما قيل له، لقد ادّعيت الربوبية قال:

هذا عين الجمع عندنا، هل الكاتب إلا الله تعالى، واليد منه آلة، وكان يقول

سبحان من أظهر ناسوته — سرسنا لاهـوته الثاقـب

ثم بدا في خلقه ظاهـرا — في صورة الآكل والشـارب

حتى لقد عاينه خلقـه — كلحظة الحاجب بالحاجب[(٢)].

ونقل رحمه الله عن أبي عبد الله بن خفيف[(٣)] قوله: "على قائلها

(١) المنتظم ٢٠٤/١٣.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ١٧١.

(٣) أبو عبد الله بن خفيف: محمد بن خفيف بن اسفكشاذ الضبي، مقيم بشيراز، كان شيخ المشايخ في وقته، صحب رويما الحريري وأبا العبّاس بن عطاء، ولقي الحسين بن =

يعني هذه الأبيات لعنة الله"[١].

وقال ابن الجوزي: "اتفق علماء العصر على إباحة دم الحلاّج... وقد تعصّب له جماعة من الصوفية جهلا منهم وقلة مبالاة بإجماع الفقهاء.. وقد جمعت في أخبار الحلاّج كتابا[٢] بيّنت فيه جهله ومخاريقه، وما قال العلماء فيه، والله المعين على قمع الجهّال"[٣].

وحكى القاضي عياض الإجماع على كفر من ادّعى مجالسة الله والعروج إليه ومكالمته أو حلوله في أحد من الأشخاص، كقول بعض المتصوّفة والباطنية والنصارى والقرامطة"[٤].

وقال رحمه الله أيضاً: ما عرف الله تعالى من شبّهه وجسّمه، أو أجاز الحلول عليه، والانتقال والامتزاج، أو وصفه بما لا يليق به أو

= منصور مات سنة ٣٧١هـ.

(انظر: الطبقات الكبرى ١/١٢٠، وطبقات الصوفية ص ١١٣).

(١) تلبيس إبليس ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) هذا الكتاب من جملة مصنّفات ابن الجوزي التي ذكرها المصنّفون، ولكن لم أعثر عليه لا مطبوعاً، ولا مخطوطاً.

(٣) تلبيس إبليس ص ١٧٢.

(٤) الشفاء ٢/١٠٦٧.

أضاف إليه الشريك، فهذا ما عرف الله ولا عبده، فتحقق هذه النكتة، واعتمد عليها[١].

ورد ابن الجوزي على السالمية -وهم من الصوفية- القائلين بوحدة الوجود من خلال قولهم: أن الله عزّ وجلّ يتجلّى يوم القيامة لكل شيء في معناه، فيراه الآدمي آدمياً، والجني جنيّاً!.

قال ابن الجوزي: أعوذ بالله من نظر وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة[٢].

ومن باب إقامة الحجّة على الخصم بأقوال أصحابه المنكرة لذلك.

فقد نقل ابن الجوزي إنكار السراج الطوسي الصوفي على القائلين بالحلول: حيث قال: "وبلغني أن جماعة من الحلوليين زعموا أن الحق عزّ وجلّ اصطفى أجساما حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية، ومنهم من قال بالنظر إلى الشواهد المستحسنات، ومنهم من قال: حال في

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض. ١/٢٣٩.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٨٤.

واعتقاد طائفة السالمية من الصوفية في باب الأسماء والصفات وفي قضية علو الله بأن الله حالّ في كل مكان هو الذي مهّد للمتأخّرين منهم القول بوحدة الوجود -تعالى الله عمّا يقولون-.

المستحسنات... وقال السراج: وبلغني أن أبا الحسن النوري شهد عليه غلام الخليل أنه سمعه يقول: أن أعشق الله عزّ وجلّ وهو يعشقني، فقال النوري: سمعت الله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1] وليس العشق بأكثر من المحبّة"[2].

وأقام ابن العربي المالكي الحجة العقلية على ادّعاء الصوفية الاعتقاد بوحدة الوجود فقال رحمه الله:

"فإن قائلا لو قال: إن السموات سبع، وقال آخر: إن السموات واحدة، لقلنا يلزمكم أن تقولوا إن السماء واحدة، لأن الحق في الوحدة، وكذلك لو قال قائل: الإمام واحد، هو الحق، فمن قال إنهم أئمة، فهو باطل، لأن الحق في الوحدة، وهذه مسكته لهم، وقد جرّبناها"[3].

وقد رد فخر الدين الرازي على زعم الصوفية اتحاد الخالق في المخلوق، وبيّن أن الله منزّه عن الاتحاد، وأنه سبحانه لا يتحد بشيء البتة. قال: "جماعة من الصوفية وأهل الإباحة يدّعون محبّة الله تعالى، ويدعون الاتحاد في بعض المخلوقات ونقل عن أبي يزيد البسطامي

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٧٠

(٣) العواصم من القواصم ص ٦٠.

قوله: سبحاني ما أعظم شأني. ونقل عن الحسين بن منصور الحلاّج قوله: أنا الحق، وأنشد هذا الشعر:

رق الزجاج وراقت الخمر ... وتشابها فتشاكل الأمـــر

فكأنه خمر ولا قـــدح ... وكأنما قدح ولا خمـــر

وأيضاً يذكرون عنهم هذه الأبيات:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرتـــه ... وإذا أبصرته أبصرتنـــا

يقول الفخر الرازي: ولإشاراتهم تأويلات كثيرة، والذي يدل على فساد مذهبهم وجهين:

أحدهما: أن الشيئين إذا اتحد أحدهما بالآخر، فعند حصول الاتحاد إمّا أن يكونا باقيين أو فانيين، أو يكون أحدهما باقياً والآخر فانيا، فإن كانا باقيين، فلا اتحاد، وإن فني أحدهما وبقي الآخر فالاتحاد أيضا محال، لأن الموجود لا يكون عين المعدوم، فثبت بهذه البراهين القاطعة بطلان القول بالاتحاد. والقول به خرف.

والثاني: هو أن ذات الباري سبحانه وتعالى لو اتحدت بشيء. فإمّا أن يقال إن ذاته بعد الاتحاد كما هي قبل الاتحاد، أو تغيّر فإن كان الثاني لزم وقوع التغيّر في ذاته، وهو محال. وإن كان الأوّل فقد مر

الكلام فيه، فثبت أنه منزّه عن الاتحاد"[١].

كما أبطل عبد الله بن محمد النوري[٢] من صوفية القرن السادس الهجري نظرية الاتحاد التي قال بها غلاة الصوفية وذلك بقوله: "والدليل على بطلان اتحاد العبد مع الله تعالى أن الاتحاد بين مربوبين محال، فإن رجلين مثلا، لا يصير أحدهما عين الآخر لتباين بينهما في ذاتيهما كما هو معلوم، فالتباين بين العبد والرب سبحانه أعظم، فإذن أصل الاتحاد باطل محال مردود شرعاً، وعقلا، وعرفا بإجماع الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية، وسائر العلماء والمسلمين، وليس هذا مذهب الصوفية (المعتدلين) وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى فشابهوا بهذا القول، النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام اتحدنا سوته بلاهوته.

وقال: اعلم أن منشأ أغلاط الفرق التي غلطت في الاتحاد

(١) المسائل الخمسون في أصول الدين، فخر الدين الرازي، تحقيق د. أحمد حجازي السقّا ط٢(القاهرة: المكتب الثقافي، بيروت: دار الجيل – ١٤١٠هـ) ص ٤١-٤٢.

(٢) أبومحمد، عبدالله بن محمد بن أيمن النوري الأصفهاني، الشافعي، نزيل دمشق، صوفي. من مصنفاته معيار المريدين، توفي سنة ٥٩١هـ.
انظر: معجم المؤلفين ٢/٢٧٤، كشف الظنون ٢/١٧٤٤.

والحلول جهلهم بأصول الدين وفروعه وعدم معرفتهم بالعلم، وقد وردت الأحاديث والآثار بالتحذير من عابد جاهل[١].

وقد ذكر النوري في كتابه "معيار المريدين" الفرق التي قالت بالإباحة والاتحاد والتجسيم ورد عليها[٢].

وقد أنكر العلماء على الصوفية احتجاجهم بحديث "من عادى لي ولياً" على إمكانية الحلول والاتحاد، فقد نقل ابن حجر عن الخطابي قوله في معنى الحديث: "والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله[٣]"[٤].

(١) انظر: الحاوي للفتاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (بيروت: دار الكتب العلمية – ١٤٠٨هـ) ٢/١٣٤، ١٣٣، بدون رقم الطبعة).

(٢) انظر: كشف الظنون ٢/١٧٤٤)، ولقد بحثت عن هذا الكتاب، ولم أجده مطبوعا ولا مخطوطاً.

(٣) فتح الباري (١١/٣٥٢).

(٤) وعن سؤال اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء في المملكة العربية السعودية عن معنى قوله: "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره... إلخ" وهو الحديث الذي استدل به غلاة =

= الصوفية على إمكانية وقوع الحلول والاتحاد بين العبد والله سبحانه وتعالى قالت: "الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه، وبعد: فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على الاستفتاء المقدم لسماحة الرئيس العام، ونصّه "ما معنى قوله تعالى في الحديث القدسي، وإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"؟.

وأجابت كما يلي: إذا أدّى المسلم ما فرض الله عليه. ثم اجتهد في التقرّب إلى الله تعالى بنوافل الطاعات واستمر على ذلك ما وسعه أحبّه الله تعالى، وكان عونا له في كل ما يأتي ويذر فإذا سمع كان مسدداً من الله في سمعه، فلا يستمع إلاّ إلى الخير، ولا يقبل إلاّ الحق وينزاح عنه الباطل، وإذا أبصر بعينه أو قلبه أبصر بنور من الله، فكان في ذلك على هدى من الله وبصيرة نافذة بتأييد الله وتوفيقه. فيرى الحق حقّا والباطل باطلا، وإذا بطش بشيء بطش بقوة من الله فكان بطشه من بطش الله نصرة الحق، وإذا مشى كان مشيه في طاعة الله طلبا للعلم، وجهادا في سبيل الله، وبالجملة كان عمله بجوارحه الظاهرة والباطنة، بهداية من الله وقوة منه سبحانه.

وبهذا يتبيّن أنه ليس في الحديث دليل على حلول الله في خلقه أو اتحاده بأحد منهم، ويرشد إلى ذلك ما جاء في آخر الحديث من قوله تعالى: ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما جاء في بعض الروايات من قوله: في يسمع وبي يبصر.. الخ. معنى ذلك إرشاد إلى المراد من أوّل الحديث، وبصريح سائل ومسؤول ومستعيذ ومعيذ.

=

ومن خلال ما سبق يتبيّن أن القول بحلول الله في المخلوقات، أو اتحاده فيها، أو القول في وحدة الوجود، كلها أقوال كفرية فاسدة، فنّدها العلماء في القرن السادس[1]، وتبيّن أنها كذب محض تفوّه به غلاة المتصوّفة، والدين الإسلامي بريء من هذه النظريات التي تفضي إلى

= وهذا الحديث نظير الحديث القدسي الآخر "يقول الله تعالى: عبدي مرضت فلم تعدني.. آلخ) فكل منها يشرح آخره أوّله، ولكن أرباب الهوى يتّبعون ما تشابه من النصوص، ويعرضون عن المحكم منها، فضلّوا سواء السبيل.

وبالله التوفيق، وصلّى الله على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

اللجنة الدائمة

(فتاوي إسلامية جمع وترتيب محمد بن عبد العزيز المسند ط٢(الرياض: دار الوطن – ١٤١٤هـ) ١/٣٥-٣٦).

(١) ولقد استفحل أمر هذه النظريات بعد القرن السادس على يد ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم، وتصدّى لهم العلماء في هذه القرون وأنكروا هذه النظريات، وبيّنوا فسادها وبطلانها، كابن تيمية – رحمه الله – في الفتاوى (٢/٣٦٧) وما بعدها، وفي الاستقامة تحقيق د. محمد رشاد سالم، طباعة: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط١، ١٤٠٣هـ، ١/٣٩٤، ٢/١٩٦، ومجموعة الرسائل والمسائل ط١(بيروت: دار الكتب العلمية- ١٤٠٨هـ) ٤/٢٨ وما بعدها، وغيره من العلماء – رحمهم الله –.

الإلحاد والكفر والشرك - والعياذ بالله ، وقد جاء الإسلام لمحاربة العقائد الفاسدة ، ونشر التوحيد الخالص لله وحده .

ومن عقائد أهل السنة والجماعة أن الله مستوٍ على عرشه فوق سماواته ، بائن من خلقه ولا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يحل في شيء من الأشياء الموجودة في هذا الكون ؛ لأنه خالق الكون وما فيه ، والله جل وعلا متصف بصفات الكمال ، فله الأسماء الحسنى والصفات العلى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] ، هو المتفرد بالجلال ، المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن النقائص والعيوب ، فمن اعتقد أن الله تعالى متحد بمخلوقاته ، وأن العبد عين الرب ، والرب عين العبد ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ، وقد كفّر الله تعالى النصارى ؛ الذين قالوا : (إن الله اتحد بعيسى -عليه السلام- ، فقال سبحانه ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[2] فكيف بهؤلاء غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الله متحد مع جميع مخلوقاته؟!! لا شك بكفرهم لاعتقادهم ذلك[3] ، ومن أجل ذلك اعتبر الإسلام تلك

(١) سورة الشورى ، آية ١١.

(٢) سورة المائدة ، آية : ١٧ ، ٧٢).

(٣) انظر بالتفصيل حكم علماء الإسلام في القرون اللاحقة للقرن السادس على من

=

العقائد انحرافاً خطيراً يخرج صاحبها من ربقة الإسلام.

ولقد أفحم القرآن الكريم المشركين ، حين سألهم ذلك السؤال الذي لا جواب عليه سوى الاعتراف بالخالق عزّ وجلّ وحده ، وأنه غير هذه المخلوقات لا محالة. قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] ، ومعلوم أن الشيء لا يوجد نفسه .

وتبقى نظريات الحلول ووحدة الوجود والاتحاد من النظريات الكفرية التي دسّت على المسلمين لإفساد دينهم ، وذلك أن النفس البشرية ، مهما ارتقت روحيا ، وسمت وتعالت صفاءً ، وإشراقاً ، لا تعدو كونها مخلوقة بأمر الله وقدرته ، لتحقيق غاية أرادها الله سبحانه

= آمن بهذه النظريات الفاسدة في كتاب : مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيء على الأمة الإسلامية ، إدريس محمود إدريس ، ط١ (الرياض : مكتبة الرشد-١٤١٩هـ) ١/ ٢٨٤-٢٩٨.

(١) سورة الطور آية ٣٥. يقول فالح بن مهدي في التحفة المهدية : أي من غير خالق خلقهم ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟ وهم يعلمون أن كلا الأمرين باطل ، فتعين أن لهم خالقاً خلقهم -ﷻ- والاستفهام هنا استفهام إنكاري.

(انظر : التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ، فالح بن مهدي آل مهدي . تصحيح وتعليق د. عبدالرحمن المحمود . ط٢(الرياض : مكتبة الحرمين -١٤٠٥هـ) ص٥٨ .

وتعالى، وهي العبودية له وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[1][2].

ولو حق للنفس -جدلاً- أن ترتقي فوق مرتبة العبودية؛ لارتقت

---

(١) الذاريات آية ٥٦.

(٢) لقد تأثر الصوفية في هذه العقائد الفاسدة ببعض الديانات الوثنية والنصرانية والفلسفات اليونانية والشيعة، حول ذلك التأثر انظر ما يلي:

تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤-٢٥، ص ٦٦-٧٧، الفلسفة الصوفية في الإسلام د. عبد القادر محمود ص ٣٣-٣٤، الصوفية في الإسلام، نيكلسن ص ١٤١، مقدّمة ابن خلدون ص ٧٧٣، التصوّف المنشأ والمصادر، إحسان الهي ظهير ط١(لاهور: إدارة ترجمان السنة -١٤٠٦ه) ص٩٧ وما بعدها، ومدخل إلى التصوّف الإسلامين التفتازاني ص ٣٩، التصوّف منشؤه ومصطلحاته أسعد السمراني ط١(بيروت: دار النفائس -١٤٠٧هـ) ص ٥٤، وقصة الحضارة ول ديورانت ط٤(بيروت: مكتبة المعارف - ١٩٧٩م) ص ٣٤/٣، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية/ صادق سليم صادق (المؤثرات الخارجية).

ووحدة الوجود في ضوء العقيدة الإسلامية رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض إعداد خضر عبد اللطيف سوندك، ووحدة الوجود عند الصوفية حقيقتها وآثارها - عرض ونقد، إعداد: أحمد القصير - رسالة دكتورة بكلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الفصل الخاص بمصادر وحدة الوجود.

نفس الأنبياء والمرسلين، وخاصة نبيّنا محمد ﷺ المصطفى بالرسالة وخاتم الأنبياء والمرسلين، ومعلوم أنه لم يصل أحد إلى تحقيق العبودية الكاملة سواه. ويكفي هذا البيان هدما لنظرية القول بالحلول ووحدة الوجود والاتحاد عند الصوفية وغيرهم.

ومذهب غلاة الصوفية في هذه النظريات (الحلول -الاتحاد- وحدة الوجود) معلوم البطلان من الدين بالضرورة، فهو متضمن للإلحاد في أسماء الله وصفاته، وفي آياته الشرعية والكونية، والأدلة النقلية الدالة على بطلان هذه النظريات الفاسدة كثيرة جداً، وهذه الأدلة هي -ذاتها- أدلة وبراهين السلف الصالح على إثبات التوحيد الصحيح، ولا تخلو آية من كتاب الله تعالى من الرد على القول بهذه النظريات المنحرفة.

وقد دلّت النصوص الشرعية الكثيرة، أن الله تعالى هو خالق الكائنات وبارئها، ومصورها، وموجدها من العدم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

ولا يصح أن يرزق الله نفسه، أو أن يعطي نفسه ويمنع نفسه، وإنما

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

هو يرزق غيره ويمنع ويعطي غيره ، ومذهب غلاة الصوفية في وحدة الوجود مناقض تماماً لأدلة ربوبيته تعالى ، فالله عندهم لم يخلق شيئاً ، ولم يرزق أحداً ولم يحيي أحداً ، ولم يمت أحداً ، فكل ذلك لا حقيقة له ، بل عندهم أن الخالق هو المخلوق ، والرازق هو المرزوق ... الخ .

وعندما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾[1] ، فهذا فيه دلالة على أن هناك عبداً ومعبوداً ، ولو كان الوجود واحداً ، وهو وجود الله -كما يدَّعون- لكان الله هو العبد، ومن الثابت نقلاً وعقلاً وفطرة، أنه لا يجوز وصف الله بالعبودية لاستلزامها الذل ، والله هو القوي العزيز .

كذلك أثبتت النصوص الشرعية القطعية ، أن الله منزه عن مماثلة المخلوقات ، ولا يتصف سبحانه بصفات النقائص قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[2] ، وقال عز من قائل: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[3] .

كما دلّت النصوص الشرعية أن الله تعالى موصوف بعلو الذات،

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٥٦ .

(٢) سورة الشورى ، آية : ١١ .

(٣) سورة طه ، آية : ٥٢ .



قال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[1] ، وقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[3] .

ففي هذه النصوص وغيرها دلالة على أن هناك خلقاً وخالقاً ، فبطل بهذا زعم غلاة الصوفية أن الوجود واحدٌ

والواقع أن القول بهذه النظريات « الحلول والاتحاد ووحدة الوجد » قول خطير جداً، يتنافى مع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد والتنزيه[4].

---

(١) سورة النحل ، آية : ٥٠ .

(٢) سورة طه ، آية : ٥ .

(٣) سورة الملك ، آية : ١٦ .

(٤) وحول فساد وبطلان نظرية وحدة الوجود عند الصوفية وللوقوف على العلماء الذين أنكروا هذه النظرية أشد إنكار ، وكفَّروا دعاتها ، انظر : وحدة الوجود عند الصوفية حقيقتها وآثارها ، عرض ونقد ، رسالة دكتوراه ، إعداد أحمد القصير ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية أصول الدين .

الفصل الثاني

ردود العلماء في القرن السادس على عقيدة الفناء عند الصوفية

المبحث الأول : الفناء عند الصوفية.

المبحث الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على عقيدة الفناء عند الصوفية.

تعريف الفناء لغة واصطلاحاً:

الفناء لغة:

يقول ابن فارس: "الفاء والنون والحرف المعتل. هذا باب لا تنقاس كلِمُهُ، ولم يبن على قياس معلوم، قالوا: فنى يفنى فناءً، والله تعالى أفناه، وذلك إذا انقطع، والله تعالى قطعه، أي ذهب به. يقال: شجرة فنواء، إذا ذهبت أفنانها في كل شيء"[١].

الفناء اصطلاحا:

يقول ابن القيّم في تعريف الفناء: "بأنه مصدر فنى يفنى فناءً، إذا اضمحلّ، وتلاشى، وعدم، وقد يطلق على من تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه... ولكن القوم -الصوفية- اصطلحوا على وضع هذه اللفظة لتجريد شهود الحقيقة الكونية والغيبية عن شهود الكائنات"[٢].

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٤/٤٥٣.

(٢) مدارج السالكين لابن القيّم ١/١٥٤ دون ذكر رقم الطبعة.



المبحث الأول
الفناء عند الصوفية

عقيدة الفناء من العقائد التي اشتهرت عند الصوفية، فهي عقيدة تتلخص في ذهاب الحس والوعي وانعدام الشعور بالنفس، وبالعالم الخارجي، وانمحاء العبد في جلال الربوبية، فيفنى العبد في شخصه، ويبقى في ربه، بعد مجاهدة ومجالدة وتصفية النفس.

وتؤكد المصادر الصوفية، أن هذا المصطلح ظهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وأوّل من قال بهذه العقيدة أبو يزيد البسطامي، كما تقول بعض المصادر الصوفية[١]، بينما يرى البعض أن سعيداً الخراز هو أوّل من استخدم هذا المصطلح[٢].

والفناء بعدي، يأتي بعد المجاهدة الشديدة، والرياضة المريرة حيث تختفي إرادة الإنسان وشخصيته، وشعوره بذاته، فلا يرى في الوجود

(١) انظر: المعجم الفلسفي ص ١٦٧، والتصوّف الثورة الروحية في الإسلام، أبوالعلاء عفيفي ص ٢٢٥، والتصوّف الإسلامي وتاريخه، نيكلسن ص ٧٥.

(٢) انظر: كشف المحجوب للهجويري ص ١٧١، والموسوعة الصوفية للحفني ص١٣٧، والحلية ١٠/٢٤٦، وطبقات الصوفية ص ٥٤.

غير الله، وإرادته، وإلى ذلك أشار القشيري بقوله: "فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال: إنه فني عن شهواته، فإذا فني عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه، في عبوديته، ومن زهد في دنياه بقلبه يقال فني عن رغبته، فإذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق إنابته ومن عالج أخلاقه، فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر، وأمثال هذه من رعونات النفس، يقال: فني عن سوء الخلق، فإذا فني عن سوء الخلق بقي بالفتوة والصدق"[1].

وزعم بعض الصوفية أن الفناء منّة وفضل من الله للعبد وإكرام منه له، وليس من الأمور المكتسبة، يقول الكلاباذي:

"إنّ الفناء فضل من الله تعالى وهبة للعبد وإكرام منه له، واختصاص له به، وليس هو من الأفعال المكتسبة، وإنما هو شيء يفعله الله ﷻ بمن اختصه لنفسه واصطفاه له"[2].

إلاّ أن الكثير من الصوفية ذهبوا إلى أنّ حالة الفناء مكتسبة، وأنه من أجل الوصول إلى درجة الفناء، لابد من تجاوز بعض العقبات، وذلك عن طريق الرياضة والمجاهدة الشديدة، بحيث يستطيع الإنسان أن

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٢٨.

(٢) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٥٠.

يتخلّص من حواسه وفكره[1].

ولقد أُثر عن الحلاّج أقوال كثيرة كلها تشير إلى فنائه عن نفسه، وروحه من صفاته ومحو جانب الناسوت منه، واندماجه في الذات والحقيقة الإلهية. يقول في بعض أبياته:

عجبت منك ومني ... يا منية المتمني

أدنيتني منك حتى ... ظننت أنك أني

وغبت في الوجد حتى ... أفنيتني بك عني[2]

ونقل عن أبي يزيد البسطامي قوله في الفناء:

أشار سري إليك حتى ... فنيت عني ودمت أنت

محوت اسمي ورسم جسمي ... سألت عني فقلت أنت

فأنت تسلو خيال عيني ... فحيثما درت كنت أنت[3]

---

(١) انظر: فصوص الحكم لابن عربي، تعليق أبو العلاء عفيفي، (دار إحياء الكتب العربية – ١٣٦٥هـ) ص ٧٢-٧٣ بدون ذكر رقم الطبعة ومكانها.

(٢) ديوان الحلاّج ص ٥٥-٥٦.

(٣) شطحات الصوفية، د. عبد الرحمن بدوي.

ط٣ (الكويت: وكالة المطبوعات ١٩٧٨م) ١/١٤٠-١٤١.

وأئمة الصوفية اتفقوا على أنه ليس بالإمكان الدخول إلى عالم السير والسلوك الواقعي، والصفاء والروحانية، بدون ترويض النفس، والقاعدة الأساسية في رياضة النفس عند الصوفية، تحقيق منعها عن كل ما تألفه، وتشتهيه، وخاصة الأشياء التي اعتادت عليها النفس البشرية السوية، فقد بيّن الغزالي ذلك في قوله: "أن الطريق يقوم على تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى، وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، فأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت بالتعلّم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى"[(١)].

ويشكل الفناء عند الصوفية قوام التوحيد، كما هو عند الجنيد، فالتوحيد عنده هو الاستغراق في الله على الكلية، كما صرّح بذلك عندما سئل أيضا عن التوحيد فقال: معناً تضمحل فيه الرسوم، وتندرج منه العلوم ويكون الله كما لم يزل[(٢)].

(١) انظر: الإحياء ١٩/٣.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ص ١٣٥، واللمع ص ٤٩.

ويستدل الصوفية على نظرية الفناء هذه بالقرآن الكريم وبآية الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾[(١)].

فالجنيد يفسر الآية: بأن أرواح الأولياء كانت موجودة قبل وجود الأبدان في عالم الذر، ولكن وجودها هذا كان هو الفناء بعينه، إذ كانت تدرك من التوحيد ما ليس تدركه حاليا وهي في عالم الأبدان[(٢)].

وبهذا القول فإن التوحيد عند الجنيد فطري في النفس، ولكن البدن حجبها عنه بمعنى إذا أزيلت هذه الحجب يرجع العبد إلى أوّله، فيكون كما كان في العالم السابق قبل أن يكون في هذا العالم[(٣)].

ولقد حاول الصوفية ربط عقيدة الفناء بما ورد في القرآن الكريم، وفي قصّة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...﴾[(٤)]، وكيف أن النسوة قطّعن

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٢) انظر: التصوّف الإسلامي بين الدين والفلسفة، إبراهيم هلال (القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٧٩م) ص ٢٢، بدون ذكر رقم الطبعة.

(٣) انظر اللمع ص ٤٩. وسيأتي التفسير الصحيح لهذه الآية عند العلماء في المبحث التالي.

(٤) سورة يوسف آية ٣١.

أيديهن حين خرج عليهنّ يوسف، ولم يشعرن بألم القطع، فهذا في رأي القشيري نموذجا يدل على إمكانية تحقيق الفناء الصوفي، يقول القشيري: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾، قال: لم يجدن -أي النساء- عند لقاء يوسف عليه السلام ألم قطع الأيدي، وهنّ أضعف الناس ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1]، ولم يكن ملكا. فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق، فما ظنّك عن كاشف بشهود الحق سبحانه وتعالى، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه، فأي أعجوبة في ذلك"[2].

وممّا استدل به غلاة الصوفية على اعتقادهم بالفناء، قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3].

يقول الكلاباذي: ومعنى ذلك أن يكون الله عزّ وجلّ مصرّف، فلا أكون أنا في أفعالي، فهو الله تعالى لا أنا، فيكون الله هو المعبود والعبد[4].

(١) سورة يوسف آية ٣١.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٢٩. وسيأتي التفسير الصحيح لهذه الآية عند العلماء في المبحث التالي.

(٣) سورة الأنفال آية ١٧.

(٤) انظر: التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٤١-١٤٢.



ويقول الغزالي: معناه "أو ما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا، إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا"[1].

وتوضيح ذلك: وما رميت (يا محمد الرب) إذ رميت (يا محمد العبد) ولكن الله رمى؛ إذن محمد ﷺ هو الله[2].

فلا فاعل ولا موجود إلاّ الحق تعالى وحده، فهو العابد والمعبود[3].

واستدل الصوفية أيضا على عقيدة الفناء بقوله ﷺ عن ربّه: « **وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته، كنت عينه التي يبصر بها وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها** »[4][5].

ولقد ظن الصوفية أن الوصول إلى الله تعالى، أو الطريق إليه،

(١) الإحياء ٢٤٨/٤.

(٢) انظر: الكشف عن حقيقة الصوفية لأوّل مرة ص ١٢٦.

(٣) انظر: معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ٩٩. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وسيأتي التفسير الصحيح لهذه الآية عند العلماء في المبحث التالي.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع ١٩٠/٧.

(٥) انظر: اللمع ص ٤٦٣، وعوارف المعارف ص ٤٥٨. لقد سبق بيان معنى الحديث عند أهل السنة والجماعة. انظر: ص٣٤١.



والفناء فيه لا يكون إلا بترك الدنيا، وما فيها، واعتزال الناس، وتعذيب النفس، بالمجاهدة الشديدة، والتقليل من الطعام، كما يذكر أن سهل التستري حمل نفسه على أن يأكل وجبة واحدة كل خمسة عشر يوماً، وقال: أبو عثمان المغربي[1]: وعندهم أن الرباني لا يأكل في أربعين يوما، والصمداني في ثمانين يوما[2].

ولهذا كان الجوع من صفات الصوفية، وهذا أحد أركان المجاهدة.

وهذا التصوّر للمجاهدة صار منهجا عاما، اتخذه الصوفية، وساروا عليه لتحقيق الفناء عندهم.

يقول إبراهيم بن أدهم: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين[3] حتى تجوز ست عقبات:

الأولى: تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة.

---

(١) أبوعثمان المغربي: سعيد بن سلام المغربي، من القيروان، من قرية يقال لها كوكب، أقام بالحرم الشريف مدّة، لم ير مثله في علو الحال، وصون الوقت، مات سنة ٣٧٣هـ.

(انظر: الطبقات الكبرى ١/١٢٢، وطبقات الصوفية ص ١١٧).

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ص ٢١٣، ٢١٤.

(٣) أي تصل إلى الفناء.

الثانية: أن تغلق باب العزة وتفتتح باب الذل.

الثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.

الرابعة: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

الخامسة: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.

السادسة: أن تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت[1].

هذا هو المنهج الذي رسمه إبراهيم بن أدهم للصوفية، والذي يتمثّل في قطع العلائق كلها عن النفس. وتلك هي الوسائل التي تبني عليها الصوفية اعتقادهم بالفناء، حتى قال بعضهم: إن ما نالوه في حياتهم، لم يكن إلا حصيلة كفاحهم وجهادهم للنفس، وقهر البدن بجميع نوازعه وميوله، كما قال الجنيد: ما أخذنا التصوّف بالقيل والقال، ولكن بالجوع، وترك المألوف، والمستحسنات[2].

وعلى ضوء ما سبق يتبيّن أن عقيدة الفناء عند الصوفية وسائل على ضوئها تتحقق هذه العقيدة بزعمهم ومن أهمّ هذه الوسائل: المجاهدة، وترويض النفس، والجوع، والفقر والغيبة، والسكر،

---

(١) ن.م ص ٦٤. وهذه أمور قد نهى الشارع عنها قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) طبقات الصوفية ص ١٦، والرسالة القشيرية ص ٨٦.

والعشق، والهيجان، والغشي، وقطع العلائق، والسماع، والمحبة.

ومن أهمّ هذه الوسائل المجاهدة ورياضة النفس.

قال القشيري عن المجاهدة: "هي فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات"[1].

وذهب إلى ذلك الجيلاني[2]:

"أمّا الرياضة عند الصوفية فهي كما يقول الجرجاني: عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية، فإن تهذيبها تمحيصها عن خلطات الطبع ونزعاته"[3].

كما عرّفها ابن عربي بأنها: "حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال"[4].

ويجعل الصوفية للمجاهدة مقاما يسمو بالعارفين[5] دون غيرهم.

يقول الجيلاني: "فمجاهدة العوام[6] توفيه الأعمال لا مجاهدة

(١) الرسالة القشيرية ص ١٧٢ .

(٢) الغنية ٢/١٨٤.

(٣) التعريفات ص ١٥١.

(٤) اصطلاحات الصوفية لابن عربي ص ١٧.

(٥) العارفين : هم الصوفية بزعمهم .

(٦) العوام : هم أهل السنة والجماعة بمفهوم الصوفية .

الخواص -الصوفية- في تصفية الأحوال، وقد تسهل مقاساة الجوع والعطش والسهر، ومعالجة الأخلاق الرديئة بعسر وتعصّب"[1].

ونجد عقيدة الفناء أكثر وضوحا عند الغزالي بقوله:

"فإذا أفنيت ذاتك وذهبتك صفاتك، ومنيت ببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعه "فبي يسمع وبي يبصر" فيكون هو متواليك وواليك، فإن نطقت فبأذكاره، وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركت فبأقداره، وإن بطشت فباقتداره، فهنالك تذهب الإثنية واستحالت البيّنة، فإن رسخ قدمك وتمكّن سرك حال سكرك، قلت: هو "أي هو الله" وإن غلب عليك وجدك وتجاوز بك حدك عن حد الثبوت، قلت: هو أنت "أي أنت هو" فأنت في الأول متمكّن، وفي الثاني متلوّن، ومن هنا أشكل على الأفهم حل رمز هذا الكلام"[2].

وبهذه الأقوال الصوفية التي سبقت يتبيّن أن الفناء هو نهاية مطاف غلاة الصوفية، وآخر مرحلة من مراحل الطريق، والهدف الأسمى للمجاهدة ورياضة النفس القائمة على المشاق وهجر الأطعمة

(١) الفنية ٢/١٨٣.

(٢) روضة الطالبين، ا لغزالي، تصحيح محمد نجيب (بيروت: دار النهضة الحديثة) ص ١٢-١٣ دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر.

والملذات، وهو بالتالي اضمحلال ذات الإنسان المخلوق بذات الله الخالق -ﷻ- عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على عقيدة الفناء عند الصوفية

من سنن الله في خلقه أن قيّض لهذه الأمّة من العلماء من قام بالذب عن العقيدة، ونفى عنها شبه المبطلين، وتحريف الغالين، ودعا جلّ شأنه إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، وأثبت أن الخير كل الخير بالاتباع لا بالابتداع، فكان الفهم العميق للإسلام وشعائره رائد هؤلاء العلماء الأكابر، وكان السير على سبيل ومنهاج المؤمنين منهجهم؛ حتى كان عملهم سياجا حمى العقيدة من البدع والخرافات والانحرافات.

إن مصطلح الفناء الذي استخدمه غلاة الصوفية، مثار انتباه واستنكار العلماء، سواء ورد بهذا اللفظ أو بألفاظ مرادفة له ووسائط مؤدية له كالمجاهدة والغيبة، وترويض النفس، والغشي والصعق وغيرها..

وهذا المصطلح أعني "الفناء" لم يرد له أثر بلفظته هذه في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة، ولم ينقل عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. فكان هذا اللفظ دخيلا ومحدثا في الفكر الإسلامي، وقد وقف العلماء في القرن السادس وغيره في وجه هذه البدعة المفتراة، وعابوا وأنكروا على أصحابها.

فقد أنكر ابن الجوزي رحمه الله على الصوفية بعض المظاهر المصاحبة لظاهرة الفناء مثل الغيبة والسكر والغشي، مشيرا إلى حال الصحابة والتابعين عند سماعهم القرآن، فقد كانوا لا يزيدون على البكاء والخشوع، وكانوا كما وصفهم القرآن تدمع عيونهم، وتقشعرّ جلودهم.

ودعّم رحمه الله قوله بالآثار الصحيحة عن الصحابة -رضي الله عنهم- ومنها: "أن حصين بن عبد الرحمن، قال: قلت لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ عند قراءة ا لقرآن، قالت: كانوا كما وصفهم الله أو ذكرهم تدمع عيونهم وتقشعرّ جلودهم، فقلت لها إن ها هنا رجالا، إذا قرئ على أحدهم القرآن غشي عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"[1].

ومرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما برجل ساقط من الطريق، فقال: ما شأنه قالوا: إذا قرئ عليه القرآن يصيبه هذا قال، إنا لنخشى الله عزّ وجلّ وما نسقط[2].

ويروي لنا عامر بن عبد الله بن الزبير قصة وقعت بينه وبين أبيه فقال: "جئت إلى أبي فقال: أين كنت، فقلت له وجدت أقواما ما رأيت خيرا منهم، يذكرون الله عز وجل فرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٥٣.



الله عزّ وجلّ، فقعدت معهم، قال: لا تقعد بعدها، فرأى كأني لم آخذ ذلك فيّ فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن ولا يصيبهم هذا. أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر! ، فرأيت ذلك كذلك فتركتهم"[1].

ويقول ابن الجوزي أن السلف يرون أن العبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات، وهو مأمور بالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد كما هو قول جمهور العلماء والأئمة الأربعة وغيرهم؛ بل إن الإنسان إذا أصابه جهد في نهار رمضان، يلزمه الإفطار، وإلا مات عاصياً لله بدليل ما رواه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أصابه جهد في رمضان فلم يفطر مات دخل النار"[2][3].

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢١٢.

(٢) انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (بيروت: دار الكتاب العربي) ١٠/٢٧٠، وقال الدكتور خلدون الأحدب في كتابه زوائد تاريخ بغداد، ط١ (دمشق: دار القلم – ١٤١٧هـ) ٣٩٥/٧.
إسناده ضعيف، قلت: وابن الجوزي لم يوفق للاستشهاد في هذا الحديث، لكنه أصاب الحقيقة، في رده على الصوفية.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص ٢١٢.



وقد أنكر ابن الجوزي على مصنّف الصوفية محمد بن الترمذي[1]، ما جاء في كتابه المسمّى "رياضة النفوس" وقال: وأما ما صنّفه الترمذي فكان ابتداع في الدين، شرع برأيه الفاسد[2].

وفي معرض نقده للصوفية الذين تكلموا في الفناء والوسائل المؤدية إليه قال ابن الجوزي رحمه الله:

"وصنّف لهم عبد الكريم بن هوزان القشيري كتاب الرسالة، فذكر فيه العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع والفرق، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات، والتجلّي والمحاضرة والمكاشفة، واللوائح والطوالع واللواقع، والتكون والتمكين، والشريعة والحقيقة،

(١) الترمذي: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي، من كبار مشايخ الصوفية في خراسان، الملقّب بالحكيم الترمذي، نسبة إلى مدينة ترمذ مسقط رأسه، ولد أوائل القرن الثالث الهجري، وتوفي في أواخرها، من أشهر مصنّفاته "كتاب ختم الأولياء".
(انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٥١، وفي الطبقات الكبرى ٩١/١، ومقدّمة كتاب ختم الأولياء، تأليف محمد بن علي الترمذي، ٩١/١.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٢١٧.

إلى غير ذلك من ذلك التخليط"[1].

ووصفهم رحمه الله بالجهل بمراد الشرع؛ وكشف تلبيس إبليس عليهم، حينما ظنّوا أن المراد برياضة النفس، قمع ما في البواطن من الصفات البشرية، ورد عليهم زعمهم، وبيّن أن ذلك ليس مراد الشرع، ولا يتصوّر إزالة ما في الطبع بالرباط.. وإنما المراد من الرياضة كف النفس عمّا يؤذي من جميع ذلك وردها إلى الاعتدال فيه، وقد مدح الله عزّ وجلّ من نهى النفس عن الهوى كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾[2].

وقال رحمه الله: من ادّعى أن الرياضة تغير الطباع؛ ادّعى المحال، وإنما المقصود بالرياضة كسر شهوة النفس والغضب، لا إزالة أصلها[3].

وفنّد ابن الجوزي ادّعاء الصوفية أن تلك المجاهدات تؤدي إلى الفناء، وبين أن مجاهدات الصوفية تخالف مقتضيات الطبيعة البشرية؛ إذ فيها تحميل النفس ما لا تطيق، فضلا عمّا يسبّب للبدن من أضرار،

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٥.

(٢) سورة النازعات آية ٤٠-٤١.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٦٧.

كالضعف الذي يجعل الإنسان غير قادر على أداء حقّ الله وهو العبادة، مع أن الشرع قد أمر بما يقيم النفس حفاظا لها وسعيا في مصلحتها، وأي خلل في ذلك تكون نتيجته مدمرة للجسم والنفس؛ إذ تؤدي إلى الوساوس والجنون وسوء الأخلاق[1].

ورد ابن العربي المالكي على قول بعض الصوفية أن قطع العلائق بتجرّد النفس عن المحسوسات بترقي حالة الفناء فقال رحمه الله:

" وأمّا الإشارة بتجرّد النفس: أو القلب عن علائق المحسوسات لترقي إلى المعقولات، فعسى أن يكون ذلك إذا مات، فأما مع الحياة فيبعد ذلك، أو يستحيل عادة، وقد كان النبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح: « **إنه ليغان على قلبي، فأتوب مائة مرّة** »[2]، فكيف يصحّ أن يدّعي عاقل، فكيف عالم، قلبا لا يدركه عين، ولا تطرق إليه غفلة، حتى يترقى إلى حالة الفناء، حتى يفنى عن نفسه، فلا يرى أهلا ولا حالا؟، وقد حفّ بالنبي ﷺ الأزواج، وخالطهنّ بالوطء، وكيف يدّعي أحد قطع علائق ربطها الله قبل، ولم يأذن بحلّها، وكان النبي ﷺ

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢١٥، ٢١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤/٢٠٧٥.



يشدّها، ويحثّ على النكاح، وعلى انتقاء الأبكار، لا على انتفاء الأفكار، وأي نفس تكون ذلك، أو أي قلب؟ والنبي عليه السلام، لم يرد الصحابة إلى ما زعموا من الطريقة، وإنما ردّهم إلى ألفاظ القرآن، وما كان معهم عليه، حتى استأثر الله به"[1].

وأنكر ابن الجوزي على الصوفية تكلّمهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات والوجد والعشق، التي تعتبر عند الصوفية الطريق للوصول إلى الفناء المزعوم، فقال:

"ثم جاء أقوام، فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنّفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي... ثم جاء آخرون فهذّبوا مذهب التصوّف، وأفردوه بصفات ميّزوه بها؛ من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق.. ومنهم من خرج من الجوع إلى الخيالات الفاسدة؛ فادّعى عشق الحق والهيجان فيه، فكأنّهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة، فهاموا به، فهؤلاء بين الكفر والبدعة... ثم تشعّبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد"[2].

(١) العواصم من القواصم ص ٢٩-٣٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

وهذه الوسائل أدّت إلى الفناء الذي افرز الاعتقاد بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، فهذه النظريات تعتبر إفرازه من إفرازات الفناء القائم على المجاهدات وترويض النفس، تلك المجاهدات المصادمة لمفهوم المجاهدة في الإسلام.

ولقد وردت آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية شريفة، تحضّ على مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى، ولكن ليس بالمفهوم الصوفي الفاسد.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1].

قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: أي قاتلوا أعداءنا لأجلنا نوفيهم لإصابة الطريق المستقيمة، وقيل: ليزيدنهم هداية، وإن الله لمع المحسنين بالنصر والعون[2].

وبهذه التفاسير للآية الكريمة تبطل دعوى الصوفية في مفهومهم للمجاهدة[3].

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩.

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير ٦/٢٨٥.

(٣) حيث ارتقوا بها من مستوى الوسيلة إلى مستوى الغاية، وهذا أمر نهى عنه الإسلام بقوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ البقرة آية ٢٣٣، والمجاهدة =

ومن السنّة النبوية قوله ﷺ: "المجاهد من جاهد نفسه في الله..." وفي رواية "... من جاهد نفسه في طاعة الله"[1].

وعندما استدل غلاة الصوفية على عقيدتهم وقولهم بالفناء بقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾[2].

نرى بطلان هذا الاستدلال من خلال تفسير معنى الآية عند العلماء، ومن هؤلاء وابن العربي وابن الجوزي رحمهم الله، الذين بيّنوا سبب نزول هذه الآية ومعناها فقالوا: إنه عندما التقى جيش المسلمين بزعامة الرسول ﷺ بجيش كفّار قريش أخذ رسول الله ﷺ حفنة من التراب ورماها في وجه العدو، وقال ﷺ: شاهت الوجوه، فانهزموا،

= في الإسلام في مواجهة السلطان الجائر بكلمة الحق لقوله ﷺ: « **أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر** ». سنن ابن ماجه، كتاب القتل، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢/١٣٢٩ برقم ٤٠١١ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كما أن من المجاهدة في الإسلام بر الوالدين، قال رسول الله ﷺ لرجل جاء يستأذنه للجهاد: (أحيٌّ والداك؟) قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد). صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به ٤/١٩٧٥ برقم ٢٥٤٩ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. وبذلك تبطل مزاعم الصوفية

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ٦/٢٠-٢٢.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

فذلك تفسير الآية ، إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفّا من الحصا إلى وجوه جيش فلا تبقى منهم عين إلا وأصابها منه شيء[1] وتلك معجزة من معجزات النبي ﷺ وكرامة من الله جلّ وعلا له.

وبهذا يكون الرامي هو الرسول ﷺ العبد ، وليس الرسول الإله كما تزعم الصوفية !!! .

كذلك عندما استدل غلاة الصوفية على القول بالفناء بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[2] .

نرى بطلان ذلك الاستدلال عند العلماء أمثال ابن الجوزي ، عندما قالوا : أن هؤلاء النسوة حززن أيديهنّ بالسكاكين ولم يجدن الألم ؛ لشغل قلوبهنّ بيوسف عليه السلام[3] .

وليس لفنائهنّ به كما تزعم الصوفية ، وتجعله دليلا لها على إمكانية تحقق الفناء بالخالق جلّ وعلا !.

---

(١) انظر : أحكام القرآن الكريم لابن العربي ٣٨٨/٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٣٢/٣. وانظر ردّ ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين ٤٢٦/٣ الذي بيّن فيه تناقض الصوفية وعدم فهمهم للآية الكريمة .

(٢) سورة يوسف آية ٣١.

(٣) انظر : زاد المسير ٢١٨/٤.

وعندما استدل غلاة الصوفية على اعتقادهم بالفناء بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... ﴾[1] .

نرى بطلان ذلك الاستدلال عند العلماء أمثال ابن العربي المالكي الذي قال في تفسيرها : أن الله خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرّية فقال : هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرّية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون[2] .

ومن خلال تفنيد العلماء لعقيدة الفناء عند الصوفية وما صاحبها من مظاهر ، رغم عدم وضوحها وتفشيها في ذلك القرن وما قبله ؛ مقارنة بوضوحها في القرون اللاحقة وتصدّي العلماء لها ، ومن خلال هذا المفهوم الفاسد للفناء عند غلاة الصوفية ، وما جرّه عليهم من مظاهر الانحرافات العقدية ؛ يتبيّن أن هذه العقيدة برمّتها دخيلة على الإسلام والمسلمين من الديانات والفلسفات الوثنية[3] .

---

(١) سورة : الأعراف آية ١٧٢.

(٢) انظر : أحكام القرآن لابن العربي ٣٣٣/٢.

(٣) يقول المستشرق نيكلسون : " ويدل تعريف الصوفية للفناء من الناحية الخلقية ، بأنه محو الصفات الذميمة ، التخلّق بكل خلق حميد ، ووصفهم لوسائل قمع الهوى والشهوات على وجود أثر الفلسفة البوذية فيهم ، مما لا يدع مجالا للشك ، لأن تعريفهم =

= هذا يتّفق تمام الاتفاق مع تعريف "النيرفانا"، أو الفناء في عرف أصحاب وحدة الوجود، فربّما كان أشدّ إيصالا لفكرة الفيدانتا وما ماثلها من الأفكار الهندية... ومن الشواهد والأدلّة والأقوال المأثورة عنهم؛ أن أبا يزيد البسطامي كان من أهل خراسان، وكان جدّه زرادشتيا، وشيخه في التصوّف كرديا، ويقال: أنه أخذ عقيدة الفناء الصوفي عن أبي علي السندي، الذي علّمه الطريقة الهندية التي يسمّونها "مراقبة الأنفاس" والتي وصفها هو بأنّها عبادة العارف بالله"

(في التصوّف الإسلامي وتاريخه / نيكلسون ص ٧٥).

ومن جهته يقول المستشرق ديلاس أدليري: "... ويوجد شبه سطحي بين النيرفانا البوذية، وبين الفناء الصوفي الذي يقصد به استغراق النفس في الروح الإلهي، إن المذهب البوذي ليمثّل النفس كأنها فقدت فرديتها في الطمأنينة التي في الكنية المطلقة، على حين نجد المذهب الصوفي، بالرغم من قوله: بفقدان الفردية، يعتبر الحياة الباقية في جوهرها، تأملا وجديا للجمال الإلهي. وثمّة شبه هندي للفناء، ولكنّه ليس في البوذية، وإنّما يوجد فيما تقول به الفيدانتا من وحدة الوجود"

(الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أولري. ترجمة د. تمّام حسّان، مراجعة د. محمد مصطفى حلمي. (القاهرة: عالم الكتب) ص ٢٠٠، دون ذكر رقم الطبعة وسنة النشر).

وحول بطلان عقيدة الفناء عند الصوفية انظر: نظرية الفناء عند الصوفية وموقف السلف منها. إعداد: سعيد أبوبكر زكريا، رسالة ماجستير، بكلية التربية، جامعة الملك سعود بالرياض.

الفصل الثالث
ردود العلماء في القرن السادس على البدع في العبادات عند الصوفية

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصلوات عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصيام عند الصوفية.

المبحث الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية.

المبحث الرابع: ردود العلماء في القرن السادس تجاه البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية.

المبحث الخامس: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية.

العبادة لغة :

- بكسر العين، وفتح الدال مصدر "عبد" : الطاعة والخضوع لله تعالى على جهة التعظيم، والجمع عبادات[1].
- قال الرازي : " وأصل العبودية، الخضوع والذل، والتعبيد التذليل، يقال : طريق معبّد، والتعبيد أيضا : الاستعباد، وهو اتخاذ الشخص عبدا، وكذا الاعتباد.. وكذا الاعباد، والتعبّد أيضا.؛ يقال تعبد : أي اتخذه عبداً"[2] .

العبادة اصطلاحاً :

- العبادة هي " طاعة الله تعالى المقرونة بالنية "[3].
- وعرفّها الجرجاني بقوله : " فعل المكلّف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه "[4].

---

(١) انظر : معجم لغة الفقهاء (ص٢٧٢).

(٢) مختار الصحاح (ص٤٠٨).

(٣) أساس البلاغة (ص٢٨٨).

(٤) معجم لغة الفقهاء (ص٢٧٢).

- وقال الكاشاني : هي "غاية التذلّل لله، وهي للعامة"[1].

ولشيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعريف للعبادة حسن اللفظ والمعنى من أشمل التعاريف وأدقها وأصحّها.

يقول هي : " اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة "[2].

---

(١) التعريفات (ص١٨٩). ويقصد بالعامة هم أهل السنة والجماعة ويقابلهم الخاصة وهم الصوفية، وفي ذلك تزكية لهم، وقد نهانا الله عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ سورة النجم، آية٣٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩.

المبحث الأول

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصلوات عند الصوفية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: البدع في الصلوات عند الصوفية.

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصلوات عند الصوفية.

تعريف الصلاة لغة واصطلاحاً :

الصلاة لغة :

الدعاء والرحمة والاستغفار[١]، قال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[٢]، أي : ادع لهم.

الصلاة اصطلاحاً :

أقوال وأفعال مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم[٣].

---

(١) انظر : القاموس المحيط (٣٥٥/٤).

(٢) سورة التوبة، آية ١٠٣.

(٣) انظر : حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ط٢(١٤٠٣هـ) ٤١٠/١، والأحكام شرح أصول الأحكام. عبدالرحمن بن قاسم ط٢ (١٤٠٦هـ) ١٢٨/١، والمغني لابن قدامة. (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة -١٤٠١هـ) ٣٦٩/١ بدون طبعة.

المطلب الأول
البدع في الصلوات عند الصوفية

لقد فرض الله جلّ وعلا على المسلم المكلّف خمس صلوات في اليوم والليلة، وشرع نوافل، يتزود بها المسلم عبادة لله وحده، وهذه الصلوات المفروضة والمسنونة توقيفية، لا يجوز للمسلم أياً كان، أن يزيد عليها أو ينقص منها، ولكن المبتدعة الصوفية، ابتدعوا في هذه العبادة بدعا كثيرة، فأخذوا بالزيادة عليها تارة وبجحدها تارة، وبالاستهزاء بها تارة أخرى، وقد استدلوا على بدعهم في هذه العبادة بأحاديث رأوا أنها تسند وتعضد مزاعمهم، وتأولوا آيات على غير مرادها في الشرع، هذا ما سنتناوله في هذا المطلب إن شاء الله.

من البدع المنتشرة عند الصوفية، بدعة صلاة ليلة النصف من شعبان : تعدُّ هذه الصلاة من أشهر ما ابتدعه الصوفية.

ولقد استدلوا على تخصيص ليلة النصف من شعبان لهذه الصلاة.؛ بما رووه عن رسول الله أنه قال : "أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجه أدناها المغفرة"[١].

---

(١) الغنية للجيلاني ١٩٢/١. وهذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ. وسيأتي بيان ذلك في المبحث التالي.

وبيان كيفيه هذه الصلاة عند الصوفية، كما يروي ذلك الغزالي: "أن يصلي مائة ركعة، كل ركعتين بتسليمه، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة، قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرةّ، وإن شاء صلى عشر ركعات، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة، قل هو الله أحد

وروي عن الحسن أنه قال: حدثني ثلاثون من أصحاب النبي ﷺ أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة، نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجه، أدناها المغفرة"[1].

ويقول أبو طالب المكي: وقد كانوا يصلون في هذه الليلة -ليلة النصف من شعبان- مائة ركعة بألف مرة "قل هو الله أحد" عشراً في كل ركعة، ويسمّون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتصدقون ببركتها، ويجتمعون فيها، وربّما صلّوها جماعة[2].

ومن بدع الصلوات عند الصوفية، صلوات الليالي والأيام، إذ

---

(١) انظر: الإحياء ١/٢٠٣، قوت القلوب ١/٧٤، وعلّق الحافظ العراقي على حديث ليلة النصف من شعبان بقوله: حديث باطل وإسناده ضعيف. (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بهامش الإحياء ١/٢٠٣).

(٢) انظر: قوت القلوب ١/٧٤، وتسمى هذه الصلاة عند الصوفية أيضاً "صلاة الألفية" والتي لا أصل لها في الشرع.

جعلوا لكل يوم من أيام الأسبوع صلاة مخصوصة، فعلى سبيل المثال استدل الصوفية بجواز صلاة الأحد بحديث مزعوم جاء فيه (من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وآمن الرسول مرة، كتب الله تعالى له بعدد كل نصراني ونصرانية حسنات، وأعطاه ثواب نبي، وكتب له حجة وعمرة، وكتب له في كل ركعة ألف صلاة، ثم أعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك اذخر)[1].

كذلك من بدع الصلوات عند الصوفية التي ابتدعوها، صلاة ركعتين بعد لبس "المرقعة"[2] واعتبروها من السنن.

فقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي محدث الصوفية أن من سنن الصوفية التي ينفردون بها وينتسبون، صلاة ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة.

---

(١) انظر: صلوات الليالي والأيام في الغنية للجيلاني ٢/١٤٠، والإحياء ١/١٩٧، وقوت القلوب ١/٣٥. وهذه الصلوات من بدع الصوفية وجميع الأحاديث التي استدل بها الصوفية في هذه المسألة باطلة وموضوعة على رسول الله ﷺ. وسيأتي بيان ذلك في المطلب التالي.

(٢) المرقعة هي: ثوب يقطع قطعاً ثم يرقع رقعاً ثم يخيط بالصوف ويسمى أيضاً بالخرقة، وهي من لبس الصوفية (إتحاف السادة المتقين، محمد بن الحسيني الزبيدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٨/٢٧٠.



واحتج ابن طاهر بحديث ثمامة بن أثال : (أن النبي ﷺ أمره أن يغتسل)[1] .

ومن أشهر بدع الصوفية التي ابتدعوها في الصلوات ؛ ما يسمى عندهم بصلاة الرغائب[2].

واستدل الصوفية على جواز صلاة الرغائب بما رووه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة ، يفصل بين كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة فإذا فرغ من صلاته صلّى عليّ سبعين مرة يقول : اللهم صلّ على محمد النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ، ويقول في سجوده ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ،

(١) انظر : صفوة التصوف للمقدسي ص٢٧ ، والحديث في صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب : الاغتسال إذا أسلم ١/١١٨-١١٩. وسيأتي بيان الرد على الاحتجاج بهذا الحديث في المطلب التالي.

(٢) صلاة الرغائب : هي اثنتا عشرة ركعة ، بعد صلاة المغرب ليلة أول جمعة من شهر رجب ، وقد ابتدعت سنة ٤٤٨هـ في بيت المقدس ، ثم انتشرت في العالم الإسلامي ، وقد شنَّ أهل العلم من أئمة السنة وغيرهم الغارة عليها.



ثم يرفع رأسه ، ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ، ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى ، قال رسول الله ﷺ لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ، وعدد الرمل ، ووزن الجبال ، وورق الأشجار ، ويشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيت محمد قد استوجب النار".

قال الغزالي : "فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرار السنين ، وإن كانت رتبتها لا تبلغ التراويح ، وصلاة العيد ؛ لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ، ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها"[1] .

وإذا كان من المعلوم أن للصلاة مقدّمات تتمثل في الطهارة من حدث أصغر أو أكبر ، وكذلك النداء للصلاة لاجتماع المصلّين وتأدية

(١) الغنية للجيلاني ١/١٨٢ ، والإحياء ١/٢٠٢-٢٠٣ ، وقال الحافظ العراقي في تخريج هذا الحديث ، حديث صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه ، وهو حديث موضوع. وسيأتي إنكار العلماء عليها في المطلب التالي.

(انظر : المغني في حمل الأسفار في الأسفار بهامش الإحياء ١/٢٠٢).

تلك الفريضة، فقد وقع الصوفية في مخالفات، من ذلك الوسوسة في الطهارة، واستعمال الماء الكثير في الوضوء.

فقد نقل أبو سراج الطوسي عن شيخ من المشايخ: "كان به وسوسة في الوضوء، وكان يكثر صب الماء فسمعته يقول: كنت ليلة من الليالي أجدد الوضوء لصلاة العشاء، وكنت أصب الماء على نفسي حتى مضى شطر من الليل، فلم يطب قلبي، ولم يذهب عني الوسوسة"[(١)].

وروي عن أحد شيوخ الجنيد، أنه أصابته جنابة والبرد شديد. فرمى نفسه في النهر، ثم خرج، ولم ينزع ثيابه، وهي مبتلة تأديبا لنفسه؛ لعدم امتثالها الأمر الشرعي بالاغتسال حين ترددت في الدخول إلى الماء لشدة البرد"[(٢)].

كما استحدث الصوفية أمورا في الطهارة، والاستطابة من الحدث، يغلب عليها الوسوسة والزيادة عمّا جاءت به الشريعة[(٣)].

---

(١) اللمع ص١٩٨.

(٢) انظر: اللمع ص١٩٨.

(٣) انظر: الغنية للجيلاني ١/٢٥، وبداية الهداية للغزالي. تقديم وتحقيق وتعليق د. محمد زينهم محمد عزب. ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي –١٤١٣هـ) ص٣٠.

ومن المخالفات التي وقع فيها الصوفية:

في الأذان. فهذا أبو الحسين النوري شهدوا عليه أنه سمع أذان المؤذن فقال: طعنة وسّم الموت.

وسمع نباح كلب فقال: لبيك وسعديك فقيل له في ذلك (وفي رواية أنه أجاب إمام الخليفة بعد اعتقاله واستنطاقه) فقال: إن الرجل المؤذن أغار عليه أن يذكر الله، وهو متلوث بالمعاصي غافل عن الله تعالى ويأخذ عليه الأجر. ولولاها ما أذّن.

فلذلك قلت: طعنة وسُمّ الموت. والكلب يذكر الله عزّ وجل بلا رياء فإنه قال: ﴿وَإِن مِّن شَىۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[(١)]، [(٢)].

وقد نقل الشعراني في طبقاته قصة مماثلة لإبراهيم بن عصيفير[(٣)] وأنه كان يتشوش من قول المؤذّن الله أكبر، فيرجمه ويقول: عليك يا كلب. نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبّروا علينا"[(٤)].

---

(١) سورة الإسراء، آية ٤٤.

(٢) انظر: اللمع ص٤٩٢.

(٣) إبراهيم بن عصيفير: مدّعي الكرامات والكشف، ويزعم أنه يمشي على الماء ولا يحتاج إلى مركب.

انظر: الطبقات الكبرى ٢/١٤٠.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/١٤٠.

واحتج ابن طاهر بحديث ثمامة بن أثال : (أن النبي ﷺ أمره أن يغتسل)[1] .

ومن أشهر بدع الصوفية التي ابتدعوها في الصلوات ؛ ما يسمي عندهم بصلاة الرغائب[2].

واستدل الصوفية على جواز صلاة الرغائب بما رووه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة ، يفصل بين كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة فإذا فرغ من صلاته صلّى عليّ سبعين مرة يقول : اللهم صلّ على محمد النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ، ويقول في سجوده ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ،

---

(١) انظر : صفوة التصوف للمقدسي ص٢٧ ، والحديث في صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب : الاغتسال إذا أسلم ١/١١٨-١١٩ . وسيأتي بيان الرد على الاحتجاج بهذا الحديث في المطلب التالي.

(٢) صلاة الرغائب : هي اثنتا عشرة ركعة ، بعد صلاة المغرب ليلة أول جمعة من شهر رجب ، وقد ابتدعت سنة ٤٤٨هـ في بيت المقدس ، ثم انتشرت في العالم الإسلامي ، وقد شنَّ أهل العلم من أئمة السنة وغيرهم الغارة عليها.

ثم يرفع رأسه ، ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولي ، ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى ، قال رسول الله ﷺ لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ، وعدد الرمل ، ووزن الجبال ، وورق الأشجار ، ويشفع يوم القيامة في سبعمائة من أهل بيت محمد قد استوجب النار".

قال الغزالي : "فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرار السنين ، وإن كانت رتبتها لا تبلغ التراويح ، وصلاة العبد ؛ لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ، ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها"[1].

وإذا كان من المعلوم أن للصلاة مقدّمات تتمثل في الطهارة من حدث أصغر أو أكبر ، وكذلك النداء للصلاة لاجتماع المصلّين وتأدية

---

(١) الغنية للجيلاني ١/١٨٢ ، والإحياء ١/٢٠٢-٢٠٣ ، وقال الحافظ العراقي في تخريج هذا الحديث ، حديث صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه ، وهو حديث موضوع. وسيأتي إنكار العلماء عليها في المطلب التالي.

(انظر : المغني في حمل الأسفار في الأسفار بهامش الإحياء ١/٢٠٢).

تلك الفريضة، فقد وقع الصوفية في مخالفات، من ذلك الوسوسة في الطهارة، واستعمال الماء الكثير في الوضوء.

فقد نقل أبو سراج الطوسي عن شيخ من المشايخ: "كان به وسوسة في الوضوء، وكان يكثر صب الماء فسمعته يقول: كنت ليلة من الليالي أجدد الوضوء لصلاة العشاء، وكنت أصب الماء على نفسي حتى مضى شطر من الليل، فلم يطب قلبي، ولم يذهب عني الوسوسة"[1].

وروي عن أحد شيوخ الجنيد، أنه أصابته جنابة والبرد شديد. فرمى نفسه في النهر، ثم خرج، ولم ينزع ثيابه، وهي مبتلة تأديبا لنفسه؛ لعدم امتثالها الأمر الشرعي بالاغتسال حين ترددت في الدخول إلى الماء لشدة البرد"[2].

كما استحدث الصوفية أمورا في الطهارة، والاستطابة من الحدث، يغلب عليها الوسوسة والزيادة عمّا جاءت به الشريعة[3].

---

(١) اللمع ص١٩٨.

(٢) انظر: اللمع ص١٩٨.

(٣) انظر: الغنية للجيلاني ١/٢٥، وبداية الهداية للغزالي. تقديم وتحقيق وتعليق د. محمد زينهم محمد عزب. ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي –١٤١٣هـ) ص٣٠.

ومن المخالفات التي وقع فيها الصوفية:

في الأذان. فهذا أبو الحسين النوري شهدوا عليه أنه سمع أذان المؤذن فقال: طعنة وسّم الموت.

وسمع نباح كلب فقال: لبيك وسعديك فقيل له في ذلك (وفي رواية أنه أجاب إمام الخليفة بعد اعتقاله واستنطاقه) فقال: إن الرجل المؤذن أغار عليه أن يذكر الله، وهو متلوث بالمعاصي غافل عن الله تعالى ويأخذ عليه الأجر. ولولاها ما أذّن.

فلذلك قلت: طعنة وسُمّ الموت. والكلب يذكر الله عزّ وجل بلا رياء فإنه قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1]،[2].

وقد نقل الشعراني في طبقاته قصة مماثلة لإبراهيم بن عصيفير[3] وأنه كان يتشوش من قول المؤذّن الله أكبر، فيرجمه ويقول: عليك يا كلب. نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبّروا علينا"[4].

---

(١) سورة الإسراء، آية ٤٤.

(٢) انظر: اللمع ص٤٩٢.

(٣) إبراهيم بن عصيفير: مدّعي الكرامات والكشف، ويزعم أنه يمشي على الماء ولا يحتاج إلى مركب.

انظر: الطبقات الكبرى ٢/١٤٠.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/١٤٠.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصلوات عند الصوفية

الصلاة من جملة العبادات التي شرعها الله لعباده، بل هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين فلها تميز وخصوصية، والعبادة التي شرعها الله سبحانه وتعالى تبنى على أصول وأسس ثابتة منها :

أنها توقيفية : فلا مجال لرأي أو هوى، لأن يشرع عبادة من عند نفسه، فلا بد أن يكون المشرع لها هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[2].

ومن أسس العبادة : أن تكون خالصة لله تعالى من شوائب الشرك، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ

(١) سورة هود، آية ١١٢.

(٢) سورة الجاثية، آية ١٨.

عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

ومن هذه الأسس : أن يكون القدوة في العبادة الرسول الكريم ﷺ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[3].

وقال ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »[4].

ومن هذه الأسس أيضاً : أن العبادة محددة بمواقيت ومقادير لا يجوز تعديها وتجاوزها، كالصلاة مثلاً قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[5].

ومن هذه الأسس أيضا : أن تكون العبادة قائمة على محبة الله والذل له وخوفه ورجائه، قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) سورة الكهف، آية ١١٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٢١.

(٣) سورة الحشر، آية ٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل والحاكم فأخطأ، خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ١٥٦/٨.

(٥) سورة النساء، آية ١٠٣.

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[1].

وكذلك من الأسس الهامة للعبادة : أنها لا تسقط عن المكلّف من بلوغه عاقلاً إلى وفاته، قال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].

ولكن مما سبق بيانه في بدع الصلوات عند الصوفية، يتبيّن أن هؤلاء القوم، ابتدعوا في عبادة الصلاة ؛ صلوات اخترعوها من عند أنفسهم، واستدلوا عليها بأحاديث، إما ضعيفة، أو موضوعة، وقد تنبه العلماء لهذه البدع، فأنكروها وردّوها على أصحابها، وعضدوا تفنيدهم لها بالأدلة الشرعية القاطعة، وحذّروا الناس من مغبة الوقوع في شراكها والأخذ بها.

فلا غرو، فقد جاء القرآن الكريم آمراً الأمة بالاتباع، ومحذراً إياها من الفرقة، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[3]، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا

---

(١) سورة الإسراء، آية ٥٧.

(٢) سورة الحجر، آية ٩٩.

(٣) سورة آل عمران، آية ٣١.

صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[١].

وحذّر المصطفى الكريم ﷺ وأصحابه والتابعون رضي عنهم أهل زمانهم والأمة من بعدهم من البدع ومحدثات الأمور فأمروهم بالاتباع الذي فيه النجاة من كل محذور، وحذّروهم من الابتداع الذي فيه الهلاك للأمة.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ، كان يقول في خطبته: «**فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[٢].

وقال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا»[٣].

وقد أنكر ابن الجوزي على الصوفية إحياؤهم ليلة النصف من شعبان بالصلاة؛ وردَّ الحديث الذي استدل به الصوفية على جوازها وقال: هذا الحديث لا شك فيه موضوع، والحديث محال قطعاً، وقال:

(١) سورة الأنعام، آية ١٥٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٢/٢.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٩٦/١.

وقد رأينا كثيرا ممّن يصلي هذه الصلوات، ويتفق له قصر الليل فينامون عقبها، فتفوتهم صلاة الفجر، ويصبحون كسالى، وقد جعلها جهلة أئمة المساجد مع صلاة الرغائب ونحوها من الصلوات شبكة لجمع العوام، وطلبا لرياسة التقدم، وملأ بذكرها القصّاص مجالسهم، وكل ذلك عن الحق بمعزل[١].

كما أنكرها على الصوفية، ابن العربي المالكي في قوله: "ذكر أبوعيسى - الترمذي - في ذلك حديث الحجاج بن أرطأة عن يحيى بن أبي كثير عن عروة، وطعن البخاري فيه من وجهين:

أحدهما: أن الحجّاج لم يسمع من يحيى بن أبي كثير، ولا يحيى من عروة، فالحديث مقطوع في موضعين، وأيضا فإن الحجّاج ليس بحجة، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يساوي سماعه"[٢].

وعندما ابتدع الصوفية صلوات الأيام والليالي، أنكر عليهم ابن الجوزي بدعتهم هذه بقوله:

"وصنّف لهم أبو طالب المكي "قوت القلوب"، فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا تستند إلى أصل من صلوات الأيام والليالي،

(١) انظر: الموضوعات لابن الجوزي ٤٤٣/٢.

(٢) عارضة الأحوذي ٢١٦/٢-٢١٧.

وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد"[١].

وقال ابن الجوزي عن هذه الأحاديث التي استدل بها الصوفية على صلوات الأيام والليالي: أنها أحاديث موضوعة، لا أصل لها، وأسانيدها مظلمة، وفيها مجاهيل، فكافأ الله من شان الإسلام بما يعتقده تزييناً له[٢].

وعندما ابتدع الصوفية صلاة الغائب، أنكر عليهم ذلك جمع من العلماء، وعدُّوا جميع الأحاديث التي وردت في شأنها موضوعة ومطعون فيها.

فقد أنكر ابن الجوزي عليهم استدلالهم، ورد حديث صلاة الرغائب المزعومة، فقال: "وهذا حديث موضوع على الرسول ﷺ وقد اتهموا به ابن جهضم[٣] ونسبوه إلى الكذب، وسمعت شيخنا

---

(١) تلبيس إبليس ص١٦٤.

(٢) انظر: الموضوعات ٢/٤١٧-٤٢٨.

(٣) ابن جهضم: علي بن عبدالله بن الحسن بن جهضم بن سعيد الهمداني الصوفي أبوالحسن، قال ابن خيرون: تكلم فيه. قال: وقيل أنه يكذب، يقال: إنه وضع صلاة الرغائب، من مصنفاته "بهجة الأسرار" في أخبار الصوفية.

=

عبدالوهاب الحافظ[١] يقول: رجاله مجهولون وقد فتشت عليهم جميع الكتب فما وجدتهم".

وقال رحمه الله: ولقد أبدع من وضعها - أي غلا في بدعته - فإنه يحتاج من يصليها إلى أن يصوم وربما كان النهار شديد الحر، فإذا صام لم يتمكن من الأكل حتى يصلي المغرب، ثم يقف فيها، ويقع في التسبيح الطويل والسجود الطويل فيتأذى غاية الأذى، وإني لأغار لرمضان ولصلاة التراويح، كيف زوحم بهذه، بل هذه عند العوام أعظم وأحلى إنه يحضرها من لا يحضر الجماعات"[٢].

= (انظر ترجمته في: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق فؤاد سيد ط٢(بيروت: مؤسسة الرسالة - ١٤٠٥هـ) ٦/١٧٩-١٨٠.

(١) هو عبدالوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسن الأنماطي، أبوالبركات، الحافظ، ولد سنة ٤٦٢هـ، كان ذا دين، ثقة، ثبتاً، كان على طريقة السلف، توفي سنة ٥٣٨هـ، ودفن بالشونيزية. انظر ترجمته في: المنتظم ١٨/٣٣، البداية والنهاية ١٢/٢١٩، شذرات الذهب ٤/١١٦، الأعلام ٤/١٨٥، والذيل على طبقات الحنابلة ٣/١٦٩.

(٢) الموضوعات ٢/٤٣٨.

وقد طعن ابن الأثير الجزري في حديث صلاة الرغائب، فقال في نهاية الحديث: "هذا الحديث وجدته في كتاب رزين ولم أجده في كتاب واحد من الكتب الستة، والحديث مطعون فيه"[1].

وممَّن أنكر على الصوفية هذه الصلاة: محمد بن منصور السمعاني الذي قال: إن هذه الصلاة بدعة في الدين، وكذب وباطل لا تصح[2].

وممن أنكرها من العلماء ابن الخشَّاب النحوي، الذي قال: "هذه الصلاة لم ترد عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه"[3].

وبهذه الردود يتبيّن أن هاتين الصلاتين: صلاة النصف من شعبان، وصلاة الرغائب، من البدع في الدين، وقد كذب فيها على رسول الله ﷺ، وقد حذّرنا ﷺ من مغبة الكذب عليه قائلاً: « **من كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار** »[4].

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ، أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزري، أشرف على طبعه عبدالمجيد سليم، حققه: محمد حامد الفقي. ط١ (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية -١٣٧١هـ) ٧/١٠٣ رقم الحديث ٤٢٦٤.

(٢) انظر: لطائف المعارف ص٢٢٨، وانظر: ص٢٧٢.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة ٣/٢٦٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ١/٣٦.

وأيضاً، فيهما كذب على الله تعالى، بالتقدير عليه في جزاء الأعمال، ما لم ينزّل به سلطانا، وهو القائل سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1].

وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

فأين هؤلاء المبتدعة الصوفية من كلام الله سبحانه، وكلام نبيه ﷺ؟.

ولما استدل الصوفية على انفرادهم بسنن دون غيرهم، وقالوا بصلاة ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة، واحتجوا بأمر الرسول ﷺ لثمامة بالاغتسال بعد إسلامه.

أنكر عليهم ذلك ابن الجوزي رحمه الله، ووصفهم بالجهل، واختراع ذلك من عند أنفسهم فقال:

"وما اقبح بالجاهل إذا تعاطى ما ليس من شغله، فإن ثمامة كان كافراً، فأسلم، وإذا أسلم الكافر وجب عليه الغسل في مذهب جماعة من الفقهاء، منهم احمد بن حنبل، وأما صلاة ركعتين، فما أمر بها

(١) سورة البقرة، آية ٧٩.

(٢) سورة الإسراء، آية ٣٦.

أحد من العلماء لمن أسلم، وليس في حديث ثمامة ذكر صلاة، فيقاس عليه. وهل هذا إلا ابتداع في الواقع سمّوه سنه، ثم من أقبح الأشياء قوله: إن الصوفية ينفردون بسنن، لأنها إن كانت منسوبة إلى الشرع؛ فالمسلمون كلهم فيها سواء، والفقهاء أعرف بها، فما وجه انفراد الصوفية بها؟ وإن كانت بآرائهم، فإنما انفردوا بها لأنهم اخترعوها "[1].

هذا فيما يتعلق بعبادة الصلوات.

أما فيما يتعلق بمقدماتها. ومنها لزوم الطهارة، فإنه كما سبق، أن كثيراً من الصوفية أصابتهم الوسوسة في الطهارة، والوضوء للصلاة، بدعوى التحرزّ والاحتياط، وقد لاحظ ذلك العلماء في القرن السادس وأنكروه.

فقد أنكر ابن عقيل على الصوفية، دعواهم في التحرزّ والاحتياط، حيث ذكر أن رجلا قال له: انغمس في الماء مراراً كثيرة، وأشك هل صح لي الغسل أم لا فما ترى في ذلك؟ قال له ابن عقيل على سبيل الإنكار: اذهب، فقد سقطت عنك الصلاة.

قال: وكيف ؟! : قال: لأن النبي ﷺ قال: « **رفع القلم عن**

(١) تلبيس إبليس ص١٧٥.

ثلاثة: المجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يبلغ »[1].
ومن يتغمس في الماء مراراً، ويشك هل أصابه الماء، أم لا فهو مجنون[2].

ونقل ابن الجوزى رحمه الله، إنكار أبي حامد الشيرازي الصوفي، على الصوفية، عندما قال لفقير - صوفي - من أين تتوضأ؟ قال: من النهر بي وسوسة في الطهارة، قال: كان عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن يسخر بهم الشيطان "[3].

ويتعجب ابن الجوزي من هؤلاء الموسوسين اللذين يبالغون في الاحتراز متصفين بتنظيف ظاهرهم وباطنهم محشوا بالوسخ والكدر، وبيّن رحمه الله أن هذا تلبيس عليهم في استعمال الماء حتى بلوغ الوسوسة [4].

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب: في المجنون يسرق أو يصب حداً "بمعناه" ٤/١٤٠، رقم الحديث (٤٣٩٨)، وسنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير والنائم ١/٦٥٨، رقم الحديث (٢٠٤١) عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها وبلفظ قريب.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص١٣٨.

(٣) تلبيس إبليس ص١٧٤.

(٤) انظر: ن. م ١٧٤.

كما انتقد رحمه الله الصوفية في عباداتهم وتلبيس إبليس عليهم في الاستطابة من الحدث، وذلك عندما اشتطوا وغلوا في ذلك، وجعلوه من المشروع في حق المتطهّر، وعدَّ ذلك من الوسوسة والزيادة في الشرع[1].

وقد نهى الشارع الحكيم عن الإسراف في ماء الوضوء والغسل فقد روي (أن رسول الله ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضأ، فقال لا تسرف : فقال يا رسول الله، أفي الماء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جار)[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يجزئ من الوضوء مد ومن الغسل صاع** »[3].

والأحاديث الواردة في هذا الشأن كثيرة، مما يدل على النهي عن الوسوسة في الطهارة على وجه العموم.

أما ما يتعلق بموقفهم من الأذان القائم على الاستهزاء والسخرية به، وهو ما حصل من أبي الحسين النوري، واحتجاجه الذي ينمُّ عن

---

(١) انظر : ن.م ص١٣٥.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب : ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه ١/١٤٧، حديث رقم ٤٢٥.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة / الألباني ٥/٥٧٤، رقم الحديث ٢٤٤٧.

جهله وقلة فقهه ويدعوا إلى التعجب.

فقد عزا ذلك ابن الجوزي رحمه الله، إلى عدم العلم الذي أوقع هؤلاء القوم في هذا التخبيط[1].

ولقد بيّن الرسول الكريم ﷺ فضل الأذان في الحديث الذي رواه أبوهريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قال : « **لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا** »[2]،

كما بيّن النبي ﷺ فضل المؤذنين بقوله : « **المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة** »[3].

---

(١) تلبيس إبليس ص٣٣٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول (١/٣٢٥)، رقم الحديث (٤٣٧)، والاستهام هو الاقتراع.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (١/٢٩٠)، رقم (٣٨٧)، والحديث رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

المبحث الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصيام عند الصوفية

وفيه ومطلبان :

المطلب الأول : البدع في الصيام عند الصوفية.

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصيام عند الصوفية

تعريف الصيام لغة واصطلاحاً :

الصيام لغة :

- الصوم : الإمساك عن الشيء والترك له "[1].
- قال ابن فارس : صوم " الصاد والواو والميم، أصل يدلّ على إمساك وركود في مكان".

الصيام اصطلاحا :

- هو "إمسـاك بنية عن أشياء مخصوصة، في زمن معين، من شخص مخصوص "[2].

(١) لسان العرب ٤٤٦/٧.

(٢) حاشية الروض المربع ٣٤٦/٣.



المطلب الأول
البدع في الصيام عند الصوفية

الصيام ركن من أركان الإسلام، شرعه الله على عباده، فمنه الصيام الواجب كصيام رمضان، والصيام المسنون، كصيام ست من شوال، وصيام يوم الاثنين، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة.

وللصيام أزمنة ومناسبات حددها الشارع، لا يجوز بأي حال تجاوزها ؛ ولكن غلاة الصوفية، ابتدعوا في هذه العبادة، ما لم يأمر به الشرع، فحمّلوا النفس والجسم ما لا يطيقانه، إثر وصالهم في الصيام، أو صيام الدهر كله.

فقد روي أن سهل التستري كان يأكل خمسة عشر يوماً مرة، فإذا دخل رمضان لم يأكل إلا أكلة واحدة، وكان يفطر على الماء القراح وحده كل ليلة[1].

وحكى السراج الطوسي عن الجنيد، أنه كان يصوم على الدوام، كما حكى عن بعض المشايخ الصوفية، أنه رأى أبا الحسن المكي

(١) انظر : اللمع ص٢١٧، عوارف المعارف ص٢٩٩، وكشف المحجوب ص٣٨٧.

بالبصرة، فكان يصوم الدهر ولا يأكل الخبز إلا كل ليلة جمعة[1].

كما ذكر الشعراني عن أحدهم، أنه كان يصوم الدهر كله[2].

وقد ذكر أبو طالب المكي، أن أحد الصوفية من بسطام ذكر لأبي يزيد البسطامي، أنه منذ ثلاثين سنة يصوم الدهر ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام[3].

ويقول السهروردي: "جمع من المشايخ الصوفية، كانوا يديمون الصوم في السفر والحضر على الدوام، حتى لحقوا بالله، وكان عبد الله بن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر في السفر والحضر"[4].

وكان أبو عبيد البسري[5] إذا دخل رمضان دخل البيت وسدّ عليه الباب ويقول لامرأته اطرحي كل ليلة رغيفا من كوة في البيت، ولا

(١) انظر: اللمع ص٢٢٠، والإحياء ١/١٧٠.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٢/١٣٨.

(٣) انظر: قوت القلوب ٢/٨٦، وحكى السهروردي عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام، كما حكى ذلك عن أبي الحسن المكي صوم الدهر. (انظر: عوارف المعارف ص٣٠١، ٢٩٩).

(٤) عوارف المعارف ص٢٩٩.

(٥) أبوعبيد البسري: من قدماء المشايخ الصوفية، صحب أبا تراب النخشبي. انظر: الطبقات الكبرى (١/٩٠).



يخرج منه حتى يخرج رمضان، فتدخل امرأته البيت، فإذا الثلاثون رغيفا موضوعة في ناحية البيت"[1].

ويخصّ الصوفية أياما بالصوم دون غيرها، ويستدلون على صيام أيام مخصوصة من رجب، بحديث رووه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[2].

فرجب يقال له شهر الله الأصم، وثلاث على أخر متواليات، ذو القعدة، وذوالحجّة، والمحرّم، إلا أن رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي، فمن صام رجب يوماً إيماناً واحتساباً، استوجب رضوان الله الأكبر... الخ.

كما ابتدع الصوفية صيام أول خميس من رجب، والصلاة في أول ليلة جمعة، واستدلوا على مشروعية ذلك بحديث رووه عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **رجب شهر الله، وشعبان شهري،**

(١) اللمع ص٣١٧، وانظر: جامع كرامات الأولياء ١/٤٦٦.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٦.



ورمضان شهر أمتي »[١].

وبدعة الوصال بالصوم عند الصوفية تكاد واضحة جلية من خلال ما نقله الهجويري عن الطوسي صاحب اللمع، يقول: " أن الطوسي صاحب اللمع أتى إلى بغداد في شهر رمضان، وأعطي خلوة في جامع بالشونيزية[٢] مع إذنه بتعليم الفقهاء مدة الصوم، فقرأ القرآن خمس مرات في طول التراويح في شهر رمضان، واعتاد الخادم أن يأتيه برغيف من الخبز كل يوم، فلما سافر وكان ذلك يوم العيد، وجد الخادم الثلاثين رغيفا لم يمسها"[٣].

كما ذكر الهجويري، أن إبراهيم بن أدهم قد صام رمضان، ولم يفطر، وذكر أن من الصوفية من صام أربعين يوما ولم يذق طعاماً، ومنهم من يجوز صيام الوصال[٤].

---

(١) انظر: الغنية ١/١٧٥، ١٧٨، وهذا من جملة الأحاديث التي استدل بها الصوفية على بدعتهم هذه، وسيأتي رد العلماء في المطلب التالي.

(٢) الشونيزية: مقبرة ببغداد، دفن بها جماعة كبيرة من الصوفية، منهم الجنيد وجعفر الخلدي ورويم وسحنون، وهناك خانقاه للصوفية. انظر: معجم البلدان ٣/٣٧٤.

(٣) كشف المحجوب ص٣٨٧.

(٤) انظر: كشف المحجوب ص٣٨٧.

كما نقل الطوسي أن جماعة من المشايخ الصوفية، كانوا يصومون في السفر والحضر على الدوام إلى أن لحقوا بالله عزّ وجل[١].

ويقول أبو طالب المكي، عن صيام الدهر:

" ... إن كان يريد صلاح قلبه، وانكسار نفسه، واستقامة حاله في صوم الدهر، فليصمه، فهو حينئذ كالواجب عليه، إذا كان تقواه وصلاحه فيه "[٢].

وحكى السهروردي، أن أحد الصوفية، كان يصوم ويفطر قبل غروب الشمس، فقال: " وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط[٣] أنه صام لسنين كثيرة، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا في رمضان ".

وعلق السهروردي على هذه الحكاية بقوله: "ولكن أهل الصدق لهم

---

(١) انظر: اللمع ص٢١٧.

(٢) قوت القلوب (١/٨٨)، وإلى هذا المعنى ذهب الغزالي. انظر: الإحياء ١/٢٣٨. وصيام الدهر يفضي إلى الجوع؛ الذي بزعمهم يورث الحكمة والمعرفة ويكشف لهم الحقائق الغيبية. وسيأتي الرد على هذه البدعة في المطلب التالي.

(٣) واسط: من أشهر المواضع وأعظمها، تقع بين البصرة والكوفة. انظر: معجم البلدان ٥/٣٤٧.

ثبات فيما يعقلون، فلا يعارضون، والصدق محمود لعينه كيف كان"[1].

---

(١) عوارف المعارف ص٣٠٠-٣٠١. ولفظة الصادقين، وأهل الصدق يراد بها الصوفية بزعمهم !!.



المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصيام عند الصوفية

الصيام، عبادة من أجلّ العبادات في الإسلام، وهو عبادة توقيفية ؛ بمعنى أن ما جاء به الشرع في هذه العبادة من صيام مفروض، أو صيام تطوّع، فهذا هو الثابت شرعا ؛ أما ما خالفه من الصيام، فيدخل في دائرة المبتدعات كصيام الدهر كله، أو صيام الوصال، الذي اشتهر عند بعض الصوفية، وخرجوا به عن دائرة الشرع الحكيم، مبتدعين لا متبعين، وقد نهى الإسلام عن الإحداث في الدين، واتباع الهوى، وأمر باتباع سنة المصطفى ﷺ ونهى عن الإعراض عنها بآية صريحة لا تحتمل، التأويل قال تعالى :﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1].

وأخبر المصطفى الكريم ﷺ أن كل أمر مخالف لأمره، فهو مردود على صاحبه، فقال : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** »[2].

---

(١) سورة الحشر، آية ٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب : إذا اصطلحوا على صلح فالصلح مردود =

ومعنى رد : أي مردود على محدثه عقيدة كانت أم قولا أم فعلا ، إذا كان مخالفا لما عليه السنة [1].

وخلال ما سبق بيانه من البدع في هذه العبادة عند الصوفية ، وقف العلماء في وجه هؤلاء القوم المبتدعة ، وفنّدوا افتراءاتهم وشبهاتهم وأنكروها ، بل وحذّروا الناس من مغبة اتباع هؤلاء.

فقد أنكر ابن العربي المالكي على الصوفية ؛ ما شرعوه لهم من الوصال في الصوم ، وقال عن هذا النوع من الصيام ، أن الصحيح منعه ؛ لأن النهي ثابت ، وقد نهى النبي ﷺ عنه فقال : « **إذا رأيتم الليل أقبل من هاهنا فقد أفطر الصائم** »[2].

وتمكينه من هؤلاء ؛ الذين يرون جوازه تنكيل لهم ، وما كان على

= ١٦٧/٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور ١٣٤٣/٣.

(١) انظر : جامع الأصول لابن الأثير ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه : عبدالقادر الأرناؤوط (نشر وتوزيع مكتبة الحلواني ، ومطبعة الفلاح ومكتبة دار البيان - ١٣٨٩هـ) ٢٩٠/١.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب : السفر والإفطار ٢٣٧/٢ ، والحديث رواه عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

طريق العقوبة لا يكون من الشريعة [1].

وقال ابن العربي المالكي رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾.

"ظن قوم أن هذا بظاهرة يقتضي الوصال ، وهذا لا يصح لوجهين :

أحدهما : أن فيه تكليف ما لا يطاق.

الثاني : أنه لو اقتضى وصالا غير محدد ، لما تحصّل لأحد تقديره ، واختلاف أحوالهم فيه ، والصحيح أنه خرج على العرف ، أي أن يصوموا الأيام ، ويفطروا منها زمناً مخصوصاً ، وكان عندهم متعيّنا إما بالعرف المتقدم فيكون الخطاب نصاً ، وإما بياناً من النبي ﷺ ، فيكون الخطاب مجملا حتى بيّنه الشارع ﷺ [3].

---

(١) انظر : عارضة الأحوذي ٢٤١/٣.

(٢) سورة البقرة ، آية ١٨٣-١٨٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ١١٠/١.



وقد ردَّ ابن الجوزي على وصال الصوم عند الصوفية، بأن رسول الله ﷺ قد نهى كهمس الهلالي[1] عن مثل هذا الصوم، وأمره بصوم رمضان، ويوم أو يومين، أو ثلاثة من كل شهر.

فقد روى ابن الجوزي بسنده عن كهمس الهلالي أنه قال: أسلمت وأتيت النبي ﷺ فأخبرته بإسلامي، فلبثت حولاً ثم أتيته وقد ضمرت ونحل جسمي، فخفض فيَّ البصر، ثم صعَّده، فقلت: أما تعرفني، فقال: ومن أنت؟، قلت: أنا كهمس الهلالي، قال: فما بلغ بك ما أرى، قلت: ما أفطرت بعدك نهارا، ولا نمت ليلا، قال: ومن أمرك أن تعذّب نفسك؟ صم شهر الصبر، ومن كل شهر يوما، قلت: زدني قال: صم شهر الصبر ومن كل شهر يومين، قلت: زدني قال: صم شهر الصبر ومن كل شهر ثلاثة أيام "[2].

وعندما شرع بعض الصوفية لأنفسهم صيام الدهر، ردّ عليهم العلماء شرعهم المبتدع.

فقد استدل ابن العربي المالكي على رده على بعض الصوفية في

---

(١) كهمس الهلالي: قال ابن حجر: له إدراك وسماع من عمر، روى عنه معاوية بن قرّة. (الإصابة في تمييز الصحابة ٣٠٨/٨، ٣١٨).

(٢) تلبيس إبليس ص٢٢٠.

صيامهم الدهر كله، بحديث الرسول ﷺ عن أبي قتادة: قيل يا رسول الله، كيف عن صيام الدهر؟ قال: لا صام ولا أفطر[1].

قال ابن العربي: وفي قوله ﷺ لا صام ولا أفطر: " فيا بؤس من أصابه دعاء النبي ﷺ، وأما من قال: أنه خبر، فيا بؤس من أخبر عنه النبي ﷺ أنه لم يصم، فقد علم أنه لا يكتب له ثواب لوجود الصدق في خبره، وقد نفى الفضل عنه، فكيف يطلب ما نفاه النبي ﷺ "[2].

وصيام الدهر، مخالف لسنة المصطفى ﷺ بقوله « **أفضل الصيام صيام أخي داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما** »[3].

وفي الحديث ما يبطل هذه البدعة عند بعض الصوفية.

وعندما استدل الصوفية على صيام أيام من رجب ببعض الأحاديث التي رووها[4].

ردّ ابن الجوزي جميع الأحاديث الواردة بهذا الشأن، وقال إنها

---

(١) والحديث بطوله في صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ٨١٨/٢.

(٢) عارضة الأحوذي ٢٣٦/٢.

(٣) والحديث في صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر ٨١٧/٢.

(٤) انظر: ص٣٩٨، ٣٩٧.



أحاديث غير صحيحة، وموضوعة، على النبي ﷺ، ولم يصحّ في فضل رجب، وفي صيامه عن رسول الله ﷺ شيء[1].

(١) انظر : الموضوعات ٢/٥٧٦-٥٨١.



المبحث الثالث

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية

وفيه ومطلبان :

المطلب الأول : البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية.

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية.

أولاً : تعريف الدعاء لغة واصطلاحاً :

الدعاء لغة :

يقول ابن فارس : " دعو الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام فيكون منك " [١].

الدعاء اصطلاحاً :

- قال أبو سليمان الخطابي [٢] رحمه الله :

"الدعاء استدعاء العبد ربّه ﷻ العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة " [٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٢٧٩.

(٢) أبوسليمان الخطابي : أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي، أبوسليمان، محدث، لغوي، فقيه، أديب، ولد سنة ٣١٩هـ، وتوفي سنة ٣٨٨هـ له عدة مصنفات.

(انظر ترجمته في : معجم المؤلفين ١/٢٣٨).

(٣) شأن الدعاء، أبوسليمان الخطابي. ط١ (دمشق، بيروت : دار المأمون للتراث - ١٤٠٤هـ) ص٤.

ثانياً : تعريف الذكر لغة واصطلاحاً :

الذكر لغة :

قال ابن فارس : "الذال والكاف والراء أصلان عنهما يتفرع كلم الباب ...، والأصل الآخر : ذكرت الشيء خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان" [١].

وقيل : "أصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء، ومن ذكرك شيئاً فقد نبهك عليه، وإذا ذكرته فقد نبهته عليه" [٢].

الذكر اصطلاحاً :

ورد إطلاق الذكر على أمور : قال بعضهم أن الذكر يطلق على الصلاة، وقراءة القرآن، والتسبيح، والدعاء، والشكر، والطاعة [٣].

وزاد بعضهم، غير هذه الأمور، مما ورد إطلاق لفظ الذكر عليه في

---

(١) المقاييس في اللغة ص٣٨٨.

(٢) نقل هذا القول النووي عن أبي الحسن الواحدي. انظر : تهذيب الأسماء واللغات (بيروت : دار الكتب العلمية) ٣/١١١.

(٣) انظر : تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق على حسن هلالي. مراجعة محمد علي النجار (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر) ١٠/١٦٣.



الكتاب والسنة[١].

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي[٢] : "وإذا أطلق ذكر الله ، شمل كل ما يقرب العبد إلى الله من عقيدة ، أو فكر ، أو عمل قلب ، أو عمل بدني ، أو ثناء على الله ، أو تعلم علم نافع وتعليمه ، ونحو ذلك ، فكله ذكر الله تعالى"[٣].

---

(١) نقل القاضي عياض عن الحربي أنه قال : للذكر ستة عشر وجهاً : الطاعة ، وذكر اللسان ، وذكر القلب ، والإخبار ، والحفظ ، والعظمة ، والشرف ، والخير ، والوحي ، والقرآن ، والتوراة ، واللوح المحفوظ ، واللسان ، والتفكر ، والصلوات ، وصلاة واحدة ، وزاد القاضي عياض أيضاً فقال : "وقد جاء بمعنى التوبة ، وبمعنى الغيب ، وبمعنى الخطبة".
مشارق الأنوار على أصحاب الأذكار للقاضي عياض (تونس : المكتبة العتيقة ، القاهرة ، دار التراث) ٢٦٩/١.

(٢) هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي النجدي ، مفسر ، محدث ، واعظ ، ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧هـ ، وعظ وأفتى وخطب في جامع عنيزة ، من مؤلفاته تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن وغيره. توفي سنة ١٣٧٦هـ. انظر ترجمته في معجم المؤلفين (١٢١/٢).

(٣) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة ، عبدالرحمن بن ناصر السعدي (الرياض: طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ ١٤٠٥هـ) ص٢٤٥.

المطلب الأول
البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية

اختلف الصوفية في الأفضل ، أهو الدعاء ، أم التسليم والرضا ؟ ، فمنهم من قال : الدعاء في نفسه عبادة ، فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركه ، ثم هو حق الله سبحانه ؛ لأنه إظهار فاقة العبودية ، وطائفة قالوا : السكوت والتسليم والرضا بما اختاره الله أولى ؛ أي الاستغناء عن الدعاء ، وقال قوم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضا بقلبه ، ليأتي بالأمرين جميعاً[١].

وزعْمُ الصوفية الاستغناء عن الدعاء والتسليم لقضاء الله وقدره هو ما سنتنا وله في هذا المطلب.

لقد نحى غلاة الصوفية في مسألة الدعاء منحىً خطيراً ؛ عندما استغنوا عن مسألة الله عز وجل ؛ بحجة علمه سبحانه ، وصرفوا مسألتهم إلى الأتباع ، والأولياء ، والمشايخ ؛ بحجه أنهم مقربون إلى الله ؛ فاتخذوهم وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله سبحانه.

فمن أقوال الصوفية في الاستغناء عن الدعاء بحجة علم الله :

---

(١) انظر : معجم مصطلحات الصوفية للحفني ص٩٧.

نقل الكلاباذي قولهم : علمه بحالي يغني عن سؤالي ، قال أبو سعيد الخراز : بينما أنا عشية عرفة ، نازعتني نفسي ، بأن أسأل الله تعالى ، فسمعت هاتفا يقول : أبعد وجود الله ، تسأل غير الله ؟ "[١] .

ولقد استدل الصوفية أيضاً - بزعمهم - بعلم الله على عدم طلب الدعاء ، يقول الطوسي : "أصلنا السكوت ، والإكتفاء بعلم الله عز وجل "[٢] . وجعلوا ذلك أصلاً لهم.

وقال القشيري : " سئل الواسطي أن يدعو ، فقال : أخشى إن دعوت أن يقال : إن سألتنا مالك عندنا ، فقد اتهمتنا ، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا ، فقد أسأت الثناء علينا ، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهر "[٣] .

---

(١) التعرف ، ص٧٦.

(٢) اللمع ص٢٨٩. ويقال للصوفية إذن : لماذا شرع الدعاء بقوله : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ اسورة غافر ، آية ٦٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ اسورة البقرة ، آية ١٨٦]؟؟. نعوذ بالله من ترهات وخزعبلات الصوفية. وسيأتي الرد على هذه الفرية في المطلب التالي.

(٣) الرسالة القشيرية ص٣٧٤.

ومن صور استغنائهم عن الدعاء ، زعماً منهم أن ذلك اعتراض على ما قضاه الله وقدره ، يقول الغزالي : " ضاع لبعض الصوفية ولد صغير ، ثلاثة أيام ، لم يعرف له خبر ، فقيل له : لو سألت الله أن يرده عليك. فقال : اعتراض عليه فيما قضى ، أشد عليَّ من ذهاب ولدي "[١] .

مما سبق يتبين كيف يستغني هؤلاء القوم عن التوجه في الدعاء إلى الله سبحانه.

ولكننا نجدهم في المقابل ؛ يصرفون هذه العبادة إلى أوليائهم ومشايخهم.

فمن أقوال الصوفية التي تثبت توجههم في الدعاء إلى أوليائهم ومشايخهم ؛ ما نقل عن معروف الكرخي ، قوله لأصحابه :

" إن كان لكم إلى الله تعالى حاجة فأقسموا عليه بي ، ولا تقسموا عليه به تعالى ، فقيل له : لِمَ ؟ فقال : " هؤلاء لا يعرفون الله تعالى ، فلم يجبهم ، ولو أنهم عرفوه لأجابهم "[٢] .

---

(١) الإحياء ٤/٣٥٠.

(٢) كشف النور عن أصحاب القبور ، عبدالغني النابلسي ، (لاهور : الرضوية) ص٢٠.



وكان معروف الكرخي، يقول لابن أخيه يعقوب : "يا بني إذا كان لك إلى الله حاجة، فسله بي"[1] .

أيضاً، قال أبو الحسن الشاذلي[2] : " إذا عرضت لكم إلى الله حاجة، فتوسّلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي"[3] .

وروى السراج الطوسي، عن جاكير الكردي[4] أنه أستأذنه رجل واسطي في ركوب بحر الهند بتجارة فقال : إذا وقعت في شدّة فناد

---

(١) الحلية ٨/٣٦٤. والتوجه بالسؤال لا يجوز إلا إلى لله تعالى وحده سبحانه.

(٢) أبوالحسن، علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي، ولد سنة ٥٩٣هـ، الضرير، نزيل الأسكندرية، شيخ الطائفة الشاذلية، والشاذلي نسبة إلى شاذله إحدى قرى تونس، مات بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦هـ. (انظر ترجمته في : الطبقات الكبرى ٤/٢، الموسوعة الصوفية ص٢٢٩، ولطائف المنن لابن عطاء السكندري ص٧٠، والمدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبوالحسن الشاذلي، د. عبدالحليم محمود (القاهرة : دار النصر للطباعة) ص٥١، ٤٨).

(٣) لطائف المنن ص١٠٣.

(٤) جاكير : هو أحد أركان الطريقة الصوفية، وكان من الأكراد، سكن إحدى صحارى العراق قرب سامراء، واستوطنها إلى أن مات. انظر : الطبقات الكبرى ١/١٤٩-١٥٠.

باسمي[1] .

وقد بلغ الأمر بالصوفية، أن جعلوا لعبادة الدعاء، أدعية مخصوصة، رووها عن أشخاص، فقالوا : هذا دعاء الخضر عليه السلام، وهذا دعاء معروف الكرخي، ودعاء إبراهيم بن أدهم، كما جعلوا لكل حادثة أو مناسبة، دعاء مخصوص[2] .

كما جعل الصوفية للدعاء أوقاتاً معلومة، يزعمون الاستجابة فيها، فقالوا : إن الرحمة تنزل في ثلاثة أحوال، وعدوا منها السماع وما يتخلله من الرقص، باعتبار ذلك عندهم قربة، يتقربّ بها العبد إلى الله[3] .

هذا ما يتعلق في الدعاء.

أما الذكر الذي هو نوع من الدعاء، فالصوفية يتقربون به إلى الله، وهو ما يسمي عندهم بالذكر الصوفي، يفردون الله جلّ وعلا بالذكر، ويذكرون الله والنبي ﷺ، ثم يرقصون، ويتواجدون، وهم عندما يجعلونه مقرونا بالرقص ؛ يستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء ٤/٢.

(٢) انظر عن هذه الأدعية المزعومة : الإحياء ١/٣١٤-٣١٧.

(٣) انظر : الإحياء ٢/٢٧٠، وسيأتي الرد على هذه البدعة في المطلب التالي.

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[1].

فمن بدعهم في الذكر، ما يجري على ألسنتهم من إفراد الله فيقولون: "الله الله الله الله"، أو "هو هو هو هو"، أو "لا لا لا"، أو "آه آه آه"، أو "عا عا عا عا"، أو "آ آ آ آ"، أو "ها ها ها ها"، أو صوت بغير حرف، أو تخبيط وأدبه عند ذلك التسليم للوارد[2].

وحكي عن الشبلي أيضا "أن شاباً سأله: يا أبا بكر لِمَ تقول: الله، ولا تقول لا إله إلا الله؟. قال الشبلي: أستحي أن أوجه إثباتاً بعد نفي.

قال الشاب: أريد حجة أقوى من هذه، فقال: أخشى أن أوخذ في كلمة الجحود، ولا أصل إلى كلمة الإقرار"[3].

ويقول أبو العباس المرسي[4]: "ليكن ذكرك: الله الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور،

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٩١.

(٢) انظر: الأنوار القدسية ١/٣٩. لم ترد هذه الألفاظ في الأدعية المأثورة عن الرسول ﷺ وسلف هذه الأمة.

(٣) شطحات الصوفية، عبدالرحمن بدوي. ص٤٤، وانظر: الكواكب الدرية ٢/٣٣.

(٤) أبوالعباس المرسي: أحمد بن عمر الأنصاري أبوالعباس المرسي، قطب الزمان، المشار إليه بالولاية أصله من المغرب، ونزل الأسكندرية، مات سنة ٦٨٦هـ في الأسكندرية. (انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى ٢/١٤، وجامع كرامات الأولياء ١/٥٢٠).

وليس النور مقصودا لذاته، بل لما يقع به الكشف والعيان، فينبغي الإكثار من ذكره، واختياره على سائر الأذكار، ليضمنه جميع ما في لا إله إلا الله" من العقائد والعلوم والآداب والحقائق ... الخ"[1].

---

(١) نور التحقيق، حامد صقر (مصر: مطبعة دار التأليف – ١٣٦٩هـ) ص١٧٤، بدون ذكر رقم الطبعة.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية

من المعلوم من الدين بالضرورة، أن الدعاء من أجلّ العبادات، التي يجب توحيد الله فيها، وعدم صرف شيء منها إلى غيره سبحانه، فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه من كشف الضر، ودفع البلاء.

ولقد قرن الله سبحانه بين الدعاء والعبادة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1].

كما قرن الرسول ﷺ بينهما بقوله: « **الدعاء هو العبادة** »[2].

ومن خلال هذا الاقتران تبيَّن أهمية هذه العبادة، في كشف الضر عن العبد، ورفع البلاء، وقضاء الحاجة، في حال التوجه إلى الله بالصدق والإخلاص.

ولقد أبان القرآن الكريم ذلك، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

---

(١) سورة الأنعام، آية ٥٦.

(٢) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء ٥/١٢٦، والحديث رواه النعمان بن بشير، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1].

وقوله جلّ وعلا : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[2].

وقوله ﷺ : « **ادع إلى الله وحده الذي إن مسك ضر فدعوته كشفه عنك..** »[3].

وقوله ﷺ : « **إذ سألت فلتسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله..** »[4].

والله جلّ وعلا أمر عباده بالتوجه إليه بالعبادة، ومن رحمته سبحانه بعباده، أن جعلهم يلتجئون إليه عند الملمّات، دون شفيع ولا وسيط، والمشركون كانوا يتوجهون إلى أربابهم وآلهتهم وأصنامهم، وجعلوهم واسطة لهم عند الله. قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[5].

ولقد ركز القرآن الكريم إنكاره على المشركين كونهم يدعون غير الله، وتكرر هذا الإنكار في غير آية.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨٦.

(٢) سورة النمل، آية ٦٢.

(٣) المسند ٥/٦٤،

(٤) المسند ١/٢٩٣.

(٥) سورة الزمر، آية ٣.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[1].

وقال عزّ من قائل، منكراً عليهم : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾[2].

وقال سبحانه محذّراً من مغبّة التوجه بالدعاء إلى هؤلاء الأصنام والأرباب، الذين لا يملكون النفع لأنفسهم فضلاً عن جلبه لغيرهم : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[3].

ولما كانت مسألة صرف عبادة الدعاء لغير الله، أمراً متواتراً عند الصوفية نقلها الخلف عن السلف، هبَّ العلماء للتصدّي لمزاعم الصوفية في هذا الأمر وإنكارها، وإبطال افتراءاتهم، مستمدين منهجهم من شرع الله القويم.

فعندما استغنى الصوفية عن التوجه إلى الله بالدعاء، زاعمين أنه لا فائدة من ذلك ؛ ردَّ ابن عقيل على هذه الفرية بقوله : " قد ندب الله تعالى إلى الدعاء وفي ذلك معان :

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٩٤.

(٢) سورة فاطر، آية ١٤.

(٣) سورة يونس، آية ١٠٦.

أحدهما : الوجود، فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثاني : الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث : السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع : الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس : الرحمة، فإن القاسي لا يدعي.

السادس : القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

فشرع الدعاء، وصلاة الاستسقاء ؛ ليبيِّن كذب من رأى عدم الفائدة فيه[1].

ومقتضى هذه الشبهة عند الصوفية كما يقول ابن الجوزي - رحمه الله- : " ردٌّ لجميع الشرائع، وإبطالٌ لجميع أحكام الكتب، وتبكيتٌ للأنبياء كلهم فيما جاءوا به ؛ لأنه إذا قال في القرآن الكريم : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2] قال القائل : لماذا إن كنت سعيداً فمصيري إلى السعادة، وإن كنت شقياً فمصيري إلى الشقاوة، فما تنفعني إقامة

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز، تحقيق د. عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة) ٦٧٨/٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢٦٨/٢.

(٢) سورة الأنعام، آية ٧٢.

الصلاة، وما يفضي إلى رد الكتب وتجهيل الرسل محال باطل"[1].

وأما احتجاج الصوفية بعلم الله على عدم طلب الدعاء، ففيه دلالة على اعتمادهم في عدم الحاجة إلى الدعاء على العلم، وهذا الظن باطل فاسد من أساسه، وهو جهل بحقيقة علم الله تعالى وما يقتضيه، فإن علم الله بالشيء لا يقتضي عدم طلبه من الله تعالى، قال ابن الجوزي : " هذا سُدٌّ لباب السؤال والدعاء، وهو جهل بالعلم "[2].

وقد أنكر ابن رشد[3] على الصوفية زعمهم أن الدعاء لا منفعة فيه قائلاً : "لا ينكر الدعاء إلا كافر مكذب بالقرآن ؛ لأن الله تعبَّد عباده به في غير ما آية، ووعدهم بالاستجابة على ما سبق في علمه، وقائله إما جاهل ينهى عنه أشد النهي، وإن تمادى بعد العلم فقد كذّب القرآن،

(١) تلبيس إبليس ص٣٦٥.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٣٧.

(٣) ابن رشد : هو أبوالوليد، محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد (الجد) القرطبي المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة ٤٥٠هـ، من مصنفاته : البيان والتحصيل، ومختصر مشكل الآثار للطحاوي، توفي سنة ٥٢٠هـ.
انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥٠١/١٩، ومعجم المؤلفين ٤٦/٣، شذرات الذهب ٦٢/٤، ومرآة الجنان ٢٢٥/٣.



فهو مرتد وقال -عليه السلام-: « لا يرد القضاء إلاّ الدعاء »[1]، فقد يكون في علم الله القضاء مقارن بذلك ولا يكون إلا هو"[2].

وقال رحمه الله : من زعم أنه لا يحتاج إلى الدعاء، فقد كذب وعصى، فيلزمه أن يقول لا حاجة إلى الطاعة والإيمان ؛ لأن ما قضاه الله من الثواب والعقاب لا يمنعه، ولا يدري هذا الأخرق الأحمق أن مصالح الدنيا والآخرة قد رتبها الله سبحانه على الأسباب، ومن ترك الأسباب بناء على ما سبق به القضاء لا يفيده الدعاء، لزمه أن لا يأكل ولا يشرب إذا جاع وعطش، ولا يتداوى إذا مرض، وأن يلقى الكفّار بغير سلاح، ويقول في ذلك كله ما قضاه الله تعالى لا يردّ، وهذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل. وما أحرى هذا الجاهل على الجرأة على الله تعالى بإنكار الشرع، وما ركّبه الله تعالى في الطبع "[3].

---

(١) سنن الترمذي، أبواب القدر، باب : ما جاء "لا يرد القدر إلا الدعاء" ٣٠٣/٣-٣٠٤، والحديث عن سلمان الفارسي، وحسّنه الترمذي، وقال الألباني : فلعلّ تحسين الترمذي باعتبار أن له شاهداً من حديث ثوبان. (انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٣٦/١ رقم ١٥٤).

(٢) المعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، إشراف د. محمد حجي (بيروت : دار الغرب الإسلامي - ١٤٠١هـ) ٣١٤/١٢.

(٣) المعيار المعرب ٣٢٢/١٢.

ولقد أنكر القاضي عياض على الذين عدلوا عن دعاء الله، واخترعوا أدعية منسوبة للأنبياء والأولياء فقال :

"أَذِنَ الله في دعائه، وعلم الدعاء في كتابه لخليقته، وعلم النبي ﷺ الدعاء لأمته، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء : العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمة، فلا يبقى لأحد أن يعدل عن دعائه ﷺ، وقد احتال الشيطان للناس من هذا المقام، فقيَّض لهم قومَ سوءٍ يخترعون لهم أدعية، يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبي ﷺ -ومن هؤلاء الصوفية- وأشد ما في الحال أنهم ينسبونها إلى الأنبياء والصالحين، فيقولون: دعاء نوح، ودعاء يونس، ودعاء أبي بكر الصديق، ودعاء معروف الكرخي، فاتقوا الله في أنفسكم، ولا تشتغلوا من الحديث إلا بالصحيح"[1].

وعندما اخترعت الصوفية في عبادة الدعاء هذه الأدعية والأوراد والأذكار التي لم ترد في القرآن، ولا عن الرسول ﷺ، ولم تنقل عن

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، محمد علاء الصديقي (بيروت : دار إحياء التراث العربي) ١٧/١، بدون طبعة وتاريخ النشر، سلاح المؤمن لأبي الفتح محمد بن محمد بن همام المعروف بابن الإمام، حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وقدم له محيي الدين مستو، ط١ (دمشق -بيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب -١٤١٤هـ) ص٢٦-٢٧.

أحد من الصحابة، ولا التابعين ؛ هم بذلك نسجوها من خيالات أوليائهم ومشايخهم ؛ بل تقوّلوها على الدين.

فقد أوضح العلماء أن للمسلم أن يدعو الله بما شاء من أنواع الأدعية والأذكار، مما ورد في الكتاب والسنة، وعليه أن يتجنّب ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ، فقد أبان المصطفي الكريم ﷺ هذه الحقيقة بقوله: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ** »[1].

وعندما زعم الصوفية أن أدعيتهم من السنن التي يجب الأخذ بها، ردَّ عليهم ابن الجوزي زعمهم بقوله:

"..ثم من أقبح الأشياء قولهم أن الصوفية ينفردون بسنن ؛ لأنها إن كانت منسوبة إلى الشرع، فالمسلمون كلهم فيها سواء، والفقهاء أعرف بها، فما وجه انفراد الصوفية بها؟ وإن كانت بآرائهم فإنما انفردوا فيها لأنهم اخترعوها"[2]. وذلك باطل.

ويقول ابن العربي المالكي في معرض ردّه على الذين يخترعون أدعية من عند أنفسهم، ويأمرون الناس بها، وهو يقصد بذلك الصوفية، يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ

(١) سبق تخريجه. انظر: ص ٣٨٢ .

(٢) تلبيس إبليس ص١٧٥.

يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[1].

قال رحمه الله: "ويقال ألحد ولحد إذا مال، والإلحاد يكون بوضعهم الزيادة والنقصان منها، كما يفعله الجهّال ـ الصوفية ـ الذين يخترعون أدعية يسمّون فيها الباري بغير أسمائه، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعال، إلى غير ذلك مما لا يليق به، فحذار منها ولا يدعونَّ أحداً منكم، إلا بما في الكتب الخمسة، وهي كتاب البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي، فهذه الكتب هي بدء الإسلام، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو أصل التصانيف، وذروا سواها، ولا يقولنّ أحد: أختار دعاء كذا، فإن الله قد اختار له، وأرسل لذلك إلى الخلق رسوله ﷺ"[2].

وقال رحمه الله تعالى: "والزم بعد ذلك بالألفاظ الصحيحة ذكر الله، والدعاء إليه بالأدعية الصحيحة، ولا تلتفت إلى ذكر الله بما لا يصح، ولا التضرع إليه بما لا يثبت، فإن الشيطان إذا لم يقدر عن صرف العبد عن ذكر الله ؛ أقبل عليه فجعل يشغله بالأذكار والأدعية

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٢) أحكام القرآن ٢/٣٥١.

التي لم تصح، فيربح معه العدول عن صحيح الحديث إلى سقيمه"[١].

ولقد صرحّ القاضي عياض رحمه الله، بكفر من دعا غير الله حيث قال:

"إن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية، أو الوحدانية، أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله، فهو كفر"[٢].

وقال أيضاً: "إن من نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قاصد لكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد، فإن تكرر هذا منه، وعرف به، دلَّ على تلاعبه بدينه، واستخفافه بحرمة ربه، وجهله بعظيم عزّته وكبريائه، وهذا كفر لا مرية فيه"[٣]. وهو ما يفعله جُهّال الصوفية.

وعندما زعم الصوفية أن الدعاء مجاب في وقت السماع، وأن ذلك قربه إلى الله، ردَّ ابن عقيل عليهم زعمهم وكفَّرهم بذلك.

فقال: "قد سمعنا منهم - أي الصوفية - أن الدعاء عند حدو الحادي.. مجاب، وذلك أنهم يعتقدون أنه قربة يتقرب فيها إلى الله

(١) قانون التأويل، ص٦٧٩.

(٢) الشفا ٢/١٠٦٥-١٠٦٦.

(٣) الشفا ٢/١٠٩٣

تعالى، وهذا كفر؛ لأن من اعتقد الحرام أو المكروه قربة؛ كان بهذا الاعتقاد كافراً"[١].

وعندما ننظر في الأذكار والأوراد والأدعية، التي ألزم بها الصوفية مريديهم تلاوتها آناء الليل وآناء النهار، سراً وجهراً؛ نجدها كلها مبتدعة، وليس فيها أي ذكر مشروع يستدل به من الكتاب والسنة.

ولا شك أن الأذكار والأدعية، من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف، والاتباع لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل الدعاء والذكر، أمّا اختراع الأوراد والأذكار غير الشرعية فقد نهى الشارع عنها، فالدين ليس بالرأي، بل هو مبني على ركنين أساسين، هما الإخلاص في العمل واتباع القرآن والرسول ﷺ فيما أمرا به، والانتهاء عما نهيا عنه.

وأفضل الذكر "لا إله إلا الله" كما قال الرسول ﷺ: « **أفضل الذكر ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له** »[٢].

ولكن الذكر الذي يقوم به بعض الصوفية، بحركات موزونة، وترنيمات تشبه ترنيمات الكنيسة النصرانية، وما يتخلل هذه الحركات

(١) تلبيس إبليس ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) انظر: الموطأ للإمام مالك، ص١٤٣.

من قفز ووثب، ونط وجذب، وانحناء للشيخ، إلى غير ذلك، فالفطرة السليمة تنأى عنه، والقلب الخاشع يتبرأ منه، فلو خشع قلب هؤلاء الصوفية، لخشعت جوارحهم، وما يقال في تعليل تلك الحركات، أنها لمنع الحاضر أن يشتغل بغير الله تعالى، فهو مردود بما عرف عن السلف الصالح، فقد كانوا أحرص من هؤلاء على حفظ خواطرهم وقلوبهم، وجعلها مع الله، ولم يكونوا يفعلون ذلك ؛ بل أنكروه أشد الإنكار، وهم الأئمة المقتدى بهم.

وقد نقل القاضي عياض إنكار الإمام مالك رضي الله عنه للصوفية، عندما قرنوا الذكر بالرقص فقال : "قال التنيسي[1] : كنا عند مالك وأصحابه حوله، فقال رجل من أهل نصيبين[2] : عندنا قوم يقال لهم الصوفية، يأكلون كثيراً، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقصون. فقال مالك : أصبيان هم ؟، قال : لا. قال : أمجانين هم ؟.

(١) التنيسي : عبدالله بن يوسف التنيسي، أبومحمد الكلاعي، أصله من دمشق، ثقة، متقن، من أثبت الناس في الموطأ، توفي سنة ٢١٨هـ (انظر : تقريب التهذيب ص٣٣٠ رقم ٣٧٢١).

(٢) نصيبين : مدينة تقع على جادة القوافل إلى الشام، انتسب إليها جماعة من العلماء والأعيان. انظر : معجم البلدان ٥/٢٨٨.



قال : لا، هم قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء، فقال مالك : ما سمعت أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا. فقال الرجل : بل يأكلون ثم يقومون ويرقصون دوائب، ويلطم بعضهم رأسه وبعضهم وجهه، وضحك مالك ثم قام، فدخل منزله، فقال أصحاب مالك للرجل : لقد كنت يا هذا مشؤوماً على صاحبنا، لقد جالسناه نيفاً وثلاثين سنة، ما رأيناه ضحك إلا في هذا اليوم"[1].

وعندما استدل الصوفية على جواز الذكر بالاسم المفرد " الله " أو هو" بقوله تعالى : ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقسموا الذكر إلى عام وخاص.

ردَّ ابن الجوزي على مزاعم الصوفية تلك قائلا :

"انظروا إلى هذا العلم الدقيق !! فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويحثُّ عليها، وكان ﷺ يقول دبر كل صلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويقول ﷺ إذا قام لصلاة الليل : لا إله إلا أنت.

وذكر ابن الجوزي الثواب العظيم لمن يقول : لا إله إلا الله، قال رحمه الله : فانظروا إلى هذا التعاطي على الشرعية، واختيار ما لم

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض. تحقيق عبدالقادر الصحراوي. ط٢ (المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –١٤٠٣)٢/٥٤.

يختره رسول الله ﷺ[1].

وقد روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ « **كان إذا همّه الأمر رفع رأسه إلى السماء فقال سبحان الله العظيم، وإذا اجتهد في الدعاء قال : يا حي يا قيوم** »[2] .

ويترتب على استدلالهم بالاسم المفرد " الله أو هو " أن يكون الاسم الموصول "الذي" في قوله تعالى ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي﴾ اسماً من أسماء الله، وهذا غير صحيح، فتبقى مزاعمهم أوهاماً باطلة.

وهذا التقسيم في الذكر إلى ذكر العامة وذكر الخاصة، إنما هو تقسيم بدعي، لم يرد فيه عن الرسول ﷺ، ولا عن صحابته ولا عن القرون المفضلة من بعده نص صحيح وصريح ؛ بل هو أمر حادث في الدين وقد قال النبي ﷺ : «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ**»[3] .

والنصوص التي وردت في ذم الابتداع كثيرة[4].

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب : ما يقول عند الكرب ١٥٩/٥.

(٣) سبق تخريجه ص : ٣٨٢ .

(٤) منها قول ابن مسعود رضي الله عنه : "اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم" انظر : الاعتصام ٦٢/١.

=

وقد وصف الله سبحانه الذاكرين له، باطمئنان القلوب، وخشوعها، وإخباتها، قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1] وقد كان السلف الصالح، إذا سمعوا القرآن الكريم يتلى، خافوا وبكوا، واقشعرت جلودهم، قال تعالى : ﴿ مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[3].

وهذا عكس ما عليه الصوفية، من الرقص والضرب، في حالة

= وقال عبدالقادر الجيلاني : "يا قوم، اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا، وحّدوا الحق عز وجل وعن بابه لا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكّلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره.. سلّموا أنفسكم إليه، وارضوا بتدبيره فيكم، واشتغلوا بذكره دون مسألته " (الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبدالقادر الجيلاني، (بيروت : دار الكتب العلمية – ١٤١٨هـ) ص١٥١).

(١) سورة الرعد، آية ٢٨.

(٢) سورة الزمر، آية ٢٣.

(٣) سورة الأنفال، آية ٢.

الذكر، ولم يأمر الله سبحانه وتعالى حين أمر الناس بالعبادة، أن يأكلوا أكل البهائم، ثم يقوموا للرقص، بل هذا الرقص الذي يسميه الصوفية " ذكراً"، وما رافقه من منكرات مستقبحة نقلاً وعقلاً، وهو وصمة عار أن يكون بين من يزعم أنه مسلم، من يفعل هذا.

ولقد أحسن ظهير الدين أبو إسحاق الموصلي[1] من علماء القرن السادس، عندما أنكر على الصوفية، هذا النوع من الذكر، القائم على الرقص ونحوه، قال رحمه الله في أبيات شعرية :

ألا قل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع

متى علم الناس في ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع

وأن يأكل المرء أكل الحمار ... ويرقص في الجمع حتى يقع

وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع

ويسكره الناي ثم الغناء ... و(يس) لو تليت ما انصدع

والزيادة في البداية والنهاية لابن كثير :

(١) الموصلي : أبوإسحاق، إبراهيم بن نصر عسكر الشافعي، الموصلي، الملقب بظهير الدين، قاضي السلامية، والسلامية هي إحدى قرى الموصل، كان فقيهاً، فاضلاً، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد. توفي سنة ٦١٠هـ بالسلامية. (انظر : وفيات الأعيان ٣٨/١، ٣٧)، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٩).

كذاك الحمير إذا أخصبت ... يهيجها ريها والشبع

تراهم يهزوا لحاهم إذا ... ترنم حاديهم بالبدع

فيصرخ هذا وهذا يئن ... و(يس) لو تليت ما انصدع[1]

ومما سبق بيانه، يتضح مدى الجهد الذي بذله العلماء في القرن السادس في دحض شبه الصوفية المبتدعة في مسألة الدعاء والذكر، ولا غرو في ذلك، فقد استفاضت الأدلة من الكتاب والسنة، على كفر من دعا غير الله تعالى، وصرف هذه العبادة لغيره جلّ وعلا.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[2].

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ ﴾[3].

وهذه الآية نصّ صريح، بأن دعاء غير الله والاستعانة به شرك

(١) انظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية. تحقيق وتصحيح وتعليق محمد حامد الفقي (بيروت : دار المعرفة) ٢٣١/١، والبداية والنهاية ٦٦/١٣.

(٢) سورة البيّنة، آية ٥.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١١٧.

أكبر، والآيات الكريمات بهذا الشأن مستفيضة.

ومن السنة المطهرة : قول النبي ﷺ : « **الدعاء هو العبادة** »[1].

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال : قال النبي ﷺ : « من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)، فقلت أنا : من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة »[2].

وقوله ﷺ : « **إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[3].

---

(١) الحديث سبق تخريجه، انظر : ص٤١٧ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) ٥/١٥٣.

(٣) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة ٤/٧٦، والحديث رواه ابن عباس رضي الله عنه، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

المبحث الرابع

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية.

وفيه تمهيد ومطلبان :

التمهيد : **تعريف الخلوة والعزلة لغةً واصطلاحاً.**

المطلب الأول : **البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية.**

المطلب الثاني : **ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية.**

التمهيد

تعريف الخلوة والعزلة لغةً واصطلاحاً

الخلوة لغة :

- الخلاء، والخلو، المصدر، والخلوة الاسم.
- يقال : خلواً، وخلاءً، وخلوة، وخلواً : الانفراد بالصاحب في خلوة
- ويقال : خلا بنفسه وخلا إليه، وخلا معه : انفرد. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ ﴾[1].
- كما يقال : تخلّى من الدنيا، وخالاها مخالاة[2].
- وقال ابن فارس :

خلو" : الخاء واللام والحرف المعتل، أصل واحد يدل على تعري الشيء من الشيء، يقال هو خلو من كذا، إذا كان عروا منه، وخلت الدار وغيرها "[3].

---

(١) سورة البقرة، آية ١٤.

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٢٥٤/١، وأساس البلاغة ص١١٧، ولسان العرب ٢٠٦/٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة ص٣٢٥.

الخلوة اصطلاحا :

- هي مكوث الإنسان وحده في مكان ما[1].
- ومعناها عند الصوفية " محادثة السر مع الحق لا أحد ولا ملك"[2].
- أمّا صورتها عندهم، فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتّل إلى الله"[3].
- وهي العزلة عن النفس، وما تدعو إليه، ويشغل عن الله وقيل هي ترك اختلاط الناس[4].

أمّا العزلة في اللغة :

- فهي من الاعتزال نفسه، يقال اعتزلت القوم، أي فارقتهم وتنحّيت عنهم[5].

أما في الاصطلاح :

فهي عند الصوفية :

---

(١) انظر : معجم لغة الفقهاء ص١٧٨.

(٢) التعريفات ص١٣٦.

(٣) انظر : معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص٨٠.

(٤) انظر : معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص٩٢.

(٥) انظر : لسان العرب ٩/١٩٠.

- هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع[1].
- والخلوة والعزلة عند الصوفية ذاتا مفهوم واحد، يقوم على الانفراد بالنفس والعزلة عن الناس.

---

(١) التعريفات ص١٩٤.

المطلب الأول
البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية

الخلوة عند الصوفية، من الوسائل المعينة للكشف، ولها عند القوم مقام كبير، وعلو شأن عظيم، إذ تعتبر من الأسس الأربعة لعمل المريد عند الصوفية، يقول سهل التستري : "ما صار الأبدال إلا بأربع خصال، وذكر منها الخلوة "[1].

وهي تقوم على أساس الوحدة والانفراد والعزلة عن مخالطة الناس، يقول الشبلي : " الزم الوحدة، وامح اسمك من القوم، واستقبل الجدار حتى الموت"[2].

ويقول الجنيد : " من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه، وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة"[3].

وتزعم الصوفية أن للخلوة فوائد تفيض على القلوب من أنوار

---

(١) انظر : الإحياء ٣/٨٣.

(٢) قوت القلوب ١/١٤٤، والرسالة ص١٧٩.

(٣) الرسالة ص١٧٨.

المعرفة، يقول الغزالي عن نفسه :

" وانكشف لي في أثناء هذه الخلوة أمور لا يمكن إحصاؤها، واستقصاؤها، والقدر الذي اذكره لينتفع به ؛ أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصّة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة العلماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه ؛ لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوّة ! وليس وراء نور النبوة على الأرض نور يستضاء به"[1].

ويزعم الصوفية على لسان إمامهم الغزالي، أن للخلوة فوائد، من خلالها تنكشف - للصوفي- الأمور الغيبية، وبيّن ضوابطها، وقصرها على مكان مظلم ؛ بل إن لم يكن الأمر كذلك ؛ فإنه يلزم أن يلف الشخص رأسه في جيبه، لتحقيق مفهوم الخلوة له، يقول :

" أما حياة الخلوة ؛ ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر،

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالي، تحقيق عبدالمنعم الغاني. ط١(دمشق : دار الحكمة – ١٤١٥هـ)٨٣-٨٤.

فإنها دهليز[1] القلب، والقلب في حكم حوض، تنصبّ إليه مياه كريهة كدِرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه، ومن الطين الحاصل فيها ؛ ليتفجّر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن تنزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص، فلابد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم، فليلف رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الربوبية، أما يرى أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له : (يَا أَيُّهَا الْمُزَمِّل)، (يَا أَيُّهَا الْمُدَثِّر)[2] .

وثمرات الخلوة عند الصوفية ـ حسب زعمهم كلها تدور على الكشف، فمنها كشف عالم الحشر الغائب فلا يحجب الشيخ ظلمة ولا جدار عما يفعله الناس في قعور

بيوتهم، وفيها تجلّي الله -تعالى عمّا يقولون- للشيخ الصوفي.

ومنها أن يكشف للشيخ الصوفي أسرار الحيوان والنبات، فيخاطبها

---

(١) الدهليز : المدخل بين الباب والدار (المعجم الوسيط ١/ ٣٠٠).

(٢) الإحياء ٣/٧٦.

وتخاطبه، ومنها كشف ما خفي وغمض من الأسرار.

ويكشف للشيخ من خلالها الجنّات ومراتب أصلها، وجهنّم ودركاتها، كما يكشف له الأسرار، فيعرف عاقبة الأمور.

وفي نهاية الأمر يستطيع الشيخ أو الولي المشي على الهواء والماء، والتصرف في الكون، وتطوى له الأرض، وتخلع عليه هناك من الخلع ما لم يخطر على باله[1].

وتكمن أهمية الخلوة والعزلة عند الصوفية، كونها تؤدي إلى إسقاط التكاليف عنهم.

فقد نقل عن المحاسبي قوله: "ويسقط عن العبد بالخلوة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأمن مواجهة الناس ويورث راحة القلب من هموم الدنيا، ويقي شرور الخلق، وكلفة مداراتهم"[2].

ويعتبر الصوفية الخلوة والعزلة، رادع لهم عن الاعتداء على الناس؛ لذا فقد اعتبر أحدهم نفسه كلباً عقوراً لا يسلم الناس منها؛ فهو حارس لها عن الاعتداء على الناس، ولا يتأتى ذلك، إلا بالانقطاع عن الناس

---

(١) انظر: الأنوار القدسية ٢/١٠٥-١٠٩. بتصرف.

(٢) حياة القلوب بهامش قوت القلوب ٢/١٠١. والمسلم لا يخفى عليه أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو صمام أمان المجتمع.

والخلوة بنفسه بعيدا عنهم حتى يكون صادقا في اعتزاله[1].

ولقد استدل الصوفية على خلوتهم وزعموا أن لها سند من الشرع، واحتجوا بحديث مزعوم يروونه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من أخلص لله العبادة أربعين يوما، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[2].

ومن خلال استقراء وتتبع تراجم ساداتهم، وأئمتهم، ومشايخهم، وأقوالهم، وأفعالهم، نجد أنهم إضافة إلى تفضيلهم الخلوة والعزلة والابتعاد عن الناس ومجامعهم والانفراد في زواياهم[3]، وتكاياهم[4]،

---

(١) انظر: ن. م ٢/٩٣.

(٢) عوارف المعارف ص١٦٠. وهذا الحديث ضعّفه العلماء، وسيأتي بيان ذلك في المطلب التالي.

(٣) الزوايا: جمع زاوية، تنشأ برسم شخص معين، ينزوي فيها للعبادة، فتصبح مقراً له ينقطع فيها ويلجأ لبعض مريديه، وهي مأوى للمتصوفين والفقراء. انظر: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية. أحمد رمضان أحمد محمد. ط ١٣٩٧هـ، والمعجم الوسيط ١/٤٠٨، ومنادمة الأطلال ومسامرة الخيال / الشيخ عبدالقادر بدران، إشراف محمد زهير الشاويش. ط١ (بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – ١٤٠٥هـ) ص٢٩٩.

(٤) التكايا: جمع تكية، وهي دور مخصصة للصوفية يقيمون فيها لا يغادرونها، يتفرغون فيها للعبادة والتأمل. (معجم لغة الفقهاء ص١٩٥، والمعجم الوسيط ١/٨٦).

وأربطتهم[١]، نجد أنهم يمارسون هذه الخلوة والعزلة في الجبال والمغارات والبراري للتعبّد والتزهّد والانقطاع عن الدنيا ؛ بل كانوا يقطعون المسافات الكثيرة مشيا على الأقدام، منفردين متنقلين في الصحاري والبراري دون قصد وهدف، وهو ما يعرف عندهم بالسياحة.

قيل لأبي عبد الله الجلاء[٢] : "ما تقول في الرجل يدخل البادية بلا زاد ؟.

فقال : هذا من فعل رجال الله[٣]. قيل : فإن مات ؟ قال : الدية

(١) الأربطة : جمع رباط، وأصل الرباط ما يربط فيه الخيل للجهاد في سبيل الله، ثم استخدم علماً على بيت الصوفية ومنزلهم يقطعون فيه المعاملة مع الخلق وترك الاكتساب وحبس النفس عن المخالطات ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً – حسب زعمهم –، ويجتمع فيه الشبان والشيوخ وأصحاب الخدمة وأرباب الخلوة. (انظر: عوارف المعارف ص١٠١، ١٠٠، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢٣).

(٢) أبي عبدالله الجلاء : أحمد بن يحيى، ويقال : محمد بن يحيى، وأحمد أصحّ، أصله من بغداد، أقام بالرملة ودمشق، مات سنة ٣٠٦هـ. (انظر ترجمته في : الطبقات الكبرى ١/ ٨٧، طبقات الصوفية ص٤١، الكواكب الدرية ٢/ ١٥).

(٣) أي الصوفية بزعمهم !!.

على القاتل"[١].

ومما يدل على أن بعضهم يتوجه بالسفر لا لقصد، قول رويم عندما سأله عيسي القصار الدينوري[٢] عن أدب المسافر في سفره، إذا أراد أن يسافر فقال : لا يجاوز همّه قدمه، وحيث ما وقف قلبه يكون منزله"[٣].

وكان الشبلي إذا نظر إلى من يسافر من أصحابه، ويرى تعظّمهم في أسفارهم يقول : ويلكم أبدٌ مما ليس منه بد"[٤].

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٨٨.

(٢) لم أقف له على ترجمة .

(٣) اللمع ص٢٥.

(٤) ن.م ص٢٥١.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية

الخلوة والعزلة والانفراد المشروع، هو ما كان مأموراً به بالشرع، كاعتزال المحرمات قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[1].

ومنها إذا أراد الإنسان تحقيق علم وعمل، فتخلى في بعض الأماكن مع محافظته على أداء الفرائض كالجمعة، لما روي عن النبي ﷺ لما سئل: « **أي الناس افضل؟ قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها (يتبع الموت مظانة)، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة ولا يدع الناس إلا في خير** »[2].

ولكن لَمَّا صحب هذه الخلوات، وهذه الزوايا، والتكايا، والأربطة عند الصوفية بعض الدعاوى، والأفعال المنكرة والمصادمة

(١) سورة الأنعام، آية ٦٨.

(٢) انظر: الحديث بمعناه في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط ١٥٠٣/٣-١٥٠٤، والحديث رواه أبوهريرة رضي الله عنه.

للشريعة ؛ أنكر العلماء عليهم هذه البدع في الدعاوى والأفعال التي لم يرد لها سند في الشريعة.

فعندما ادّعى الصوفية رؤية الله تعالى أو الأنبياء أو الأرواح والملائكة، وغيرها من تلك الدعاوى في خلواتهم، التي انعزلوا بها عن عامة الناس، أنكر عليهم ذلك ابن الجوزي وتساءل : من أين لهؤلاء أن الذي يسمعونه - في خلوتهم - نداء الحق، وأن الذي يشاهدونه جلال الربوبية ؟ وما يؤمنهم أن يكون ما يجدونه من الوساوس والخيالات الفاسدة، ولكن قد لبس إبليس على الصوفية، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان يبيت وحده، ويصبح وحده، ففاتته الجمعة وصلاة الجماعة، ومخالطة أهل العلم، وعمومهم اعتزل في الأربطة، ففاتهم السعي إلى المساجد، وتوطنوا على فراش الراحة وتركوا الكسب.

واستدل ابن الجوزي رحمه الله في رده على هؤلاء بالمقارنة بين عزلة السلف وعزلة هؤلاء ؛ إذ كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعبّد ؛ إلا أن عزلتهم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة، ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة، ولا قيام، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة البطالين[1]. فهذه هي عزلة السلف.

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ص٢٨٨.

وعلى سبيل الإنكار على القوم، يسوق ابن الجوزي كلام أبي يزيد البسطامي الصوفي، الذي يرفض هذا المسلك الذي سلكه بعض الصوفية، يقول أبو يزيد : من ترك قراءة القرآن، والتقشف، ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المريض وادعى لهذا الشأن فهو مبتدع"[1].

وابن الجوزي رحمه الله، يحتج على سالك هذا المسلك منهم بهذه العبارة من باب الرد عليهم، بأقوال مشايخهم وساداتهم.

وعندما اتخذ الصوفية الزوايا، والتكايا، والأربطة للانفراد. شدّد

---

(١) تلبيس إبليس ص١٦٨.

وانظر : كلام أبي يزيد البسطامي في : النور من كلمات أبي طيفور للسهلجي ضمن شطحات الصوفية. عبدالرحمن بدوي ص١٢٢. ويقول عبدالرحمن بدوي: ينسب الكتاب للسهلجي، ونبهنا أستاذنا ماسنيون إلى مخطوط بفرنسا ورد فيه (كتاب النور للسهلكي) في كلمات البسطامي ويقول بدوي إن مؤلفه مجهول، انظر شطحات الصوفية ص٤٩، ٥٢، والذي يظهر والله أعلم أن صاحب الكتاب هو (أبوالفضل الفلكي)، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وينسب الكتاب المذكور إليه، حيث يقول "وقد جمع أبوالفضل الفلكي كتاباً من كلام أبي يزيد سماه النور من كلام طيفور" مجموع الفتاوى ٢٥٧/١٣، وأبوالفضل هذا هو: علي بن الحسين بن أحمد، عرف بالفلكي ؛ لأن جده كان بارعاً في الفلك، وكان صوفياً مشمّراً، توفي سنة ٤٢٧هـ. انظر سير اعلام النبلاء ٥٠٢/١٧.

ابن الجوزي عليهم الإنكار، وأقام الحجة عليهم قائلاً :

" أما بناء الأربطة فإن قوما من المتعبدّين، -الصوفية- الماضين، اتخذوها للإنفراد بالتعبّد، وهؤلاء إذا صح قصدهم فهم على الخطأ من ستة أوجه :

الأول : أنهم ابتدعوا هذا البناء، وإنما بنيان أهل الإسلام المساجد.

الثاني : أنهم جعلوا للمساجد نظير يقلل جمعها

الثالث : أنهم أفاتوا على أنفسهم نقل الخُطا إلى المساجد.

الرابع : أنهم تعذّبوا وهم شباب، وأكثرهم محتاج إلى النكاح.

الخامس : أنهم تشبّهوا بالنصارى بانفرادهم بالأديرة.

السادس : أنهم جعلوا لأنفسهم علماً ينطق بأنهم زهاد، فيوجب ذلك زيارتهم، والتبرك بهم، وإن كان قصدهم غير صحيح ؛ فهم قد بنوا دكاكين للكوبة[1] ومناخا للبطالة وإعلاماً لإظهار الزهد، وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء، يطلبون الدنيا من كل ظالم، ولا يتورّعون من عطاء ماكس[2] وأكثر

---

(١) الكوبة : الشطرنجة، أو الطبل والنَّرْد. انظر : لسان العرب ١٨٢/١٢.

(٢) الماكس : من يأخذ المَكْسَ من التجار، والمكس : الضريبة. (انظر : المعجم الوسيط ٨٨١/٢).

أربطتهم قد بناها الظلمة، ووقفوا عليها الأموال الخبيثة، وقد لبَّس عليهم إبليس أن يصل إليكم رزقكم فأسقطوا عن أنفسكم كلفة الورع، فمهمتهم دوران المطبخ والطعام والماء البارد، فأين جوع بشر؟ وأين ورع سرى ؟ وأين جد الجنيد؟"[1].

وذمَّ ابن عقيل رحمه الله الصوفية بوجوه يوجب الشرع ذم فعلها، فقال : إنهم اتخذوا مناخ البطالة، وهي الأربطة، فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش، ويدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء"[2] .

وعندما استدل الصوفية بحديث الأربعينية الذي جعلوه سندا لدعوى وجوب الخلوة والعزلة عندهم. ضعّف ابن الجوزي جميع الأحاديث الواردة في استدلال الصوفية على شرعية الخلوة، وقال :

" وقد عمل جماعة من المتصوّفة والمتزهّدين على هذا الحديث

---

(١) تلبيس إبليس ص١٧٥. وبشر هو بشر الحافي، وسري هو سري السقطي، والجنيد هو سيد الطائفة الصوفية بزعمهم !.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٧٢.

-حديث الأربعينية- الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوماً، واقتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي، ويخيّل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحا فإن الإخلاص، يتعلق بقصد القلوب؛ لا بفعل البدن، فلله درُّ العلم"[1].

وعندما خرج الصوفية إلى البراري والصحاري بقصد السياحة والانفراد عن الناس وجه ابن الجوزي نقده الشديد لهذا السلوك وعدّه من تلبيس إبليس عليهم، فقال: قد لبَّس إبليس على خلق كثير منهم، فأخرجهم إلى السياحة لا إلى مكان معروف، ولا إلى طلب علم، أكثرهم يخرج على الوحدة ولا يستصحب زادا. ويدّعي بذلك الفعل التوكل. فكم تفوته من فضيلة وفريضة. وهو يرى أنه في ذلك على طاعة.

وأنه يقرب بذلك من الولاية. وهو من العصاة المخالفين لسنة رسول الله ﷺ"[2].

ويقول وهو يتناول بعض أحوالهم منتقداً إياها:

"فيهم من جعل دأبه السفر، والسفر لا يراد لنفسه ... فمن جعل

(١) الموضوعات لابن الجوزي ٣/٣٨٩.

(٢) تلبيس إبليس ٢٩٧.

دأبه السفر، فقد جمع بين تضييع العمر، وتعذيب النفس، وكلاهما مقصود فاسد"[1].

ثم يرد ابن الجوزي عليهم في هذه المسالة فيسوق بعض الأحاديث التي ترد عليهم، فيما ابتدعوه من استدامة السفر، ودخول البادية على الوحدة بلا زاد مثل قوله ﷺ: « **لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده** »[2].

ووصفهم رحمه الله، بالجهل بحكم الشرع والفتيا فيه، وبيّن أنه لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد، وأن من فعل ذلك، فمات بالجوع فإنه عاص الله تعالى، مستحق لدخول النار[3].

(١) تلبيس إبليس ص٢٩٩.

(٢) تلبيس إبليس ص٢٩٩، ٢٩٨، والحديث رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الجهاد والسير، باب السير وحده ١٧/٤.

(٣) تلبيس إبليس ص٣٠٠.

المبحث الخامس

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على دعوى إسقاط التكاليف عند الصوفية

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية :

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية.

المطلب الأول
دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية

يزعم الصوفية أن هنالك مرتبة إذا وصلها العابد الصوفي، سقطت عنه التكاليف الشرعية، وحلّت له المحرمات.

ودعوى الوصول عند الصوفية، يتأولون بها قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1] أي تصل إلى مقام المكاشفة، فعندئذ تسقط وترفع عنك التكاليف الشرعية، حتى قالوا: إن العبد إذا بلغ غاية المحبة وصفا قلبه من الغفلة، واختار الإيمان على الكفر، سقط عنه الأمر والنهي، ولا يدخله الله النار بارتكاب الكبائر، وتسقط عنه العبادات الظاهرة وتكون عبادته التفكر[2].

ويقول القشيري في تفسير الآية: "التزم شرائط العبودية إلى أن ترقى بل تُكْفَى بصفات الحرية"[3].

(١) سورة الحجر، آية ٩٩.

(٢) انظر: إتحاف السادة المتقين ٢/٢٨٤. ولا شك أن ذلك – والعياذ بالله – كفر وزندقة وتفسير للآية على غير مرادها عند السلف الصالح وهو (الموت).

(٣) لطائف الإشارات للقشيري. قدم له وحققه وعلق عليه د. إبراهيم بسيوني ط٢ (الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨١م) ٢/٢٨٣.



ويقول أيضاً مؤكدا مزاعم الصوفية، رفع التكاليف الشرعية: "الكيّس من كان يحكم وقته، إن كان وقته الصحو فقيامه بالشريعة وإن كان وقته المحو، فالغالب عليه أحكام الحقيقة"[1].

وعلى هذا القول، فإن العارف الصوفي في حالة المحو، ترفع عنه التكاليف الشرعية!!.

لذا قال أحمد بن عطاء[2]: « العارف لا تكليف عليه »[3].

وجعلت الصوفية التكاليف الشرعية من عبادات وغيرها، مقتصرة على علماء الشريعة -أهل السنة والجماعة- ويزعمون من وراء ذلك، عدم صلاحية قلوبهم لمعرفة الله !!.

يقول أبو طالب المكي:

إنّ الله سبحانه اطّلع على قلوب طائفة من عباده، فلم يرها تصلح لمعرفته، ولا موضعاً لمشاهدته، فرحمها، فوهب لها العبادات والأعمال

(١) الرسالة القشيرية ص ١١٨

(٢) أحمد بن عطاء: أبوالعباس، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، من مشايخ الصوفية، توفي سنة تسع أو إحدى عشرة وثلثمائة من الهجرة.
انظر: الطبقات الكبرى ١/ ٩٥.

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ٩٦.

الصالحة "[1].

ومن صور خروجهم على الشريعة بحكم رفع التكاليف عنهم: ما نقل عن أبي يزيد البسطامي، أنه أخرج من كمه رغيفاً وأخذ في أكله في المدينة، وكان هذا في شهر رمضان[2].

كما نقل عن رجل من المتصوفة، كان يحضر الملاهي، ويعمل عمل أهل البدع ويقول: هذا لا يؤثر؛ لأني وصلت إلى مقام لا يؤثر فيَّ معه الاختلاف[3].

وقالوا بأن التكاليف الشرعية، من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، تسقط عن العبد وجوباً، أثناء خلوته واعتزاله الناس[4].

ونقل عن الشبلي قوله:

" يا ويلاه إن صليت جحدت، وإن لم أصلِّ كفرت "[5].

(١) قوت القلوب ٢/ ٠٦١ يقصد بذلك أهل السنة والجماعة !!.

(٢) انظر: كشف المحجوب ص٧٨.

(٣) انظر: روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين. أحمد الوتري. ص٥٣، والحلية ١٠/ ٣٥٦.

(٤) حياة القلوب بهامش قوت القلوب ٢/ ١٠١.

(٥) التعرف ص١٦١.

وتتضّح دعوى إسقاط التكاليف ورفعها عنهم، من خلال هذه الأبيات الشعرية، لمحدثهم محمد بن طاهر المقدسي، الذي يقول فيها :

دع التصوف والزهد الذي اشتغلت به ... جوارح أقوام من الناس

وعج على دير به الرهبان ... ما بين قسيس وشماس

وأشرب معتقة من كف كافر ... تسقيك خمرين بين لحظ ومن كأس

ثم استمع رنة الأوتار من رشأ ... تسقيك طرفة أمضى من الماس

غني بشعر امرئ في البأس مشتهر ... مدون عندهم في صدر قرطاس

لولا نسيم بذكراكم يروحني ... لكنت محترقاً من حر أنفاس[1]

فالمقدسي هنا، يدعو إلى معاشرة النصارى في أديرتهم، وتحليل شرب الخمر.

وعلى سبيل الإنكار على الصوفية، يقرِّر القشيري -وهو من كبار أئمتهم ومشايخهم- مزاعم الصوفية في رفع التكاليف عنهم، فيقول :

"وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدّوا قلّة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التميز بين الحلال والحرام، ودانوا ترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات. وقلّة المبالاة

(١) مرآة الزمان ٢/٥٨٥.

بتعاطي المحظورات، والإنفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان، وأصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوا من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادّعوا أنهم تجرّدوا عن رق الأغلال، وتحققوا الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه، وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرون به ويذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم باب الكلية، وزالت عنهم أحكام الشريعة "[1] .

كما تتقرر هذه العقيدة عند القوم، من خلال رفض الجنيد، الفصل بين المعرفة والعبادة، فقد روى أنه ذكر رجل المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله - يعني الصوفية - يصلون إلى ترك الحرمات، من باب البر والتقرب إلى الله تعالى.

فردّ الجنيد على ذلك بقوله : إن هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال، وهي عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين لله تعالى، أخذوا عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها[2] .

(١) الرسالة القشيرية ص٢٠-٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ص٨٧. طبقات الصوفية ص٣٦-٣٧، وعوارف المعارف ص٧٧-٧٨.

كما أثبت السهروردي في عوارفه، مزاعم الصوفية في إسقاط التكاليف عنهم بقوله:

"فقوم من المفتونين سمّوا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية لينتسبوا بها إلى الصوفية، وما هم من الصوفية بشيء، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارة، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون: هذا هو الظفر بالمراد والارتسام بمراسيم الشريعة رتبة العوام، والقاصدين الأفهام المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والأبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة، فهي زندقة، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيّد بحقوق العبودية، وصار مطالبا بأمور وزيادات بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ويخامر باطنه الزيغ والتحريف ... ومنهم من يستبح النظر إلى المستحسنات "[1].

وعلى سبيل الإنكار على الصوفية أيضاً، أقرّ الطوسي -وهو من كبار مشايخهم- بإباحتهم المحظورات، زعماً منهم بسقوط التكاليف

(١) عوارف المعارف ٧٦-٧٨، ٧٧.

عنهم فقال:

" زعمت الفرقة الضالة في الحضر والإباحة، أن الأشياء في الأصل مباحة، وإنما رفع الحظر للتعدي، فإذا لم يقع التعدي، تكون الأشياء على أصلها من الإباحة وتأوّلوا قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] قالوا: هذا على الجملة غير مفصّل، فاداهم ذلك بجهلهم إلى أن طمعت نفوسهم بأن المحظور الممنوع منه المسلمون: مباح لهم، إذا لم يتعد ما في تناوله؛ وإنما غلطوا في ذلك بدقيقة خفيت عليهم من جهلهم بالأصول، وقلّة حظهم من علم الشريعة، ومتابعتهم شهوات النفس في ذلك ... فظنّت هذه الطائفة الضالة بالإباحة لأن ذلك كان منهم على كل حال، جاز لهم ترك الحدود، أو أن يجاوزوا حد متابعة الأمر والنهي، فوقعوا من جهلهم في النيّة، وتاهوا وطلبوا ما مالت إليه نفوسهم من اتباع الشهوات، وتناول المحظورات، تأويلاً وحيلاً، وكذباً وتمويهاً "[2].

ويقول السهروردي -وهو من كبار مشايخهم- على سبيل الإنكار

(١) سورة عبس، آية ٢٧-٣٢.

(٢) اللمع ص٥٣٨-٥٣٩.



عليهم في اعتقادهم بسقوط التكاليف :

" ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد، ولا يثبتون، ويسقطون لنفوسهم حركة وفعلا، ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لا يقل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في المعاصي، وكل ما تدعو النفس إليه، ويركنون إلى البطالة، ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج من الملة، وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام"[١] .

وأيضا ثبتت دعواهم بإسقاط التكاليف الشرعية، بما أنكره عليهم ساداتهم، فهذا الجنيد، سئل عن قوم يقولون بإسقاط التكاليف، ويزعمون أن التكاليف، إنما كانت وسيلة إلى الوصول، وقد وصلنا،

---

(١) عوارف المعارف ص٧٩. وتتأكد دعوى إسقاط التكاليف عند الصوفية بقول ابن حزم منكراً عليهم فيقول :

" ادّعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله تعالى من سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلّت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك واستباحوا بذلك نساء غيرهم". الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (القاهرة : مكتبة الخانجي) ١٧٠/٤.

فقال : صدقوا في الوصول ولكن إلى سقر[١] .

ونرى الصوفية، وهم يقللون من شأن العلوم الشرعية، ويغمزون العلماء، ويحاولون بوسائل شتّى، صدّ المريدين عن طلب العلم الشرعي.

فقد نقل أبو طالب المكي، عن الحسن بن على الدامغاني[٢] قوله : " كان رجل من

أهل بسطام[٣] لا ينقطع عن مجلس أبي يزيد البسطامي، ولا يفارقه، فقال له ذات يوم : يا أستاذ، منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي شيئا من العلم الذي تذكر، وأنا أصدق به وأحبه، فقال له أبو يزيد : لو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلتها ما وجدت من هذا ذرة. قال : ولِمَ ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك، قال : أفلهذا دواء ؟ قال : نعم قال : قل لي حتى أعلمه، قال : لا تقبل، قال فاذكره لي قال : اذهب الساعة إلى المزين واحلق

---

(١) انظر : اليواقيت والجواهر ٥١/١.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) بسطام : بالكسر ثم السكون، بلدة كبيرة بقومس على جادّة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان، منها أبويزيد البسطامي. انظر : معجم البلدان ٤٢١/١.

رأسك ولحيتك !! وانزع هذا اللباس، واتزر بعباءة، وعلّق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً واجمع الصبيان حولك، وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وأدخل الأسواق كلها عند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله، تقول لي مثل هذا. فقال أبو يزيد: قولك سبحانه الله شرك، قال كيف؟ قال لأنك عظّمت نفسك. فسبحتها، قال: هذا لا أفعله، ولكن دلني على غيره قال: ابتدئ بهذا قبل كل شيء، فقال: لا أطيقه، فقال: قد قلت لك أنك لا تقبل "[1].

وهكذا فالروايات والحكايات، حول زعم الصوفية رفع التكاليف الشرعية عنهم كثيرة، تتضحّ من خلال تراجم ساداتهم وكبرائهم، وهكذا تبيّن لنا كيف ادعى الصوفية، سقوط التكاليف من صلاة، وصيام، واستباحة للمحرّمات، بدعوى وصولهم إلى مقام اليقين المزعوم.

(١) قوت القلوب ٨٦/٢، والنور من كلمات أبي طيفور ص٢١٢-١١٣.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[2].

هاتان الآيتان، أساس متين، وركن عظيم للحكمة من خلق الإنسان، إذ خلقه جل وعلا؛ لأجل عبادته وهو المكلف بأداء الشرائع، حتى يلقى ربه، ولا تسقط عنه التكاليف بأي حال من الأحوال، إلا بزوال عقله، أو جنونه، أو عند وجود عذر شرعي، لا كما تزعم الصوفية، من أن الإنسان وخاصة الصوفي، متى ما وصل إلى مقام المعرفة، سقطت عنه جميع التكاليف الشرعية، كما سبق بيانه.

وصفوة الخلق وسيد البشر، نبينا محمد ﷺ، لم يؤثر عنه، إلا العبادة لله، وهو ﷺ الذي قد قام الليل حتى تفطرت قدماه، الشريفتان،

(١) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٢) سورة الحجر، آية ٩٩.

فلما قيل له: ألم يقل الله سبحانه فيك، قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟. فماذا كان جوابه ﷺ؟ هل كان جوابه: أنه قد بلغ المعرفة بالله، فلا يكون في شغل العبادة؟ أم كان جوابه ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[1].

ولكن غلاة الصوفية، قد عمت بصائرهم، فلم يروا بالرسول ﷺ، ولا بالصحابة، والتابعين، القدوة في أداء عباداتهم الشرعية، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه استغنى عن عبادة من العبادات، أو استحل محرماً من المحرمات، بدعوى المعرفة أو الاستغراق فيها، بل إن البعض منهم -رضي الله عنهم- قد يكون وجلاً، خائفاً من عدم قبول عمله.

والعلماء ساروا على نهج الصحابة والتابعين في أداء ما أمر الله به، والكف عما نهى عنه، بل نراهم -رحمهم الله- يقفون في وجه المبتدعة في الدين - ومنهم غلاة الصوفية، الذين ادّعوا لأنفسهم سقوط التكاليف عنهم؛ حتى فنّدوا أقوالهم وحكاياتهم وأنكروها؛ مستمدين ذلك من شرع الله المطهر.

ومن هؤلاء ابن عقيل -رحمه الله تعالى- الذي ردّ على شطحات الصوفية في دعوى إسقاط العبادات قائلاً: "اعلم أن الناس شردوا على

(١) والحديث عن المغيرة رضي الله عنه. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، ٢/٤٤.

الله عزّ وجلّ، وبعدوا عن وضع الشرع إلى أوضاعهم المخترعة، فمنهم من عبد سواه تعظيماً له عن العبادة، وجعلوا تلك، وسائل على زعمهم، ومنهم من وحّد، إلاّ أنه أسقط العبادات وقال هذه أشياء نصبت للعوام، لعدم المعارف، وهذا نوع شرك؛ لأن الله عز وجل لما عرف أن معرفته ذات قعر بعيد، وجو عال وبعيد أن يتقي من لم يعرف خوف النار؛ لأن الخلق قد عرفوا قدر لذعها، وقال لأهل المعرفة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[1]، وعلم أن المتعبدات أكثرها تفيض الأنس بالأمثال، ووضع الجهات والأمكنة والأبنية والحجارة للأنساك والاستقبال، فأبان من حقائق الإيمان به فقال: ﴿۞ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾[2]، وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾[3].

فعلم أن المعوّل على المقاصد، ولا يكفي مجرد المعارف من غير امتثال، كما يقول عليه الملحدة الباطنية وشطّاح الصوفية"[4].

(١) سورة آل عمران، آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة، آية ١٧٧.

(٣) سورة الحج، آية ٣٧.

(٤) تلبيس إبليس ص٣٧٠.

وقد صرّح العلماء بكفر من استحلَّ شيئاً محرماً من شرائع الإسلام الظاهرة، أو استحل شيئاً من المحرمات الظاهرة المتواترة.

فقد كفّر القاضي عياض كل من ادعى إسقاط التكاليف الشرعية، من استحلال للقتل أو شرب للخمر، أو الزنا، ونحوه، وهو ما أجمع عليه المسلمون، فقال رحمه الله تعالى :

"... وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا، مما حرم الله، بعد علمه بتحريمه ؛ كأصحاب الإباحة من القرامطة، وبعض غلاة المتصوفة"[1].

كما كفّر رحمه الله غلاة المتصوفة لزعمهم إسقاط التكاليف الشرعية من أوامر ونواهي الذين زعموا، أن ظواهر الشرع وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون من أمر الآخرة والحشر والقيامة، من الجنة والنار، ليس فيها شيء على مقتضى لفظها، ومفهوم خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم، فمُضمَّن مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهي وتكذيب الرسل والارتياب فيما أتوا به"[2].

---

(١) الشفاء ٢/١٠٧٣.

(٢) الشفاء ٢/١٠٦٩.

وكُفْرُ من يعتقد هذا الأمر، ظاهرٌ بيِّنٌ، لا يخفى على مسلم ؛ لأن إسقاط التكاليف وإباحة المحرمات، يعني مسخ دين الإسلام واقتلاعه من أساسه، وإشاعة الإباحية الآثمة، إلى غير ذلك من الأمور التي هي من أهداف القائلين بهذه العقيدة الفاسدة.

فالعجب كيف يظن هؤلاء المبتدعة المغرورون بأنهم قد وصلوا إلى ما لم يصل إليه الأنبياء والمرسلون ولا الملائكة المقربون، فقد كان الأنبياء - عليهم السلام- دائمي العبادة في كل حال، يزدادون قربات إلى الله سبحانه، حتى توفاهم الله كما هو معروف عنهم ؛ بل إن الله تعالى أمر خاتمهم وإمامهم وسيدهم محمداً ﷺ بأن يظلّ على عبادته حتى الممات فقال له : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

فكان الرسول ﷺ أشد الناس عبادة لربه - وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - حتى آخر لحظة من عمره، وكذلك الملائكة الكرام يخبر الله عنهم في كثير من النصوص أنهم لا ينفكون عن العبادة والتسبيح له تعالى، حتى صار ذكره سبحانه عندهم من التسبيح والتهليل هو زادهم الذي يعيشون به، وغذاؤهم الذي يتغذون به، قال

---

(١) سورة الحجر، آية ٩٩.

تعالى مخبراً عنهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] ، فإذا لم تسقط العبادة والتكاليف عن هؤلاء الكرام -وهم صفوة الخلق عند الله وأحبهم إليه- فكيف تسقط عمن سواهم من هؤلاء المبتدعة وأمثالهم !!!.

فهذه لا شك مزاعم باطلة ودعوى شيطانية ، سوّلها إبليس لجماعة من أتباعه ومطيعيه ، واستزلّهم بها وأخرجهم من حزب الله إلى حزبه ، ومن طاعة الله إلى طاعته ، ومن ولاية الله إلى ولايته.

فهذا الزعم والاعتقاد الباطل ليس من سمات المؤمنين بالله ؛ بل هو من علامات الكفار والزنادقة الملحدين ، وأنّى يكون لمن يعتقد مثل هذه الأمور إيمان وإسلام ، فهل وعى هؤلاء المبتدعة الصوفية ذلك وعادوا إلى رشدهم ؟!!.

وقال القاضي عياض -رحمه الله- : "أجمع المسلمون على تكفير كل من كذّب أو أنكر قاعدة من قواعد الشرع ، وما عرف يقيناً بالنقل المتواتر من فعل الرسول ﷺ ، ووقع الإجماع المتصل عليه ، كقول بعض المتصوفة أن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٢٠.

إسقاطها ، وإباحة كل شيء لهم ، ورفع عهد الشرائع عنهم"[1].

ونستطيع الرد على القوم بكلام إمام ممّن يدّعون أنه من أئمتهم في القرن السادس ، فقد أنكر عبدالقادر الجيلاني على معتقد غلاة الصوفية ، وزعمهم أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال ، ووصفهم رحمهم الله بالزندقة فقال : "ترك العبادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال"[2].

كما وقف في وجه هذه الدعوى الباطلة ، وذلك عندما زعم له الشيطان بأنه الله وأنه رفع عنه التكاليف ، فسارع -رحمه الله- إلى تكذيبه ، ولسان حاله يقول : إن التكليف لم يرفع عن الرسول ﷺ فكيف يرفع عني؟![3].

كما أنكر عليهم الغزالي من صوفية القرن السادس الاعتقاد بإسقاط التكاليف الشرعية قائلاً : "... وفرقة وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام وسوّوا بين الحلال والحرام ، فبعضهم يزعم

---

(١) الشفاء ٢/١٠٧٤.

(٢) الفتح الرباني / الجيلاني ص٤٠.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ١/١٢٧.

أن الله مستغن عن عملي، فلِمَ أتعبُ نفسي ...، ويزعمون أنّهم قد ترقّوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ... وذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها".[1].

وحمل على هؤلاء المبتدعة وكفّرهم وحثّ على قتلهم وتطهير المجتمع الإسلامي منهم قائلاً: "ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدّعي التصوف أنه قد بلغ حاله بينه وبين الله أسقطت عنه الصلاة وحلّ له شرب الخمر والمعاصي وأكل مال السلطان، فهذا ممن لا شك في وجوب قتله، وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره في الدين أعظم وينفتح باب من الإباحة لا ينسد"[2].

والصوفية عندما استعاضوا عن العبادات والنوافل الشرعية بأشغال شاقة وقاسية، وضعوها من عند أنفسهم بدعوى الزهد والتعبد؛ هم

(١) الإحياء ٣/٤٠٥.

(٢) (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة). أبوحامد الغزالي. اعتناء بطبعه وتصحيحه وبعض التعليقات عليه. مصطفى القباني الدمشقي ط١ (مصر: مطبعة الترقي-١٣١٩هـ) ص٦٠.

بذلك يهدفون إلى ترك العبادات الشرعية، ففي قصة الرجل البسطامي مع أبي يزيد البسطامي مخالفات شرعية، كالأمر بحلق اللحية[1]، وإذلال النفس أمام الصبيان في الأسواق، وخلع الملابس، بل الأعظم من ذلك قول أبي يزيد البسطامي للرجل: قوله سبحان الله شرك[2]، ولهذا انتقد ابن الجوزي هذه القصة، وردّها على أصحابها قائلاً: "ليس في شرعنا ولله الحمد من هذا شيء، بل فيه تحريم ذلك، والمنع منه ...، فنعوذ بالله من هذه العقول الناقصة التي تطالب المبتدئ بما لا يرضاه الشرع، فينفر"[3].

ورد ابن الجوزي على هؤلاء المتصوفة بكلام أحد شيوخ التصوّف وهو الجنيد المسمّى عندهم بسيد الطائفة، والذي تكلم بحضرته أحدهم فقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحرمات من باب البر والتقرب إلى الله عزّ وجلّ. فردّ عليه الجنيد قائلاً: إن هذا قول قوم تكلموا

(١) وهذا فيه محاربة للسنة المطهرة، قال ﷺ: «خالفوا المشركين، وفّروا اللِحى واحفوا الشوارب». صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر ٧/٥٦، والحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: ص٤٥٣.

(٣) تلبيس إبليس ص٣٥٤.

بإسقاط الأعمال (التكاليف)، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرّة إلاّ أن يحال بي دونها؛ لأنه أوكد في معرفتي به وأقوى في حالي"[1].

كما رَدَّ عليهم رحمه الله، بكلام أحد شيوخهم وهو أبي على الروذباري[2] في الرد على من ادعى الوصول بصيغة التهكّم: "قد وصل ولكن إلى سقر"[3].

وأشار ابن عقيل رحمه الله إلى أن أكثر كلام الصوفية يشير إلى إسقاط السفارات والنبوات، وعدَّ ذلك كلاماً مدسوساً في الشريعة تحته

---

(١) تلبيس إبليس ص٣٦٩.

(٢) الروذباري: أبوعلي أحمد بن محمد الروذباري، بغدادي، أقام بمصر، ومات بها سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء: (انظر: الرسالة القشيرية ص١٠٤)، وطبقات الصوفية ص٨٧، والحلية ٣٥٦/١٠، والطبقات الكبرى ١٠٦/١.

(٣) تلبيس إبليس ص٣٦٩، وانظر كلام الروذباري في الحلية ٣٥٦/١٠، طبقات الصوفية ص٨٧، والطبقات الكبرى ١٠٦/١.



هذه الزندقة التي عطلت أمور الشرع، ومن صرَّح بذلك فقد كفر[1].

وقد اعتبر ابن الجوزي القائلين بفكرة إسقاط التكاليف قوماً من أهل الإباحة المندسين في الصوفية، ومن المغرورين، يقول رحمه الله عنهم: "قد طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسوّوا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي. فلِمَ أتعبُ نفسي؟"[2].

ويقول أيضاً عن هؤلاء: "إن قوماً منهم داوموا على الرياضة مدةً فرأوا أنهم قد تجوهروا. فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهي رسومٌ للعوام" وأن بعضهم اعتقد أنه وصل بذلك إلى المقصود. وقالوا: قد وصلنا فما يضرنا شيء ومن وصل إلى الكعبة انقطع عن السير"[3].

وقد رد ابن الجوزي على الصوفية شبهتهم قائلاً: "كشف هذه الشبهة أنه ما دامت الأشباح قائمة، فلا سبيل إلى ترك الرسوم الظاهرة من التعبّد، فإن هذه الرسوم وضعت لمصالح الناس"[4].

---

(١) انظر: تلبيس إبليس. ص٣٧٥..

(٢) مختصر منهاج القاصدين. ص٢٦٧

(٣) تلبيس إبليس ص٣٦٧-٣٦٩، ٣٦٨.

(٤) ن. م ص٣٦٨،

ولقد كفّر أبوالمعين النسفي[1] من يدّعي إسقاط التكاليف فقال: "قال أهل الإباحة إذا بلغ العبد في الحب غاية المحبة، سقطت عنه العبادة الظاهرة نحو الزكاة والصوم والحج وغير ذلك، وكانت عبادته بعد ذلك التفكّر، ويصعد بنوره إلى السماء ويدخل الجنة، ويعانق الحور العين.

وقال أهل السنة والجماعة من اعتقد هذا يكفر؛ لأن الأنبياء لم يصعدوا إلى السماء كما قال الله تعالى في حق نبينا محمد ﷺ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾[2]، وفي حق عيسى -عليه السلام- ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ﴾[3]، وقال في حق آدم -عليه السلام-: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[4]، وقال في حق

(١) هو أبوالمعين النسفي، ميمون بن محمد بن محمد بن مغنن المكحول من أشهر متأخري الماتريدية من أشهر مصنفاته: التمهيد، وتبصرة الأدلة في العقائد، توفي سنة ٥٠٨هـ.

انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي، عبدالفتاح الحلو، ١٣٩٨هـ، عيسى البابي الحلبي نشرته كاملاً دار العلوم، الرياض، وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ط٢ باكستان.

(٢) سورة الإسراء، آية (١).

(٣) سورة النساء، آية (١٥٨).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٩).

إدريس -عليه السلام-: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾[1]، فغيرهم أولى أن لا يصعدوا[2].

واعتبر الفخر الرازي الصوفية شر الطوائف في هذا المعتقد، فقال عنهم: "قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، وتلبيسات في الحقيقة وهم يدّعون محبة الله تعالى، وليس لهم نصيب من شيء من الحقائق، بل يخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنا التكاليف، وهؤلاء هم شر الطوائف، وهم على الحقيقة على دين مزدك"[3].

ومما سبق يتبيّن بطلان دعوى غلاة الصوفية بإسقاط التكاليف من العبادات والأوامر والنواهي عنهم من خلال أقوال علماء في القرن السادس، ولا شك أن مثل هذه الدعاوى الباطلة، يجد لها الإنسان أساساً في الديانات الوثنية، وبعض المذاهب التي سبقت التصوف أو تأثر بها نتيجة الاحتكاك[4].

(١) سورة مريم، آية (٥٧)

(٢) بحر الكلام. أبوالمعين النسفي (القاهرة: مطبعة فرج الله زكي الكردي — ١٩١١م ص١٠٤).

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص١١٧.

(٤) الزعم بإسقاط التكاليف ليس بدعاً عند الصوفية، فقد سبقهم بذلك الرافضة، حين =

= نقل عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال : "من عرف هذا الباطن، فقد سقط عنه عمل الظاهر... ورفعت عنه الأغلال والأصفاد وإقامة الظاهر (الهفت الشريف للمفضل بن عمر الجعفي، تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب. ط٢ (بيروت : دار الأندلس – ١٩٧٨م) ص٤٢، ٤١).

ومن هنا تأثرت الصوفية بالشيعة الغالية في هذه الفكرة، ولقد تنبّه البيروني إلى الصلة الوثيقة بين التصوف الغالي والتصوف الهندي، وأبانَ بأن الدعوة إلى إسقاط الظواهر التعبدية من الصلوات والتنكر لإقامة الشعائر الدينية، وفروض العبادة، وهو من أخص خصائص طريقة "باتنجل" الهندية التي لا يعترف سالكوها بالعبادات بل ويحتقرون الصلوات وكل أنواع العبادات التي تنطق بالأصوات وجميع الظواهر التي تشف عن الطقوس الهندية" (تحقيق ما للهند من مقولة ص٣٤).

الفصل الرابع

ردود العلماء في القرن السادس على الغلو في الأولياء عند الصوفية

وفيه ومبحثان :

المبحث الأول : الغلو في الأولياء عند الصوفية .

المبحث الثاني : ردود العلماء في القرن السادس على الغلو في الأولياء عند الصوفية.

تعريف الغلو والولاية لغة واصطلاحا :

الغلو لغة :

- قال ابن فارس : "الغين واللام والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر. يقال : غلا السعر يغلو غلاء ، وذلك ارتفاعه ، وغلا الرجل في الأمر غلوا إذا جاوز حدَّه "[1].

الغلو اصطلاحاً :

- عرّفه الشاطبي بأنه المبالغة في الشيء ، والتشديد فيه بتجاوز حد الإسراف[2].
- وقال بذلك ابن حجر أيضاً[3].
- والغلو نوعان : اعتقادي وعملي ، فالمراد بالغلو الاعتقادي ، ما كان متعلقا بكليات الشريعة الإسلامية ، وما كان متعلقا بباب العقائد ، كالغلو في الأئمة وادعاء العصمة لهم ، أما المراد بالجزئي فهو ما كان متعلقا بجزئية أو أكثر من جزئيات الشريعة ، والمراد بالعملي ، ما كان متعلقا بالعمليات فهو محصور في جانب الفعل سواء ، أكان قولا باللسان

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/٣٨٧ – ٣٨٨.

(٢) الاعتصام ١/٢٣٦.

(٣) انظر : فتح الباري ١٣/٢٧٨.

أم عملا بالجوارح ، ومثاله : الذي يقوم الليل كله ، يعد غاليا غلوا عمليا ، والذي يعتزل مساجد المسلمين فهذا غال غلوا كليا اعتقاديا[1].

الولاية لغة واصطلاحا :

الولاية لغة :

- مصدر ولي يليه ولاية "إذا أدناه منه وقرب أو قام به وملك أمره ونصره وأحبّه "[2].
- قال الفيروز آبادي "الولي" القرب والدنو والمطر بعد المطر.
- وليت الأرض بالضم. والولي الاسم منه المحب والصديق والنصير.
- وولي الشيء ويليه ولاية ، وتولاه أي : اتخذه وليا ، "ولاية" الإمارة والسلطان[3].
- وقال ابن منظور : الولي هو الناصر ، والولاية : النصرة ، قال تعالى :

(١) انظر : بتوسع عن الغلو الاعتقادي والعملي : الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة عبد الرحمن اللويحق ط٤(بيروت : مؤسسة الرسالة – ١٤١٧هـ) ص ٧٠-٨٠.

(٢) لسان العرب ١٥/٤٠٧.

(٣) انظر : القاموس المحيط ٤/٤٠٤.

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[1] بالفتح والكسر وهي بمعنى النصرة[2].

- وقال الرازي : الولي ضد العدو والموالاة ضد الموالاة[3].

الولاية اصطلاحا :

- قال الشوكاني في تعريفه لأولياء الله "المراد بأولياء الله خلص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته"[4].
- وقال ابن حجر بأن المراد بالولي : "العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته"[5].
- وقال ابن تيمية : "أن الولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد"[6].
- وقال رحمه الله : الولي : من الولي وهو القرب ، كما أن العدو من العدو وهو البعد ، فولي من والاه بالموافقة له في محبوباته ، ومرضياته ، وتقرّب إليه بما أمر به من طاعاته"[7].

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٢.

(٢) انظر : لسان العرب ١٥/٤٠٠ ، ٤٠١.

(٣) انظر : مختار الصحاح ص ٧٣٦.

(٤) فتح القدير ٢/٤٥٧.

(٥) فتح الباري ١١/٣٥٠.

(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٧.

(٧) انظر : مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية – ١٤٠٢هـ) ١/٥٠.

المبحث الأول
الغلو في الأولياء عند الصوفية

يرى غلاة الصوفية ، أنهم أولياء الله دون نزاع في ذلك ، فقد جعلوا لشيوخهم مقاما رفيعا ، يعتقدون فيهم القداسة والولاية والعصمة ؛ بل ربما جعلوا لبعضهم مقاما أرفع من مقام النبوة ، ومقاربا لمقام الألوهية أو يكاد ذلك.

وقد نتج من ذلك ، تقديم الولاء والطاعة العمياء لمشايخهم ، حتى لو أمروهم بمعصية بحجة أن الشيخ أدرى بالمصلحة. وهم يرون فيما يرون ، أنه يجب على التلميذ أو المريد حسب تعبيرهم أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل.

وسوف أستعرض بعضا من اعتقاداتهم في المسائل التي لاقت رداً وإنكاراً من العلماء في القرن السادس ، وهي :

١ - اعتقادهم الكرامات لأوليائهم.

٢ - دعوى علم الغيب.

٣ - تقديس القبور.

٤ - تفضيل الولي على النبي :

فأمّا اعتقادهم الكرامات لأوليائهم: فإن الكرامات للأولياء عند القوم تتم حسب زعمهم بالزهد في الدنيا لمدة معلومة.

فقد حكي عن سهل التستري، أنه قال: "من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا من قلبه مخلصا في ذلك، ظهرت له الكرامات"[1].

وبهذه الفتوى من التستري، أصبح كل ولي من أولياء الصوفية يدعي الكرامة.

فمن مزاعم القوم في الكرامات، ما نقله القشيري عن ذي النون المصري أنه قال: " رأيت شابا عند الكعبة يكثر الركوع والسجود، فدنوت منه وقلت: إنك تكثر الصلاة، فقال أنتظر الإذن من ربي في الانصراف، قال: فرأيت رقعة سقطت عليه مكتوب فيها: من العزيز الغفور

(١) جامع كرامات الأولياء للنبهاني، تحقيق إبراهيم عوض، ١/٣٣.

والكرامات: جمع كرامة، والكرامة لغة: قال الفيروز آبادي: الكرم محركة ضد اللؤم وكرمة عظمة ونزهة.

(انظر: القاموس المحيط ٤/١٧٢).

وفي الاصطلاح: هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم".

(انظر: لوامع الأنوار للسفاريني ٢/٣٩٢).

إلى عبدي الصادق انصرف مغفورا لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر"[1].

كما زعم الصوفية أن أولياءهم يرفعون البلاء عن البلاد، ويجعلون ذلك كرامة من كراماتهم، فقد ذكر الصوفية أن أحد تلاميذ الشيخ منصور البطائحي[2] رأى البلاء وهو نازل من السماء على العراق، فاستأذن شيخه في أن يدفع هذا البلاء، فأذن له الشيخ، فما كان منه إلا أن أخذ قضيبا وأشار إلى السماء، فتفرق البلاء، واستطاع بمجرد تحريك العصا أن يرد قضاء الله النازل من السماء[3]!!.

ويزعم الصوفية أن باستطاعتهم غفران الذنوب، وعدُّوا ذلك من كراماتهم، فقد زعموا أن شخصا دخل على الرفاعي وعلى جبهته مكتوب سطر الشقاوة، فمحاه الشيخ ببركته[4].

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٤١.

(٢) منصور البطائحي: خال أحمد الرفاعي، تنتمي إليه جماعة كثيرة من ذوي الأحوال وأرباب المقامات الصوفية.

(انظر: الطبقات الكبرى ١/١٣٤).

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥٤١.

(٤) انظر: طبقات الأولياء لابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد، حقّقه وخرّجه نور الدين شريبة، ط٢(بيروت: دار المعرفة - ١٤٠٦هـ) ص ٩٨.

ومن صور كرامات الصوفية لأوليائهم ، زعمهم القدرة على التصرّف في الكون ، فقد نقل عن سهل التستري أنه قال : إن لله عبادا لو سألوه ألا يقيم القيامة لما أقامها ، وكذلك ، ما نقلوه عن ذي النون المصري قوله : أن من عباد الله من لو سأله زوال الدنيا لأزالها[١] .

وعندما يدّعي هؤلاء المتصوّفة الكرامات لأوليائهم ؛ هم بذلك يزعمون أنه نتيجة من نتائج زهدهم في هذه الدنيا ، كما يرون أنها -أي الكرامات- ثمرة من ثمرات الخلوة عندهم ، لذا فإن الشيخ أو الولي يزعم أنه يستطيع المشي في الهواء والماء ، ويتصرّف في الكون[٢] .

وأعجب كرامات الصوفية المدوّنة في كتبهم وتراجم ساداتهم ، ما يتعلّق بحياتهم الخاصة ، فنجدهم يتحدثون عن ولي نام سبع عشرة سنة ، ثم يقوم ليصلّي بوضوئه الذي نام عليه[٣] — بزعمهم .

ويقول أحدهم ، لعصاه كوني إنسانًا ، فتكون إنساناً ، فيرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت[٤] .

---

(١) انظر : الإحياء ٣٥٦/٤ ، والحلية ٣٩٤/٩ .

(٢) انظر : الأنوار القدسية ١٠٩/٢ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ١٠٧/٢ .

(٤) انظر : الطبقات الكبرى ١٣٦/٢ .

بل إن من مزاعمهم ، أن جعلوا الكعبة تطوف بأوليائهم في أماكنهم خارج مكة وعدّوا ذلك كرامة من الكرامات[١] .

فقد روي عن البسطامي ، أنه قال : "خرجت إلى الحج ، فاستقبلني رجل في بعض المتاهات فقال : أبا يزيد إلى أين؟ فقلت إلى الحج ، فقال كم معك من الدراهم؟ قال : معي مائتا درهم : فقال : طف حولي سبع مرّات ، وناولني المائتي درهم فإن لي عيالا ، فطفت حوله وناولته المائتي درهم"[٢] .

والصوفية في ادعاء كراماتهم ، يعتمدون على الجنّ في كثير من أحوالهم ، ويعترفون بذلك صراحة ، فقد نقل عن إبراهيم بن أدهم ، أن الجنّ كانت تؤنسه وتعينه في أسفاره وغيرها[٣] .

هذه بعض من كرامات الصوفية التي يدّعونها ، وهذا غيض من فيض ممّا تناولته مصنّفاتهم وتراجم ساداتهم وكبرائهم[٤] .

---

(١) انظر : نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ، لليافعي ، تحقيق وتصحيح إبراهيم عطوه ط١(شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده — ١٣٨١هـ) ص ٣٣. ولا يكاد يصدق ذلك عاقل .

(٢) النور من كلمات أبي طيفور للسهلجي ص ١٦٤ .

(٣) انظر : الحلية ٣٩٤/٧-٣٩٥. وهذا فيه دلالة على أن شياطين الجن تمكنت من عقول بعض هؤلاء القوم !!

(٤) انظر : المصنّفات التالية : الطبقات الكبرى للشعراني ، وحالة أهل الحقيقة أحمد =

أمّا ادعاء الغيب عند الصوفية ، فقد حظي هذا الجانب باهتمام كبير من غلاتهم حتى اعتبروا ذلك من خصائصهم ، فبالإضافة إلى دعواهم القدرة على التصرّف في الكون نجدهم يخبرون عن أحوال الناس وأسرارهم.

قال السهروردي المقتول : "إن الأولياء ويسميهم إخوان التجريد ليتعلّمون العلم من روح القدس ، بلا تعلم بشري ، وتطيعهم مادة العالم العنصري ، وينذرون بالكائنات ، ويخبرون بالجزئيات الواقعة على الماضي والمستقبل"[١].

وقد بلغ بهم الأمر في ذلك الجانب ، أن ادّعوا محو الخطايا والذنوب عن مريديهم من اللوح المحفوظ ، قال بعضهم : لا يكون الشيخ شيخا صوفيا حتى يستطيع محو خطيئة تلميذه من اللوح المحفوظ ، ولا يجب أن يغفل عن المريد حتى يقع في الخطيئة"[٢].

= الرفاعي ، جمع أبي شجاع بن منجح الواسطي ، تقديم وتعليق محمد بخيت خياطة ، (نشر وتوزيع مكتبة ربيع – حلب ١٣٨٢هـ) ، واللمع للطوسي ، والرسالة القشيرية ، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ، وغيث المواهب ٢٦٢/١ ، وغيرها. فقد تضمنت هذه المراجع بعضا من كراماتهم المزعومة.

(١) اللمحات للسهروردي ، حققه وقدّم له أميل المعلوف ، (بيروت : دار النهار للنشر – ١٩٦٩م) ص ١٤٧-١٤٨ ، "المورد السادس" بدون رقم طبعة. وهذا من نسج خيال الصوفية !!.

(٢) نشر المحاسن الغالية ص ٦٨.

لذا فلا عجب إن رأينا مشايخهم يفرضون على أتباعهم الطاعة العمياء ولا يجوزون الاعتراض عليهم البتة.

ويقولون من قال لأستاذه : لِمَ؟ لا يفلح لأن الشيخ في أهله كالنبي في أمته"[١].

وقال القشيري : "من صحب شيخا من الشيوخ -الصوفية- ثم اعترض عليه بقلبه ، فقد نقض عهد الصحبة ، ووجبت عليه التوبة"[٢].

ومما يثبت دعواهم معرفة ما في الغيب ، ما قاله الحكيم الترمذي :

"إن الأولياء لهم علامات وعلوم ، وأما ما يعرفونه من العلوم فهي علم البدء وعلم الميثاق وعلم المقادير ، وعلم الحروف ، فهذه أصول الحكمة ، وهي الحكمة العليا ، وإنما يظهر هذا العلم من كبراء الأولياء ويقبله عنهم من له حظ في الولاية"[٣].

ومما يزيد ذلك وضوحا ، ما نقله الكلاباذي عن أبي عبد الله الأنطاكي[٤] أنه قال :

---

(١) غيث المواهب العلية ١٩٧/١. وعند أهل السنة والجماعة كل يؤخذ من قوله ويرد إلا النبي ﷺ ، وهو القول الحق في هذه المسألة .

(٢) الرسالة القشيرية ص٤٣٧ .

(٣) ختم الأولياء ص ٣٦٢.

(٤) الأنطاكي : أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي ، من أقران بشر بن الحارث =

" إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في أسراركم، ويخرجون من همّكم"[1].

وزعموا أن عبد القادر الجيلاني قال:

وأعلم نبت الأرض من نباته ... وأعلم رمل الأرض كم هو رمله

وأعلم علم الله أحصي حروفه ... وأعلم موج البحر كم هو موجه

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته ... أنا الواصف الموصوف في علم الطريقة

مريدي تمسك فيَّ وكن بي واثقاً ... فأحميك في الدنيا ويوم القيامة[2]

ومن مزاعم الصوفية قولهم أن أولياءهم يتصرفون في الكون، فقد جعل الصوفية للشيخ أحمد الرفاعي مرتبة تصريف الكون، فذكروا أنه كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبيه السموات، ثم

= والسري، والمحاسبي، يطلق عليه لقب جاسوس القلوب. (انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص ٣٣، والطبقات الكبرى ١/٨٣).

(١) التعرّف ص ٣١. ويعني بذلك أنهم يعلمون الغيب، وأهل الصدق بمفهوم الصوفية هم الصوفية أنفسهم، كذا زعموا !!!.

(٢) فتوح الغيب للجيلاني خطّه ووثّقه محمد سالم بواب ط٢(دمشق وبيروت: دار الألباب- ١٤١٣هـ) ص ١٨٦-١٨٩.

قلت: ومن نظر في سيرة الشيخ عبد القادر رحمه الله يعتقد أن ذلك من المفتريات عليه والله أعلم. راجع: كتاب الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية لفضيلة الدكتور الداعية: سعيد بن مسفر القحطاني حفظه الله.

صارت السموات السبع في رجله كالخلخال[1].

وقد بلغ الأمر بالصوفية إلى حد التنافس في دعوى التصرّف في الكون، وذلك عندما سأل رجل يدعى علي وفا[2] رجل آخر يدعى محمد الحنفي: ما تقول في رجل رحى الوجود بيده يدورها كيف شاء؟ فرد بقوله: ما تقول فيمن يضع يده عليها يمنعها أن تدور، فقال علي: والله كنا نتركها لك ونذهب عنها"[3].

ودعاوي الصوفية في علم الغيب والتصرّف في الكون كثيرة جدا تطفح بها تراجم ساداتهم وكبرائهم[4].

أمّا عن نظرة الصوفية، لقبور أوليائهم ومشايخهم، فقائمة على التقديس والتعظيم بالزيارة لها، والتبرّك بها والاستعانة، وتقديم

(١) انظر: لطائف المنن للشعراني، ص٤٩١.

(٢) علي محمد وفا من أولياء الصوفية، توفي سنة ٨٠١هـ. انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى ٢/٢٢.

(٣) الطبقات الكبرى ٢/٩٠.

(٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر: جامع كرامات الأولياء ٢/٤،٣، والإنسان الكامل / عبد الكريم الجيلي (ط٤ –١٩٨١م) ١/٦٤، وطبقات الشعراني ١/١٤٣، والرسالة القشيرية: تراجم المشايخ مشايخ الطريقة ص٦٣-١١٦، والأنوار القدسية ٢/١٠٩.



النذور، والقرابين لها. ويتبيّن ذلك من خلال أقوال ساداتهم وكبرائهم.

يقول الجنيد عن قبر معروف الكرخي: قبر معروف ترياق[1] مجرب يستسقى به ويتبرّك الناس بزيارته[2].

وقال الشعراني في ترجمة معروف الكرخي: مجاب الدعوة، يستسقى بقبره ويزار ليلا ونهاراً[3].

كما يقول عن حياة بن قيس الحراني[4]: "وهو أحد الأربعة الذين يتصرّفون في قبورهم بأرض العراق، وكان أهل خراسان يستسقون به فيسقون"[5].

---

(١) الترياق: دواء السموم. فارسي معرب. انظر: لسان العرب ٢/ ٣١.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦٧، طبقات الصوفية ص ٢١.

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ٧٢، وانظر الرسالة ص ٦٧.

(٤) حياة بن قيس الحراني من مشايخ الصوفية وأعيانهم، صاحب كرامات ومقامات، وهو أحد الأربعة الذين يزعمون أنهم يتصرفون في قبورهم بأرض العراق، أهل حران يستسقون به. مات سنة ٥٨١هـ.
(انظر: الطبقات الكبرى ١/ ١٥٣).

(٥) الطبقات الكبرى ١/ ١٥٣. قلت: وهو في حياة البرزخ عاجز عن تصريف شؤون نفسه فضلاً عن تصريف شؤون غيره.

وقد يتحول الأمر عند غلاة الصوفية إلى الاستعانة بالمشايخ الصوفية أحياء وأمواتا، ولهم في ذلك قصص غريبة منها: "يروى أن أحد مريدي الشيخ محمد المعصوم كان راكبا على فرس فجفلت به فسقط على الأرض، وبقيت رجله معلّقة في الركاب وجعلت الفرس تعدو به حتى أيقن الهلاك، فاستغاث بحضرة القيّوم (أبي الشيخ محمد المعصوم) قال: فرأيته حضر وأوقفها وأركبني، وكذلك وقع نفس المريد في البحر، وما كان يعرف السباحة، وكاد أن يغرق، فناداه مستغيثا، فحضر وأخذ بيده وأنقذه"[1].

وكما ذكر الشعراني، في ترجمة أبي مدين: "وولده مدين هو المدفون بمصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي[2]... عليه قبة عظيمة وقبره يزار"[3].

ويقول الغزالي، مجوّزا زيارة القبور للأولياء، من أجل التبرّك

---

(١) جامع كرامات الأولياء ١/ ٣٣٣.

(٢) عبدالقادر الدشطوطي: من أكابر الأولياء الصوفية، كان يمشي مكشوف الرأس حافياً، كفيف البصر، توفي سنة نيف وثلاثين وتسعمائة. (انظر: ترجمته في الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٨).

(٣) الطبقات الكبرى ١/ ١٥٤.

بهم، وشد الرحال إليهم "القسم الثاني: وهو أن يسافر لأجل العبادة، إمّا الحج أو الجهاد... ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء والأولياء، وكل من تبرّك بمشاهدته في حياته يتبرّك بزيارته بعد وفاته، ويجوّز شد الرحال لهذا الغرض"[1].

ويقول الشعراني في ترجمة الشيخ بقاء بن بطو[2]: "وتلمذ له خلائق من الصلحاء والعلماء وقصد بالزيارات والنذورات"[3].

وهم لا يرون في ذلك بأسا؛ بل يؤكدون على عدم الاعتراض على من يقدم على ذلك، يقول صاحب كتاب تنوير القلوب: "وما يفعله العامة من تقبيل أعتاب الأولياء والتابوت الذي يجعل فوقهم فلا باس به إن قصدوا بذلك التبرّك ولا ينبغي الاعتراض عليهم"[4].

(١) الإحياء ٢/٢٤٧.

(٢) بقاء بن بطو أحد أعيان مشايخ العراق، وأحد رموز التصوّف بها، ذكروا في ترجمته خوارق وكرامات كثيرة - يبدوا ظاهرها أنها من صنع الصوفية - مات سنة ٥٥٣هـ تقريباً.
(انظر: الطبقات الكبرى ١/١٤٧)، وجامع كرامات الأولياء ١/٦٠٨).

(٣) الطبقات الكبرى ١/١٤٧.

(٤) تنوير القلوب ص ٥٦٧.

وما سبق من أقوال، تعد غيض من فيض، ونقطة في بحر من الأقوال والحكايات التي نسجها الصوفية حول زيارة القبور، وتقديسها والتبرّك بأصحابها.

أمّا ادّعاء الصوفية، أن الأولياء أفضل من الأنبياء، فهذا ظاهر في أقوال وحكايات تناقلها الخلف عن السلف، ولقد بدأ هذا النوع من الغلو بمساواة الأولياء بالأنبياء، فقالوا: أن الأنبياء والأولياء خلقوا من مادة متميّزة على المادة التي خلق منها سائر البشر.

يقول السهروردي: أن الطينة التي خلق منها البشر، قد وطئتها قدما إبليس قبل أن يأخذها جبريل لتتكون منها المخلوقات، بينما الطينة التي خلق منها الأنبياء والأولياء، لم تمسّها قدما إبليس، فبقيت زكية نقية"[1].

وعند الغزالي، أن أرواح الأنبياء والأولياء، تختلف عن طبيعة أرواح البشر، فهو يصف أرواح الأنبياء والأولياء "بالروح الآمرية" ويستند في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ...﴾[2]، ويقول إن هذه الروح، لا تكون للبهائم ولمن هو في

(١) عوارف المعارف ص ١٩.

(٢) سورة الشورى آية ٥٢.

حالها من الإنس، بل يختص بها الأنبياء والأولياء"[١].

ومن مزاعمهم في مساواتهم بالأنبياء أن ادّعوا الشفاعة ، قال الشبلي في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾[٢] ، والله لا رضي محمد ﷺ وفي النار من أمته أحد، ثم قال: أن محمداً يشفع في أمته، وأشفع بعده في النار حتى لا يبقى فيها أحد[٣].

ولقد تدرّج هذا الغلو في مساواة الأولياء بالأنبياء حتى وصل إلى درجة رفع قدر الأولياء، فزعم الترمذي أن للأولياء منازل، فمنهم من أعطي ثلث النبوة، ومنهم من أعطي نصفها، ومنهم من له الزيادة[٤].

ثم بلغ بهم هذا الغلو إلى أن ادّعى الترمذي نفسه بأن من الأولياء من هو أرفع درجة من الأنبياء[٥].

(١) انظر الأربعين في أصول الدين للغزالي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ط٣(بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة- ١٤٠٠هـ) ص ١٩٥.

(٢) سورة الضحى آية ٥.

(٣) الموسوعة الصوفية للحفني ص ٢٤٠.

(٤) انظر: ختم الأولياء ص ٣٤٧.

(٥) انظر: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ، محمد بن علي الترمذي ، حقق أصوله وخرّج أحاديثه د.عبد الرحمن عميرة، ط١ (بيروت: دار الجيل - ١٤١٢هـ) ٢/٩٦.

كما أكدوا علو شأنهم على الأنبياء ، يقول البسطامي " خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله"[١].

وأكّد البسطامي نفسه ، أفضلية الأولياء على الأنبياء بقوله:

"تا الله أن لوائي أعظم من لواء محمد ﷺ، لوائي من نور تحته الجان والإنس، كلهم من النبيين"[٢].

ولا عجب من قول الجنيد في أبي يزيد البسطامي : "أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة"[٣].

وغلاة الصوفية ، عند ما زعموا ، أن الولي أفضل من النبي ، استدلوا بقصة موسى والخضر، واستخلصوا مزاعمهم ، كما يقول ذلك الطوسي على سبيل الإنكار عليهم في هذه المسألة، زعما منهم أن الخضر في هذه القصة يبدو هو العالم بباطن الأمور، وأسرار الحوادث، بينما موسى جهل هذه الأسرار والبواطن، يقول الطوسي : "فظنّت هذه الطائفة الضالة أن ذلك نقص في نبوّة موسى -عليه السلام-، وزيادة للخضر

(١) الطبقات الكبرى ٢/١٦.

(٢) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٤٣. كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

(٣) كشف المحجوب ص ١٣٢.

-عليه السلام- على موسى في الفضيلة: فأداهم ذلك إلى أن فضّلوا الأولياء على الأنبياء عليهم السلام، قال: وقد ذهب عنهم أن الله جلّ وعلا، يخص من يشاء بما يشاء، كيف يشاء، كما خصّ آدم -عليه السلام- بالناقة، وإبراهيم -عليه السلام- بإحياء الموتى، وخص نبيّنا محمد ﷺ بانشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه"[1].

وقد نقل السلمي عبارات لبعض الصوفية، فيها التقليل من شأن الأنبياء والاستخفاف بهم فهو يقول:

" سمعت أبا الحسن علي بن إبراهيم الحصري يقول: دعوني وبلائي ألستم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده. ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته وأمره بأمره فخالفه، إذا كان أول الدّنّ[2] دُرْديا، كيف يكون آخره؟"[3].

---

(١) اللمع ص ٥٣٥-٥٣٦.

(٢) الدّن: واحد الدنان وهي الحباب: وعاء ضخم يوضع فيه بعض الأشربة كالزيت والخمر ونحو ذلك. والدُردّي: ما يبقى أسفل كل مائع كالاشربة والأدهان، والدردي من الناس، الذي يذهب ويجيء من غير حاجة.

(انظر: مختار الصحاح ص ٢٠٢، ٢١٢، ولسان العرب ٣٢٣، ٤١٨، والمعجم الوسيط ٢٧٩/١، ٢٩٩).

(٣) طبقات الصوفية ص ١٢٠-١٢١.

هكذا كانت مزاعم القوم، من دعاوى الكرامات، والتصرف في الكون، وادعاء علم ما في الغيب، وعدم الاعتراض على مشايخهم، والغلو في الأولياء وتقديسهم والزيارة لقبورهم والتبرك بها، حتى آل بهم الأمر إلى تفضيل أوليائهم على أنبياء الله ورسله والعياذ بالله. -

المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس على الغلو في الأولياء عند الصوفية

من خلال ما سبق، اتضح أن غلاة الصوفية، اتبعوا منهجا خاصة في نظرتهم لأوليائهم ومشايخهم؛ ذلك المنهج القائم على الغلو والتطرّف، فلمسنا من خلال أقوالهم وحكاياتهم التي نقلها مصنّفوهم، أن رفعوا أولياءهم فوق كل مخلوق، وميّزوهم بالقدرة التي تفوق قدرة البشر.

والشريعة الإسلامية دعت إلى الوسطية في كل شيء، وحاربت الغلو والإفراط، والتفريط والتقصير، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[1]، فالله جلّ وعلا يصف أمة محمد ﷺ بالوسطية.

كما قد نهى الله ﷻ، عن الغلو في الدين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾[2].

(١) سورة البقرة آية ١٤٣.

(٢) سورة النساء آية ١٧١.



وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾[١].

وقد نهى الرسول الكريم ﷺ أمّته عن الغلو، وذلك لئلاّ يقع المسلمون فيما وقع فيه من سبقهم من الأمم التي بعث فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ غداة يوم جمعة: « هلمّ ألقط لي الحصى » فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعهنّ في يده قال: « **نعم بأمثال هؤلاء، وإيّاكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين** »[٢].

وقال ﷺ: « **لا تشددوا، فيشدد الله عليكم، فإن من كان قبلكم شددوا، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم** »[٣].

---

(١) سورة المائدة آية ٧٧.

(٢) المسند ٢١٥/١، ٣٤٧، والنسائي، كتاب الحج، باب التقاط الحصى ٢٦٨/٥، وابن ماجة، كتاب المناسك: باب قدر حصى الرمي ١٠٠٨/٢ رقم الحديث (٣٠٢٩).

(٣) سنن أبي داود كتاب الأدب، باب في الحسد ٢٧٦/٤، رقم الحديث (٤٩٠٤).

ولمّا كان معنى الولاية تضمن المحبة والقرب، فإن ولاية الله تعني محبته والقرب منه والتقرب إليه بما شرع، وولاية الشيطان ضدها، فهي قرب من الشيطان ومحبته باتباع أوامر جنوده.

وكلما اقترب المرء من الله بولايته، ابتعد عن الشيطان بالإعراض عنه قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾[٣].

وكلما ازدادت ولاية المرء للشيطان زاد بعده عن الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٢) سورة المائدة آية ٥٥.

(٣) سورة المائدة آية ٥١.

(٤) سورة النساء آية ١١٩.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ولا يجتمع في قلب المؤمن ولاية لله، مع ولايته للشيطان في وقت واحد.

وفرقٌ بين أولياء الرحمن أصحاب الأحوال الربانية السائرين على منهج المصطفى ﷺ، وبين الشياطين أصحاب الأحوال الشيطانية، ومنشأ كل بدعة وضلالة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ...﴾[2].

ولما شطح المبتدعة وخاصة غلاة الصوفية، وغلوا في مشايخهم وأوليائهم، وادّعوا لهم الكرامات ومعرفة ما في الغيب، وقدّسوا قبورهم بالزيارة والتبرّك والاستعانة بمقبوريهم، حتى بلغ الغلو بهم شأوا كبيرا عندما فضّلوا الأولياء على الأنبياء.

ولو أردنا التحدّث عن الكرامات فإنها قد تحصل لأولياء الله المؤمنين، إذ هي ثابتة في القرآن. منها ما جاء عن قصة الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ

(١) سورة الأعراف آية ٢٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧.

ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

ومن الكرامات التي وردت في القرآن الكريم، كرامة مريم عليها السلام التي لم تكن نبيّة، وإنما سيّدة من سيّدات نساء العالمين، اصطفاها ربّها فأعطاها من الكرامات وفيها قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2].

ومن كراماتها عليها السلام خطاب الله تعالى لها في قوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[3].

وكذلك الفتية المؤمنين بربّهم، الذين زادهم الله تعالى هدى وأمرهم أن يأووا إلى الكهف، وتلك واحدة من كراماتهم التي أخبرنا الله تعالى

(١) سورة النمل آية ٤٠.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٧.

(٣) سورة مريم آية ٢٥.

عنها في قوله: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[1].

والثابت في سير السلف الصالح أنه قد أمدهم الله بكرامات تواتر نقلها، فمنها على سبيل المثال قصّة عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه- مع جيش سارية، ومناداته: يا سارية الجبل: فأخذ سارية وعسكره الجبل وكان النصر بسبب ذلك.

إن هذه الكرامات أمر ممكن الوقوع، ولكن لا بد من عرضها على مقاييس الشرع للتثبت منها، فإن كانت موافقة لها فهي حق وصدق وكرامة من الله سبحانه، وإن كانت مخالفة له فهي من تلبيس إبليس وضلالاته على العباد[2].

---

(١) سورة الكهف آية ١٧.

(٢) وأهل السنة والجماعة عندما رأوا إمكانية وقوع الكرامة على أيدي بعض عباد الله الصالحين وضعوا لذلك ضوابط منها:

أولا: أنها لا تقع إلا لمن جمع له بين الإيمان والتقوى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليس لله ولي إلا من اتبعه باطنا وظاهرا فصدقه فيما أخبر به، من الغيوب =

= والتزم بطاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرّمات فمن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزما طاعته فيما أوجبه وأمر به من الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمنا فضلا عن أن يكون وليا لله. ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل، فإنه لا يكون مع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من أداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتها وواجباتها إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله المقرّبة إلى سخطه وعذابه. (فتاوي ابن تيمية ١٠/٤٣١). ويقول رحمه الله في موضع آخر: " فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما زجر عنه فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ولهم الكرامات التي كرّم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله تكون لحجة في الدين ولحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيّهم محمد ﷺ كذلك " (فتاوي ابن تيمية ١١/٢٧٤).

ومن الضوابط أن الكرامة ليست من شروط الولاية فقد يكون الإنسان وليّاً لله ومن أحبّهم إليه، وأكثرهم طاعة له، ولا تظهر على يديه كرامة قط، وحدوثها على يد شخص لا يدل على أنه أفضل ممّن لم تحدث له كرامة.

قال ابن تيمية رحمه الله: " وممّا ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص؛ ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين =

وأمام شطح الصوفية في مسألة الكرامات وادعاءاتهم الزائفة، وقف العلماء في وجه هؤلاء وردوا عليهم افتراءاتهم ومزاعمهم وأنكروها، ومن أبرز من شدد الإنكار عليهم ابن الجوزي رحمه الله الذي قال:

" وقد لبّس إبليس على قوم من المتأخّرين فوضعوا حكايات في كرامات الأولياء ليشيّدوا بزعمهم أمر القوم، والحق لا يحتاج إلى تشييد بباطل، فكشف الله تعالى أمره بعلماء النقل "[(١)].

ونسبة الكرامات إلى أولياء الصوفية وشيوخهم فكرة سيطرت على عقول كثير من المتصوفة وشيوخهم، حتى أصبحوا يتوهمون كل شيء كرامة وإن كان أمرا عاديا، فهم على الأصح قوم مفتونون بالكرامات، يقول ابن الجوزي في معرض نقده لهم:

" ولمّا بعد عن العلم أقوام من الصوفية لا حظوا أعمالهم واتفق

= أكثر منها في الصحابة بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة" (فتاوي ابن تيمية ١١/٢٨٣).

وحول ضوابط قبول الكرامة مفصّلة (انظر كرامات الأولياء: رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة الملك سعود، إعداد عبد الله العنقري، المبحث الثاني من الفصل الثالث من ص ٢٠١ إلى ٢٦٠).

(١) تلبيس إبليس ص ٣٨٤.

لبعضهم من اللطف ما يشبه الكرامات فانبسطوا بالدعاوي "[(١)].

إذن فهم من الذين يجعلون من الحبة قبة !!.

أما تشوقهم لظهور الكرامات على أيديهم وترقبهم ذلك إلى حد يبعث على السخرية والأسى يقول ابن الجوزي:

" منهم من يترصّد لظهور كرامته، ويخيل إليه أنه لو قرب من الماء قدر أن يمشي عليه "[(٢)].

وينقل ابن الجوزي كلمة رويت عن أبي يزيد البسطامي منها الرد على هؤلاء المفتونين بالكرامات، وظنّهم أنهم قد حازوا مرتبة الولاية الإلهية.

وقد نقلها ابن الجوزي عن أبي يزيد البسطامي من باب الرد على الصوفية بأقوال شيوخهم، يقول أبو يزيد البسطامي:

" لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود "[(٣)].

ونقل ابن الجوزي اعتراض بعضهم وظنّهم أن المتشددين في هذه

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤١.

(٢) ن. م ص ١٥٧.

(٣) ن. م ص ١٦٨.

المسألة إنما ينكرون الكرامات بالكلية، مبيّنا ما وقعوا فيه من سوء الفهم فيقول:

" وكم ينقلون: أن اقواماً مشوا على الماء، إلى غير ذلك من الكرامات، حتى إذا سمعوا منكرا ينكر ذلك قالوا: أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين؟ ثم يجيبهم قائلا: نقول لسنا من المنكرين لها، بل نتبع ما صح والصالحون هم الذين يتبعون الشرع، ولا يتعبدون بآرائهم"[1].

وانتقد ابن الجوزي غلاة الصوفية، وذكر أن منهم من شطح في الكرامات وادّعائها، وأظهر للعوام مخاريق صادروا بها قلوبهم كالحلاّج[2].

وقد أورد قصة لرجل قيل إنه احتاج إلى الوضوء، فإذا هو بكوز[3]، من جوهر، وسواك من فضّة، فاستاك بالسواك، وتوضّأ بالماء، كما تقول القصة، وعقّب ابن الجوزي، بأن القصة لو صحّت لدلت على قلة علم الرجل؛ لأن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ثم قال ما

(١) صيد الخاطر ص ٣٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٨٦.

(٣) الكوز: إناء بعروة يشرب به الماء، انظر: المعجم الوسيط ٢/٨٠٤.

نصّه: "والله تعالى لا يكرم بما يمنع من استعماله شرعا، إلا أن أظهر له ذلك على سبيل الامتحان"[1].

ووصف رحمه الله بعض حكاياتهم في ادعاء الكرامة، بأنها حكايات موضوعة ومصنوعة، وأحاديث فارغة، ومثل هذه الحكايات لا يغتر بها من شمّ رائحة العلم، إنما يغتر الجهّال الذين لا بصيرة لهم، وهي حكايات تصادم الشرع مكذوبة[2].

وفي الجملة، فإن كرامات المتصوّفة في رأي ابن الجوزي إما أن تكون من شعوذة، أو شطحات كاذبة مصنوعة، أو فتنة شيطانية.

ولا ريب أن أكثر تلك الكرامات مكذوبة، لاستدرار عواطف العوام، واستنزاف أموالهم.

والصوفية، وقد زعموا لأنفسهم الكرامات تلو الكرامات، فإنهم لا يعدّون أنفسهم بمنأى عن ولاية الله لهم. بل هم يعدّون تلك الكرامات نتيجة للولاية، فهم بزعمهم أولياء الله، ويجب أن لا يعترض عليهم أحد في حق أو باطل.

وهذا الإدعاء نجده راسخا في أذهان الكثير من الصوفية، وعلى

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٨٢.

(٢) ن.م ٣٨٥.

الأخص مصنفيهم فهم لا يستنكرون ذلك، بل ينكرون على من يستنكره.

ولقد أشار ابن الجوزي إلى هذه النقطة، فإنه عندما تحدث عن شطحات البسطامي ونقل بعض دعاويه، أشار إلى كلمة له يتمنّى فيها أن يدخله الله في النار، ليعلم الخلائق -حسب زعمه- أن برّ الله ولطفه مع أوليائه في النار أيضا" واستنكر ابن الجوزي هذه الدعوى قائلا: "يقطع لنفسه بما لا يدري به من الولاية والنجاة، وهل يقطع بالنجاة إلا لقوم مخصوصين من الصحابة؟"[1].

وقد ردّ ابن عقيل رحمه الله على أبي يزيد البسطامي في نحو من ذلك عندما قال البسطامي: والنار والله لئن رأيتها لأطفأتها بطرف مرقعتي" قائلا: ومن قال هذا كائن من كان فهو زنديق يجب قتله فإن الإهوان للشيء ثمرة الجحد....، ومثل هذا القائل ينبغي أن يقرّب إلى وجهه شمعة، فإذا انزعج قيل له هذه جذورة من نار"[2].

فالبسطامي في هذه الروايات جزم لنفسه بولاية الله له!!.

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤٣، ولم أعثر على عبارة البسطامي فيما لدي من مراجع صوفية.

(٢) ن. م ص ٣٤٢.

والكرامات وإن كانت قد ثبتت لناس من سلف الأمة وخيارها كما سبق الإشارة إليه. ولا يشك أنها تقع لبعض المؤمنين بعدئذ بتوفيق الله، فإن هذا لا يعني التركيز على طلبها بلهف كما يفعل الصوفية، فإن ذلك ليس من سيرة السلف، وقد وعى هذه الحقيقة بعض الصوفية المعتدلين، فحذّر من الانقطاع لهذا الهدف والغفلة عن الهدف الأسمى المطلوب من الإنسان، يقول أبو علي الجوزجاني[1]: "كن طالبا للاستقامة، لا طالبا للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة"[2].

وتبقى الحقيقة أن الاستقامة على طريق الهدى طريق السنة والاتباع، طريق الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان؛ هذه الاستقامة هي عين الكرامة، فإن حصل بعدئذٍ خرق العادة إكراماً من الله -ﷻ- لمؤمن صادق، فهذه يجب أن يخفيها ولا يذيعها، ويشكر الله

---

(١) الجوزجاني: أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني، من كبار مشايخ صوفية خراسان.

(انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص ٥٨، والحلية ١٠/٣٥٠، والطبقات الكبرى ١/٩٠).

(٢) شرح العقيدة الطحّاوية ٢/٧٤٧، فتاوي بن تيمية ١١/٣٢٠.



سبحانه على ما منّ به عليه .

أمّا ادعاء غلاة الصوفية علم الغيب، فلا ريب أن ذلك ادعاء باطل يصادم الشريعة الإسلامية، لما ورد في شأن هذا المعتقد في الكتاب والسنة من قصر علم ما في الغيب على الله وحده لا شريك له، واختصاصه به دون ملك مقرب ولا نبي مرسل، لذلك فمن يدّعي علم الغيب فهو مفتر على الله، والنصوص التي تدل على اختصاص الله بعلم الغيب من الكتاب مستفيضة وهي كفيلة بذاتها بالرد على غلاة الصوفية وغيرهم ممّن يدّعي علم الغيب.

فقد أخبرنا الله جلّ وعلا بأن مفاتيح الغيب عنده وحده سبحانه، وأنه لا يعلمها غيره من الخلق قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾[1]، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

قال ابن العربي المالكي هذه الآية أصل من أصول عقائد المسلمين، وركن من قواعد الدين، عند الله تعالى علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو؛ فمن شاء اطلاعه عليها اطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه، فلا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسله بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ

(١) سورة الأنعام آية ٥٩.

ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ ﴾[1].

وكفّر ابن العربي المالكي من زعم أنه يعلم متى ينزل الغيث أو يعلم ما في الرحم، أو يعلم ما في مستقبل العمر، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصّلة، فيما يكون قبل أن يكون.

قال: وهذه حال غلاة الصوفية من المبتدعة[2].

ومن الآيات التي تدل على أن الغيب خاص بالله سبحانه، وأنه لا شريك له في ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[3].

فهذه الآية صريحة في حصر علم الغيب في الله وحده، ونفيه عما سواه، وهي صريحة أيضا في الرد على الصوفية وغيرهم.

فادعاء الكشف عن علم الغيوب، من أعظم الكذب على الله، غير أن ذلك يعتبر عند الصوفية كرامة من أعظم الكرامات للأولياء والمشايخ.

وقد أنكر الله جلّ وعلا على من يدّعي علم الغيب بقوله تعالى: ﴿ أَمۡ

(١) سورة آل عمران آية ١٧٩.

(٢) انظر: أحكام القرآن ٢/٢٥٥، ٢٥٩.

(٣) سورة النمل آية ٦٥ .

عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾[3].

وكذلك الرسل، وهم أشرف خلق الله، لا يعلمون الغيب، ولا يدّعون بذلك، إلاّ ما أوحاه الله إليهم. قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾[4].

قال ابن الجوزي رحمه الله " : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾، هو الله ﷻ وحده لا شريك له في ملكه ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ أي يطلع على غيبه الذي لا يعلمه أحد من الناس ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾، لأن الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب والمعنى أن من ارتضاه للرسالة

(١) سورة الطور آية ٤١.

(٢) سورة النجم آية ٣٥.

(٣) سورة الأنعام آية ٥٠.

(٤) سورة الجن آية ٢٦-٢٨.

أطلعه على ما شاء من الغيب، وفي هذا الدليل على من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر والله أعلم"[1].

والآيات التي تنفي عن الأنبياء والرسل علم الغيب كثيرة، مع أنهم أفضل الخلق، فإذا كانت هذه الحال مع الأنبياء والمرسلين، فكيف جاءت دعوى هؤلاء الغلاة من المتصوّفة علم الغيب، وهم دون الرسل منزلة وكرامة عند الله !!.

ولقد جاءت السنة النبوية باختصاص علم الغيب لله دون غيره، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: ﴿لاَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2]).

ومنها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله. لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري**

(١) الكبائر للذهبي (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة) ص ١٦٩ بدون رقم الطبعة وسنة النشر.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٦٦/٨.

نفس باي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » [١].

وروى مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: **« من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »** [٢].

وذكر القاضي عياض أن العرّاف هو الحازر والمنجم الذي يدّعي علم الغيب، -والصوفية من هؤلاء- وهو من العرافة، وصاحبها عرّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدّعي معرفتها، وقد يعتقد بعض أهل هذا الفن في ذلك الزجر والطرق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك، وهذا الفن هو العيافة (بالياء) وكلها ينطلق عليها اسم الكهان [٣].

وقد انتقد ابن عقيل مزاعم الصوفية في ادّعائهم علم الغيب وردّ عليهم خرافاتهم ودعاويهم في هذه المسألة حتى قال:

" وإنما أوردت مثل هذا، ليعلم أنه قد ارتفع القوم -الصوفية- إلى

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ٨/١٦٥-١٦٦.

(٢) صحيح مسلم كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهّان ٤/١٧٥١.

(٣) انظر إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، ٧/١٥٣، ١٥٤.

التلاعب بالدين، فأيّ بقاء للشريعة مع هذا الحال" [١].

أمّا دعوى القدرة على تصريف الكون، وقد وصفت هذه القدرة بأنها أصل الكرامات، وهذه القضية تعتبر إضافة إلى ادّعاء علم الغيب، من أكثر الدعاوي انتشارا بين الصوفية والجواب عليها أن يقال:

إذا أعطيتم التصرّف وأنتم كثيرون مع كل واحد منكم كلمة (كن) فستنقلب الدنيا إلى فوضى؛ لأن كل واحد منكم -لو صحت مزاعمكم- سيسيّر الدنيا بوضع معين يصادم التسيير الذي يسير الدنيا به زميله الآخر، وعند ذلك يحصل الاضطراب، وبهذا تفسد السموات والأرض، وقد أخبر بذلك الله جلّ وعلا بقوله: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [٢].

ولا ريب أن الله لو أعطى عبدا من عباده التصرّف في الكون لكان خالعا عليه صفة من صفاته الكبرى وهي تدبير الأمر -وبذلك يكون شريكا لله في ربوبيته -ﷻ-، وقد قال الله تعالى رادا على من دعا غيره: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٨٧ – ٣٨٨.

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٢.

ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وهؤلاء المخرفون ، قد ادّعوا تصريف كل الكون لا ذرة واحدة!!.

ومع ما في هذه الدعوى من المصادمة التامة للإسلام والفطرة، فإن العقل يردّها ببداهته؛ إذ لو كان الأمر كما زعم هؤلاء الجهلة، لعلا بعض الأرباب على بعض، ولذهب كل واحد بقسم من الخلق تمكن من السيطرة عليه، وهذا الدليل العقلي قد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾[2].

وعندما قام الصوفية بتعظيم وتقديس القبور والتبرّك بها والنذر لها، وطلب الاستغاثة بأصحابها، وشد الرحال إليها، عظمت غيرة علماء القرن السادس على العقيدة، فوقفوا في وجه هؤلاء المبتدعة من غلاة الصوفية وردوا عليهم اعتقاداتهم المنحرفة ، وأنكروها، مستمدين منهجهم من الشرع القويم.

وممّن شدد الإنكار عليهم وكفّرهم ابن عقيل رحمه الله حيث قال: " لما صعبت التكاليف على الجهّال والطغام، عدلوا عن أوضاع

(١) سورة سبأ آية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ٩١.

الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع، وإيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج. وكتب الرقاع فيها، يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبرّكا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى"[1].

وذكر القاضي عياض أن الإمام مالك مبالغة منه في التحفظ في شد الرحال والسفر إلى قبر النبي ﷺ والأنبياء أو صالح من الصالحين، فقد

(١) إغاثة اللهفان لابن القيّم ١/١٩٥، والنبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين، حمد بن ناصر آل معمر، تحقيق عبدالسلام بن برجس آل عبد الكريم، ط١ (الرياض: دار العاصمة ١٤٠٩هـ) ص ٥٥-٥٦.

وشدُّ الرحال لا يجوز إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، بنص الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبوسعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا)، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم يوم النحر (٢/٢٥٠). نسأل الله أن يخلّص المسجد الأقصى من دنس اليهود الغاصبين الحاقدين.

كره أن يقول الرجل زرت قبر النبي ﷺ[1].

وتبرّأ ابن عقيل من المبتدعة ومنهم غلاة الصوفية عندما أحيوا الليالي في المساجد وعند القبور بالبدع فقال في مقام الرد والإنكار عليهم والنصح لهم:

"أنا ابرأ إلى الله من جميع أهل وقتنا -القرن السادس- في المساجد والمشاهد ليالي يسمونها إحياء، لعمري إنها لإحياء أهوائهم، وإيقاظ شهواتهم، جمع الرجال والنساء، مخارج الأموال فيها أفسد المقاصد وهو الرياء والسمعة، وما في ضلال كل واحد من اللعب والكذب والغفلة.

ما كان أحوج الجوامع أن تكون مظلمة من سرجهم، منزهة من معاصيهم وفسقهم، مردان ونسوة وفسق. الرجل عندي من وزن في تقسيم ثمن الشمعة فأخرج به وهنا وحطبا إلى بيوت الفقراء، ووقف في زاوية بيته بعد إرضاء عائلته بالحقوق فكتب في المتهجدين؛ صلى ركعتين بحزن ودعا لنفسه وأهله وجماعة المسلمين. وبكر إلى معاشه لا إلى المقابر، فترك في ذلك عبادة. يا هذا، أنظر إلى خروجك إلى المقابر كم بينه وبين ما وُصِفَتْ له؟.

قال النبي ﷺ في بيان الحكمة من زيارة القبور: « **فإنها تذكركم**

(١) انظر: الشفاء ٢/٦٦٩.

الآخرة »[1].

ما أشغلك بتلميح الوجوه المتأخّرة في تلك الجموع لزرع اللذة في قلبك، والشهوة في نفسك عن مطالعة العظام الناخرة تستدعي بها ذكر الآخرة؟ كلا ما خرجت إلا متنزها، ولا عدت إلا متأثما، ولا فرق عندك بين القبور والبساتين مع الفرحة، لا أقل من أن تكون المعاصي بين الجدران، فأما أن تجعل المقابر والمشاهد علة في الاشتهار، فلا ...، عزّ علي بقوم فاتتهم أيام المواسم التي يحظى فيها قوم بأنواع الأرباح، وليتهم خرجوا فيها بالبطالة رأسا برأس، فامتنعوا حتى جعلوها من السنة إلى السنة خلسا لاستغناء اللذات، واستلام الشهوات والمحظورات، ما بال الوجوه المصونة في جمادى هتكت في رجب بحجة الزيارات؟ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾[2].

(١) والحديث عن بريدة رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة** ». سنن الترمذي، أبواب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور ٢/٢٥٩، رقم الحديث ١٠٦.

(٢) سورة المائدة آية ٥٠.

وقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

إلى أن قال رحمه الله: غدا يرى أهل الجموع أن المساجد تلعنهم، والمقابر تستغيث منهم، يبكر أحدهم فيقول: أنا صائم، قد أفلح عرسك حتى يكون لك صيحة، قل لي يا من أحياه في الجامع بأي قلب رجعت؟ مات والله قلبك، وعاشت نفسك، ما أخوفني على من فعل هذا الفعل في هذه الليالي أن يخاف في معرض الأمن ويظمأ في مقامات الري!!"[2].

هكذا يصوّر لنا ابن عقيل صوفية عصره وما تلبسوا به من بدع ظاهرة.

وبالجملة فإن كل من دعا غير الله، أو استغاث به أو نذر له؛ كأن ينذر لقبور الأولياء أو الصالحين، أو يذبح لهم أو للأشجار ونحو ذلك، ويتوكل عليهم أو يطوف بقبر نبي أو ولي، يستغيث بهم، ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلاّ الله، كأن يطلب عافية من مرض أو قدوم غائب، أو يرزقه ولدا، ونحو ذلك من الأمور التي ليست في قدرة المخلوق أن يفعلها، فإنه يكون بكل فعل من هذه الأفعال مشركا بالله شركا أكبر لا

---

(١) سورة نوح آية ١٣.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٣٠٩-٣١٠، ٣/٣٨١-٣٨٢.

يغفر الله له إلا أن يتوب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

وهكذا كانت ردود العلماء المنكرة لجميع حكايات الصوفية ومزاعمهم الباطلة في الأولياء والمشايخ.

حتى بيّنوا أن تلك الحكايات والخرافات ما هي إلا ضربا من الخرافات تجاوزت حدود العقل والنقل.

ولو فرضنا جدلا أن هذه الحكايات والروايات، قد دسّت على شيوخهم كما هو ديدن البعض منهم، فكيف هي تشكل عصب طرقهم، وسياج معتقداتهم؟! ومن يا ترى دسّ عليهم دعوى الكرامات، وتقديس الموتى، والقبور، وطلب قضاء الحاجات، وشفاء المرضى، والزعم بعلم ما في الغيب، والتصرّف بالكون؟!!.

ولكن كما قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

أمّا تفضيل غلاة الصوفية الأولياء على الأنبياء فهو ما اتضح من

---

(١) سورة النساء آية ٤٨.

(٢) سورة البقرة آية ٩.

واقع نظرتهم الدونية للأنبياء، وادّعاء بعضهم النبوّة، حتى سلكوا طريقا منحرفة عن جادة الصواب، وبما أعطوه لأنفسهم من مقامات تزيد على مقام النبوة.

فعندما زعم الشبلي لنفسه مقاما اشرف من مقام النبوة بادعائه أنه يشفع بعد شفاعة محمد ﷺ حتى لا يبقى في النار أحد.

أنكر ابن عقيل هذه الدعوى، وكفّر قائلها، قائلا:

" والدعوى الأولى على النبي ﷺ كاذبة، فإن النبي ﷺ يرضى بتعذيب الفجّار، كيف وقد لعن في الخمر عشرة. فدعوى أنه لا يرضى بتعذيب الله ﷻ للفجار، دعوى باطلة، وإقدام على جهل بحكم الشرع.

ودعواه بأنه من أهل الشفاعة في الكل، وأنه يزيد على محمد ﷺ كفر؛ لأن الإنسان متى قطع لنفسه بأنه من أهل الجنة، كان من أهل النار، فكيف وهو يشهد لنفسه بأنه على مقام يزيد على مقام النبوّة، بل يزيد على المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى".

ثم أضاف قائلاً:

" والذي يمكنني في حق أهل البدع لساني وقلبي، ولو اتسعت قدرتي في السيف لرويت الثرى من دماء الخلق"[(١)].

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤٨.

وكفّر القاضي عياض من ادّعى النبوة لنفسه أو جوّز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها، كالفلاسفة وغلاة المتصوّفة، أو ادّعى أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة، وأنه يصعد إلى السماء... لأن النبي ﷺ أخبر أنه خاتم النبيين لا نبي بعده، وأخبر عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس"[(١)].

وكذلك كفّر رحمه الله المتصوّفة ممّن "دان بالوحدانية وصحة النبوّة، ونبوّة نبينا محمد ﷺ، ولكن جوّز على الأنبياء الكذب فيما أتوا به، أو ادّعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم يدعها، فهو كافر بإجماع، كالمتفلسفة وبعض الباطنية والروافض وغلاة الصوفية، وأصحاب الإباحة، فإن هؤلاء زعموا أن ظواهر الشرع، وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار، ليس فيها شيء على مقتضى لفظها ومفهوم خطابها؛ وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم، فمضمون مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهي، وتكذيب الرسل والارتياب فيما أتوا به"[(٢)].

(١) الشفاء ١٠٧١/٢.

(٢) الشفاء ١٠٦٨/٢-١٠٦٩.

وفي تعليق لابن عقيل على جملة الصوفية المشهورة "حدثني قلبي عن ربّي" وهو يرد على الصوفية قائلا :

"أكثر كلامهم -أي الصوفية- يشير إلى إسقاط السفارات والنبوات. فإذا قالوا عن أصحاب الحديث : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت. فقد طعنوا في النبوات وعوّلوا على الواقع. ومتى أزرى على طريق سقط الأخذ به. ومن قال : حدثني قلبي عن ربي. فقد صرّح أنه غني عن الرسول ﷺ، ومن صرّح بذلك فقد كفر. فهذه كلمة مدسوسة في الشريعة تحتها هذه الزندقة. ومن رأيناه يزري على النقل ، علمنا أنه قد عطّل أمر الشرع"[1].

وكفّر ابن عقيل غلاة الصوفية في هذا الجانب ، وأوجب عليهم السيف قائلا : " ومنهم من يجحد النبوة ويرى أن ما جاء به الأنبياء محال ، وهؤلاء لما أراد أمراح أنفسهم في شهواتهم لم يجدوا شيئا يحقنون به دماءهم ويستترون به وينالون فيه أغراض النفوس ، كمذهب أهل التصوّف ، فدخلوا فيه ظاهراً وهم في الباطن كفرة وليس لهؤلاء إلا السيف لعنهم الله"[2].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٧٥.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٦٤.

وعندما استخف بعض الصوفية ببعض الأنبياء من خلال مقولة الحصري[1].

علّق ابن الجوزي عليها مستنكرا إياها بقوله : جرأة قبيحة وسوء أدب مع الأنبياء[2].

مما سبق بيانه ؛ يتبين الجهد الكبير الذي بذله العلماء في الإنكار على غلاة الصوفية تجاه الغلو في أوليائهم ومشايخهم[3].

---

(١) انظر : ص٤٨٣ .

(٢) انظر : تلبيس إبليس ص ٣٤٨.

(٣) ولقد شابه الصوفية النصارى في تعظيم المشايخ والخوف منهم ، وتقديم أقوالهم على الكتاب والسنة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية -نور الله قبره- في معرض حديثه عن الصوفية وغلوهم في مشايخهم قائلاً : وهؤلاء -يعني الصوفية- مشابهون للنصارى الذين قال الله فيهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة ، آية ٣١]. الفتاوى (١١/٢١١).

الباب الثالث

ردود العلماء في القرن السادس على البدع في السلوك والأحوال

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول: **ردود العلماء في القرن السادس على الأحوال والمقامات عند الصوفية.**

الفصل الثاني: **ردود العلماء في القرن السادس على السماع عند الصوفية**

الفصل الثالث: **ردود العلماء في القرن السادس على اللباس والشعار عند الصوفية.**

الفصل الرابع: **ردود العلماء في القرن السادس على الرموز والغموض عند الصوفية.**

الفصل الأول

ردود العلماء في القرن السادس على الأحوال والمقامات عند الصوفية

ويشتمل على وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على الزهد عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على التوكل عند الصوفية.

المبحث الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على المحبة عند الصوفية.

تعريف الحال لغة واصطلاحاً:

أ - تعريف الحال لغة:

- هو ما عليه الإنسان من خير أو شرّ[1].
- والحال: الزمان الحاضر، وهو لفظ يبين الهيئة التي عليها الشيء عند ملابسه الفعل له واقعاً منه أو عليه.
- وحال الإنسان: ما يختصّ به من أموره المتغيّرة الحسّية والمعنوية[2]، وهو نهاية الماضي وبداية المستقبل[3].

ب – الحال اصطلاحاً:

- عرّفه الجرجاني بقوله: "معنىً يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة"[4].

---

(١) انظر: منحه الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، محمد محي الدين عبد الحميد، ط١٤ (مصر- المكتبة التجارية الكبرى – ١٣٨٤هـ)١/٦٢٥.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ١/٢٠٩.

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني ص ١١٠.

(٤) التعريفات ص ١١٠، وانظر اصطلاحات الصوفية لابن عربي ص٩، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ٨١، والرسالة القشيرية ص١١٩.

- واستعمل الصوفية هذه الكلمة للدلالة على ما يمر بالسالك من صفات متغيّرة كالخوف والرجاء والحزن والطرب ونحوه.
- يقول الطوسي في لمعه: "وأمّا معنى الأحوال فهو ما يحلّ بالقلب أو تحلّ به القلوب من صفاء وكدر"[1].

ثانيا: المقام لغة واصطلاحاً:

أ - تعريف المقام لغة:

- المقام: هو موضع القيام، ويشمل الأمر الحسّي كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2].
- قال البغوي: مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد تصلّى إليه الأئمة[3].
- فهذا مقام حسّي.
- وقد يراد بالمقام أمر معنوي كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[4].

---

(١) اللمع ص ٦٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٥.

(٣) انظر: تفسير البغوي ١/١٤٦.

(٤) سورة الإسراء آية ٧٩.

- قال البغوي : " وهو مقام الشفاعة لأمّته "[1].
- فهذا مقام معنوي.

ب- تعريف المقام اصطلاحاً :

- قال الجرجاني في تعريف المقام : " هو ما يتوصّل إليه بنوع تصرّف ويتحقّق به بضرب تطلب ومقاسات تكلّف"[2].
- ومقصود الصوفية بالمقام مرحلة من مراحل التعمّق في العبادات.
- يقول أبو السراج الطوسي : "فإن قيل ما معنى المقامات؟ يقال : معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ﷻ "[3].

وبهذا فإن الصوفية استعملوا كلمة المقام بمعناها المعنوي.

وتذكر الروايات الصوفية أن ذا النون المصري ، كان أوّل من حدَّد معنى المقام والحال[4].

(١) تفسير البغوي ٥/١١٧.
(٢) التعريفات ص ٢٨٩.
(٣) اللمع ص ٦٥.
(٤) انظر : الموسوعة الصوفية للحفني ص١٦٥.

الأحوال والمقامات عند الصوفية :

لقد لاقت الأحوال والمقامات عند الصوفية اهتماما بالغاً ؛ كيف لا ؟ ومصنّفاتهم لا تخلو من ذكرها والتحدّث عنها ، ومن خلال ما سبق من تعريفات الصوفية للحال والمقام ، نجد أن هناك فرقا بينهما ؛ إذ أن المقام مكتسب ، يُحصل عليه بالرياضة والمجاهدة ؛ بينما الحال يوهّب ويمنح بلا اكتساب.

"فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود"[1].

أي أن الأحوال توهب للعبد من الله سبحانه ، وليست من كسب العبد ، أمّا المقامات ، فيمكن أن يتوصّل إليها العبد ببذل جهده ، وكل مرحلة من مراحل الطرق الصوفية تنتهي بعمل من أعمال القلوب ، يكون نتيجة لما قبله ، وسبباً لما بعده ، ولا ينتقل السالك إلى مرحلة حتى يتمكن من المرحلة التي تسبقها ، فالمقامات أشبه ما تكون بدرجات السلم.

ويختلف الصوفية فيما بينهم في المقامات -نوعها وعددها- اختلافاً

(١) الرسالة القشيرية ص١١٩.

كبيراً، فالمقامات عند أبي طالب المكي تسعة مقامات[1]، وعند الطوسي سبعة مقامات[2]، وهي عند أبي سعيد الخزاز عشرة مقامات.

وعند ذي النون المصري سبعة مقامات[3]، وعند السهروردي عشرة مقامات[4].

أما عند الكلاباذي والقشيري فهي غامضة غير واضحة[5].

كذلك نرى بعض الصوفية من لا يمكنه الفصل بين مفهوم المقام والحال، ويرى أن الحال قد يثبت ويصير مقامات في نهاية الأمر، قال بذلك السهروردي[6].

وفي الواقع أن المقامات والأحوال غير متفق على عددها عند القوم، وبينهما تداخلا وتشابهاً، ومن الصعوبة بمكان التفريق بينهما؛ لأن

(١) انظر: قوت القلوب ٢٠٨/١.

(٢) انظر: اللمع ص٦٥.

(٣) انظر: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ص١٥٢.

(٤) انظر: عوارف المعارف ص٤٣٩-٤٥٣.

(٥) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠١، وما بعدها، والرسالة القشيرية ص١١٨ وما بعدها.

(٦) انظر : عوارف المعارف ص٤٢٣.

القواعد التي وضعها الصوفية للتمييز بين المقامات والأحوال غير مضطردة.

فالصوفية يقرّرون أن المقامات لها صفة الديمومة، بينما الأحوال لها صفة التغيير المستمر.

يقول القشيري: "وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله"[1].

ومع ذلك نراه يشير إلى بقاء الأحوال، وعدم زوالها فهو يقول: "فأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها"[2].

أمّا بالنسبة لعدم التفريق بينهما، فإن بعض الصوفية يعتبر بعض الأمور كالخوف من المقامات، كما ورد ذلك عن أبي طالب المكّي والسراج الطوسي[3].

كما اختلف الصوفية فيما بينهم في الرضا، فقوم جعلوه من المقامات، وآخرون جعلوه من الأحوال[4].

(١) الرسالة القشيرية ص١١٩.

(٢) ن.م ص١١٩.

(٣) انظر: قوت القلوب ٢٦٢/١/ واللمع ص٨٩.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٦٤.

بينما اعتبر أبو نصر السراج الرضا من ضمن المقامات[1].

وللجمع بينهما، يمكن أن يقال أن الحال يكون في بدايته معنىً يطرأ ويزول فلا استقرار له، ولكنه بالتكرار قد يصير معنىً راسخاً لا يزول.

ومن هنا يمكن أن يصبح ذلك المعنى مقاما عند صاحبه في النهاية. مع أنه كان في بدايته حالا يطرأ ويزول.

وقد مثّل الصوفية لهذا بحال المراقبة الذي يطرأ ويزول مرّات عديدة عند السالك ثم يصبح مقاماً لصاحبه، وذلك حين يغلب عليه مراقبة الله في جميع أعماله وأحواله، ويتداركه الله بالمعونة، كما قال بذلك السهروردي[2].

والمقام هنا يتطلّب استعراض الأحوال والمقامات التي لاقت استنكارا وردا من علماء القرن السادس الهجري. ولعلّ من أهمها الزهد والتوكّل والمحبة.

---

(١) اللمع ص ٨٠.

(٢) انظر: عوارف المعارف ص ٤٢٣.

المبحث الأوّل
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الزهد عند الصوفية

وفيه ومطلبان: .

المطلب الأول: الزهد عند الصوفية.

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الزهد عند الصوفية.

الزهد لغة :

- مصدر زهد عن الشيء أو فيه، زهدا وزهادة: مال عنه وأعرض وتركه لاحتقاره أو لتحرّجه عنه[1].

الزهد اصطلاحاً :

- في اصطلاح الصوفية، قال أبو علي الدقّاق: "الزهد أن تترك الدنيا كما هي لا تقول ابني رباطا أو أعمر مسجداً"[2].

من خلال ما سبق فإن مقصود الصوفية بالزهد يقوم على ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية.

ولكن الزهد في اصطلاح أهل السنة والجماعة يختلف عن مفهومه عند الصوفية.

يقول ابن قدامة المقدسي: "هو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه" أو بمعنى آخر: "ترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة"[3].

---

(١) انظر: القاموس المحيط ٣٠٨/١، والمعجم الوسيط ٤٠٣/١، ومعجم لغة الفقهاء ص ٢٠٩، والمصباح المنير ص ٩٨.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩٠.

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد أحمد دهمان، تعليق =

وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله في تعريف الزهد:

"أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة"[1].

ففي هذين التعريفين بيان الحقيقة لمراد الشرع بالزهد المطلوب والمشروع وهو غير مفهوم الزهد عند الصوفية الذي يقوم على الابتعاد عن الدنيا بالكلية وعدم الاهتمام بها، وهو يشتمل عندهم في مناحي الحياة.

= شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

(القاهرة: دار التراث – ١٣٩٨هـ) ص ٣٢٤ بدون طبعة.

(١) مدارج السالكين ١٢/٢.

المطلب الأول
الزهد عند الصوفية

من أبرز الأمور التي تسترعي الانتباه ويدخل ضمن دائرةَ مقام الزهد عند الصوفية:

١ - ترك الزواج.

٢ - الجوع وتعذيب النفس.

٣ - التجرّد من المال.

٤ - ترك العلم.

وسوف أتناول بعض أقوالهم في هذه الأمور.

١ - ترك الزواج:

لقد نهج الصوفية في قضية الزواج منهجا خاصا، ابتعد فيه أئمتهم ومشايخهم عن الزواج المأمور به شرعا، ولم يكتفوا بذلك، بل نفّروا الناس عنه بشتى الأساليب، ويرون في البعد عن الزواج، وبالتالي انعدام الذرية أفضل المسالك المعينة للصوفي، وأجمع لهمه، وألذ لعيشه، فدعوا إلى هجر الزوجة والأولاد، وذلك زهدا في الدنيا ورجاء للوصول إلى ولاية الله -حسب زعمهم-.

لذا نجدهم يعتبرون الزواج من الأمور التي تشغل المريد عن طاعة ربه، يقول الغزالي: "اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي ألا يشغل نفسه بالتزويج، فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله، شغل عن الله ولا يغريه كثرة نكاح رسول الله ﷺ"[1]!.

كما زعموا أنه يؤدي إلى الميل إلى الدنيا.

يقول أبو سليمان الداراني: من تزوّج امرأة فقد ركن إلى الدنيا[2].

كما رأوا فيه الكسل عن الكسب:

لذا ذمّ الصوفية الزواج وقلّلوا من شأنه، يقول السهروردي، وهو يذمّ الزواج وينفّر منه: "التزويج انحطاط عن العزيمة إلى الرخص ورجوع من التزوج إلى النغص، وتقييد بالأولاد والأزواج، ودوران حول مضان الاعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة"[3].

ووصفوه بأنه ملذات دنيوية تناقض ما هم عليه من محاربة الهوى ونبذ اللذات والشهوات، وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول:

---

(١) الإحياء ٣/١٠١.

(٢) الإحياء ٣/١٠١، وقوت القلوب ١/٢٥٢، وعوارف المعارف ص ١٥٢.

(٣) عوارف المعارف ص ١٥١.

" من تعوّد أفخاذ النساء لا يفلح"[1].

وتحتج الصوفية على مشروعية ترك الزواج بحديث يروونه عن رسول الله ﷺ وأنه قال: "خيركم بعد المئتين خفيف الحاذ، قيل: يا رسول الله وما خفيف الحاذ، قال: « **الذي لا أهل له ولا ولد** »"[2].

ونقل الشعراني عن بعضهم قوله: " لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب"[3]!!.

والصوفية تدعو المريد إلى التحرّز من الزواج والاشتغال بالرياضة والجوع، يقول السهروردي:

"والأولى في زماننا مجانبة التزويج، وقمع النفوس بالرياضة والجوع والسهر والسفر"[4].

---

(١) عوارف المعارف ص ١٥٣، وقوت القلوب ٢/٢٧٨.

(٢) عوارف المعارف ص ١٥٢، والإحياء ٢/٢٤، وانظر قوت القلوب ٢/٢٧٩.
وقال الحافظ العراقي عن هذا الحديث: أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة، ورواه الخطابي في العزلة من حديثه، وحديث أبي أمامة، وكلاهما ضعيف. انظر المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بهامش الإحياء ٢/٢٤.

(٣) الطبقات الكبرى ١/٤٦.

(٤) آداب المريدين للسهروردي ص ١١٤.

ومن صور تنفيرهم للزواج أيضا قول إبراهيم بن الأدهم:

"إذا تزوّج الفقير، فمثله مثل رجل قد ركب السفينة، فإذا وُلِدَ له وَلَدٌ قد غرق"(١).

ولّما كان من شأن الزواج التناسل، رأى الصوفية في ذلك -النسل- إشغالهم عن العبادة، وتنغيص الحياة عليهم، قال أبو سليمان الداراني:

"الذي يريد الولد أحمق، لا للدنيا ولا للآخرة، إن أراد أن يأكل أو ينام أو يجامع نغص عليه، وإن أراد أن يتعبّد شغله"(٢).

ويقول الداراني حول ذلك أيضا:

"العيال يضعفون يقين الرجل، إنه إذا كان وحده فجاع قنع، وإذا كان له عيال طلب لهم، وإذا جاع الطالب فقد ضعف اليقين"(٣).

ويقول سهل التستري محذّرا الشباب من مغبة الزواج:

"إياكم والاستمتاع بالنساء، والميل إليهنّ، فإن النساء مبعِّدات من الحكمة قريبات من الشيطان، وهي مصايده وحظّه من بني آدم، فمن

---

(١) اللمع ص ٢٦٥.

(٢) الحلية ٢١٤/٩.

(٣) ن.م ٢٦٠/٩.

عطف إليهن بكلية فقد عطف على حظ الشيطان، ومن حاد عنهن يئس منه. وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء، وإن الشر معهنّ حيث كنّ، فإذا رأيتم في وقتكم من قد ركن إليهنّ، فيأسوا منه"(١).

ومن زهدهم في الزواج، ذكر الطوسي أن صوفيا تزوّج امرأة، فبقيت عنده ثلاثين سنة وهي بكرا!!(٢).

ونقل الهجويري رواية لإبراهيم الخواص أنه ذهب لزيارة صوفي، فوجده وامرأته قد غلب عليهما الضعف من العبادة، فسألهما عن ذلك فقالا له: إنه مضى على زواجهما خمس وستين سنة لم يتماسا، لشغلهما في العبادة!!(٣).

ولم يكتف الصوفية بترك الزواج أو التنفير منه، بل لجأ البعض إلى جبّ أنفسهم وقد أشار الشعراني في طبقاته إلى ذلك(٤).

---

(١) غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم التفزي الرندي. ٢٠٩/١.

(٢) انظر: اللمع ص ٤٦٥.

(٣) انظر: كشف المحجوب ص ٤٣٧-٤٣٨، وأيضاً النكاح عبادة!!.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٤١/٢، والصوفي الذي جبّ نفسه وقطع ذكره هو عبدالرحمن المجذوب.

وقد قيل لبشر بن الحارث[1] أن الناس يتكلّمون فيك ، فقال : ما يقولون؟ قيل : يقولون أنه تارك للسنة ، يعني النكاح ، فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة !!.

ونقل عنه قوله : ما يمنعني من ذلك إلا آية في كتاب الله تعالى قوله : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾[2][3].

وجعل القوم الزواج من العوائق التي تقف في وجه الصوفي ، قال السهروردي :

" والتجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوقت للفقير وأجمع لهمّه ، وألذ لعيشه ، ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق ، والتنقل في الأسفار ، وركوب الأخطار ، والتجرّد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجابا"[4].

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء بن هلال المروزي ، الزاهد الجليل توفي سنة ٢٢٧هـ.

(انظر : تقريب التهذيب. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تقديم محمد عوامه. ط٤ (سوريا : دار الرشيد – ١٤١٢هـ) ص ١٢٢.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٨.

(٣) عوارف المعارف ص ١٥٢ ، وقوت القلوب ٢/٢٧٧ ، ٢٨١.

(٤) عوارف المعارف ص ١٥١.

ويحذّر المريدين من الزوج ويخوّفهم فهو يقول أيضا :

" والصوفي مبتلى بالنفس ومطالبها ، وهو في شغل شاغل عن نفسه إذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجه يضعف طلبه وتقل إرادته وتفتر عزيمته"[1].

ومّما سبق من أقوال وحكايات تتضح نظرة الصوفية للزواج وهي محاربته ونبذه والتنفير منه زعما منهم أنه يعيق المريد عن الاشتغال بطاعة الله والوصول إلى ولايته ، وما يفضي إليه من كسل في الكسب ، ولركون إلى الدنيا وملذّاتها.

ولكن بعض الصوفية بعد ما تركوا الزواج وقعوا في حب النساء الأجنبيات ومصافحتهن والنظر إليهن ومصاحبة المردان والنظر إليهم ؛ نظر عشق وحجّتهم في ذلك النظر والاعتبار لزيادة الإيمان.

فمن تهاونهم في ذلك قصة أبو بكر الزقّاق[2] ، عندما نظر إلى جارية

---

(١) ن . م ص ١٥٣.

(٢) أبوبكر الزقاق : نصر بن أحمد بن نصر الزقاق الكبير ، من أقران الجنيد ، من كبار مشايخ صوفية مصر ، لم يذكر تاريخ وفاته.

انظر : الطبقات الكبرى ١/٨٩ ، والرسالة القشيرية ص٩١ ، والحلية ١٠/٣٤٤.

حسناء في البادية فقلع عينيه[1].

وأيضا قصة أبي يزيد البسطامي مع زوجة أحمد بن خضروية، لما أسفرت عن وجهها بحضرته[2].

وذكر الشعراني عن أحدهم " أنه إذا رأى امرأة أو أمردا راوده عن نفسه وحسَّس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير ولو كان بحضرة والده أو غيره ولا يلتفت إلى الناس "[3].

وذكر أيضا أن محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني أباح النظر إلى وجوه المرد وذلك بتصنيفه رسالة في إباحة السماع والنظر إلى المرد[4].

ومّما يؤكد قيامهم بهذا السلوك إنكار القشيري عليهم عندما ذكر في سياق الحديث عن صحبة الأحداث باعتبارها آفة من آفات المريد، وقال أن من ابتلي بهذا السلوك فهو عبد مهان ومخذول وسيئ المنقلب[5].

(١) انظر: الحلية ٣٤٤/١٠.

(٢) انظر: النور من كلمات أبي طيفور ص ٧٠.

(٣) الطبقات الكبرى ١٣٥/٢، والصوفي هو علي أبو خوذة.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى ١٢٩/٢، وعيون التواريخ/ محمد بن شاكر الكبتي، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود.
(العراق: وزارة الإعلام — ١٣٩٧هـ) ٢٧/١٢ بدون رقم الطبعة.

(٥) انظر: الرسالة القشيرية ص ٥٧٧.

٢ - الجوع وتعذيب النفس:

تبعاً لنظرة الصوفية المتشائمة إلى الدنيا، فقد برزت لدى القوم طريقة خاصة في هذه المسألة، تعتمد على تقليل المطعم والمشرب، وتعريض أنفسهم للجوع المدقع، واعتمادهم للأساليب المعيشية التي تهدف إلى إيذاء النفس وتعذيبها طمعا في الأجر بزعمهم.

ولقد زعم الصوفية وخصوصا الأوائل منهم، أن الهدف الأسمى هو حرمان النفس من ملذاتها وخصوصا الطعام والشراب.

ومن هذا المنطلق بدأ الصوفية يتحدثون ويشيدون بالجوع، ويعطونه أفضلية ومزية، وبوّبوا الأبواب لَه في مؤلفاتهم في ذكر فضل الجوع والفقر، وذم الشبع والغنى. هكذا يزعمون!.

فمن أقوالهم المشهورة في هذه المسألة قول الطوسي: وكان سهل بن عبد الله كلما جاع قوى، وإذا أكل شيئا ضعف[1].

وقال الخراز: "الجوع طعام الزاهدين"[2].

وقد حرّم بعض الصوفية على نفسه أشياءً من المباحات، فترى بعضهم يمتنع عن تناول اللحم لأنه يقسّي القلب، وآخر يمتنع عن تناول

(١) انظر: اللمع ص ٢٦٩.

(٢) الطبقات الكبرى ٩٧/١.

الدهن والسمن[1].

ومنع أبو يزيد البسطامي نفسه من شرب الماء سنة[2]!.

وقال السري السقطي: أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها"[3].

ويقول أبو يزيد البسطامي: "ما أكلت شيئا مما أكل بنوا آدم أربعين سنة"[4].

ومن الأقوال التي تدل على أن المتصوفة يدعون إلى التجرد الكامل عن الأملاك وتجويع النفس قول السري السقطي: "لا يكن معك شيء تعطي منه أحداً"[5].

ويقول داود الطائي: "صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت، وفر عن الناس فرارك من السبع"[6].

كما يقول الجنيد: "ما أخذنا التصوّف عن القيل والقال، لكن عن

---

(١) انظر: الإحياء ٣/٩٠.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ص ٧٧.

(٣) الإحياء ٣/٦٧.

(٤) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٠.

(٥) عوارف المعارف ص ٩٢، اللمع ص ٢٦٢، والرسالة القشيرية ص ٦٩،

(٦) الرسالة القشيرية ص ٧٤.

الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات"[1].

وقد دعا المتصوّفة إلى الفقر ومدحوه في مصنّفاتهم، فمن أقوالهم الدالة على ذلك قول سهل التستري:

"اجتمع الخير كله في هذه الأربع الخصال، وبها صار الأبدال أبدالا وهي: إخماص البطون، والصمت، والخلوة، والسهر"[2].

والشاهد قوله: إخماص البطون الذي يعني الجوع.

وقال يحيى بن معاذ: "الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويحرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها، والزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره"[3].

وقال بشر الحافي: "أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر"[4].

وقال أبوحمزة: "إني لأستحي من الله تعالى أن أدخل البادية وأنا شبعان.."[5].

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٦.

(٢) غيث المواهب ١/٩٢-٩٣.

(٣) اللمع ص ٧٣.

(٤) كشف المحجوب ص ٩٣.

(٥) الرسالة القشيرية ص ٢٤٢.

ويقول أحمد الرفاعي : " أكره للمريد دخول الحمّام ترفها ، ولبس الثياب النقية ، البيض وأحب له : الجوع والعري والفقر والذل "[1] .

وذكر عن أبي يزيد البسطامي أنه سئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال : "ببطن جائع وبدن عارٍ "[2] .

ويقول الكلاباذي في وصف الصوفية على وجه المدح :

"أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الإخوان وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأعرّوا الأجساد "[3] .

كما ينسج بعض الصوفية بعض الحكايات والروايات حول تعذيب النفس ويتفاخرون بها ، ويعدونها طاعة وقربة وعبادة لله ، ومنها على سبيل المثال خروج إلى البادية بدون زاد ، أو خروجهم للحج منفردين كما فعل بعضهم عندما خرج حافيا مكشوف الرأس. وكان إذا دخل في رجله شوك يمسح رجله في الأرض ويمشي ولا يطأطئ إلى الأرض[4] .

وعندما تتقاعس نفوسهم عن أداء بعض العبادات ، فإنهم يعمدون

---

(١) الأنوار القدسية ١/١٣٢.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤١٩ ، والنور من كلمات أبي طيفور ص ١٥٣.

(٣) التعرّف لمذهب أهل التصوف ص ٢٧.

(٤) انظر : اللمع ص ٢٢٣. والصوفي المذكور في القصة هو حسن القزاز الدينوري.

إلى تأديبها بأشد ما يكون من العذاب ، كما فعل النوري عندما طالب نفسه بالصلاة تطوّعا لله فأبت عليه ، فحلف أن لا يقعد على الأرض أربعين يوماً إلاّ في التشهد وأدى ذلك إلى انتفاخ رجليه[1] .

ومنها قصة الشيخ الذي تكاسل عن قيام الليل ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه بالقيام عن طوع[2] .

وكذلك ما فعله الشبلي الذي ألزم نفسه ذكر الله ذات ليلة ، فوقف على شفير السطح ، وجعل رجلا على جدار السطح ، ورجلا إلى خارج وهدّد نفسه يرميها من أعلى إن نعست[3] .

وممّا سبق من أقوال يتضح أن أئمة التصوّف يعتقدون بأن الجوع والفقر وتعذيب النفس من ركائز الزهد الحقيقي عندهم ، ولا سبيل إلى الوصول إلى ولاية الله حسب زعمهم إلا بسلوك هذا الطريق .

---

(١) انظر : الحلية ١٠/٢٥١.

(٢) انظر : الإحياء ٣/٦٢ ، وينبغي أن يلاحظ أن الغزالي وكثير من مصنفي الصوفية المعتبرين غالباً ما يغفلون ذكر اسم من يروون قصصهم وأخبارهم ؛ مما يجعل صحة بعض هذه الروايات محل نظر !!..

(٣) انظر : تاريخ بغداد ١٤/٣٥٤.

٣ - التجرد من المال:

لقد ذم الصوفية المال والتكسب زهدا في هذه الدنيا، وتصرفوا فيما بين أيديهم من الأموال، بالإفساد والتضييع، وجرّدوا أنفسهم وحرموا ورثتهم منه، وزعموا في ذلك قربة وعبادة وإخلاصا لله تعالى، وفي المقابل ادّعوا أن ادخاره حجاب وعقوبة.

فقد روى عن الشبلي، أنه ألقى بأربعة آلاف دينار جمله في نهر دجلة، فقالوا له: ما تفعل؟ قال: "الحجر أولى بالماء، قالوا: لِمَ لا تعطيها الفقراء؟ قال: سبحان الله: بم احتج إلى الله في أني رفعت الحجاب عن قلبي وجعلته على قلوب اخوتي المسلمين!"[١].

ومن صور إضاعتهم للمال، روى أبو نصر السراج عن الحسين النوري، أنه حمل إليه ثلاثمائة دينار قد باعوا عقارا لَه، فجلس على قنطرة[٢] الصَّرَاة[٣] وهو يحذف بواحد واحد منها إلى الماء، ويقول:

---

(١) انظر: كشف المحجوب ص ٢٧٢.

(٢) القنطرة: جسر متقوِّس، مبني فوق النهر، يعبر عليه.

انظر: المعجم الوسيط ٢/٧٦٢.

(٣) الصَّرَاةُ: نهر ببغداد. انظر: معجم البلدان ٣/٣٩٩.

"سيدي يريد أن تخدعني عنك بهذا"[١].

وحكي عن الشبلي، أنه باع عقاراً لَه بمال كثير، فما قام من موضعه حتى نثرها وفرّقها على الناس، وكان لَه عيال لم يدفع إليهم شيئا من ذلك[٢].

ويحكى عن الشبلي أنه كان يحرق اللوز والسكر بالنار، كما يحكى عنه أيضا انه كان يلبس ثيابا مثمنة ثم ينتزعها ويضعها على النار، حتى لا تشغل قلبه عن الله -حسب زعمه-[٣].

ويرى الصوفية، أن فقدان المال أفضل من وجوده:

يقول الغزالي: "فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم، لم يشك أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صرف إلى الخيرات، إذ أقل ما فيه اشتغالهم بإصلاحه عن ذكر الله عزّ وجلّ، فينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى لَه إلاّ قدر ضرورته، فما بقي لَه درهم يلتفت عليه قلبه، فهو محجوب عن الله ﷻ "[٤].

---

(١) اللمع ص ٢٥٧.

(٢) انظر: اللمع ص ٤٨٣.

(٣) انظر: ن.م ص ٤٨٣.

(٤) الإحياء ٣/٢٧٣

والفقر من أسس التصوّف وشروطه، لأن المال -بزعمهم- يشغل السالك عن الله ويدعوه لتلبية حاجة النفس من الملذات والشهوات لذلك سمُّوا بالفقراء.

وجعلت الصوفية الفقر طريقة مثلى إلى الله تعالى، وأن ادّخار المال حاجز وعائق بين العبد وربه، كما حكى عن بعضهم أنه قال: "كنت أمشي في طريق مكّة، فإذا برجل يصيح أغثني يا رجل الله، الله! قلت مالك، مالك؟ قال خذ مني هذه الدراهم، فإنّي لا أقدر أن أذكر الله وهي معي فأخذتها منه، فصاح لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهما"[1].

وقد وصل ببعضهم إلى أن خرج من جميع أمواله، ثم يقعد على بساط الفقر يتكفف الناس، ويبقى عالة عليهم. فقد حكى السلمي عن أبي عبد الله محمد المقرئ[2]، الذي فعل ذلك بميراثه من أبيه من مال

(١) التعرّف ص ١٨٣، والقائل هو أحمد السمين.

(٢) محمد المقرئ: أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ، صحب يوسف الرازي ورويماً والجريري وابن عطاء وغيرهم، من أفتى المشايخ، مات سنة ٣٣٦هـ.
(انظر: طبقات الصوفية ص ١٢٥، والطبقات الكبرى ١/١٢٥).

وممتلكات وخرج إلى مكة منقطعا[1].

وقد احتج الصوفية على أفعالهم في التجرّد من المال والكسب بقوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[2] وعنوا بها الحجرين الذهب والفضّة[3].

كما احتجوا أيضا بأحاديث لا تثبت، تشجّع على الفقر وتحثّ على ترك المال ومنها:

قوله ﷺ لبلال: « **القَ الله فقيراً ولا تلقّاه غنياً** »[4].

ومما سبق يتبين أن التجرد من المال والأملاك، ومن التكسب الحلال؛ هو من صور الزهد المزعوم عند الصوفية.

(١) انظر: طبقات الصوفية ص ١٢٦، واللمع ص ٧٥.

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٥.

(٣) انظر: الإحياء ٣/٢٣٥.

(٤) الإحياء ٤/١٩٣، وعلّق الحافظ العراقي في تخريجه على هذا الحديث بقوله: أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال، ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ "مت فقيرا ولا تمت غنيّاً" وكلاهما ضعيف.
(انظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار بهامش الإحياء ٤/١٩٣).



٤ - ترك العلم:

للصوفية مواقف من طلب العلم الشرعي، تلاحظ من خلال قراءة سريعة لأقوال أئمتهم ومشايخهم، وهذه المواقف، إما بالتنفير وتحذير الناس من طلبه، أو العمل به، أو وصفه بأنه ركون إلى الدنيا وانحطاط من الحقيقة إلى العلم، بل وصفوه بأنه آفة من آفات المريدين.

ونجد من الصوفية، من يصرح بأن المتصوّفة لم يتعلموا العلم ولم يحرصوا على دراسته زهداً فيه، ويبرر بعدهم عن علوم الشريعة وميلهم إلى العلوم الكشفية.

يقول الغزالي: اعلم أن ميل أهل التصوّف إلى الإلهية دون التعليمية، ولذلك لم يتعلموا، ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، وذلك بأن يقطع الإنسان همّه عن الأهل والمال والولد والعلم ويخلو نفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب ولا يقرن همّه بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا يكتب حديثا ولا غيره[١].

(١) انظر: الإحياء ١٩/٣.



وحال الصوفية مع القرآن الكريم، يقتضي عدم الاهتمام به ومحاولة صد الناس عن قراءته.

فقد نقل عن الغزالي وصيته للمتصوّف بأن لا يقرن همّه بقراءة قرآن[١].

والبعض من الصوفية، آثر السماع على القرآن، بل يراه أفضل منه في بعض الحالات وأعظم تحريكا للقلب، وذكر سبعة أوجه في تعليله لذلك[٢].

وقد كان لأبي سهل الصعلوكي شيخ أبي عبد الرحمن السلمي مجلس دور القرآن وختمات غداة الجمع فألغاه. وجعل بدلا منه مجلسا للقوّال، ولما روى له تلميذه السلمي استنكار الناس لذلك، كان جواب شيخه له "من قال لأستاذه: لِمَ لمْ يفلح أبداً"[٣].

وهذا أبو الحسن الحصري[٤] أحد مشايخ الصوفية يقول عن نفسه: "كنت زمانا إذا قرأت القرآن لا استعيذ من الشيطان. وأقول: الشيطان

(١) انظر: ن.م ١٩/٣.

(٢) انظر: ن.م ٢٩٨/٣-٣٠١.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤٣٧-٤٣٨.

(٤) أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري، بصري الأصل، سكن بغداد شيخ الطرق ولسانها، توفي في بغداد سنة ٣٧١هـ (انظر: طبقات الصوفية ص ١٢٠).

حتى يحضر كلام الحق"[1].

ومن الجوانب الهامة التي تسترعي الانتباه في موقفهم من القرآن؛ كلامهم حوله بآرائهم وتفسيرهم له في مصنّفاتهم، كلطائف الإشارات للقشيري، وتفسير الحقائق للسلمي وغيرها، ومما يوضّح ذلك على سبيل المثال احتجاج بعضهم، كالسراج الطوسي للخروج من المال والتجرّد منه بالإفساد له، بقوله تعالى: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾[2].

بل إن الشبلي سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾[3] -أي أهل جهنّم- فقال: "ليتني كنت واحداً منهم"[4].

وعدّ الصوفية طلب العلم الشرعي آفة من الآفات، فقد وصف أبو بكر الورّاق كتابة الحديث والاهتمام به، بأنه من الآفات التي يجب أن يبتعد عنها المريد فقال:

(١) طبقات الصوفية ص ١٢٠.

(٢) سورة ص آية ٣٣.

(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٨.

(٤) اللمع ص ٤٩٠.

"آفة المريدين ثلاث: التزويج، وكتابة الحديث، والأسفار"[1].

كما اعتبر بعض الصوفية، طلب الحديث الشريف بأنه ركون إلى الدنيا، حيث قال: "إذا طلب الرجل الحديث وسافر في طلب المعاش أو تزوّج فقد ركن إلى الدنيا"[2].

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لو لا رغبتك في الدنيا، قال: وفي ماذا رغبت؟ قالت في الحديث"[3].

ويقول أبو الفضل الأحمدي:

"لا تقطعوا بما علمتموه من الكتاب والسنة ولو كان حقّا في نفسه"[4].

وكان بعض من طلب الحديث من الصوفية، يتعرّض لمضايقات أصحاب الصوفية وتحذيرهم إياه من طلب الحديث، يقول جعفر الخلدي: "لو تركني الصوفية لجئتكم بإسناد الدنيا. لقد مضيت إلى عبّاس الدوري وأنا حدث. فكتبت عنه مجلسا واحدا، وخرجت من

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٩٦.

(٢) الإحياء ٦١/١، ٢٤/٢، ٢٣٧-٢٢٩/٤.

(٣) الإحياء ٢٣٧/٢.

(٤) الطبقات الكبرى ١٧٥/٢.

عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية، فقال: إيش هذا معك؟ فأريته إياه فقال: ويحك تدع علم الخرق، وتأخذ علم الورق، ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي فلم أعد إلى عبّاس"[١].

ويصف الصوفية العلم بالطغيان، يقول يوسف بن الحسين الرازي[٢]:

"في الدنيا طغيانان: طغيان العلم وطغيان المال، فالذي ينجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه"[٣].

ويرى الصوفية أن اكتساب العلم بالتعلم والطلب، طريق طويل وعلمه مهما بلغ ناقص وقاصر، أمّا العلم الكامل -بزعمهم- فهو الذي يكتسبه الإنسان عن طريق القلب بواسطة الإلهام والكشف.

يقول أبو يزيد البسطامي: "ليس العالم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا، وإنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي

---

(١) تاريخ بغداد ٧/٢٢٧.

(٢) يوسف الرازي: أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي، ورافق أبا سعيد في بعض أسفاره، مات سنة ٣٣٤هـ.
(انظر ترجمته: في طبقات الصوفية ص ٤٣، والطبقات الكبرى ١/ ٩٠).

(٣) طبقات الصوفية ص ٤٥.

وقت شاء بلا حفظ ولا درس"[١].

وبيّن الغزالي الفرق بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية المزعومة بقوله:

إن علومهم -أي الصوفية- تأتي من داخل القلب من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك[٢].

ولم يكتف الصوفية بالإعراض عن علوم الشريعة والزهد فيها؛ بل تناولوا علماء الأمة الإسلامية، والطريقة التي نقلت بها السنة بالاستهزاء والسخرية.

فقد وصف البسطامي الطريقة التي نقلت بها السنة النبوية بأنها طريقة لا يسلكها إلاّ الضعفاء والمساكين، وصرّح بأن الصوفية يأخذون علمهم من الله مباشرة، يقول إبراهيم بن سبته:

"حضرت مجلس أبي يزيد والناس يقولون فلانا لقي فلانا، وأخذ من علمه، وكتب منه الكثير، وفلانا لقي فلانا، فقال أبو يزيد:

"مساكين أخذوا علمهم ميتا عن ميّت، وأخذنا علمنا عن الحي

---

(١) الإحياء ٣/٢٤، أي عن طريق الإلهام المزعوم.

(٢) انظر: الإحياء ٣/٢١.



الذي لا يموت"[1].

وهذا السراج الطوسي يهاجم الفقهاء ؛ لأن علمهم أقرب إلى حظوظ النفس ، وأن علومهم قد يحتاج إليها في العمر مرّة ، وعلوم الصوفية يحتاج إليها دائما[2].

ومن أقوال ساداتهم بطلب ترك العلم والتحذير منه ، ما نقل عن الجنيد أنه كان يقول : "المريد الصادق غني عن علم العلماء. فإذا أراد الله بالمريد خيرا ، أوقفه إلى الصوفية ، ومنعه صحبة القرّاء"[3].

وقد قال الشبلي مقلّلاً من شأن علوم الشريعة :

إذا خاطبوني بعلم الورق   برزت لهم بعلم الخرق[4].

مما سبق بيانه من أقوال يتضح موقف المتصوّفة من العلم والشريعة وعلمائها القائم على محاربته والزهد فيه ، والنيل من علماء الأمة ؛ وهو ما يشكل صورة من صور الزهد المزعوم عندهم.

---

(1) انظر : الفتوحات المكية ١/٢٨٠ ، والنور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٠ ، أي أخذوا علومهم سلفاً عن سلف ويقصد بذلك أهل السنة والجماعة ، أما الصوفية فأخذوه مباشرة من الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(2) انظر : اللمع ص ٣٦.

(3) الطبقات الكبرى ١/٨٥، أي علماء الشريعة.

(4) انظر : متصوّفة بغداد/ عزيز السيد جاسم ط٢ (بيروت : المركز الثقافي –١٩٩٧م) ص ٢٠٠ ، وعلم الخرق يختص بعلوم الصوفية المبتدعة القائمة على الكشف والإلهام.

المطلب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الزهد عند الصوفية

بعد ما عرضت أقوال وروايات الصوفية ، فيما يتعلّق بالزهد ومجالاته عندهم ، التي تطرقنا لها ؛ كنظرتهم للزواج ، وتعرّضهم للجوع وتعذيب النفس ، وتجرّدهم من الأموال والادخار ، وخروجهم للسياحة بدون زاد وراحلة ، وتركهم للعلم ومحاربته والنيل من العلوم الشرعية.

نجد في الواقع مخالفتها الصريحة لمبادئ الإسلام الحنيف وتعاليمه السمحة ؛ حيث أباح الزواج ورغّب فيه ، وأباح المال الذي فيه قوام الحياة ، ونهى عن تعذيب النفس وتعريضها للأخطار والهلاك ، ولم يأمر الإسلام بالجوع وترك الأكل والشرب لما لذلك من آثار سلبية على حياة البشر ، وترغيبهم للعلم والثناء على أهله.

وفي هذا المطلب نتناول ردود العلماء على حالات الزهد، التي سبق وأن فهمنا مراد الصوفية فيها ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قيّض لدينه في كل زمان من يذب عنه ، ولما عظمت شطحات بعض المتصوّفة في مفهوم الزهد وأخذ بعدا خطيرا عن مفهومه في الإسلام، وجّه العلماء في القرن

السادس نقدهم وإنكارهم لما عليه الفكر الصوفي بشكل عام ولبعض غلاة المتصوّفة بشكل خاص.

فإذا ما نظرنا إلى مسالة الزواج ومظاهر الزهد الصوفي فيه، نجد مخالفته الصريحة لتعاليم الإسلام، فإن من المعلوم من الدين بالضرورة مشروعية النكاح في الكتاب والسنة.

فقد أمرنا المولى جل وعلا بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿...فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾[١].

ولأهمية النكاح في الإسلام، فقد جاءت الآية الكريمة بصيغة الأمر. فهلا وعى بعض المتصوفة تلك الأهمية؟!.

وجاءت السنة النبوية حاثّة على أمر الزواج، ومرغّبة فيه، ومحذّرة من مغبة الإعراض والصد عنه، لما فيه من الضرر على الفرد والمجتمع والأمة.

قال الرسول الكريم ﷺ مخاطبا الشباب: « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء** »[٢].

---

(١) سورة النساء آية ٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فلتيزوّج ٦/١١٧.

وعن عائشة رضي اله عنها أن النبي ﷺ قال: « **النكاح من سنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوّجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء** »[١].

وقد أبان الفقهاء حكم النكاح:

ومن هؤلاء ابن قدامة المقدسي رحمه الله الذي قال: " والناس في النكاح على ثلاثة أضرب: منهم من يخاف على نفسه الوقوع في المحظور إن ترك إعفاء نفسه وصونها عن الحرام وطريقه النكاح.

الثاني: من يستحب له وهو من له شهوة يأمن معها الوقوع في محظور فهذا الاشتغال به أولى من التخلي لنوافل العبادة وهو قول أصحاب الرأي وهو ظاهر قول الصحابة رضي الله عنهم وفعلهم قال عبد الله بن مسعود: لو لم يبق من أجلي إلا عشرة أيام وأعلم أني أموت في آخرها يوما ولي طول النكاح فيهن لتزوجت مخافة الفتنة.

وقال ابن عبّاس لسعيد بن جبير: تزوّج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً. وقال إبراهيم بن ميسرة: قال لي طاووس لتنكحنّ أو لأقولنّ لك

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب النكاح؛ باب ما جاء في فضل النكاح ١/٥٩٢، رقم الحديث (١٨٤٦).



ما قال عمر لأبي الزوائد ما يمنعك عن النكاح إلا عجز أو جحود.

قال أحمد في رواية المروذي: ليست العزبة من أمر الإسلام في شيء.

وقال: من دعاك إلى غير التزويج، فقد دعاك إلى غير الإسلام، ولو تزوّج بشر فقد تم أمره.

الثالث: من لا شهوة له، إمّا لأنه لم يخلق لَه شهوة، كالعنّين، أو كانت لَه شهوة فذهبت بكبر أو مرض، ونحوه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه يستحب لَه النكاح لعموم الأدلّة المتقدّمة الآمرة بالزواج.

الثاني: التخلّي عن النكاح أفضل لأنه لا يحصل مصالح النكاح ويمنع زوجته من التحصين ويضر بها بحبسها على نفسه، ويعرض نفسه لواجبات وحقوق لعله لا يتمكن من القيام بها ويشتغل عن العلم والعبادة بما لا فائدة فيه، والأخبار تحمل على من لَه شهوة كما فيها من القرآن الدالة عليها"[1].

وذهب المازري في حكم النكاح إلى وجوبه في حق من لا ينكف عن الزنا إلا به وتحريمه في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق مع عدم

---

(١) المغني ٤٤٦/٦-٤٤٨.

قدرته عليه وتوقانه إليه، والكراهة في حق مثل هذا حيث لا إضرار بالزوجة، وإن انقطع بذلك عن شيء من أفعال الطاعة من عبادة أو اشتغال بالعلم اشتدت الكراهة[1].

وقال القاضي عياض في حكم النكاح:

النكاح مندوب في حق كل من يرجى منه النسل، ولو لم يكن لَه في الوطء شهوة، وكذا في حق من لَه رغبة في نوع من الاستمتاع بالنساء غير الوطء، وأما من لا نسل له ولا أرب لَه في النساء ولا في الاستمتاع فهذا مباح في حقه إذا علمت المرأة بذلك ورضيت، وهو واجب في حق من لا ينكف عن الزنا إلاّ به[2].

وعندما أعرض بعض الصوفية عن الزواج زهدا فيه، وزعما أنه شاغل لهم عن طاعة الله وعبادته وعائق للوصول إلى ولاية الله.

أنكر عليهم العلماء مزاعمهم الباطلة، وردوها بالأدلة القاطعة من الكتاب والسنة.

---

(١) انظر: المعلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن علي المازري تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر ط٢(بيروت: دار الغرب الإسلامي – ١٩٩٢م) ٨٥/٢، وفتح الباري ١٣/٩، ونيل الأوطار ٥١٣/٦.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٥٢٢/٤.

وعلى رأس هؤلاء العلماء ابن الجوزي الذي أطال النفس في الرد عليهم في هذه المسألة، فقال عن قدمائهم: "... فقدماؤهم تركوا ذلك تشاغلا بالتعبّد، ورأوا النكاح شاغلا عن طاعة الله ﷻ".

ثم يقرر بأن "هؤلاء إن كانت لهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع تشوق إليه، فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم، وإن لم يكن بهم حاجة فاتتهم الفضيلة"[1].

وعندما ادّعوا أن النكاح يوجب الميل والركون إلى الدنيا، استنكر -رحمه الله- هذا القول قائلا: "وما أرى هذه الأوضاع إلا على خلاف الشرع"[2].

وقال -رحمه الله- عن متأخريهم الذين تركوا النكاح، إنما ذلك مراءاة الخلق وحفظ ناموسهم بين العوام وانحطاط رتبتهم بين الجماهير إذا تزوّجوا.

يقول ابن الجوزي: "أما جماعة من متأخري الصوفية، فإنهم تركوا النكاح ليقال: زاهد والعوام تعظم الصوفي إذا لم يكن له زوجة،

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٤.

(٢) ن. م ص ٢٩٥.

فيقولون: ما عرف امرأة قط. وهذه رهبانية[1] تخالف شرعنا"[2].

وانتقدهم ابن عقيل بشدة في هذا الجانب متسائلا: "ما أدري ما اقول في هؤلاء المتشدقين[3] في الشريعة بما لا يقتضيه شرع ولا عقل، يقبحون أكثر المباحات ويبجلون تاركها حتى تارك التأهل والنكاح، والعبرة في العقل والشرع إعطاء العقل حقه من التدبر والتفكر والاستدلال والنظر والوقار والتمسك والإعداد للعواقب والاحتياط بطريقة هي العليا يخص بها الأعلى الأعزّ الأكرم"[4].

وردّ ابن الجوزي على أبي حامد الغزالي في نصحه للمريد أن لا يشغل نفسه بالزوجة قائلا: " وإنني أعجب من كلامه. أتراه ما علم أن من قصد عفاف نفسه ووجود ولدا وعفاف زوجته، فإنه لم يخرج عن

---

(١) رهبانية: ترك النكاح والعمل، والتفرغ للعبادة (معجم لغة الفقهاء ص٢٠٣) وكل من يدعي الرهبانية التي لم يقرها الإسلام، يعتبر مبتدعاً؛ لأنه أتى في الدين بما ليس فيه.

(٢) ن. م ص ٢٩٥.

(٣) تشدَّق: الشِّدْقُ: جانب الفم، ومعنى تشدَّقَ، أي لوى شدقه بكلام يتفصَّح. انظر: المعجم الوسيط ٤٧٦/١.

(٤) الآداب الشرعية ٢٢٨/٣.

جادة السلوك، أو يرى الأنس الطبيعي بالزوجة ينافي أنس القلوب بطاعة الله تعالى، والله تعالى قد منّ على الخلق بقوله: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

وفي الحديث الصحيح عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال له: « **هلا تزوجّت بكراً تلاعبها وتلاعبك** »[2].

وما كان بالذي ليدله على ما يقطع أنسه بالله تعالى. أترى رسول الله ﷺ لما كان ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشة رضي الله عنها. أو كان خارجاً عن الأنس بالله. هذه كلها جهالات بالعلم"[3].

وعندما زعم بعض الصوفية أن قطع العلائق ومحو العوائق من شأنه صفاء القلب وتخلي العلوم فيه ومرادهم في ذلك بترك الزواج والتعلق بالزوجة والولد. ردّ مزاعمهم تلك ابن العربي المالكي من العلماء في القرن السادس قائلا:

"وكيف يدّعي أحد قطع علائق ربطها الله قبل، ولم يأذن بحلها، وكان النبي ﷺ يشدها، ويحثّ على النكاح، وعلى انتقاء الأبكار، لا

(١) سورة الروم آية ٢١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب تزويج الثيبات ١٢٠/٦ بلفظ قريب.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٩٥.

انتفاء الأفكار"[1].

وعندما جبّ بعض الصوفية أنفسهم رغبة في الإعراض عن الزواج وعدم الولد ردّ ابن الجوزي عليهم هذا السلوك الخاطئ قائلا:

"قد حمل الجهل أقواما فجبّوا أنفسهم وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى. وهذه غاية الحماقة؛ لأن الله تعالى شرّف الذكر على الأنثى بهذه الآلة، وخلقها لتكون سببا للتناسل، والذي يجبُّ نفسه، يقول بلسان الحال: الصواب ضد هذا، ثم قطعهم الآلة لا يزيل شهوة النكاح من النفس، فما حصل لهم مقصودهم"[2].

وقال القاضي عياض: قد نهى الشارع عن الخصاء والتبتل والانقطاع عن النكاح، وترك النسل الذي حض -عليه الصلاة والسلام- على تكثيره، وإبطال الحكمة في خلق ذلك العضو، وتركيب الشهوة فيه لبقاء النسل، وعمارة الأرض، وذر عباد الله فيها ليبلوا كيف يعملون، وليعبدوه جلّ اسمه، وتغيير خلق الله، وإفساد خاصية الذكورية"[3].

(١) العواصم من القواصم ص ٣٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٦.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٥٣٣/٤.

وعندما ترك بعض الصوفية الزواج، ونفّروا الناس منه بدعوى الزهد المزعوم والوصول إلى ولاية الله، جرّهم ذلك إلى انحراف في السلوك، فقد هربوا مما هو مشروع، ووقعوا فيما هو محذور شرعا، من ملامسة النساء الأجانب ومصاحبتهن والنظر إليهن ومصاحبة المردان والنظر إليهم نظر عشق.

وقد أنكر عليهم ذلك، العلماء، وعدّوا ذلك سلوكا شائنا يحط من قدر سالكه ويهوي به إلى مهاوي الردى والرذيلة.

فقد تحدث ابن عقيل على سبيل الذم عن مصاحبة الصوفية للنساء والمردان قائلا: " واستمالوا النسوة والمردان بتصنع الصور واللباس، فما دخلوا بيتا فيه نسوة إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن "[١].

ثم ذكر مصاحبتهم ومخالطتهم للنساء الأجانب وذلك بأنهم:

" ينصبون لذلك حجة الباسهن الخرقة" ويعتذرون لشيوخهم إذا خلا أحدهم بامرأة ويقولون: "هي بنته وقد لبست الخرقة".

وعلى هذا " قد أجازوا لبس النساء الخرقة من الرجال الأجانب "[٢].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٧٢.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦.

ويذكر رحمه الله على سبيل الذم مجلسا من مجالس هؤلاء المبتدعة وحالهم فيه مع النساء، وما يقع من المفاسد قائلا:

" إذا حضروا السماع والطرب فربما جرى في خلال ذلك مغازلات واستخلاء بعض الأشخاص ببعض، فصارت الدعوة عرسا للشخصين، فلا يخرج إلا وقد تعلّق قلب شخص بشخص، ومال طبع إلى طبع، وتتغير المرأة على زوجها. فإن طابت نفس الزوج سمي بالديوث[١] وإن حبسها طلبت الفرقة إلى من تلبس منه الرقعة، والاختلاط بمن لا يضيق الخناق، ولا يحجر على الطباع. ويقال: تابت فلانة، وألبسها الشيخ الخرقة، وقد صارت من بناته"[٢].

وقد نقل ابن الجوزي على سبيل الإنكار والذم بعض ما شاهده في عصره من سلوكيات خاطئة لبعض الصوفية، وعلق عليها بقوله:

" وقد رأينا أقواما منهم يصافحون النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم لا يصافح المرأة[٣].

---

(١) الديوث: من لا يغار على أهله – القوّاد على أهله. معجم لغة الفقهاء ص١٨٩.

(٢) ن. م ص ٣٧٦.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ٣٥٧/٦، والحديث بمعناه عن أميمة بنت رقيقة –رضي الله عنها-.

وبلغنا عن جماعة منهم أنهم يؤاخون النساء ويخلون بهن، ثم يدّعون السلامة، وقد رأوا أنهم يسلمون من الفاحشة، وهيهات. فأين السلامة من آثم الخلوة المحرّمة والنظر الممنوع منه. وأين الخلاص من جولان الفكر الرديء؟"[1].

وقد ردّ محمد بن عبد الله العامري[2] على سلوك بعض الصوفية في الخلوة بالنساء الأجنبيات والنظر إليهن بدعوى الزهد والصلاح وعدَّ ذلك من المحرّمات قائلاً :

"إن الذي أجمعت عليه الأمة واتفق على تحريمه علماء السلف والخلف من الفقهاء والأئمة هو نظر الأجانب من الرجال والنساء بعضهم إلى بعض....، والنظر والخلوة محرم على هؤلاء عند كافة المسلمين لا يباح بدعوى زهد وصلاح ولا توهّم عدم آفة ترفع عنهم

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٦٨.

(٢) هو أبوبكر، محمد بن عبدالله بن أحمد بن حبيب العامري المعروف بابن الخباز، ولد سنة ٤٦٩هـ من مصنفاته: أحكام النظر إلى المحرمات، وشرح كتاب الشهاب. توفي سنة ٥٣٠هـ.

انظر: ترجمه في البداية والنهاية ٢١١/١٢، الكامل في التاريخ ٣٥٦/٨، المنتظم ٣١٧/١٧.



الجناح، إلا في أحوال نادرة من ضرورة أو حاجة"[1].

أمّا النظر إلى المردان ومصاحبتهم الذي صار من سلوكيات بعض الصوفية بدعوى النظر والاعتبار والاستدلال على وجود الله فقد لاقى ذلك ردودا حازمة من علماء القرن السادس.

فذكر ابن الجوزي، أن صحبة الأحداث أقوى حبائل إبليس التي يصيد بها الصوفية، ونقل عن أبي سعيد الخراز الصوفي قوله: "قلّ من يتخلص منها من الصوفية"[2].

وعندما زعم الصوفية أنهم لا ينظرون إلى الأمرد نظرة شهوة، وإنما ينظرون إليهم نظر اعتبار، فلا يضرّهم ذلك شيئا لعصمتهم، ردّ ابن عقيل عليهم مزاعمهم قائلا: "كل من قال أنا أجد من الصور المستحسنة عبراً كذبناه، وكل من ميّز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا بالدعوى كذبنا، وإنما هذه خدع الشيطان للمدعين"[3].

---

(١) أحكام النظر إلى المحرّمات/ أبي بكر محمد بن عبد الله العامري، تقديم وتعليق وتخريج أحاديث مشهور حسن سليمان، ط٢ (بيروت: دار ابن حزم – ١٤١٨هـ) ص ٣٢-٣٣.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٦٩.

وقال ابن الجوزي في ذم الصوفية : " وبلغني عن هذه الطائفة التي تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد وربما زينته بالحلي والمصبغات من الثياب والحواشي ، وتزعم أنها تقصد به الازدياد في الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع ، وهذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم. قال الله تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[1] وقال ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[3]، فعدلوا عما أمرهم الله به من الاعتبار إلى ما نهاهم عنه ، وإنما تفعل هذه الطائفة ما ذكرناه بعد تناول الألوان الطيبة والشهية ، فإذا استوفت منها نفوسهم طالبتهم بما يتبعها من السماع والرقص والاستمتاع بالنظر إلى وجوه المرد ، ولو أنهم تقللوا من الطعام لم يحنوا إلى سماع ونظر "[4].

وقد فنّد ابن الجوزي مزاعم الصوفية واحتجاجهم ببعض الأحاديث

(١) سورة الذاريات آية ٢١.

(٢) سورة الغاشية آية ١٧.

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٥.

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٦٨.

التي جعلوها مستندا لهم في هذه المسألة.

وبيّن رحمه الله أنها أحاديث موضوعة ومكذوبة على رسول الله ﷺ ولا أصل لها في الشرع[1].

وشدّد الحافظ أبو بكر محمد العامري رحمه الله الإنكار على الصوفية في إباحتهم النظر إلى المرد والنسوان قائلا :

" وبعد هذا التقرير والبيان من الكتاب والسنة الصحيحة وإجماع أئمة الإسلام لا يجوز لوالي ناحية ولا سلطان أن يقارّ المدعى للزهد والفقر والتصوّف مع جهله التام أن يستغوي بناموسه وتلبيسه الشباب من السوادية ، للأغنام ، وبعض النسوان بالاجتماع في مجلس واختلاط بينهم في عشرة أو سماع بنفوس جاهلة وقلوب غافلة وتملئ من الطعام لا يثور منها إلا الشهوة والهوى ، وليس هناك وازع من دين أو علم أو تقوى ، ويوهمهم ذلك الشيخ الملبس والمدعي المتنمس ما أوهمه إبليس وعليه وعلى أمثاله يلبس أن القلب السليم وليس فيه غش ولا معصية ، فلا يضر هذا الحضور والاجتماع ، ولا يدري أن القلب السليم في حالة يعرض له السقم في حالة أخرى ، والباطن الذي يزعم أن لا غش فيه

(١) انظر : تلبيس إبليس ص ٢٦٦.

ولا فتنة إذا قارن أسباب الفتنة افتتن، وإذا قرب من البلاء وقع في المحن، قال النبي ﷺ: « **وأن من يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه** »[1].

فيكون مثل هذا الجاهل كمن جمع بين البارد والحلفاء[2]، وزعم أنه لا يحترق، ومثل زنديق يقول: أنا اشرب الخمرة ولا تضرني، كما تضر العوام، فيتوجه نحو هذه الطائفة الضالة (أي الصوفية) في دعواها المارقة عن الشريعة والدين لجهلها وعماها الردع والتعزير من السلطان والإمام والزجر والهجران والنكير من الخاص والعام"[3].

وسخر ابن الجوزي من مسلك الصوفية الخاطئ في الاعتقاد بالنظر للمرد قائلا:

لقد بلغني عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع في وجوه المردان وينظرون إليهم، فإذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل، فقالوا يعتبر بخلق الله!!!! هيهات!.

---

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ١/١٩، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩، رقم الحديث (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) الحلفاء: الأمة الصخّابة. انظر المعجم الوسيط ١/١٩٢.

(٣) أحكام النظر إلى المحرّمات/ للعامري ص ٨١-٨٣.

لقد تملّك الشيطان تلك الأزمة فقادها إلى ما أراد"[1].

هذه ردود العلماء التي أنكرت على الصوفية المبتدعة نظرتهم للزواج وإباحتهم النظر إلى المحرمات من النساء الأجانب والمردان.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بغض الأبصار عن كل ما هو سبب للفتنة سواء كان امرأة أو شابا أو أمردا، يخاف من النظر عليه الوقوع في الفتنة قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[3].

وكل دعوة للعزوبة هي دعوة لإفساد حكمة الله تعالى التي ارتضاها لعباده وجعل من الزواج سكنا للنفس وسبيلا إلى الرحمة والمودة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4].

---

(١) صيد الخاطر ص ١٥٣.

(٢) سورة النور آية ٣٠.

(٣) سورة النور آية ٣١.

(٤) سورة الروم آية ٢١.



وقال عزّ من قائل: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1].

وفي الحديث الشريف قوْلـه ﷺ: « **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة** »[2].

وفي الحقيقة التي لا مراء فيها أن سلوك بعض الصوفية من خلال أقوالهم التي تفضي إلى ترك الزواج ومحاربته والإعراض عنه، وإباحتهم لمصاحبة النساء الأجانب والنظر إليهن وإلى المردان؛ مسألة خطيرة للغاية، ويظهر منها دعوة خفية خبيثة للقضاء على النسل وإشاعة الشذوذ بين الناس، حتى إذا تحققت هذه الدعاوي يصبح انتشار الرذيلة الخلقية، وتفشي ظاهرة الزنا والممارسات الجنسية الشاذة في المجتمع أمر حتمي يهدم بنيانه، ويصبح مجتمعها متهتكا متهالكا هزيلا تفشى فيه الرذائل والفواحش والأمراض والأوبئة مما يفضي إلى ضعف كيان الأمة وتفكك أفرادها حتى تصبح لقمة سائغة لأعدائها الحاقدين الذين يتربصون بها الدوائر.

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٧.

(٢) انظر: سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب أفضل النساء ١/٥٩٦، رقم الحديث (١٨٥٥) ولفظه (إنما الدنيا متاع. وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة).



فهل وعى الصوفية ودعاة الاختلاط والحرية هذه المآسي وأدركوا خطرها على الأمة؟!!.

وعندما أقدم الصوفية على تعذيب أنفسهم، وتعريضها للمخاطر، إمّا بالجوع وعدم الأكل والشرب، أو الخروج إلى البادية بدون زاد، أو تأديب أنفسهم عند التقاعس عن أداء العبادات، مدّعين في ذلك تقرّبا إلى الله والوصول إلى ولايته، وعند عرضنا لهذه السلوكيات على الكتاب والسنة، نجد مخالفتها الصريحة لمبادئ الإسلام الذي دعا إلى العمل، وأباح ادخار الشيء اللازم للقوت، ونهى عن تعذيب النفس وتكليفها ما لا تطيقه، وهذا فيه أيضا حرمان للنفس مما أحلَّ الله لها، وتجويعها حتى تضعف عن القيام بالواجبات الشرعية مخالفة للمنهج الصحيح الذي دعا إليه الإسلام ومعلم البشرية المصطفى الكريم ﷺ. فالله جلّ وعلا لم يأمرنا بأن نمتنع عن الأكل والشرب وتجويع النفس؛ إلا في أيام مخصوصة عبادة وتقربا له سبحانه، وقد أحل الله لنا الطيبات من الرزق قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٢.

كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

في حديث الثلاثة الذين تقالُّوا عبادتهم، وأرادوا القيام بعبادات أكثر نهاهم الرسول ﷺ عن ذلك.

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه (أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ فقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لـه، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**)[2].

فتعذيب النفس بأنواع العذاب كما هي الحال عند بعض الصوفية؛ ليس من سنة الرسول ﷺ، وما دام الأمر كذلك؛ فلم يعد هذا السلوك عملا مشروعا، وما لم يكن عملا مشروعا؛ فهو من الأمور المبتدعة في

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٦/١١٦.

الدين التي تعرض صاحبها للضلال والانحراف عن الطريق الذي سار عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون وسلف هذه الأمّة.

وقد وقف العلماء في وجه هؤلاء المبتدعة الصوفية وواجهوا هذه البدع بالإنكار والرد.

وممّن شدّد الإنكار عليهم في هذه الأمور، وأطال النفس في ذلك ابن الجوزي.

فعندما حرّم الصوفية على أنفسهم المطاعم والمشارب، وتكليف ما لم يشرعه الله سبحانه، ولم يأمر به الرسول ﷺ من العبادات، انتقدهم رحمه الله قائلا: " وقد بالغ إبليس في تلبيسه على قدماء الصوفية فأمرهم بتقليل المطعم وخشونته ومنعهم من شرب الماء البارد" وما كان في القوم من يبقى الأيام لا يأكل إلى أن يضعف قوته"، وفيهم "من يتناول كل يوم الشيء اليسير الذي لا يقيم البدن"، "وقد كان بينهم قوم لا يأكلون اللحم" إلى أن قال رحمه الله: وهذا الذي نهينا عنه من التقلل الزائد الحد، قد انعكس في صوفية زماننا -القرن السادس- فصارت همتهم في المأكل كما كانت همة متقدميهم في الجوع"[1].

(١) تلبيس إبليس ص ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٢١.

وقال رحمه الله في معرض ردّه على المتصوّفة الذين منعوا أنفسهم أكل اللحوم بحجة الزهد، فبيّن: أن الامتناع عن أكل اللحم إنما هو من مذهب البراهمة[1] الذين لا يرون ذبح الحيوان، وليس من الإسلام في شيء وإن الله سبحانه وتعالى أعلم بمصالح الأبدان، فأباح اللحم لتقويتها، فأكل اللحم يقوي القوة، وتركه يضعفها، ويسيء الخلق، وقد كان الرسول ﷺ يأكل اللحم، ويحب الذراع من الشاة"[2].

وحذّر ابن الجوزي من الاقتداء بجهال المتصوفة الذين تركوا الدنيا على زعمهم من التقلل من الطعام أو ترك الشهوات، وما وضعوه من أمور بدعية، نتيجة قلة علمهم بالشريعة، فأداموا الصيام والسهر والتقلل والمآكل الرديئة التي أدت إلى أمراض المعدة".

ثم قال: " أما نرى زهاد زماننا -القرن السادس- إلا من عصمه الله باتباع السنة يغشاهم أبناء الدنيا والظلمة، فلا ينهونهم عما هم فيه إلا

(١) البراهمة: ديانة هندية، انتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهم، ينكرون النبوات أصلاً ويزعمون أن العقل يُغني عن الوحي، وهم يعبدون البقر، أكثرهم على منهب الصابئة ومناهجها. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/٢٥٠ وما بعدها، ومعجم ألفاظ العقيدة ص٦٦.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢١٢، وهذا فيه دلالة على مدى تأثرهم بالديانة الهندية.

بطرف اللسان؟ أين هؤلاء من سفيان حيث كان لا يكلّم من يكلم ظالما؟، ولو قيل لزهاد زماننا: اخرجوا فاشتروا حاجة من السوق صعب عليهم حفظا لرياستهم، كأنهم ما علموا أن رسول الله ﷺ كان يشتري حاجته ويحملها بنفسه".

ثم قال: أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيهتدي بها المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المزهد"[1].

ولما منع أبو يزيد البسطامي نفسه شرب الماء سنة عقابا لها ردَّ ابن عقيل عليه فعله قائلاً:

" وليس للناس إقامة العقوبات ولا استيفاؤها من أنفسهم يدل عليه أن إقامة الإنسان الحد على نفسه لا يجزئ، فإن فعله أعاده الإمام، وهذه النفوس ودائع لله عز وجل حتى أن التصرّف في الأموال لم يطلق لأربابها إلا على وجوه مخصوصة"[2].

وكذلك ذم ابن الجوزي أبا يزيد البسطامي على فعله ومعاقبته نفسه بترك الماء سنة قائلاً:

" بأنها حالة مذمومة لا يراها مستحسنة إلا الجهّال، ووجه ذمها إن

(١) الآداب الشرعية ٢/٢٤٣-٢٤٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢١٧.



للنفس حقاً، ومنع الحق مستحقة ظلم، ولا يحل للإنسان أن يؤذي نفسه"[1].

كما انتقد رحمه الله الشبلي عندما وقف على شفير السطح، وهدّد نفسه قائلا: "هذا الرجل قد جمع بين شيئين لا يجوزان:

أحدهما: مخاطرته بنفسه، فلو غلبه النوم فوقع كان معينا على نفسه.

والثاني: أنه منع عينه حظها من النوم"[2].

ورد ابن الجوزي على الصوفية الذين يجوّزون المشي حفاة، مدعين بذلك زهدا وتقربا إلى الله قائلا:

" واعلم أن هذه الأحاديث -يعني الواردة في المشي حافيا- من الموضوعات التي قد تنزه الشريعة عن مثلها، فإن المشي حافيا يؤذي العين والقدم، ولا يمكن معه توقي النجاسات، وقد رأينا من طلاب العلم من يمشي حافيا عملا بهذه الأحاديث الموضوعة ولو علم أن هذا لا يصح، وأنه يحتوي على شهرة زهد، لم يفعل فلله در العلم"[3].

وقال رحمه الله: " انظروا إلى ما يصنع الجهل بأهله وليس من طاعة

---

(١) ن.م ص ٢١٧.

(٢) ن.م ص ٣٥٩.

(٣) الموضوعات لابن الجوزي ١/٣٥٣.

الله تعالى أن يقطع الإنسان تلك البادية حافيا، لأنه يؤذي نفسه غاية الأذى، ولا مكشوف الرأس، وأي قربة تحصل بهذا...، فمن ذا الذي أمره ألا يخرج الشوك من رجله وأي طاعة تقع لهذا، ولو أن رجله انتفخت بما يبقى فيها من الشوك، وهلك كان قد أعان على نفسه...، وأين التوكّل من هذه الأفعال المخالفة للعقل والشرع؛ لأنهما يقضيان بجلب النافع للنفس ودفع المضار عنها"[1].

ونقل ابن الجوزي إنكار محمد بن كثير الصنعاني[2] عندما سأل عن الزهاد الذين لا يتزودون ولا ينتعلون ولا يلبسون الخفاف.

فقال: "سألتني عن أولاد الشياطين، ولم تسألني عن الزهاد فقلت له: فأي شيء الزهد. قال: التمسك بالسنة والتشبه بأصحاب النبي ﷺ "[3].

ويعجب ابن عقيل، من سلوك بعض المتصوّفة في الزهد وتعريض أنفسهم للجوع قائلا: ما أعجب أموركم في التدين إما أهواء متبعه أو

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) الصنعاني: هو محمد بن كثير بن أبي عطاء، أبو يوسف الصنعاني ثم المصيصي، صدوق، كثير الغلط توفي سنة ٢١٦هـ.

(انظر: تقريب التهذيب ص ٥٠٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/٣٨٠).

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٠٢.

رهبانية مبتدعة؛ بين تجرير أذيال المرح في الصبا واللعب، وبين إهمال الحقوق وإطراح العيال واللحق بزوايا المساجد، فهلا عبدوا على عقل وشرع؟!"[1].

وذمّ ابن عقيل للصوفية؛ لأنهم لاذوا بزوايا المساجد، وتركوا طريق السلف الصالح من التصرّف بما يستعينون به على قضاء حوائجهم وما يعينون به أحوالهم وأهلهم حتى يغنوا أنفسهم عن مذلة سؤال الناس أعطوهم أم منعوهم.

ولّما كان من مظاهر الزهد عند بعض الصوفية التجرد من المال، والخلاص منه والنظر إلى حلاله وحرامه على أنه شر وخطر، حتى آل ببعضهم إلى تحريم المكاسب، فهذا عمل غير مشروع وهو مبتدع يصادم ما دعت إليه الشريعة، فالمال هو عصب الحياة وزينتها، وشرفه الله ﷻ وعظّم قدره وأمر بحفظه؛ إذ جعله قواما للآدمي، قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

وما جعله قواما للآدمي الشريف فهو شريف قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾[3].

(١) تلبيس إبليس ص ١٥٢.

(٢) سورة الكهف آية ٤٦.

(٣) سورة النساء آية ٥.



ومن علو شأنه أن نهى الله سبحانه أن يسلم إلى غير رشيد. قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[1].

ومدحه المصطفى الكريم ﷺ بقوله: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"[2].

وقد صحّ عنه ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال، قال لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس"[3].

وقد أنكر العلماء على بعض الصوفية تجرّدهم من المال وإضاعته بحجة الزهد فيه والتوكّل على الله بكل أمورهم.

وقد رفض ابن الجوزي هذه التصرفات الصوفية الرعناء الخاطئة، قائلا: كان إبليس يلبس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد، فيريهم عيب المال، ويخوفهم من شره فيتجردون من الأموال وجلسوا على

(١) سورة النساء آية ٦.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ٤/١٩٧، ٢٠٢، وراوي الحديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث ٣/١٢٥٠-١٢٥١. رقم الحديث (١٦٢٨).

بساط الفقر، وكانت مقاصدهم صالحة وأفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم"[1].

ويؤكد رحمه الله على أن ما يحتجون به من أدلة إما أنه لا يصح الاحتجاج بها كالأحاديث الضعيفة.

وإما أنهم لم يفهموا مراد تلك النصوص، ففهموها على وجه خاطئ وبنوا التصوّرات الخاطئة عليها. مثل فهمهم للأحاديث الواردة في ذم الدنيا.

ويؤكد ابن الجوزي أن أساس نظرتهم الخاطئة هذه جهلهم وبعدهم عن العلم، وأن إبليس لبس على بعضهم فأراهم أن المقصود ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح"[2].

وعندما زهدوا في المال وتجردوا منه زعما منهم بكراهية الدنيا ردَّ ابن عقيل عليهم بقوله: "من قال إني لا أحب الدنيا فهو كذّاب"[3].

وبيّن رحمه الله أن هجران الدنيا في عصره، بما تفعله الصوفية ليس

(١) تلبيس إبليس ص ١٧٦.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٣.

(٣) صيد الخاطر ص ١٥٣.

من الزهد في شيء، قال: "إن هجران الدنيا في عصرنا هذا -القرن السادس- ليس من الزهد في شيء، ويضع قاعدة للتفرقة بين الدنيا المذمومة وغيرها فيقول: "ماقطع عن الله وحمل النفس على محارم الله، فهو الدنيا المذمومة، وإن كان إملاقا وفقرا، وما أوصل إلى طاعة الله فذلك ليس بالدنيا المذمومة وإن كان إكثارا وقال: الواجب شكرها من حيث هي نعمة الله وطريق إلى الآخرة وذريعة إلى طاعة الله"[1].

وفي ذلك ردٌّ على بعض الصوفية، الذين آثروا القعود والتكاسل عن طلب الرزق، وأقدموا على ذم الدنيا زهدا فيها حسب زعمهم.

وعندما وجدنا بعض الصوفية يتجرَّدون عن المال وعن كسب الرزق على الوجه المشروع؛ نجدهم قد عكسوا ذلك الاتجاه إلى اتجاه آخر منه الذل والإهانة، حيث لجأ متأخروهم إلى استجداء عواطف الناس وتكففهم، وهذه مفارقة عجيبة يقارن ابن الجوزي بين حال متقدميهم وحال متأخريهم على سبيل النقد والذم، يقول:

"كان أوائل الصوفية يخرجون من أموالهم زهدا فيها. وذكرنا أنهم قصدوا بذلك الخير إلا أنهم غلطوا في هذا الفعل... فأمّا متأخروهم فقد

(١) الآداب الشرعية ٢/٢٣٣.

مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان، إيثارا للراحة وحبا للشهوات. فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل ويجلس في الرباط أو المسجد، ويعتمد على صدقات الناس وقلبه معلّق بطرق الباب... ولا يبالون من بعث إليهم. فربما بعث الظالم والماكس فلم يردوه. وقد وضعوا في ذلك بينهم كلمات منها: تسمية ذلك بالفتوح ومنها أن رزقنا لا بد أن يصل إلينا، ومنها: أنه من الله فلا يرد عليه ولا يشكر سواه"[١].

وقد وصفهم ابن الجوزي وصفا دقيقاً فقال عن بعضهم: " ينقطع عن المعاش فيبقى كلاً على الناس يستعطيهم ويعتقد أنه على الفتوح[٢] وقلبه متعلق بالخلق وطمعه ناشب فيهم. ومتى حرك بابه نهض قلبه وقال: رزق قد جاء"[٣].

ونقل ابن الجوزي ردَّ الإمام أحمد بن حنبل على من يكنف عن طلب الرزق ووصفه لَه بالجهالة، قال: قيل لأحمد: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئا ومتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: « **إن الله جعل**

(١) تلبيس إبليس ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) الفتوح: عبارة عن حصول شيء مما لم يُتوقَّع ذلك منه. التعريفات: ص٢١٢.

(٣) صيد الخاطر ص ٦١.

رزقي تحت ظل رمحي »[١].

وقال حيال ذكر الطير: "تغدو خماصاً وتروح بطاناً"[٢].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم والقدوة بهم"[٣].

وهذا فيه ردٌّ كاف على بعض الصوفية الذين قعدوا في زواياهم وأربطتهم وتكاسلوا عن كسب الرزق.

وقال رحمه الله في معرض رده عليهم: " أين هؤلاء من الأنفة من الميل للدنيا، فإن النبي ﷺ قال: « **فإن اليد العليا خير من اليد السفلى** »[٤] واليد العليا هي المعطية هكذا فسّره العلماء وهو الحقيقة،

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ٥٠/٢، وراوي الحديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنه-.

(٢) انظر: سنن الترمذي، أبواب الزهد، ٤/٤ رقم الحديث (٢٤٤٧) وسنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب التوكّل واليقين، ١٣٩٤/٢، رقم الحديث (٤١٦٤) والراوي عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه-، وتغدو: أي تخرج من أول النهار بكرة، وخماصاً: أي جياعاً، جمع خميص، وتروح: أي آخره عشاءً، وبطاناً: أي ممتلئة الأجواف جمع بطين. انظر لسان العرب ٢١٩/٤.

(٣) الآداب الشرعية ٢٦٩/٣-٢٧٠.

(٤) والحديث في صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس رقم (١٠٤٢) والحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وقد تأوّله بعض القوم فقال العليا هي الآخذة [1]، قال ابن قتيبة: ولا أرى هذا إلا تأويل قوم استطابوا السؤال"[2].

وحذّر ابن الجوزي من المتصوّفة الذين انصرفوا وأعرضوا عن الدنيا زهدا فيها بزعمهم قائلا:

" واحذر من الاقتداء بجهّال المتصوفة والمتزهدين الذين تركوا الدنيا على زعمهم. فاالصادق منهم في تركها عامل بواقعه لا بالعلم، والمبهرج منهم خسر الدنيا والآخرة"[3].

إن الدعوة إلى البطالة والكسل وترك العمل، وتبديد الأموال دعوة خطيرة، فيها تعطيل لإعمار الأرض، ومخالفة لروح الإسلام، فالإسلام دين العمل.

والدعوة إلى ترك العمل دعوة إلى الفقر والتخلّف والضعف، لأن المال وطلب الرزق من مقومات الحياة الشريفة للإنسان، إذ هما من أسباب القوة والمتعة والعزّة.

وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن السؤال ما دام المرء قادرا على

(١) انظر: قوت القلوب ٢/٢٣٣.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٨٥.

(٣) الآداب الشرعية ٢/٢٤٣.

كسب رزقه فقال: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه**»[1].

وأنشد ابن الجوزي في ذلك شعرا قال فيه:

لأن أمضي واترك بعض مالي ... يحاسبني به رب البريّة

أحبّ إلي من وقع احتياجي ... إلى نذل شحيح بالعطية[2]

ومن مظاهر الزهد الممقوت عند بعض الصوفية ترك طلب العلم ومحاربته والتحذير منه، وفي الحقيقة إن كل انحرافات الصوفية هو بسبب إعراضهم عن العلم، حتى خفت نوره بين ظهرانيهم.

وأوائل الصوفية من الزهاد والعباد كان لهم نصيب وافر من العلم كالجنيد، والمحاسبي، والشبلي وغيرهم؛ لكن التيار الأكبر أو أكثر المتأخرين كانوا ممن تكاسل عن طلب العلم ورضي بالجهل ولم يكتف بذلك؛ بل بحث عن الحجج الواهية لتبرير قعودهم عن طلب العلم كما سبق وأن بينا ذلك في أقوالهم ورواياتهم.

قال ابن الجوزي عن أوائل الصوفية ومتأخريهم: "وما كان

(١) صحيح البخاري كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة ٢/١٢٩، ولفظه: خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه. والحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) الآداب الشرعية ٣/٢٧٢.

المتقدمون في التصوف إلا رؤوساً في القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء -المتأخرين- أحبوا البطالة"[١].

ولقد نتج عن نظرتهم الخاطئة إلى العلم أن تركوه، ونفّروا الناس من طلبه، وذموا علمائه، ودفنوا كتب العلم؛ كل ذلك بسبب جهلهم وقلة علمهم.

وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقد رفع الله سبحانه من شأن العلم والعلماء. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[٣].

وقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[٤].

وبيّن جل وعلا أن أكثر الخلق خشية له هم العلماء. قال

(١) تلبيس إبليس ص ٣٢٣.
(٢) سورة الزمر آية ٩.
(٣) سورة المجادلة آية ١١.
(٤) سورة آلة عمران آية ١٨.

تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[١].

وفي الحديث الشريف "العلماء هم ورثة الأنبياء"[٢].

وبيّن ﷺ فضل العلم بقوله: "من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم"[٣].

ولقد وقف العلماء في وجه المتصوّفة المبتدعة الذين أعرضوا عن طلب العلم زهدا لزعمهم بأنه يشغلهم عن طاعة وعبادة الله.

ولقد بيّن ابن الجوزي أحوال الصوفية في هذه المسألة على سبيل الذم، قائلا: "فريق منهم امتنعوا عن طلب العلم جملة وتفصيلا، ورأوا أن الاشتغال بالعلم بطالة، والحقيقة إنما هم عليه من الكسل والقعود في الزوايا والأربطة ولبس المرقعات واستجلاب الصدقات هو البطالة بعينها.

والفريق الثاني منهم من طلب العلم (وهم قِلّة) غير أنهم قنعوا

(١) سورة فاطر آية ٢٨.
(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ١/ ٢٥، ومسند الإمام أحمد ٥/ ١٩٦، والحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ٥/ ١٩٦، والحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

باليسير من العلم وفاتهم فضل كثرة العلم. وسبب انقطاعهم عن مواصلة زيادة التعلم شبهه عرضت لهم خلاصتها: أن كثرة العلم والحديث فيها رياسة ودنيا وللنفس في ذلك لذة.

الفريق الثالث: ظنوا أن المقصود هو العمل فتركوا العلم وطلبه.

والفريق الرابع: منهم هم الذين يعتقدون أن العلم هو العلم الباطن أو العلم اللدني، ويرون أن العلم هو ما اكتسب من البواطن. وهم أصحاب العبارات المشهورة: حدثني قلبي عن ربي، وعلومنا بلا واسطة، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وأما الفقهاء، والمحدثون فمساكين أخذوا علمهم ميتا عن ميت[1].

وحذّر ابن الجوزي من مغبة التعبد بغير علم، ووصف بهذه الحال كثيرا من المتزهدين والمتصوّفة الذين ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم[2].

ويتأسّف ابن الجوزي لجرأة الغزالي -الفقيه- عندما أوضح أن الصوفية لا يلقون بالا للعلم، ولا لقراءة القرآن، بل هم يعتمدون على

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٢٠-٣٢١.

(٢) انظر: لفتة الكبد إلى نصيحة الولد لابن الجوزي، تحقيق د. عبد الغفّار البنداري ط١(بيروت: دار الكتب العلمية – ١٤٠٧هـ) ص ٥٥.

العلوم الكشفية. قائلا: "عزيز علي أن يصدر هذا الكلام من فقيه، فإنه لا يخفى قبحه، فإنه في الحقيقة طي لبساط الشريعة التي حثّت على تلاوة القرآن وطلب العلم"[1].

وقال رحمه الله مشدّدا الإنكار عليهم، أنه قد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوّفة حتى منعوا حمل المحابر لتلاميذهم والإعراض عن علوم الحديث، وبيّن أن ذلك من خفي حيل إبليس "ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، وإنما فعل ذلك وزيّنه عندهم لسببين: أحدهما: أنه أرادهم يمشون في الظلمة والثاني: أن تصفح العلم كل يوم يزيد في علم العالم، ويكشف له ما كان خفي عنه، ويقوى إيمانه ومعرفته، ويريه عيب كثير من مسالكه، خصوصا إذا تصفح منهاج الرسول ﷺ والصحابة، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل"[2].

ونقل ابن الجوزي قول الشافعي رحمه الله: "لو لا المحابر، لخطبت الزنادقة على المنابر"[3].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٢٣.

(٢) انظر: صيد الخاطر ص ٩٧.

(٣) الآداب الشرعية ٥٨/٢.

وبيّن القاضي أبو بكر بن العربي المالكي فضيلة طلب علم الحديث بعد قوله ﷺ في الحديث الشريف الذي جاء فيه قوله النبي ﷺ: « **نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع** »[1].

قال رحمه الله : : وهذا دعاء من النبي ﷺ لحامل علمه، ولا بد بفضل الله من نيل بركته"[2].

وبيّن ابن العربي المالكي رحمه الله، كيف سعى هؤلاء المبتدعة لتضليل الناس وصدِّهم عن طلب العلم، فقال: "إن العلم أبين من أن يبين، ولكن المبتدعة -الصوفية- الملحدة أرادت إدخال العلم وغيره من الألفاظ الدينية والفضيلة في سوق الإشكال، حتى تضلل الناس وتفتنهم أنه ليس هناك معنى معلوم وإنما هي دعاوي وتلبيسات"[3].

وعندما أقدم بعض الصوفية على محاربة العلم بدفن كتبه ورميها بالبحر، أنكر عليهم ذلك ابن الجوزي بقوله: "ومنهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح، ، لأن النفس

---

(١) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ماجاء في الحث على تبليغ السماع ١٤٢/٤، رقم الحديث (٢٧٩٥).

(٢) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، أبي بكر محمد بن العربي المالكي ٩٠/١٠.

(٣) ن.م ٨٢/١٠.

تغفل وتحتاج إلى التذكير في كل وقت، ونعم المذكر كتب العلم"[1].

وأضاف رحمه الله قائلا: " وأحسن ظني بهم أن أقول: كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره. أمّا إذا كان فيها علم مفيد، فإن رميها إضاعة للمال لا يجوز، وقد وصل الأمر بهم إلى منع البعض حمل المحابر[2].

وقال في معرض رده عليهم: "قد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لبس عليهم إبليس، وقال: ما المقصود إلا العمل، ودفنوا كتبهم"[3].

ثم تساءل رحمه الله على وجه الإنكار قائلا: " أفترى إذا غسلت الكتب، ودفنت؛ علام يعتمد في الفتاوي والحوادث؟! على فلان الزاهد! وفلان الصوفي! وعلى الخواطر فيما يقع لها! نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى"[4].

فالتهوين من شأن العلم وأهله جهل صرف، ومصادمة بيّنة لما في

---

(١) صيد الخاطر ص ٢٢٤.

(٢) انظر: ن.م ص ٩٧، وتلبيس إبليس ص ٣٢٧.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٥، وانظر ص ٣٢٦.

(٤) ن.م ص ٣٢٧.

الكتاب والسنة.

قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وبهذه الردود يتبين بطلان مفهوم الزهد عند الصوفية ومخالفته للزهد الشرعي.

(١) سورة الزمر، آية ٩.



المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على التوكل عند الصوفية

وفيه ومطلبان:

المطلب الأول: التوكل عند الصوفية.

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على التوكل عند الصوفية.

- **التوكّل لغة :**

■ قال ابن منظور: "المتوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره، فيركن إليه وحده ولا يتوكّل على غيره"(١).

التوكّل اصطلاحاً :

■ قال إبراهيم الخواص: التوكّل هو أن لا يركن القلب إلى مال ولا تجارة ولا لسبب ولا لمخلوق"(٢).

ولكن حقيقة التوكّل الشرعي يأخذ معنىً عند أهل السنة والجماعة غير معناه عند الصوفية.

فلقد عرفه ابن رجب رحمه الله بقوله: "هو صدق اعتماد القلب على الله عزّ وجلّ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها وكلة الأمور كلها إليه بتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا

(١) لسان العرب ١٥/٣٨٧.

(٢) المقدّمة في التصوف وحقيقته للسلمي ص ٢٩ ، وانظر مزيداً من تعريفات الصوفية للتوكل: كتابنا (جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية).

يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه"(١).

وقال ابن حجر "المراد بالتوكّل اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾(٢).

وليس المراد ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه التوكّل"(٣).

وذكر النووي أنه "حدة الثقة بالله تعالى والإيمان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لا بد منه من المطعم والمشرب والتحرّز من العدد كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين"(٤).

ومن خلال هذه التعريفات الاصطلاحية يلاحظ أن من شرط التوكّل عند الصوفية الإعراض عن الأسباب.

ولكن تعريفات أهل السة والجماعة تقتضي عمل الأسباب المقدور عليها.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤٠٩.

(٢) سورة هود آية ٦.

(٣) فتح الباري ١١/٣١٢.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/٦٠٣-٦٠٤.

وهذا هو مقتضى الشرع الذي يقوم على اعتماد الإنسان على الله، وتفويض الأمور إليه كلها والاعتقاد الجازم بأنه لا مالك ولا نافع ولا ضار غير الله سبحانه وتعالى مع القيام بعمل الأسباب المقدور عليها من السعي في كسب الرزق الحلال واستعمال الدواء الذي جعله الله سببا للشفاء.

المطلب الأول
التوكل عند الصوفية

إن مقام التوكّل بمفهومه الصوفي يتجسد من خلال أقوالَ أئمة ومشايخ وسادات الصوفية؛ الذين فهموا التوكّل على الله على أنه الإعراض كلية عن القيام بأي سبب من الأسباب.

وهذه عبارات القوم التي توضّح مرادهم الحقيقي بالتوكّل.

قال أبو سعيد الخراز:

"كنت في البادية، فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاما، فقلت ليس هذا من فعل المتوكّلين"[(١)].

وقال أبو سليمان الداراني: "لو توكّلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان، ولا جعلنا لباب الدار غلقا مخافة اللصوص"[(٢)].

ونقل عن ذي النون المصري، أنه قال: سافرت سنين وما صحّ لي التوكّل إلاّ وقتا واحدا ركبت البحر، فكسر المركب، فتعلقت بخشبة من

---

(١) التعرّف ص ١٧٧، والإحياء ٤/٧٤-٢٧٥، بل هذا هو عين اعتقاد المؤمنين المتوكلين لا الإعراض عن سؤال الله ومناجاته.

(٢) الحلية ٩/٢٥٦.

خشب المركب، فقالت لي نفسي إنّ حكم الله عليك بالغرق، فما تنفعك هذه الخشبة، فخليت الخشبة، فطفت على الماء فوقعت على الساحل[1].

ويعني التوكّل عند القوم أن لا يكن للعبد أي نوع من التصرّف بحيث يصبح كالآلة.

يقول سهل التستري: "أوّل مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزّ وجلّ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يكون لَه حركة ولا تدبير"[2].

وهذا أيضا من أوضح الأدلة على مفهوم ومقصود الصوفية بالتوكل؛ لذلك زهدوا في هذه الدنيا وصرفوا أذهانهم عن الكسب والسعي للرزق.

ويبلغ بالقوم عدم التمييز بين الجنة والنار وصولا إلى التوكّل المزعوم، فذكر الغزالي أن بعضهم، قال لأبي يزيد البسطامي: ما التوكّل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرّك. فقال أبو

(١) تلبيس إبليس ص ٢٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٣٨ وعوارف المعارف ص ٤٥٠.

يزيد: نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة ينعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكّل"[1].

وأحسن دليل على هذه العقيدة وما تجسدت فيه من تصرّف عند القوم، ما رواه الهجويري من أن درويشا وقع في دجلة فرآه رجلٌ وأدرك أنه لا يعرف السباحة فقال له: أتريد أن أرسل إليك من ينقذك؟ فقال: لا، فقال لَه الرجل: أفتريد أن تغرق؟ فقال لا. فقال لَه فأي شيء تريد؟ فقال: أي شيء أريد؟ أريد ما يريده الله لي[2].

وثمة قول لأحدهم ينفي فعل الأسباب عن التوكل، فيقول أبو عبد الله القرشي[3] عن التوكّل: "التوكّل: التعلق بالله في كل حال، فقال سائل: زدني، فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك"[4].

(١) الإحياء ٤/٢٦٤، والرسالة القشيرية ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) انظر: كشف المحجوب ص ٤٦٠.

(٣) القرشي: أبوعبدالله القرشي، من أجل المشايخ الصوفية، وأعلاهم قدراً عندهم، يعظم الفقراء الصوفية أشد التعظيم، لم يذكر الشعراني تاريخ وفاته. انظر الطبقات الكبرى ١/١٥٩.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٤٠.

وقال إبراهيم الخواص: " كنت في طريق مكة فرأيت شيخا وحشيا، فقلت: جني أو إنسي فقال: جنّي. فقلت إلى أين؟ فقال: إلى مكّة. فقلت: بلا زاد؟ فقال: نعم فينا أيضا من يسافر على التوكّل"[1].

وقال أبو حمزة: "إني لأستحي من الله تعالى أن أدخل البادية وأنا شبعان، وقد اعتقدت التوكّل، لئلاّ يكون سعى على الشبع زادا تزوده"[2].

وعلى هذا المفهوم للتوكّل عند الصوفية، فقد وقع القوم في التسوّل والتكفف لأموال الناس في المساجد والطرقات العامّة.

فقد قيل لحذيفة المرعشي[3] وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم وصحبة "ما أعجب ما رأيت فيه؟ قال: بقينا في طريق مكة حرسها الله تعالى أياما لم نجد طعاما، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد ضراب فنظر إلي إبراهيم بن أدهم وقال: يا حذيفة أرى بك الجوع، فقلت: ما هو رأي الشيخ؟ فقال: علي بدواة وقرطاسة، فجئت بهما، فكتب بسم

---

(١) ن.م ص ٢٤١.

(٢) ن.م ص ٢٤٢.

(٣) المرعشي: حذيفة بن قتادة المرعشي، صحب الثوري، توفي سنة سبع ومائتين. انظر الطبقات الكبرى ٦٢/١، وصفة الصفوة ٢٦٨/٤.

الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى أنا حامد وأنا شاكر وأنا ذاكر أنا جائع، أنا ضائع أنا عار، ثم دفع إليه الرقعة فقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك. قال: فخرجت فأول من لقيني رجل كان على بغلة فدفعتها إليه، فأخذها وبكى، وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت هو في المسجد الفلاني، فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلا آخر. فقلت: من صاحب هذه البغلة؟ فقال: نصراني، فجئت إلى إبراهيم بن أدهم، وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسّها، فإنه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة وافى النصراني وأكب على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم"[1].

والشاهد في هذه القصة أن إبراهيم بن أدهم ومريده خرجا بدون زاد فأصابهما الجوع، فاضطرا إلى سؤال الناس لقمة العيش.

وقصة أخرى لأحدهم توضّح لجوئهم إلى سؤال الناس نتيجة خروجهم بدون زاد وعلى التوكّل المزعوم.

فقد روى القشيري عن أبي نصر الصوفي أنه قال:

---

(١) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص ٥١٠، والرسالة القشيرية ص ٢٤٦.

" خرجت من البحر بعمان وقد آثر فيّ الجوع ، فكنت أمرّ في السوق ، فبلغت حانوت حلاوي ، فرأيت منه حملانا مشوية وحلواء ، فتعلقت برجل وقلت : اشتر لي من هذه الأشياء. فقال : لماذا؟ ألك علي شيء أو عندي دين؟ فقلت : لا بد أن تشتري من هذا. فرآني رجل فقال : خله يا فتى إن الذي يجب عليه أن يشتري لك ما تريد أنا ، لا هو. اقترح عليّ واحكم بما تريد ، ثم اشترى لي ما رأيت"[1].

ومن أهم المسائل التي يركز عليها الصوفية في قضية التوكّل مسألة الكسب ، ذلك أن الصوفية يمنعون الكسب ، على اعتبار أنه ينافي التوكّل. يقول محمد بن أحمد بن سالم البصري[2] :

"... فمن أطاق التوكّل فالكسب غير مباح لَه بحال... ومن ضعف عن حال التوكّل... أبيح لَه طلب المعاش للكسب"[3].

وهذا فيه دلالة واضحة على أن التوكّل عند القوم مرتبة عالية. أمّا الكسب عندهم فهو حال الضعفاء الذين لم يبلغوا رتبة التوكّل!.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٩٨.

(٢) محمد بن سالم : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصري ، صاحب سهل التستري. (انظر : (طبقات الصوفية ص ١٠١ ، والطبقات الكبرى ١/١١٦ ، والحلية ١٠/٣٧٨)).

(٣) طبقات الصوفية ١٠١ ، وانظر : الطبقات الكبرى ١/١١٦ ، والحلية ١٠/٣٧٨.

فقد قال ذو النون المصري لصاحب لَه يستعمل الملح المدقوق : "لست تفلح".

وقال أبو تراب النخشبي حين رأى صوفياً مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال لَه لا يصلح لك التصوّف الزم السوق[1].

وقال أبو علي الروذباري : "إذا قال الصوفي بعد خمسة أيّام أنا جائع فألزموه السوق وأمروه بالعمل والكسب"[2].

وقال يوسف بن الحسن الرازي : "إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب فليس يجيء منه شيء"[3].

والخلاصة التي نخرج بها من خلال ما سبق من أقوال وتصوّرات للتوكّل عند الصوفية أن من شروط المتوكّل على الله أن تتوفر فيه الأمور التالية :

١ - البعد عن القيام بأي سبب كان يحصل الإنسان من جرائه على الرزق الذي يعف به نفسه عن سؤال الناس.

٢ - التجرّد من المال الذي يشكل عصب الحياة وعدم ادخاره.

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٢٤٣.

(٢) انظر : ن.م ص ٢١٥ ، ٢٤٣.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٩٦.

٣ - عدم التداوي وعدم اللجوء لفعل الأسباب عند التعرّض للأخطار والمهالك.

٤ - هذا التصوّر والمفهوم للتوكّل عند الصوفية أوقع المتصوّفة في مهنة التسوّل والتكفف لسد رمق الجوع.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على التوكل عند الصوفية

التوكل على الله مقام جليل عظيم القدر، أمر الله سبحانه عباده به وحثّهم عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم. كيف لا! وهو سفينة نجاة المؤمن، حيث ضمن سبحانه لمن يتوكل عليه كفايته همه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

وقد جعل الله التوكّل سببا لنيل محبّته سبحانه، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

وجعله سبحانه شرطا للإيمان به قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وأمر جل وعلا بالتوكّل عليه قال عز من قائل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ

(١) سورة الطلاق آية ٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٣) سورة المائدة آية ٢٣.

عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

ومكانة التوكّل في الإسلام رفيعة، وهو من أجلِّ العبادات التي يجب إخلاصها لله تعالى دون سواه، وهو فريضة يجب إخلاصها لله تعالى، فهو من أجمع أنواع العبادات وأعظمها شأناً، ذلك لأن الاعتماد على الله في جميع أمور الدين والدنيا، يثمر صحة الإخلاص والمعاملة مع الله، ومنزلة التوكل في الإسلام كمنزلة الرأس من الجسد، وهو من العلامات الدالة على قوة الإيمان.

يقول ابن القيّم رحمه الله: "... فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وإن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته إلا على ساق التوكّل والله أعلم"[2].

وقد أمر الرسول الكريم ﷺ بمباشرة الأسباب المقدور عليها ثم التوكّل على الله سبحانه بعد أن يعمل الإنسان الأمور اللازمة.

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين/ ابن القيّم الجوزية/ حقق نصوصه وخرّجه، يوسف علي بدوي ط١(دمشق-بيروت: دار ابن الكثير - ١٤١٤هـ) ص ٤٦٤.

ﷺ وترك ناقته بباب المسجد، فسأله رسول الله ﷺ عنها فقال: أطلقتها وتوكلت على الله، قال: "اعقلها وتوكّل"[1].

فهذا الحديث فيه دلالة عظيمة على أن مباشرة الأسباب مطلوبة شرعا وان فعلها لا ينافي مقتضى التوكل على الله.

ولكننا أمام ما وقفنا عليه من معتقد الصوفية في قضية التوكل على الله عرفنا مرادهم الخاطئ له، حيث توصلنا إلى أن التوكل على الله عند القوم، يلزم منه قطع القيام بفعل أي سبب، والتجرد الكامل من الأملاك، وعدم الادخار، حتى يصبح الإنسان كالميت بين يدي الغاسل لا حركة له ولا تدبير.

وإذا ما عرضنا هذا المعتقد على ميزان الشرع (الكتاب والسنة) نجده حتما معتقدا باطلا بعيدا كل البعد عن المفهوم الشرعي للتوكل عند السلف الصالح، ذلك أن السلف الصالح لم يفهموا عن التوكّل على الله ما فهمه الصوفية، بل كانوا من أشدّ المتوكّلين على الله سبحانه في كل أمر صغر أم كبر. فمنهجهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ

(١) انظر: سنن الترمذي، باب صفة الجنة ٤/٧٧، رقم الحديث (٢٦٣٦) بنحوه.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

ولم ينقل عن أحد من السلف الصالح رحمهم الله تعالى أن دعا إلى عدم القيام بأي عمل اعتمادا على التوكّل ؛ لأن التوكل على الله والقيام بفعل الأسباب ليسا متناقضين ، كما هو زعم الصوفية ؛ بل الواجب على المسلم التوكل على الله حق التوكل ، وتفويض الأمور والنتائج على الله سبحانه ، أمّا أن يقعد الإنسان في زاويته ورباطه أو مسجده بدعوى التوكل ولا يقوم بأي عمل من الأعمال ، فهذا مفهوم خاطئ للتوكّل ، وهذا تواكل في الحقيقة ليس توكلاً.

وأمام خرافات بعض الصوفية وادعاءاتهم في هذا المعتقد الخطير ، وقف العلماء في وجه هؤلاء المبتدعة ، وردوا عليهم افتراءاتهم وترهاتهم ، وبيّنوا ما هم عليه من ضلال وضياع وجهل وبدع ، منهجهم في ذلك قال الله وقال رسوله ﷺ.

ومن هؤلاء العلماء ابن الجوزي الذي قال في معرض رده على الصوفية الذين يعتقدون أن القيام بالأسباب ينافي التوكل على الله :

"قلة العلم أوجبت هذا التخبط ، ولو عرفوا ما هية التوكل لعلموا

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣.

أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ولا ادخار المال"[1].

وعندما خرج بعض الصوفية في أسفارهم إلى البادية وللسياحة وإلى مكة للحج على التوكّل لا يدفعون عن أنفسهم ما يتعرضون لَه من آفات في الطريق. سخر ابن الجوزي من هذا المفهوم الصوفي المعكوس للتوكل ، ونقل رد الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله على هؤلاء المتوكلة ، ومن تلك الردود جوابه رحمه الله لرجل أراد الخروج إلى مكة للحج على التوكل. قال ابن الجوزي عن ذلك "وقد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد ، وظنوا أن هذا هو التوكّل ، وهم على غاية الخطأ ، قال رجل للإمام أحمد رضي الله عنه : أريد أن أخرج إلى مكة على التوكّل من غير زاد ، فقال لَه أحمد : فاخرج في غير القافلة ، قال : لا إلا معهم ، قال : فعلى جراب الناس توكلت؟"[2].

وردّ ابن عقيل على المتصوّفة موضحا أن فعل الأسباب لا ينافي التوكّل قائلا : "التسبب لا يقدح في التوكل لأن تعاطي رتبة ترقى على

(١) تلبيس إبليس ص ٢٧٨.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٤٥ ، ٢٨٤.

رتبة الأنبياء نقص في الدين. ولما قيل لموسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ ﴾[1]، خرج، ولما جاع واحتاج إلى عفة نفسه؛ أجّر نفسه ثمان سنين.

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾[2].

وقد يطلب الإنسان من ربه وينسى ما له عنده من الدخائر، فإذا تأخر عنه ما يطلبه يسخط، فترى بعضهم يملك عقارا وأثاثا، فإذا ضاق به القوت واجتمع عليه دين، فقيل له: لو بعت عقارك! قال: كيف أفرط في عقاري واسقط جاهي عند الناس...، وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالا له، فكانوا بين أمرين قبيحين: إما تضييع العيال، فتركوا الفرائض والتزين باسم أنه متوكل، فيجن عليهم المكتسبون، فضيقوا على عيالهم لأجلهم، وأعطوهم. وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلا على دنيء النفس الرذيلة، وإلا فالرجل كل الرجل من لم يضيع جوهره الذي أودعه الله؛ إيثارا للكسل، أو الاسم يتزين به بين الجهال، فإن الله تعالى قد يحرم الإنسان المال، ويرزقه جوهرا يتسبب به إلى تحصيل

(١) سورة القصص آية ٢٠.

(٢) سورة الملك آية ١٥.

الدنيا بقبول الناس عليه"[1].

ويقول رحمه الله تعالى وهو يرد على الذين يقولون أن القيام بالأسباب بجميع أنواعها ينافي التوكّل:

"يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكّل على الله وأن التوكّل هو إهمال العواقب وإطراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله بالتوكّل إلا بعد التحرّز، واستفراغ الوسع في التحفّظ، فقال تعالى: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[2].

فلو كان التعلّق بالاحتياط قادحا في التوكّل لما خص الله به نبيه ﷺ حين قال له: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ وهل المشاورة، إلاّ استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو، ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم حتى نص عليه وجعله عملا في نفس الصلاة، وهي أخص العبادات فقال: ﴿ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ ﴾[3].

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٣) سورة النساء آية ١٠٢.

وبيّن علة ذلك بقوله: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾(١).

ومن علم أن الاحتياط هكذا، لا يقال أن التوكّل عليه ترك ما علم، لكن التوكّل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة، قال عليه الصلاة والسلام: (اعقلها وتوكّل)، ولو كان التوكّل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال وهي حالة الصلاة،

وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإن موسى عليه السلام لما قيل له ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾(٢)، خرج. ونبيّنا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رضي الله بسد أثقاب الغار، وأعطى القوم التحرز حقه ثم توكّلوا... ومن عطل نعمة الله تعالى بترك الاحتراز فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعا أو مرضا، ولا أبله ممّن يدّعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء إنّما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكّل في الكسب وقلبه ساكن مفوّض إلى الحق

(١) سورة النساء آية ١٠٢.

(٢) سورة القصص آية ٢٠.



الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية

منع أو أعطى، ومتى وضعت أسباب فأهملت كان ذلك جهلا بحكمة الواضع مثل وضع الطعام سببا للشبع، والماء للري، والدواء للمرض، فإذا ترك الإنسان ذلك إهوانا لعطائنا فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك للسبب""(١).

ويرد عليهم ابن الجوزي هذه الشبهة بقوله: كما أن في ترك الأسباب يلزم القائل بها أمر في غاية الشناعة، وهو أن لا يعمل الأسباب التي توصله إلى منافعه الدنيوية، فيلزمه أن يترك الأكل والشرب، ويقول: إن قضي لي الشبع والري فلا بد أن يصل إلي سواء أكلت وشربت أو تركت، وعليه أن لا يلبس إذا برد ولا يتزوج وأن لا يأتي أهله إذا أراد الولد وأن لا يتداوى إذا مرض، وأن يلقى الكفّار بدون سلاح، وإذا أراد الحج أن لا يسافر ولا يتحرك بل يجلس في بيته، وإذا أراد أن يتحصل على الزرع فعليه أن لا يحرث، ولا يزرع(٢).

كما أن شبهة الصوفية في الإعراض عن الأسباب فيها إلغاء للأسباب، وهو نقص في العقل، قال رحمه الله:

" الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون

(١) تلبيس إبليس ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٨٧.

أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"[١].

وبيّن القاضي عياض ما عليه بعض الصوفية من خطأ في اعتقاد التوكّل قائلا: "الصوفية ذهبت إلى أنه لا يستحق اسمه -التوكل- إلاّ من لم يخالط قلبه غير الله من سبع أو عدو، وأن يترك السعي في طلب الرزق فيما لابد منه من مطعم ومشرب لضمان الله رزقه، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار، ومنه قوله ﷺ: « **لو أنكم توكلتم على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً، وتروح بطاناً** »[٢].

فعندهم -أي الصوفية- لا يصح اسم التوكّل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب.

قال القاضي عياض: بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته والثقة أنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرا سبب ولا أحد والكل من الله وحده"[٣].

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية، ٣٦٦/٥.

(٢) سنن الترمذي/ أبواب الزهد ٤/٤ رقم الحديث (٢٤٤٧) بنحوه، وسنن ابن ماجة كتاب الزهد، باب التوكل واليقين ١٣٩٤/٢، رقم الحديث (٤١٦٤) والراوي عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض ٦٠٣/١، ٦٠٤.

وقد انتقد ابن الجوزي مسلك بعض الصوفية في الأسفار والسياحة، واعتمادهم على التوكل، قائلا: قد لبّس إبليس على خلق كثير، فأخرجهم إلى السياحة لا إلى مكان معروف، ولا إلى طلب علم. وأكثرهم يخرج على الوحدة لا يستصحب زادا ويدعي بذلك الفعل التوكّل.

فكم تفوته من فضيلة وفريضة، وهو يرى أنه في ذلك على طاعة وأنه يقرب بذلك من الولاية، وهو من العصاة المخالفين لسنة رسول الله ﷺ[١].

والمقصود بسياحة الصوفية: هيمانهم في البراري والصحاري وهذا تعبد غير مشروع، وأما السياحة والسير في الأرض للاعتبار بسنة الله في الأمم أو غير ذلك من الفوائد العلمية والعملية فهي مما أرشد الله ورسوله ﷺ إليه، وهذا هو مفهوم السياحة بالإسلام.

قال ابن عطية وابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ... ﴾[٢]:

السائحون هم طلبة العلم، وقيل هم الجائلون بأفكارهم في قدرة

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٧.

(٢) سورة التوبة آية ١١٢.

الله وملكوته، وهذا من أفضل العبادات[١].

وذمّ ابن عساكر، الصوفية على لسان من أنشد شعرا في ذم القوم، لما هم عليه من اعتزال الناس في المساجد، وتكفف الناس، ووصفه لهم بالمتكلة، قائلا:

رأيت قوما عليهم سمة الخير	تحمل الركائب مبتهلة
معتزلي الناس في مساجدهم	سألت عنهم فقيل متكلة!
الوقت والحال والحقيقة	والدهان والعكس عندهم مسألة
فلم أزل خادما لهم زمنا	حتى تبيّنت أنهم أكلة[٢]

وهذا فيه دلالة واضحة على أن هؤلاء القوم تقاعسوا عن الكسب لأنه في اعتقادهم ينافي التوكّل، وقد رد عليهم في ذلك ابن الجوزي باعتبار ذلك من الأخطاء الشنيعة التي ارتكبها بعض الصوفية فقال: " هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكّل، وظنّوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل، وإنما التوكل حمل القلب فلا ينافي حركة

(١) انظر زاد المسير ٣/٥٠٦، والمحرر الوجيز ٧/٥٥.

(٢) انظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر تهذيب وترتيب عبد القادر بدران ط٣(بيروت: دار إحياء التراث العربي – ١٤٠٧هـ)١/٤٢٠، وقال هذه الأبيات، أحمد بن عمرو البغدادي المعروف بالرومي.

الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكّل لكان الأنبياء غير متوكلين...، وما زال التابعون ومن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب"[١].

ومع ذلك النقد الشديد لهم، بيّن رحمه الله أن الإعراض عن الكسب لم يكن مذهب كل الصوفية، فهذا سهل بن عبد الله التستري يقول: "من طعن في الاكتساب فقد طعن على السنة، ومن طعن على التوكّل فقد طعن على الإيمان"[٢].

وبهذه الردود والاستشهادات من القرآن والسنة، نخلص إلى أن التوكل اعتقاد وعمل، فالاعتقاد هو أن الله عز وجل هو المالك المتصرف في الكون وحده، وهو الرازق، المحي المميت، النافع الضار، وأنه لا أحد يملك في هذا الكون مثقال ذرة ولا اقل من ذلك، ولا يملك أن يتصرف في شيء من عند نفسه ما لم يأذن الله في ذلك وييسره له.

وهذا الاعتقاد يورث في نفس صاحبه الثقة والطمأنينة والقوة في النفس، فينطلق إلى ما يريد من أعمال وهو مطمئن أن كل أموره بيد الله لا يستطيع كائن من كان أن يضره أو ينفعه إلا بإذن الله.

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨١-٢٨٢.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٧٨، وانظر عبارة التستري في اللمع ص ٢٥٩.

أما العمل، فهو السعي للكسب الحلال، وإعزاز النفس بالتعفف عن مسألة الناس والتشوق إلى ما في أيديهم.

وبهذا تبطل نظرة الصوفية للتوكّل القائمة على قطع الأسباب وتفويض الأمور إلى الله والقعود عن طلب الكسب.

المبحث الثالث
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على المحبة عند الصوفية

وفيه تمهيد ومطلبان.

التمهيد : تعريف المحبة لغةً واصطلاحاً.

المطلب الأول : المحبة عند الصوفية.

المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على المحبة عند الصوفية.

التمهيد

تعريف المحبة لغة واصطلاحا:

المحبة لغة:

- اسم للحب، والمحبة الميل إلى الشيء السار[1].

المحبّة اصطلاحا:

- لقد عرّفها الصوفية بعدة تعاريف تختلف في اللفظ ولكنها تأخذ معناً واحداً:
- فلقد عرّفها المحاسبي بقوله: "ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك لَه سراً وجهراً ثم علمك تقصيرك في حبه"[2].
- وقال أبو يعقوب السوسي في تعريفه للمحبة:

"حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله وينسى حوائجه إليه"[3].

---

(١) انظر لسان العرب ٣/٧، والمعجم الوسيط ١/١٥١.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٢٧.

(٣) ن.م ص ٤٢٦.

- وعرّفها الجنيد بقوله: "المحبة هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب"[1]، وشرح القشيري ذلك بقوله: "أشار -أي الجنيد- بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها"[2].
- وقال الحسين بن منصور: "حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك"[3].

وبهذه التعاريف الصوفية تشمّ منها رائحة القول بالحلول وهو إمكانية حلول الله في عباده الذين أحبهم واصطفاهم كما تزعم الصوفية.

ولكن لسهل التستري تعريف من أحسن التعاريف الموافقة لمعنى المحبة في الشرع فهو يقول عنها: "إنها موافقة القلب لله، والثبات على ذلك، واتباع نبيه، ودوام الذكر وحلاوة المناجاة مع الله"[4].

فبتعريفه هذا خضوع القلب وانقياد الجوارح لأوامر الشرع ونواهيه.

---

(١) اللمع ص ٨٨، والرسالة القشيرية ص ٤٢٥، وعوارف المعارف ص ٤٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٢٦.

(٣) ن. م ص ٤٢٥، والحسين بن منصور هو الحلاج.

(٤) انظر: اللمع ص ٨٧.

وهذا هو لازم المحبة الصادقة لله وهو موافق لمفهوم المحبة عند السلف الصالح.

فقد ذكر الحليمي[1] لمحبة الله تعالى معانٍ كثيرة، ومن جملة هذه المعاني التي ذكرها:

"الحرص على أداء الفرائض والتقرب إليه بالنوافل"[2].

---

(١) الحليمي: أبو عبد الله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، النجاري الشافعي، فقيه، رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر، ولد بجرجان سنة ٣٣٨هـ من تصانيفه، المنهاج في شعب الإيمان، توفي سنة ٤٠٣هـ في بخارى.
(انظر ترجمته: في سير أعلام النبلاء ١٧/٢٣١، ومعجم المؤلفين ١/٦٠٧، والأعلام ٢/٢٣٥).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان/ ابي عبد الله الحسين الحليمي، تحقيق حلمي محمد فودة، ط١(بيروت: دار الفكر – ١٣٩٩هـ)١/٤٩٧.

المطلب الأول
المحبة عند الصوفية

المحبة حال من الأحوال عند الصوفية[1]، ولها منزلة رفيعة، تكلموا جميعاً فيها، كيف لا؟ وهي الصفة التي تفصل بينهم وبين غيرهم (أهل السنة) الذين تقوم عباداتهم لله على أساس الطمع في الثواب والخوف من العقاب. وهو الأمر الذي لا يتأتى عند الصوفية. وذلك أن أقوال الصوفية تثبت أن حال الطمع في الثواب والخوف من العقاب لا يستقيم عندهم.

وهذا يجدر بنا أن نسرد بعض من أقوال الصوفية في المحبة ورغم الاختلاف في اللفظ؛ إلا أنها ذا مغزا واحدا ودلالة واحدة.

فمن أقوال القوم:

يقول الجنيد: "المحبة فعل القلوب" وقد شرح الكلاباذي هذا الكلام. فقال: "معناه أن يميل قلبه إلى الله وإلى ما لله من غير تكلّف"[2].

---

(١) ولكنها عند أبي طالب المكي من أعلى المقامات. انظر: قوت القلوب ٢/٥٧.

(٢) التعرّف ص ١٢٨.

ويقول أبو عبد الله القرشي:

" حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء"[1].

وجعلوا للمحبة حدا بالتخلي عن الذاتية الإنسانية.

قال الروذباري: " مالم تخرج من كليتك لا تدخل في حد المحبة"[2].

والمحبة عند الصوفية قسمان: حب عام، وحب خاص.

ويقصد الصوفية بالحب العام، امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وهذا الطريق عندهم يسلكه العوام للوصول إلى حب الله العام، وهذا الحب هو الذي قصده التستري في تعريف المحبة كما سبق.

أمّا الحب الخاص، حب السكرات؛ فهو الحب الذي يتحصل عليه الإنسان هبة من الله، ولا يمكن الحصول عليه عن طريق الكسب، وإنما يحصل عليه الإنسان عن طريق مشاهدة الروح حتى يتجلى نور الله عزّ وجلّ على الكائنات — حسب زعمهم.

يقول السهروردي: "... فإذاً الحب حبان: حب عام، وحب خاص، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر... وأمّا الحب الخاص، فهو

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٤٢٥.

(٢) عوارف المعارف ص ٤٥٦.

حب الذات عن مطالعة الروح، وهو الحب الذي منه السكرات".

ثم يقول: " وهذا الحب يكون من الأحوال، لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل"[1].

وأصحاب هذا النوع من الحب الكثرة الغالبة من الصوفيّة، فقد عبروا عن حالهم في المحبة بألفاظ رمزية، ولا ريب أن محبة الله باب من أوسع أبواب الدعاوي عند الصوفية يتكلمون فيه عن الخوف والرجاء والجنة والنار.

يقول الشبلي مخاطبا ربه: "أحبك الخلق لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك"[2].

وقال إبراهيم بن أدهم: "إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك"[3].

وفي مرحلة متقدمة رمز الصوفية للمحبوب الإلهي برموز أوردوا أسماءها في قصائدهم، فقد كانت رابعة العدوية أول من تحدث عن

---

(١) عوارف المعارف ص ٤٥٥.

(٢) طبقات الصوفية ص ٨٣.

(٣) الإحياء ٤/٣٦٠.

الحب الإلهي، وأدخلت ذلك المصطلح في التصوّف، في رباعيتها المشهورة التي تقول فيها:

أحبك حبّين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاكا

وأما الذي هو حب الهوى ... فشغل بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[1]

وقد قالت رابعة العدوية عند ما سئلت عن حقيقة إيمانها: "ما عبدته خوفا من ناره ولا حبّا لجنّته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبّا له وشوقاً له"[2].

ومعروف الكرخي، لم يبتعد كثيرا في فهمه للمحبة عن رأي رابعة العدوية، فقد أجاب عندما سأله بعض إخوانه: "أخبرني يا أبا محفوظ، أي شي هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق، فسكت، فقال: ذكر الموت. فقال: وأي شيء الموت؟ فقال ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنّة، فقال: وأي شيء هذا؟ أن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه

(١) التعرّف ص ١٢٩-١٣٠، والإحياء ٣١٠/٤، وقوت القلوب ٦٢/٢.

(٢) الإحياء ٣١٠/٤، وغيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية ٤٤/١، وقوت القلوب ٦٦/٢.

معرفة كفاك جميع هذا"[1].

وعندما سئل عن المحبة، كان جوابه تلخيصا وافيا وتعبيرا صادقا عن معنى الحب الإلهي حين قال: المحبة ليست من تعليم الخلق، وإنما هي من مواهب الحق وفضله"[2].

فالحب إذن عنده هبة من الله، ومنحة وفضل يعطيه الله من يشاء وهو حال وليس مقام.

وبيّن أبو سليمان الداراني حقيقة هؤلاء المحبين، وحقيقة محبتهم لله بقوله: "إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنّة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!"[3].

ويعبّر الصوفية في كثير من الأحيان عن الحب بالمحبة، كما ترد ألفاظ أخرى في التعبير عن ذلك، وهو ما يعرف عندهم بالعشق الإلهي.

قال السراج الطوسي: بلغني أن أبا الحسن النوري شهد عليه غلام الخليل[4] أنه سمعه يقول: أنا أعشق الله ﷻ وهو يعشقني، فقال النوري

(١) الإحياء ٣١٠/٤، وقوت القلوب ٦٥/٢.

(٢) طبقات الصوفية ص ٢٢.

(٣) ن.م ٣١٠/٤، والإحياء ٣١٠/٤.

(٤) غلام الخليل: هو أحمد بن محمد بن غالب، أبو عبد الله، الزاهد الباهلي، =

سمعت الله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، وليس العشق بأكثر من المحبة[2].

ويقول الغزالي وهو يتحدث عن المحبة والعشق:

من أحب الله وعشقه، واشتاق إلى لقائه، فالسماع في حقه مؤكد لعشقه[3].

ويحتج غلاة الصوفية في أحوالهم في المحبة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

= البصري. اتهم بالكذب ووضع الحديث في الرقائق. قال: "وضعناها لنرقق بها قلوب العامة" ينسب إلى خليل بن عمرو المحملي. قال أبو داود السجستاني: ذاك دجّال بغداد، نظرت في أربع مائة حديث له، عرضت عليّ، كلّها كذب، متونها وأسانيدها. وكان ينكر خطأ الصوفية بخطأ مثله، حيث جعل محبة الله بدعة، وكان واعظا مشهورا ببغداد، يحذّر العامة من الصوفية ويغري بهم الدولة. وكانت تميل إليه أم الموفّق العباسي (ولي العهد)، فأمرت المحتسب بطاعته، فقبض على أكثر من سبعين من الصوفية وهرب بعضهم مثل النوري. وعرفت هذه الواقعة في التاريخ بمحنة غلام الخليل، توفي ببغداد سنة ٢٧٥هـ ودفن بالبصرة.

(انظر ترجمته: في تاريخ بغداد ٥/٧٨-٨٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/٢٨٢-٢٨٥).

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

(٢) انظر: اللمع ص ٤٩٢.

(٣) انظر: الإحياء ٢/٢٧٨، ولفظة العشق غير لائقة بالله جلّ جلاله؛ لإن العشق لما ينكح. انظر: تلبيس إبليس ص١٧١.

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة بنى الصوفية عليها مذهبهم في الحب الإلهي سواء حب الله للإنسان أو حب الإنسان لله.

كما قال أبو العبّاس بن عطاء في قوْله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[2] قال: "نجيناك من الغم بقومك. وفتنّاك بنا عن سوانا"[3].

هذا هو مفهوم المحبة عند غلاة الصوفية؛ البعيد عن عقيدة الخوف والرجاء والقريب من العشق والهوى الذي يزعمون أنه من مقدمات الاتصال بالخالق – تعالى الله.

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

(٢) سورة طه آية ٤٠.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص ٣٣١، وقد نقل ابن الجوزي هذا التفسير لابن عطاء عن ابن جهضم، ولم أجده، فيما بين يدي من المراجع الصوفية.

المطلب الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري
على المحبة عند الصوفية

عند عرضنا لأقوال الصوفية في حال المحبة عندهم، وقفنا على ذلك المفهوم الخاطئ للمحبة الذي تشبثوا به، ووجدنا مصطلح الحب الإلهي الذي بمعنى العشق وهو ما يعتبره القوم من وسائل الاتصال بالخالق - تعالى الله-.

إن محبة الله تعالى لا تتأتى أبدا بتلك الصور من الحب فمحبة الله الخالصة في مفهومها الشرعي أمر واجب، كما جاء في الكتاب والسنة.

فقد أخبر المولى جل وعلا بأن المؤمنين يحبون الله حبا شديداً قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

هذه صفة المؤمن الذي يحب الله المحبة الخالصة.

ومحبة الله الخالصة تقتضي الإقلاع عن إشراك أحد مع الله بالحب

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

الخالص ، وهذا هو المرتكز الذي تقوم عليه عقيدة التوحيد .

والحب الإلهي الخالص والشرعي هو شوق من العبد للقاء ربه ومرضاته ، وهذا يستلزم أن يكون للمؤمن أسوة حسنة برسول الله ﷺ يأمر بأمره وينهى بنهيه ، فعندئذ تتحقق محبة الله الشرعية.

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[١] .

فاتباع أمر الرسول ﷺ وعدم مخالفته من علامات المحبة الصادقة لله سبحانه.

ومن علامات محبة الله الصادقة بالإضافة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وجميع ما جاء في الكتاب والسنة ؛ أداء الفرائض المفروضة ، وما كتبه الله من النوافل ، كما جاء في الحديث الشريف : « **من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومــا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى احبه، فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه** »[٢] .

(١) سورة آل عمران ٣١.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقائق ، باب التواضع ١٩٠/٧.

وأمام شطحات الصوفية في مفهومهم للمحبة وما أفضى إليه من انحراف خطير ابتعد بهم كثيرا عن ذلك المفهوم الشرعي لها ؛ وقف العلماء موقف المنكر والراد على المبتدع في هذه القضية.

ومن هؤلاء العلماء ابن عقيل ، الذي وصف اعتقادهم في حبّ الله بالأوهام والهواجس التي تصادم الشرع قائلا : "ما يدّعيه عشاق الصوفية في محبة الله إنما هو وهم اعترض ، وصورة شكلت فإذا غابت بحكم ما يقتضيه العقل أقلقهم الشوق إليها ، فنالهم من الوجد وتحرك الطبع والهيمان ما ينال الهائم في العشق ، فنعوذ بالله من الهواجس الرديئة والعوارض الطبيعية التي يجب بحكم الشرع محوها من القلوب"[١].

ولم يقتصر إنكار العلماء على الفكر الصوفي فحسب ؛ بل تعداه إلى الإنكار والرد على الأشخاص الذين شطحوا في مفهومهم للحب الإلهي.

فعندما شطح النوري من الصوفية في المحبة ونحى بها ذلك المنحى الخطير بقوله : "أنا اعشق الله عزّ وجلّ وهو يعشقني".

(١) تلبيس إبليس ص ٢٤٧.

أنكر ابن الجوزي على صاحب هذه الفرية، ووصفه بالجهل من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث الاسم، فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح.

الثاني: أن صفات الله ﷻ منقولة (توقيفية) فهو يحب ولا يقال يعشق، كما يقال يعلم ولا يقال يعرف؛ ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[1].

الثالث: من أين لَه أن الله تعالى يحبه؟ فهذه دعوى بلا دليل"[2].

وهذه تزكية للنفس والله تعالى نهى عن تزكية النفوس بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[3].

كذلك انتقد ابن الجوزي أيضا الغزالي عندما جعل العشق مرادفا للحب، ويستنكر ابن الجوزي في تعليق لَه متابعة الغزالي -رغم غزارة علمه- للصوفية في هذا الإطلاق (العشق) الناتج عن الجهل.

ويتساءل ابن الجوزي عن هذا السماع الذي يؤكد هذا العشق،

---

(١) التعرّف ص ١٢٩-١٣٠، والإحياء ٣١٠/٤، وقوت القلوب ٦٢/٢.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٧١، وانظر عبارة النوري في اللمع ص ٤٩٢.

(٣) سورة النجم آية ٣٢.



ويورد مثالا من الأبيات الغزلية التي كان الصوفية ينشدونها في سماعهم، وكأنه يقول: أي علاقة بين التغزل المفعم بالعشق وبين محبة الله؟ وعدّ ذلك من الأمور القبيحة التي لا تليق بجلاله سبحانه[1].

وكان القاضي أبو بكر بن العربي المالكي ممّن تصدى لمن استعمل لفظ العشق أو الشوق من الصوفية، واعتبره لا يليق ولا يجوز استعمال مثل هذه الألفاظ التي تتنافى مع الشريعة، واعتبر ذلك قاصمة.

فهو يقول: " وللصوفية في إطلاق العشق على الله تجاوز عظيم واعتداء كبير، ولو لا إطلاقه تعالى المحبة ما أطلقناها، فكيف نتعداها إلى سواها من ألفاظ المجان، وليس لَه أصل في الشريعة"[2].

وعندما فسّر بعض الصوفية قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾[3] بقوله: نجيناك من الغم بقومك وفتناك بنا عمن سوانا.

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٤٦.

(٢) سراج المريدين لابن العربي المالكي ورقة رقم ١٠٦، نقلا عن مفتاح السعادة تأليف أبوالعباس بن العريف، جمع أبو بكر عتيق بن مؤمن، دراسة وتحقيق عصمت عبداللطيف دندش ط١(بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣م) ص ٤٧.

(٣) سورة طه آية ٤٠.

أنكر ابن الجوزي عليه ذلك التفسير الإشاري الخاطئ قائلا :

"هذه جرأة عظيمة على كتاب الله عز وجل ، ونسبة الكليم إلى الافتتان بمحبة الله سبحانه. وجعل محبته تفتن غاية في القباحة"[(١)].

ويتعجب ابن الجوزي من حال الصوفية في المحبة عندما يموت لهم ميت ، يعملون دعوة ويرقصون ويقولون وصل إلى الله عز وجل ، أفأمنوا أن يكون وقع في عذاب؟ فهؤلاء سدوا باب الخوف وعملوا على زعمهم على المحبة والشوق ، وما كان العلماء هكذا"[(٢)].

كما نقل رحمه الله عن ابن بطة رحمه الله إنكاره للصوفية عندما أظهروا الزهد ، وادعوا الشوق والمحبة بإسقاط الخوف والرجاء ، يسمعون من الأحداث والنساء ويغنون ويصفقون ويصعقون ويتمايلون ، وهم بذلك يزعمون أن ذلك من شدة حبهم لربهم وشوقهم إليه[(٣)].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٣١ ، وصاحب التفسير الصوفي هو العبّاس بن عطاء.

(٢) انظر : تلبيس إبليس ص ٣١٩.

(٣) انظر : ن. م ص ٢٣٧.

(الكشاف للزمخشري بيروت : دار الكتاب العربي) ١/ ٦٤٦-٦٤٨.

كما أنكر الزمخشري[(١)] على الصوفية حال المحبةعند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[(٢)].

قائلا : "محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله تعالى لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيء وهم الفرقة المفتعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم خربها الله تعالى ، وفي مراقصهم عطّلها الله تعالى ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين

---

(١) أبوالقاسم ، محمود بن عمرو بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، جار الله ، معتزلي العقيدة ، ولد سنة ٤٦٧هـ في زمخشر ، من مصنفاته المشهورة : الكشاف ، وأساس البلاغة ، توفي سنة ٥٣٨هـ.

انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥٣ ، الأعلام ٧/ ١٧٨ ، شذرات الذهب ٤/ ١١٨ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٩.

(٢) سورة المائدة ، آية ٥٤.

عنها صعقة موسى -عليه السلام- عند دك الطور، فتعالى الله عنه علوا كبيرا، ومن كلماتهم كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فإن الهاء راجعة إلى الذات، دون النعوت والصفات ومنها الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن فيه حقيقة"[1].

ولقد استغلّ الصوفية دعوى الحب الإلهي، وتوسعوا فيها حتى أسقطوا الخوف والرجاء بدعوى المحبة والشوق واستهزأوا في الجنة والنار وزهدوا فيهما فقد نقل ابن الجوزي إنكار أبو عبد الله بن بطة على الصوفية قائلا عنهم:

"أهلُ همم دنيئة وشرائع بدعية يظهرون الزهد وكل أسبابهم ظلمة. يدّعون الشوق والمحبة بإسقاط الخوف والرجاء يسمعون من الأحداث والنساء ويطربون ويصعقون ويتغاشون ويتماوتون، ويزعمون أن ذلك من شدة حبهم لربهم وشوقهم إليه. تعالى الله عما يقوله الجاهلون علوا كبيرا"[2].

وعندما كانت أقوالهم في الجنة والنار تدعو إلى الاستهزاء والسخرية

(١) الكشاف للزمخشري (بيروت: دار الكتاب العربي ١/٦٤٦-٦٤٨).

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٣٧.



كما سبق وأن بينت ذلك في تأصيل أقوالهم[1].

كفّرهم ابن عقيل وأوجب عليهم القتل بقوله:

"من قال هذا كائنا من كان فهو زنديق يجب قتله"[2].

كما كفّر القاضي عياض المتصوفة الذين أنكروا الجنة والنار والثواب والعقاب وأعطوها مرادا غير مرادها في الشرع[3].

ومما سبق اتضحت ردود العلماء في الإنكار على أحوال ومقامات الصوفية المزعومة؛ والمبتدعة في الدين.

وقد أشار ابن الجوزي -رحمه الله- إلى أول من تكلم بها من الصوفية، وإنكار العلماء عليه وهجره باعتبار أنها علوماً محدثة، لم يتكلم بها السلف الصالح -رحمهم الله- فقال: "أول من تكلّم في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية -الصوفية- ذو النون المصري، فأنكر عليه ذلك علماء مصر، وهجروه لذلك؛ لمّا شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف حتى رموه بالزندقة"[4].

(١) راجع ص

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٤٣.

(٣) انظر: الشفاء للقاضي عياض ٢/١٠٧٧.

(٤) تلبيس إبليس ص١٦٧.

الفصل الثاني

ردود العلماء في القرن السادس على السماع عند الصوفية

وفيه ومبحثان:

المبحث الأول: السماع عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على السماع عند الصوفية.

السماع لغة:

- قال ابن منظور: هو الغناء، وقيل الذكر المسموع الحسن الجميل، وكل ما التذذت به الأذن من صوت حسن سماع[1].
- وقال الجوهري: السماع مصدر قوله سمعت الشيء سمعا وسماعا[2].

السماع اصطلاحا:

- عرّفه الصوفية بأنه "وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق"[3].

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/٣٦٥.

(٢) انظر: الصحاح ص ٣١٤.

(٣) اللمع ص ٣٤٢، الرسالة القشيرية ص ٥٠٣، الإحياء ٢/٢٩٢.



المبحث الأول
السماع عند الصوفية

يُعدّ السماع من الظواهر التي تلفت النظر في التصوّف، ولا يخلو مصنف من مصنفات القوم من ذكره والتشفي به، فكثرت فيه أقوال شيوخ الصوفية وإباحته، وقد عدّه بعضهم سمة من سمات الصوفي.

فقد سئل أبو الحسن النوري عن الصوفي، فقال: "من سمع السماع، وآثر الأسباب"[1].

والمتأمّل في أحوال بعض المشايخ الصوفية، يتضح له أن السماع دخل التصوّف في وقت مبكر، إذ هيئت حلقات الذكر بيئة مناسبة لنشوء هذا السماع، ولئن كان الذكر الصوفي في بداية الأمر يمارس بشكل فردي، فإنه لم يلبث أن أصبح يمارس بشكل جماعي تردد فيه الأناشيد الدينية ترديدا موزونا أشبه مايكون بترنمات النصارى داخل الكنيسة، ومع مرور الزمن استبدلت هذه الأبيات بالأشعار الغزلية التي أخذ القوّالون ينشدونها في حلقات السماع ويحضرها المشايخ حتى تشكّلَ

---

(١) اللمع ص ٣٤٣.

السماع بمفهومه المقيّد الذي كان من إفرازاته الصياح والبكاء والصعق والزعّق والتصفيق والرقص وتمزيق الثياب.

ولئن أطلق السماع عند الصوفية، فإن المقصود به السماع المقيد بالنغم لا مطلق السماع. يقول ابن عربي:

"السماع المقيّد بالنغمات المستحسنات التي يتحرك لها الطبع بحسب قبوله: وهو الذي يريدونه غالبا بالسماع المطلق"[1].

والسماع عند الصوفية قسمان:

أحدهما: سماع القرآن.

الثاني: سماع الأشعار والقصائد "الغناء".

يقول القشيري: "السماع فيه نصيب لكل عضو، فما يقع في العين يبكي، وما يقع إلى اللسان يصيح، وما يقع إلى اليد تمزّق الثياب، وتلطم، وما يقع إلى الرجل ترقص"[2].

ونقل السهروردي عن بعض المشايخ الصوفية قوله: رأينا جماعة ممّن يمشي على الماء والهواء يستمعون السماع ويجدون به ويتولهون عنده. وقال بعضهم: كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل

(١) الفتوحات المكية لابن عربي ٢/٣٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٢٥.

يتقلب على الماء يمر ويجيء حتى رجع إلى مكانه، ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعه فجعلها في عينه، قال الناقل: قربت من عينه أنظر فرأيت نارا أو نورا يخرج من عينيه يرد نار الشمعة، وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعا يمر ويجيء منه"[1].

ومن إفرازات ومتولدات السماع وآثاره على الصوفية، أن يلجأ أحدهم عند السماع إلى تقطيع وتمزيق ثيابه، ويرون في ذلك جوازا ويحتجون بذلك بقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[2].

ومن تلك الإفرازات والمتولدات تواجدهم محتجين بقصة رووها عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه عندما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[3] صاح صيحة، ووضع يده على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة أيّام[4].

واحتج الصوفية على جواز التواجد والحركة أثناء السماع مما روى

(١) عوارف المعارف ص ١٧٠-١٧١.

(٢) سورة ص آية ٣٣.

(٣) سورة الحجر آية ٤٣.

(٤) انظر: اللمع ص ١٨٥.

عن أنس رضي الله عنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل جبريل، فقال يا رسول الله: إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم: وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ، فقال: هل منكم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد الأعرابي:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقــي

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فلما فرغوا، أوى كل واحد منهم إلى مكانه. قال معاوية بن أبي سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند سماع الحبيب، ثم قسم رداء رسول الله ﷺ على من حضر بأربعمائة قطعة)[1].

وحكي عن ذي النون المصري، أنه لما دخل بغداد، فدخل عليه جماعة معهم قوّال، فاستأذنوا أن يقول شيئا، فأذن لهم، فأنشد يقول:

صغير هواك عذّبنــي فكيف به إذا احتنكـا

أما تنظر لمكتئـــب إذا ضحك الخليُّ بكى

وإن جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا

فطاب قلبه، وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبينه

(١) عوارف المعارف ص ١٨٩.

ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾[1]، فجلس الرجل[2].

والسماع عند الصوفية بلغ درجة قدسية رفيعة، فقد عدّوا مجالس السماع من مجالس نزول الرحمة، واعتقدوا أن السماع من الدين، وهو عبادة من العبادات التي يتقرّبون بها عند الله.

فهذا الجنيد يقول: "تنزل الرحمة على الفقراء -الصوفية- في ثلاث مواطن، وعدّ منها السماع لأن القوم -بزعمه- لا يسمعون إلا عن حق"[3].

وهذا محدث الصوفية محمد بن طاهر المقدسي يقول: "... فهذا رسول الله ﷺ وأصحابه والأولياء، قد اجتمعوا للسماع، وتواجدوا ورقصوا في اليقظة والنوم، فكيف ينكره أحد اليوم، وما كان كذلك فهو دين معروف"[4].

(١) سورة الشعراء آية ٢١٨.

(٢) انظر: آداب المريدين للسهروردي ص ١٠٦-١٠٧، والرسالة القشيرية ص ٥١٩، واللمع ص ٢٤٦، ٣٦٢، والإحياء ٢/٢٩٤، وعوارف المعارف ص ١٦٥.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥٠٩، واللمع ص ٣٤٣، والإحياء ٢/٢٧٠.

(٤) صفوة التصوّف لابن طاهر المقدسي نقلا عن كشف القناع عن حكم الوجد والسماع لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تقديم وتحقيق وتخريج د. عبد الله =

ومن هنا جعل الصوفية السماع من العلوم الخاصة التي استأثر الله بها. يقول التستري: "السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمها إلا هو"[١].

ولقد حاول الصوفية إضفاء القدسية على هذا النوع من السماع من خلال حكايات وروايات مزعومة ومنها ما روى عن ممشاد الدينوري الذي قال: "رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت له يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئا؟ فقال: ما أنكر منه شيئا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختتمون بعده بالقرآن"[٢].

ونقل الغزالي كما نقل غيره عن بعض مشايخ الصوفية قوله: "رأيت أبا العباس الخضر –عليه السلام– فقلت: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟

فقال له: الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام الفقهاء"[٣].

= الطريقي، ط١(١٤١١هـ) ص ١٥٩، ولم أجد كلام ابن طاهر في صفوة التصوّف.

(١) الرسالة القشيرية ص ٥١٩.

(٢) الإحياء ٢/٢٧٠، وانظر: عوارف المعارف ص ١٦٥.

(٣) الإحياء ٢/٢٧٠، وانظر: قوت القلوب ٢/٧١، وآداب المريدين ص ١٠٤.

كما حاول الصوفية تسخير بعض الآيات القرآنية وتطويعها للاحتجاج بها على جواز وإباحة الرقص والسماع.

ومنها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، [٢].

واحتجوا على جواز الطرب والرقص، بقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[٣].

واحتجوا على تقطيع الثياب وتحريقها وتمزيقها بقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾[٤][٥].

وأجاز لهم ذلك الهجويري، وعدّه أمراً اعتادت عليه هذه الطائفة، وذلك من أجل راحة قلب المؤمن وجلب الرضا له[٦].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١.

(٢) انظر: الرهص والرقص لمستحل الرقص، إبراهيم محمد الحلبي، دراسة وتحقيق وضبط وتعليق د. صالح السدلان ط١(الرياض: دار طيبة – ١٤١٠هـ) ص ٩٥.

(٣) سورة ص آية ٤٢.

(٤) سورة ص آية ٣٣.

(٥) انظر: الحلية ١٠/٣٧٤.

(٦) انظر: كشف المحجوب ص ٥٠٣.

واحتج القشيري لهم على إباحة الغناء بالقياس وذلك بقوله: "إن الطفل يسكن إلى الصوت الطيّب، والجمل يقاسي تعب السير، ومشقة الحمولة، فيهون عليه بالحداء"[1].

وروي أن بعض ملوك العجم مات وخلف ابنا صغيرا، فأرادوا أن يبايعوه، فقالوا: كيف نصل إلى عقله وذكائه؟ فتوافقوا على أن يأتوا بقوّال، فإن أحسن الإصغاء علموا كياسته. فلما اسمعوه القوّال ضحك الرضيع، فقبّلوا الأرض بين يديه وبايعوه![2].

ومن بالغ اهتمامهم بالسماع، أن قصروه على الصوفية وحدهم، حيث رأوا فيه غذاء لأرواحهم!، فقد روي أن أبا علي الدقّاق قال: "السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم"[3].

ومن هنا، فلا عجب إن كانت منزلة السماع عند الصوفية تفوق منزلة القرآن، وأكبر تأثيرا على قلوبهم منه، ويبدوا ذلك جليا في هذه الرواية.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٤٨٢-٤٨٤. والحداء: من الحدو: سوق الإبل والغناء لها، انظر: مختار الصحاح ص ١٢٧.

(٢) انظر: كشف المحجوب ص ٤٨٦.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥٠٢.

فقد روي أن يوسف بن الحسين الرازي، كان يقرأ القرآن، فقصده أبو الحسين الدراج من بغداد لزيارته فوجده يقرأ في المصحف، فلما أنشده أبو الحسن:

رأيتك تبني دائما في قطيعتـــي ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأني بكم والليت أفضل قولكم ... ألا ليتنا كنا إذا الليت لا يغنـــي

فأطبق يوسف بن الحسين المصحف، ولم يزل يبكي، حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه، حتى رحمه أبو الحسين لكثرة بكائه.

ثم قال يوسف بن الحسين: يا بني تلوم أهل الري[1] يقولون يوسف زنديق هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ المصحف، ولم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت القيامة عليّ بهذين البيتين[2].

ولقد وصفه الشعراني بقوله: " وكان.. إذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة، وإذا سمع شعرا قامت قيامته"[3].

ويقيس السهروردي السماع على الغيث، فيقول: مثل السماع مثل

---

(١) الري: مدينة مشهورة تقع بين جرجان وطبرستان شمال إيران. انظر: معجم البلدان ١١٦/٣.

(٢) انظر: اللمع ص ٣٦٤، الإحياء ٣٠١/٢، الرسالة القشيرية ص ٥٢٢.

(٣) الطبقات الكبرى ٩١/١.

الغيث، إذا وقع على الأرض تصبح مخضرة، كذلك القلوب الزكية، يظهر مكنون فوائدها عند السماع"[1].

والصوفية عند ممارستهم لهذه المتولدات المثمرة عن السماع الذي يزعمون أنه قربة إلى الله، تحضرهم بذلك وتشاركهم الشياطين، وتأزهم على ذلك أزا، وهم يقرون بذلك، يقول الهجويري: "قال سمعت أبا العباس الشقاني يقول: كنت يوما جالسا في مجلس سماع، فرأيت كثيرا من الشياطين عراة الأجسام، يرقصون بين الجماعة ينفثون عليهم لكي يزيدوا من حماسهم"[2].

---

(١) آداب المريدين ص ١٠٣.

(٢) كشف المحجوب ص ٤٩٧.

المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على السماع عند الصوفية

وقفنا في المبحث السابق على مفهوم السماع عند الصوفية، وما ترتب عليه من آثار، انعكست على سلوكيات الصوفية، ويجدر بنا في هذا المبحث أن نقف على جهود العلماء في القرن السادس تجاه هؤلاء المبتدعة في هذه المسألة.

ومما لا شك فيه أن مسالة السماع عند الصوفية لم تكن وليدة القرن السادس؛ بل كانت من المبتدعات في الدين قبل ذلك، واستمرت إلى عصرنا الحاضر. وقد وجدت هذه البدعة ردودا ودحضا من العلماء الأجلاّء والجهابذة الذين فنّدوا هذه البدعة الدخيلة على أمة الإسلام وردوها على أصحابها، مقتفين بذلك أثر السلف الصالح في دحض البدع في الدين، منهجهم في ذلك الاعتماد على الكتاب والسنة[1].

إن السماع النافع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، هو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع

---

(١) سيأتي بيان هؤلاء العلماء في هذا المبحث.

النبيين والمؤمنين قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨) ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾[2].

وقد أمر الله تعالى بهذا السماع، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٢٠٤) ﴾[3].

وأثنى سبحانه على أهل هذا السماع، فقال: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾[4].

كما ذمّ المعرضين عن هذا السماع فقال جلّ شأنه: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ ﴾[5].

---

(١) سورة مريم آية ٥٨.

(٢) سورة الأنفال آية ٢.

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٤.

(٤) سورة الزمر آية ١٧-١٨.

(٥) سورة لقمان آية ٧.

الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ (٢٦) ﴾[1].

هذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده، وكان عليه الرسول ﷺ وأصحابه وسلف هذه الأمة، وهو أصل الإيمان، وأنعم به من سماع؛ الذي ينأى عن سماع أهل البدع؛ سماع الصوفية الذي منه التصفيق، والطرب، والزعق، والرقص، وتمزيق الثياب، كما سبق وأن بينت في المبحث السابق.

لقد بيّن العلماء حكم هذا السماع؛ أعني به السماع عند الصوفية:

فقد أورد ابن قدامة رحمه الله بعض أقوال الأئمة في حكم هذا السماع ومنها:

١ - قول الإمام احمد: (التغبير[2] محدث)، وقوله وقد سئل عنه (هو بدعة).

٢ - قول الإمام الشافعي: (تركت بالعراق شيئا يقال له التغبير. أحدثته

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦.

(٢) التغبير: الاجتماع على الذكر والأوراد الصوفية، وترديد الصوت بالقراءة والطرب عند سماع الذكر أو بعض الأشعار، والضرب بالقضيب، ونحو ذلك، ويطلق عليه التغبير لأنهم يغيرون ذكر الله بما يطربون به من الشعر. وسمّوا مغيرين لتزهيدهم الناس في الفاني من الدنيا وترغيبهم في الآخرة.

(انظر: تلبيس إبليس ص ٢٣٠، والاستقامة ١/٢٣٨).

الزنادقة يصدون الناس به عن القرآن).

٣ - قول يزيد بن هارون: (ما يغبر إلا فاسق، ومتى كان التغبير؟).

٤ - قول عبد الله بن داود: (أرى أن يضرب صاحب التغبير)[١].

ثم بيّن ابن قدامة أن هذا التغبير هو السماع، وهو منهي عنه، فقال: "والتغبير اسم لهذا السماع، وقد كرهه الأئمة كما ترى، ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف[٢] والشبابات[٣]، فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه دينا؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[٤]، وقيل المكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق، وقال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[٥][٦].

---

(١) انظر: ذم ما عليه مدعوا التصوّف لموفق الدين عبدالله بن قدامه المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، ط٣ (بيروت: المكتب الإسلامي - ١٤٠٤هـ) ص ٧.

(٢) الدّف: ألة طرب ينقر عليها، وجمعه دفوف. (انظر: المعجم الوسيط ٢٨٩/١).

(٣) الشبابة: مزمار من القصب، مولّدة. (انظر: الوافي، معجم وسيط اللغة العربية، عبد الله البستاني (بيروت: مكتبة لبنان - ١٩٩٠م) ص ٣٠٣ بدون رقم الطبعة).

(٤) سورة الأنفال آية ٣٥.

(٥) سورة الأنعام آية ٧٠.

(٦) ذمّ ما عليه مدّعوا التصوّف ص ٨.

وذكر ابن الجوزي أقوال أصحاب المذاهب الأربعة في كراهيته[١]، وبيّن رحمه الله أن سماع الغناء يجمع شيئين:

أحدهما: أنه يلهي القلب عن التفكر في عظمة الله تعالى، والقيام لخدمته.

الثاني: أنه يميله إلى اللذات العاجلة، ويدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسّية، ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجددات ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحثّ على الزنا، فبين الغناء والزنى تناسب من جهة أن الغناء لذّة الروح والزنى أكبر لذات النفس"[٢].

وللعلماء ردود كثيرة على الصوفية في مسألة السماع الذي جعلوه قربة وطاعة، وشعارا وعلامة على أهل الدين والنسك والخير كما يزعمون.

فمن هؤلاء ابن عقيل رحمه الله، الذي عندما سمع بعض الصوفية يقول: إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعها حداها الحادي إلى الله

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٢٨-٢٣٠، وانظر: أراء الأئمة الأربعة أبوحنيفة ومالك والشافعي وأحمد في الغناء، إغاثة اللهفان لابن القيم ٢٢٦/١-٢٢٩.

(٢) ن.م ص ٢٢٢.

بالأناشيد، ردّ عليه بقوله: "لا كرامة لهذا القائل إنما تحدى القلوب بوعد الله في القرآن ووعيده وسنة الرسول ﷺ، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[1]، وما قال: وإذا أنشدت عليه القصائد طربت. فأما تحريك الطباع بالألحان فقاطع عن الله والشعر يتضمّن ضيقة المخلوق والمعشوق مما يتعذّر عنه فتنه، ومن سوّلت له نفسه التقاط العبر من محاسن البشر وحسن الصوت فمفتون"[2].

وكفّر ابن عقيل من يعتقد أن الدعاء وقت السماع مجاب بناءً على أنه قربة يتقرّب بها إلى الله تعالى؛ لأن من اعتقد الحرام أو المكروه قربة كان بهذا الاعتقاد كافرا. قال: والناس بين تحريمه وكراهيته"[3]، أي السماع.

وردّ ابن الجوزي على الصوفية، عندما زعموا أن السماع مستحب لهم لحياة قلوبهم. قال هذا غلط من خمسة أوجه:

أحدها: أن أبا حامد الغزالي قال بإباحة سماعه لكل أحد. وأبو حامد أعرف من القشيري الذي روى ذلك.

---

(١) سورة الأنفال آية ٢.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٤٦.

(٣) ن. م ص ٢٤٨-٢٤٩ .

الثاني: أن طباع النفوس لا تتغير وإنما المجاهدة تكف عملها. فمن ادّعى تغير الطباع ادّعى المحال. فإذا جاء ما يحرك الطباع. واندفع الذي كان يكفها عنه عادت العادة.

الثالث: أن العلماء اختلفوا في تحريمه وإباحته وليس فيهم من نظر في السامع لعلمهم أن الطباع تتساوى، فمن ادّعى خروج طبعه عن طباع الآدميين ادّعى المحال.

الرابع: أن الإجماع انعقد على أنه ليس بمستحب، وإنما غايته الإباحة، فادّعاء الاستحباب خروج عن الإجماع.

الخامس: أنه يلزم من هذا أن يكون سماع العود مباحا أو مستحبا عند من لا يغير طبعه؛ لأنه إنما حرم لأنه يؤثر في الطباع ويدعوها إلى الهوى"[1].

كما ردّ ابن الجوزي على افتراء القشيري بجواز السماع الذي أعقبه بالاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، قائلاً:

هذه الآية لا تدل على الغناء ولا على الرقص ولا على السماع

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) سورة الغاشية آية ١٧.

الصوفي، لكن هؤلاء وضعوها في غير مواضعها، وحادوا بها عن سواء السبيل.

وما أدق عبارة ابن الجوزي حين قال:

" والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن "[1].

ونقل عن الجريري قوله: "رأيت الجنيد في المنام، فقلت: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وبادت تلك العبارات، وما نفعنا إلاّ تسبيحات كنا نقولها بالغدوات"[2].

ونقل عن الجنيد قوله: "رأيت إبليس في النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء أو تنال نصيبا؟ فقال: إنه ليعسر عليّ من شأنهم ويعظم عليّ أن أصيب منهم شيئا إلا في وقتين؛ وقت السماع، وعند النظر، فإني أنال منهم منه وأدخل عليهم به"[3].

ونقل ابن الجوزي عن أبي عبد الله بن بطة قوله في إنكار الغناء عند الصوفية قائلا:

"سألني سائل عن استماع الغناء، فنهيته عن ذلك، وأعلمته أنه مما

(١) تلبيس إبليس ص ١٥٩.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٦٥.

(٣) انظر: عبارة الجنيد هذه في عوارف المعارف ص ١٦٣.

أنكره العلماء، واستحسنه السفهاء، وإنما يفعله طائفة سموا بالصوفية، وسماهم المحققون الجبرية أهل همم دنيئة، وشرائع بدعية، يظهرون الزهد وكل أسبابهم ظلمة، يدّعون الشوق والمحبة بإسقاط الخوف والرجاء، يسمعون من الأحداث والنساء ويطربون، ويصعقون، ويتغاشون ويتماوتون ويزعمون أن ذلك من شدة حبهم لربهم وشوقهم إليه تعالى الله عما يقولون علوّا كبيراً"[1].

وعدّ ابن الجوزي تصفيق الصوفية عند السماع خروجا من السمت والاعتدال، قائلا: " والتصفيق منكر... يخرج من الاعتدال، ويتنزه عن مثله العقلاء، ويتشبه فاعله بالمشركين، فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية، وهي التي ذمّهم الله عزّ وجلّ بها فقال: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[2].

فالمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق... ومنه أيضا تشبّه بالنساء، والعاقل يأنف من أن يخرج من الوقار إلى أفعال الكفّار والنسوة"[3].

كما عدّ القاضي عياض قسم من الصوفية؛ جهلة، وذلك عندما

(١) تلبيس إبليس ص ٢٣٧.

(٢) سورة الأنفال آية ٣٥.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٥٨.

استحوذ عليهم الشيطان، وغلب عليهم الطغيان والعصيان، فاحتفلوا بالرقص والسماع والشهوات التي تثيرها الطباع، لا يقتفون بذلك شرعا ولا يجتنبون أمرا بدعا. وعدّهم من ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾[1][2].

كما أنكر القاضي عياض رحمه الله على الصوفية قولهم بجواز السماع، وذكر ذلك في ترجمة مالك رحمه الله: "قال التنيسي: كنا عند مالك وأصحابه حوله، فقال رجل من أهل نصيبين: عندنا قوم يقال لهم الصوفية، يأكلون كثيرا، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقصون؟.

وقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا، قال: أمجانين هم؟ قال: لا، هم قوم مشايخ، وغير ذلك عقلاء، فقال مالك: ما سمعت أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا!"[3].

وما أحسن إنكار ظهير الدين الموصلي وقد شاهد أفعالهم المنكرة، ونظّم بذلك شعرا، قال فيه:

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) انظر: الموفي بمعرفة التصوّف والصوفي ص ٧٠-٧١.

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢/٥٤.

ألا قل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع

متى علم الناس في ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع؟

وأن يأكل المرء أكل الحمار ... ويرقص في الجمع حتى يقع؟

وقالوا: سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع

كذلك البهائم إن أشبعت ... يرقصها ريّها والشبع

ويسكره النأي ثم الغناء ... ويس لو تليت ما انصدع

فيا للعقول ويا للهني ... ألا منكر منكم للبدع؟

تهان مساجدنا بالسماع ... وتكرم عن مثل ذاك البيع[1]

وعندما احتجّ جهّال الصوفية على جواز طربهم ورقصهم بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾[2]، ردّ عليهم ابن عقيل مزاعمهم قائلا: "أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأنه يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص؟!.

ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على

(١) البداية والنهاية ١٣/٦٦، وإغاثة اللهفان ١/٢٣١، وانظر: وفيات الأعيان ٣/٣٧-٣٨، والموفي بمعرفة التصوف والصوفي ص ١٤، ١٣، مع اختلاف يسير في الألفاظ فيما بين هذه المصادر.

(٢) سورة ص آية ٤٢.

جواز الرقص في الإسلام ؛ جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : ﴿ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَ ﴾[1] ، دلالة على ضرب المخادّ بالقضبان !! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع"[2].

وذمّ ابن عقيل رحمه الله الرقص ، واستدل بتركه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾[3] ، قائلا :

"قد نصّ القرآن على النهي عن الرقص فقال : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾ ، وذمّ المختال والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما !!.

فما أقبح من ذي لحية ، وكيف إذا كان شيبة ؟؟ يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان وخصوصا إن كانت أصوات النسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٥٨ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/٢١٥.

(٣) سورة الإسراء آية ٣٧ ، ولقمان آية ١٨.

إحدى الدارين يشمس[1] بالرقص ، شمس البهائم ، ويصفق تصفيق النسوان ، والله لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التبسم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطي لهم"[2].

ولما سئل ابن عقيل عن تواجد الصوفية ، وتخريقهم ثيابهم ، أنكر ذلك أشدّ الإنكار ، وعدّه من الخطأ والحرام ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال. فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون. فقال : إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم إن الطرب يغلب عليهم ، فيزل عقولهم ، أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما يفسد ولا يسقط عنهم خطاب الشرع ، لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضوع الذي يفضي إلى ذلك ، كما هم منهيون عن شرب المسكر ، كذلك هذا الطرب الذي يسميه أهل التصوّف وجدا إن صدقوا إن فيه سكر طبع ، وإن كذبوا أفسدوا مع الصحو ، فلا سلامة فيه مع الحالين ، وتجنّب مواضع الريب واجب"[3].

وعزا ابن الجوزي ذلك التواجد المفضي إلى تخريق الثياب والصياح إلى تمكّن الشيطان في عقول هؤلاء الجهلة ، فقال :

---

(١) شمست الدابة شموسا ، وشماسا : جمحت ونفرت. انظر المعجم السيط ١/٤٩٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٨٨ ، وتلبيس إبليس ص ٢٦١.

"وهذا التواجد الذي تضمن حركات المتواجدين وقوة صياحهم، وتخبطهم، فظاهره أنه متعمّل ، والشيطان معين عليه. فإن قيل: فهل في حق المخلص نقص بهذه الحالة الطارئة عليه؟ قيل: نعم من وجهين:

أحدهما: أنه لو قوي العلم؛ أمسك.

والثاني: أنه قد خولف به طريق الصحابة والتابعين، ويكفي هذا نقصا"[1].

وعندما احتج الصوفية على رميهم الثياب وتمزيقها بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾[2].

ردَّ ابن الجوزي عليهم احتجاجهم قائلاً:

"استدل بعض جهّال المتصوّفة بهذه الآية على جواز رمي الثياب إذا اشتد طربهم على المغني. ثم منهم من يرمي بها صحاحا، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها. قال هؤلاء في غيبة فلا يلامون، فإن موسى عليه السلام لما غلب عليه الغم بعبادة قومه العجل رمى الألواح فكسّرها ولم يدر ما صنع".

قال ابن الجوزي: من يصحح عن موسى -عليه السلام- أنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذكر في القرآن ألقاها. فمن أين لنا أنها تكسرت؟ ثم لو

(١) تلبيس إبليس ص ٢٥٧.

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٠.

قيل: تكسّرت فمن أين لنا أنه قصد كسرها؟ ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان في غيبة حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه ومن يصحح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغني من غيره، ويحذّرون من بئر لو كانت عندهم، ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء"[1].

وردّ ابن الجوزي على الصوفية احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2]. على جواز الوجد والرقص وتمزيق الثياب بقصة مكذوبة على سلمان الفارسي على أنه عندما سمعها صاح صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة أيام[3]. فرد ذلك الاحتجاج من وجوه:

الأول: أن هذا محال وكذب.

الثاني: ليس لذلك إسناد.

الثالث: الآية نزلت بمكة وسلمان أسلم بالمدينة.

الرابع: لم ينقل عن أحد من الصحابة مثل هذا أصلا[4].

(١) تلبيس إبليس ص ٢٦٠.

(٢) سورة الحجر آية ٤٣.

(٣) راجع ص٦٣٥.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٥١.

وأمّا احتجاج الصوفية بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) على بدعهم وغنائهم وتمايلهم، فهو في الحقيقة التي لا مراء فيها بعيد جدا ومردود لأسباب منها:

أن الآية الكريمة بيّنت أنهم "يتفكرون" والصوفية يعترفون بأنهم "يغيبون" ويحصل لهم ما يشبه السكر والغيبة.

أن الآية الكريمة ذكرت أنهم يذكرون الله على جنوبهم أيضا، والصوفية إنما يتمايلون قياما وقعودا(٢).

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١.

(٢) قلت: وقد ردّ السهروردي من أئمة الصوفية الذين عاشوا معظم حياتهم في القرن السادس حديث أنس في تواجد النبي ﷺ وأصحابه لما أنشد الأعرابي: قد لسعت حية الهوى كبدي.... الخ، بقوله:

"فهذا الحديث أوردناه مسندًا كما سمعناه ووجدناه، وقد تكلّم في صحته أصحاب الحديث، وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هنا، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتمزيقهم الخرق وفسخها أن لو صحّ -والله أعلم- ويخالج سري أنه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه، على ما بلغنا في هذا الحديث، ويأبى القلب قبوله، والله أعلم بذلك". (عوارف المعارف ص ١٨٩).



وانتقد ابن عقيل رحمه الله تعالى أحوال الصوفية التي يتمايلون فيها ويصيحون عند السماع وما يحدث لهم من صعق وغشيان، وحكم عليهم بالتعزير، قائلا:

" إن الشريعة تنهى عن تحريك الطباع بالرعونات وتمنع دق الطبول، ونهت عن الندب والنياحة والمرح وهو الخيلاء وعلمنا أن الشرع يريد الوقار دون الخلاعة، ويتساءل ابن عقيل بعد ذلك في صيغة الدهشة والتعجّب، قائلا:

"فما بال التغيير والوجد وتخريق الثياب والصعق والتماوت مع هؤلاء المتصوفة!!؟ وكل تهيج من هؤلاء الوعاظ المنشدين من غزل الأشعار، وذكر الفسّاق، فهم كالمغني والنائح، فيجب تعزيرهم؛ لأنهم يهيجون الطباع"(١).

وعندما آثر الصوفية السماع على قراءة القرآن؛ لزعمهم أنه أكثر رقة للقلوب منه؛ عزا ذلك ابن الجوزي إلى ميل هؤلاء القوم إلى الهوى وإشباع الرغبة بما هو باطل، فقال: "وقد نشب السماع بقلوب خلق منهم، فآثروه على قراءة القرآن، ورقت قلوبهم بما لا ترق عند القرآن،

---

(١) الآداب الشرعية ٢/٣٠٧.

وماذاك إلا لتمكّن هوى باطن، وغلبة طبع وهم يظنون غير هذا"[1].

ومن خلال ما سبق بيانه وما وقفت عليه من ردود وإنكار العلماء على مسألة السماع عند الصوفية، وما احتوى عليه من مزاعم وآثار، يتضّح أن هذه بدعة في الدين، ابتدعها هؤلاء القوم، إذ لم يكن يعرفها المجتمع الإسلامي في عصر النبوة والصحابة والتابعين؛ إنما هي بدعة دخيلة على الإسلام وأهله، سرت في جسد الأمة في العصور المتقدمة، ومن المؤكد أن لبعض الديانات الأخرى تأثير على الصوفية في ذلك[2].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٤٧.

(٢) السماع أول من أحدثه بنو إسرائيل عندما اتخذوا العجل إلها لهم من دون الله، فجعلوا يغنون بين يديه، ويصفقون ويرقصون، فبقي حالهم كذلك إلى أن جاءهم موسى عليه السلام، ووقع من بعضهم ما قد ذكرها الله في كتابهم، فهو أصل لما ذكر، بل إن في توراتهم ما يؤكد أن ذكر الله المفرد بالدف والشبابة ونحوها مأخوذ من عندهم، فقد جاء في المزامير "ليبتهج متوجهون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص، بدف وعود، ليرنموا هللويا. سبحو الله في قدسه، سبحوه برباب وعود. سبحوه بدف ورقص. سبحوه باوتار ومزمار، سبحوه بصفوه الهتاف"...

(المزامير، الكتاب المقدّس (العهد القديم) مصر: دار الكتاب المقدّس – ١٩٨٣م) ص ٩٣٦، المزمور المئة والخمسون.



الفصل الثالث

ردود العلماء في القرن السادس على اللباس والشعار

ويشتمل على ومبحثين:

المبحث الأول: اللباس والشعار عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على اللباس والشعار عند الصوفية.

تعريف اللباس والشعار:

اللباس:

لغة: بكسر اللام، جمع ألبسه، ما يلبس مما يستر الجسم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾[1]، [2].

اصطلاحاً: ما يلبس من الثياب[3].

الشعار:

لغة: هو العلامة[4].

وهو ما ولي جسم الإنسان من اللباس.

اصطلاحاً: وهو العلامة التي تتميز بها دولة أو جماعة من قول أو نقش أو غيرهما[5].

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٦.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٨١٣/٢، ومعجم لغة الفقهاء ص ٣٥٧، والمصباح المنير ص ٢٠٩.

(٣) تفسير الطبري المسمى: جامع البيان في تأويل القرآن / محمد بن جرير الطبري ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية - ١٤٠٨هـ ٤٥٥/٥.

(٤) انظر: لسان العرب ١٣٥/٧.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء ص٢٣٤.



المبحث الأول
اللباس والشعار عند الصوفية

للصوفية نهج خاص فيما يتخذونه من لباس، اشتهروا به عن غيرهم، ورأوا في ذلك اتباعا للسنة. ذلك أن لبس الصوف سمة بارزة وزي خاص انفردوا به عن غيرهم، ولا غرو أن تسمّوا بالصوفية نسبة إلى لبس الصوف[1] حتى اتخذوا ذلك شعارا وعلامة لهم.

كما اشتهر القوم بلباس المرقعات والمصبغات من الثياب الممزقة والمخرقة، ذات اللون الأزرق بدعوى الزهد والتقرّب إلى الله، ويعتقد أنه شعار الحزانى المكلومين كما يقول الهجويري[2].

ومن أشهر ما اشتهروا به لباس الخرقة[3] ذات المدلول الصوفي وزعموا أنها من السنة، فقد جعل لها محدث الصوفية محمد بن طاهر بابا

---

(١) لبس النبي ﷺ جبة صوف في بعض الأوقات، وبوّب البخاري -رحمه الله-: باب جبة الصوف في الغزو. انظر صحيح البخاري، كتاب اللباس ٣٧/٧.

(٢) انظر كشف المحجوب ٦٤، ٦٥.

(٣) الخرقة: الخرقة عند الصوفيةعبارة عن قميص يلبسه الشيخ للمريد، وهي علامة التفويض والتسليم لدخول المريد في حكم الشيخ، انظر عوارف المعارف ص٩٢.

عقده في كتابه "صفوة التصوّف" قال فيه (باب السنة في لبس الخرقة من يد الشيخ)، وجعل لذلك سندا متصلا بالرسول ﷺ واستدل بحديث أم خالد: (أن النبي ﷺ أتى بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم. قال رسول الله ﷺ إيتوني بأم خالد، قالت: فأتي بي فألبسنيها بيده، وقال أبلي واخلقي)[1].

والخرقة عند الصوفية هي ما يلبسه المريد من يد شيخه، الذي يدخل في إرادته، ويتوب على يديه لأمور منها التزيي بزي المراد يلتبس بصفاته، كما يلبس ظاهره بلباسه، وهو لباس التقوى ظاهرا وباطنا... ومنها وصول بركة الشيخ الذي لبسه من يده المباركة إليه... الخ[2].

ومن شعار الصوفية في اللباس: لبس المرقعات التي يفخرون بها، وجعلوها شعارا لهم يقول الهجويري: "اعلم أن ارتداء المرقعات هو شعار الصوفية ومثل هذه الملابس سنة"[3].

---

(١) صفوة التصوّف، محمد بن طاهر المقدسي، ص ٤٤، والحديث معناه في فتح الباري، كتاب الجهاد والسير باب من تكلم بالفارسية والرطانة٦/٢١٢ رقم الحديث (٣٠٧١).

(٢) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ١٧٨.

(٣) كشف المحجوب ص ٥٥.



ولقد بالغ بعض الصوفية في لبس هذه المرقعات، فهذا أبو جعفر الكوفي كانت مرقعته ثخينة غليظة، فحين مات أوصى بها لأحد أصحابه[1].

والمرقعة لا تلبس إلا من يد شيخ صوفي كما قرّر بذلك الصوفية[2]. ويفتخر الصوفية بهذا النوع من اللباس، ويعدُّونه من الدين، فقد: " دخل جماعة على بشر بن الحارث وعليهم المرقعات فقال لهم بشر: يا قوم، اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزي، فإنكم تعرفون به، وتكرمون له، فسكتوا كلهم، فقام شاب من بينهم فقال: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به ويكرم له، والله ليظهرن هذا الزي حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت يا غلام: مثلك من يلبس المرقعة"[3].

والصوفية يؤثرون من باب الزهد والتقرّب إلى الله لبس الصوف والخلقان على غيرها، ويرون أنها أحب إليهم من الجديد، ويتبرمون من

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ١٤/٤١٤، وانظر ترجمة أبو جعفر الكوفي في الحلية ١٠/٢٢٤.

(٢) انظر: صفوة التصوّف ص ٤٤، باب السنة في لبس الخرقة من يد الشيخ.

(٣) اللمع ص ٢٤٨، وعوارف المعارف ٣١٩-٣٢٠.

لبس الثياب الكثيرة الجيّدة[1].

ومن زهد الصوفية في اللباس أنهم يأوون إلى المزابل يأخذون منها الخرق والبالية، ويرقعون بها ملابسهم، ويعد السهروردي هؤلاء من أهل الصلاح[2].

كما يرى الصوفية الاستحباب والاقتصار على ثوب واحد في الشتاء والصيف، يتقربون به إلى الله تميزاً لهم - بزعمهم.

يقول السهروردي: " ويستحب الاقتصاد على ثوب واحد، حكى ذلك عن الجريري أنه قال: كان ببغداد فقير لا يكاد نجده إلا في ثوب واحد شتاءً وصيفا، فسئل عن ذلك فقال: كنت مولعا بكثرة الثياب، فرأيت في المنام كأني دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا على مائدة فقصدتهم، فحال بيني وبينهم ملائكة، وقالوا: هؤلاء أصحاب ثوب واحد وذلك أثواب، فانتبهت، ونذرت ألا ألبس إلاّ ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى "[3].

---

(١) انظر: اللمع ص ٢٤٩، وعوارف المعارف ص ٣٢٢، ٣٢٣، وحياة القلوب بهامش قوت القلوب ١/ ٣٠٠، والإحياء ٤/ ٢٣٥.

(٢) انظر: عوارف المعارف ص ٣١٩.

(٣) آداب المريدين للسهروردي ص ٩٢-٩٣.

ومن شعارهم الذي يتميزون به في لباسهم، لبس المصبغات من الألوان بهدف الاشتهار، ويحتج لهم محدثهم محمد بن طاهر ببعض الأحاديث التي جعلها سندا لمذهبهم هذا[1].

كما يحتج لهم بجواز تخريق الثياب، بحديث عائشة رضي الله عنها، قالت: نصبت حجلة[2] لي فيها رقم، فمدها النبي ﷺ، فشقّها[3].

هذا هو اعتقاد الصوفية باللباس والشعار؛ خرق ومرقعات ومصبغات ولبس ثياب مخرقة بدعوى الزهد والاشتهار.

---

(١) انظر: صفوة التصوّف ص ٥٧.

(٢) الحَجَلة: الساتر. انظر المعجم الوسيط ١/ ١٥٨.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٦١، والحديث بمعناه في فتح الباري، كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء ٤/ ٣٨١. رقم الحديث (٢١٠٥).

المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على اللباس والشعار عند الصوفية

استنكر العلماء لباس الصوفية الذي اتخذوه شعارا لهم يميّزهم عن غيرهم، واعتبروا تلك الأنواع من اللباس بدعا في الدين، لم يرد لها أصل فيه، ولم تنقل عن المصطفى ﷺ ولا عن أصحابه والتابعين لهم رضي الله عنهم أجمعين.

فقد أنكر ابن الجوزي رحمه الله زعم الصوفية في لباس الخرقة في حديث أم خالد السابق ذكره، وقال: أنهم جعلوا لها إسنادا متصلا، كلّه كذب ومحال[1]، وقال: وإنما ألبسها رسول الله ﷺ لكونها صبية. وكان أبوها خالد بن سعيد بن العاص وأمّها همينة بنت خلف قد هاجروا إلى أرض الحبشة، فولدت لهما هناك أم خالد واسمها أمة ثم قدموا فأكرمها رسول الله ﷺ لصغر سنها. وكما اتفق فلا يصير هذا سنة.

---

(١) وممن تكلم على إسناد المرقّعة وأبطله، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقال: "وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد إلى عمر فمجهول، ولا أعرف لهؤلاء ذكراً في كتب الزهد والرقائق، ولا في كتب الحديث والعلم" مجموع الفتاوى ١١/١٠٤.

وما كان عادة رسول الله ﷺ إلباس الناس ولا فعل هذا أحد من أصحابه ولا تابعيهم.

ثم احتج ابن الجوزي على الصوفية بطريقتهم قائلا: ثم ليس من السنة عند الصوفية أن يلبس الصغير دون الكبير، ولا أن تكون الخرقة سوداء بل مرقعة أو فوطة، فهلا جعلوا السنة لبس الخرق السود كما جاء في حديث أم خالد؟!"[1].

كما أنكر عليهم ابن عقيل رحمه الله لباس الخرقة وما يفضي إليه من عواقب لا تحمد عقباها عند الصوفية، فقال:

" والناس يقولون إذا أحب الله خراب بيت تاجر عاشر الصوفية، قال: وأنا أقول وخراب بيته، لأن الصوفية قد أجازوا لبس النساء الخرقة من الرجال الأجانب، فإذا حضروا السماع والطرب جرت من خلال ذلك مغازلات واستجلاء بعض الأشخاص ببعض فصارت الدعوة عرسا للشخص، فلا يخرج إلا وقد تعلّق قلب شخص بشخص ومال طبع إلى طبع وتتغير المرأة على زوجها، فإن طابت نفس الزوج سمي بالديّوث وإن حبسها طلبت الفرقة إلى من تلبس فيه المرقعة،

(١) تلبيس إبليس ص ١٩١.



والاختلاط بمن لا يضيق الخناق، يحجر على الطباع، ويقال تابت فلانة، فألبسها الشيخ الخرق، وقد صارت من بناته، ولم يقنعوا أن يقولوا هذا لعب وخطأ حتى قالوا هذا من مقامات الرجال وجرت هذه السنون ويرد حكم الكتاب والسنة في القلوب"[1].

وحكى ابن باشكوال[2] عن الحسين بن الحسن الدمياطي سخرية وإنكار أبي حاتم العطار البصري عندما رأى الصوفية وعليهم المرقعات والفوط قائلا: يا سادات نشرتم أعلامكم، وجذبتم طبولكم، فيا ليت شعري عند اللقاء أي حال تكونون؟!"[3].

وحذّر ابن عقيل رحمه الله من هؤلاء ووصفهم بالزنادقة قائلا:

"فالله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرّغ الخالين من الإثبات، وإنما هم

(١) تلبيس إبليس ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) ابن باشكوال: أبوالقاسم، خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال القرطبي، محدث ومؤرخ الأندلس، ولد سنة ٤٩٤هـ، من تصانيفه: كتاب الصلة والمستغيثين بالله، توفي سنة ٥٧٨هـ، ودفن بمقبرة قرطبة.

انظر: ترجمته في شذرات الذهب ٢٦١/٤، ومرآة الجنان ٤١٢/٣، وسير أعلام النبلاء ١٣٩/٢١.

(٣) انظر: الصلة لابن باشكوال ١٤٦/١.

زنادقة، جمعوا بين مدارع[١] العمّال: مرقعات وصوف، وبين أعمال الخلفاء الملحدة: أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع"[٢].

وفي معرض ردّه على الصوفية، بيّن ابن الجوزي اسباب إنكاره عليهم قائلا:

" وإنما أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه:

أحدها: أنه ليس من لباس السلف؛ وإنما كان السلف يرقعون ضرورة.

الثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر نعمة الله عليه.

الثالث: أنه إظهار للزهد وقد أمرنا بستره.

الرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة[٣]، وقد قال ﷺ **« من تشبّه بقوم فهو منهم »**[٤].

(١) جمع مِدْرعة وهي الجُبّة من الصوف. انظر لسان العرب ٤/٣٣١.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٧٤.

(٣) بادعائهم الزهد والفقر لأكل أموال الناس بالباطل، ومزاحمة الفقراء المحتاجين للصدقة والرفق، ولإفسادهم الثياب الصالحة وتقطيعها، وهذا إسراف وتبذير، وكله تزحزح عن الشريعة.

(٤) تلبيس إبليس ص ١٨٩، والحديث في سنن أبي داود كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة ٤/٤٤، رقم الحديث (٤٠٣١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ثم يتساءل رحمه الله قائلاً: "أفتراهم يصيرون بصورة الرقاع كالسلف؟ كذا قد ظنوا"[١].

ونقل ابن الجوزي إنكار عبد الله بن أحمد السكري[٢] على من لبس الشوازك[٣]، وقال: إنها من لباس جهّال الصوفية.

وعلّل ابن الجوزي ذلك؛ لأن الشوازك تجمع شهرة الصورة وشهرة دعوى الزهد. والصوفية يقطعون الثياب الصحاح ليجعلوها شوازك[٤].

وأنكر ابن الجوزي على الصوفية زهدهم الذي بَعُد بالقياس بين زهد السلف في الملبس، وما استحدثوه من بدع بعد ذلك في المرقعات التي كانت تتكون من ثوبين أو ثلاثة كل واحد منها على لون فيجعلونها

(١) تلبيس إبليس ص١٨٧.

(٢) السكري: هو عبدالله بن أحمد بن عبيد الله بن عثمان، أبو محمد السكري، ولد سنة ٣٩٥هـ كان أمينا مأموناً، توفي في رجب سنة ٤٧٢هـ.
(انظر: المنتظم ١٦/٢٠٧).

(٣) الشوازك: نوع من القماش على شكل شريط مصنوع من الحرير المصبغ. وهي فارسية معربة، قال في معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة (الشاذكونة: الفراش، وثياب غلاظ مضرّبة تُعمل باليمن). انظر: تلبيس إبليس ص٢٣٤، ومعجم الألفاظ الفارسية المعربة لأدّي شير (مكتبة لبنان – ١٩٨٠م) ص٩٩.

(٤) انظر: تلبيس إبليس ص ١٩٠.

خرقا، ويلفقونها ونالت شهرة وشهوة؛ فإن لبس هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الديباج[1].

كما أنكر ابن الجوزي على الصوفية لبسهم للمصبغات على سبيل الاشتهار وبين أن كراهيته ظاهرة بما روى مرفوعا أن الرسول ﷺ قال: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب الذلة يوم القيامة**»[2].

كما أنكر عليهم اللباس الذي يزري بصاحبه المتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر كالمرقع أو الممزق أو المخرق وكأنه لسان شكوى من الله عزّ وجلّ ويوجب احتقار اللابس وكل ذلك مكروه ومنهي عنه[3].

واستدل برده عليهم بما كان عليه السلف الصالح الذين كانوا يلبسون الثياب المتوسّطة لا المرتفعة ولا الدون. ويتخيّرون أجودها للجمعة والعيدين ولقاء الإخوان[4].

(١) انظر: ن. م ص ١٨٧.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٩٣، والحديث في سنن ابن ماجة، كتاب اللباس، باب من لبس شهرة من الثياب ١١٩٢/٢، رقم الحديث (٣٦٠٦) رواه ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: تلبيس إبليس ص ٢٠٠.

(٤) انظر: ن. م ص ١٩٨.

وأنكر ابن الجوزي على الصوفية في القرن السادس خرق الثياب وترقيعها بهدف الشهرة حتى اتخذوه شعارا لهم قائلا:

إنهم يعمدون إلى لبس ثوبين أو ثلاثة، كل واحد منهما على لون، فيجعلونها خرقا، ويلفقونها، فيجمع ذلك الثوب وصفين: الشهرة، والشهوة، فإن لبس مثل هذه المرقعات أشهر عند خلق كثير من الديباج، وبها يشتهر صاحبها أنه من الزهاد، فتراهم يصيرون بصورة الرقاع كالسلف، كذا قد ظنوا، وإن إبليس قد لبس عليهم وقال: أنتم صوفية؛ لأن الصوفية كانوا يلبسون المرقعات، وأنتم كذلك أتراهم ما علموا أن التصوّف معنى لا صورة؟![1]، ووصفهم رحمه الله وصفا دقيقا بقوله:

" ومن هؤلاء المذمومين من يلبس الصوف تحت الثياب ويلوح بكمه حتى يرى لباسه وهذا لص ليلي! ومنهم من يلبس الثياب اللينة على جسده، ثم يلبس الصوف فوقها؛ وهذا لص نهاري مكشوف"[2].

ورد ابن الجوزي احتجاج الصوفية على تخريق وتمزيق الثياب

(١) أي تصوف الأوائل، الذي كان زهداً في الدنيا وإقبالاً على الآخرة بالعبادة وأعمال القلوب، لا مجرد لباس متميز، ولقب مدّعي.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٨٧.

بحديث عائشة رضي الله عنها السابق ذكره[1] الذي احتجّ به محدثهم محمد بن طاهر المقدسي فقال رحمه الله: فانظر إلى فقه الرجل المسكين كيف يعيب حال من يمزق ثيابه فيفسدها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال على من ستر؛ ليحط ما انشق لا عن قصد، أو كان عن قصد لأجل الصور التي كان فيه.

قال: فإن ادّعى مخرق ثيابه أنه غائب، قلنا: الشيطان غيّبك لأنك لو كنت مع الحق؛ لحفظك، فإن الحق لا يفسد[2].

ويعلق ابن الجوزي على احتجاج ابن طاهر العجيب في هذا المجال فيقول: لقد تلاعب هذا الرجل بالشريعة واستخرج بسوء فهمه ما يظنه يوافق مذهب المتأخرين من الصوفية... وأشبه ما وضع هؤلاء بآرائهم الفاسدة إلا بما وصفت الجاهلية من إطعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[3].

ثمّ يعلق ابن الجوزي على كلام نسبه لابن طاهر ومنه: أجمع مشايخنا على أن الخرقة المخرقة وما انبعثت من الخرق الصحاح الموافقة كلها أن ذلك كله لكون الحكم الجميع يفعلون فيه ما يراه المشايخ.

(١) راجع ص٦١٥.

(٢) انظر تلبيس إبليس ص ٢٦١.

(٣) ن. م ص ٢٦٢.

يقول ابن الجوزي: "انظروا.... إلى تلاعب هؤلاء الجهلة بالشريعة وإجماع مشايخهم الذي لا يساوي إجماعهم بعرة"[1].

وعدّ ابن الجوزي الصوفية من الجهّال المغرورين بقوله: "فرقة اغتروا بالزي والنطق والهيئة... وهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين... وهؤلاء غرورهم ظاهر، فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات"[2].

وعندما أباح لهم الغزالي تقطيع الثياب وتمزيقها، تعجب ابن الجوزي من الغزالي الفقيه الذي يؤيد مثل هذه الترهات قائلا:

"عجبت من هذا الرجل كيف سلبه حب مذهب التصوّف عن أصول الفقه مذهب الشافعي" إلى أن قال: "وليس العجب من تلبيس إبليس على الجهّال منهم، بل على الفقهاء الذين اختاروا بدع الصوفية على حكم أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين"[3].

(١) تلبيس إبليس ص ٢٦٣.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٦٣-٢٦٤.

وأنشد كمال الدين الأنباري[1] وهو يرد على الصوفية هذه البدع في لباس الخرقة قائلا :

دع الفـؤاد بمـا فـيه مـن الخـرق ... ليس التصوّف بالتلبس والخرق
بل التصوف صفوة القلب من كدر ... ورؤيـة الصوفية أعظم الخـرق
وصبر النفس على أذى مطاعمها ... ومن مطامعها في الخـلق بـالخلق
وترك دعـوى بمعنى فيه حقتـه ... فكيف دعوى بلا معنى ولا خلق[2]

وانتقد ابن الجوزي زهد الصوفية في اللباس، وعدّه من المراءاة في الدين قائلا :

" يا معشر المتزهدين، إنه يعلم السر وما يخفى، أتظهرون الفقر في

(١) كمال الدين الأنباري: أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري، ولد سنة ٥١٣هـ، كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو، مشارك في أنواع العلوم، كان زاهداً، عابداً، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد، من مصنّفاته النور اللائح في اعتقاد السلف الصالح، والأنبار المنسوب إليها قرية على الفرات، توفي رحمه الله سنة ٥٧٧هـ.

(انظر في ترجمته: شذرات الذهب ٢٥٩/٤، ومرآة الجنان ٤٠٨/٣ ومعجم المؤلفين ١١٥/٢).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢٤٠، وسير أعلام النبلاء ١١٤/٢١.

لباسكم وأنتم تشتهون شهوات، وتظهرون التخشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات... آه للمرائي من يوم يحصل ما في الصدور، وهي النيات والعقائد، فالجزاء عليهم لا على الظواهر، فأفيقوا من سكرتكم، وتوبوا من زلتكم واستقيموا على الجادة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1] "[2].

وفي معرض انتقاده للباس الصوفية واختيارهم اللون الأزرق قال ابن الجوزي: "وأمّا لبسهم المصبغات فإنها إن كانت زرقاء فقد فاتهم فضيلة البياض، وإن كانت فوطا فهو ثوب شهرة وشهرته أكبر من شهرة الأزرق، وإن كانت مرقعة فهي أكثر شهرة، وقد أمر الشرع بالثياب البيض، ونهى عن لباس الشهرة.

فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « **البسوا من ثيابكم البيض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم** »[3].

وبهذه الردود من العلماء تبطل دعاوي المتصوفة وشعاراتهم في اللباس

(١) سورة الزمر آية ٥٦.

(٢) الآداب الشرعية ١٣٨/٢.

(٣) تلبيس إبليس ص١٩٢، والحديث في سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب البياض من الثياب ١١٨١/٢، رقم الحديث (٣٥٦٦)، ومسند الإمام أحمد ٢٤٧/١.

وتبقى هذه المصبغات والمرقعات والخرق مقتبسه من بعض الديانات الأجنبية(١). وبعيدة كل البعد عن عادات وتقاليد المجتمع الإسلامي آنذاك.

---

(١) وقد تأثر الصوفية باللباس والشعار بالرهبنة المسيحية التي كان فيها الرهبان يلبسون الصوف في أديرتهم كثرة كثيرة من المنقطعين لهذه الممارسة على امتداد الأرض التي حررها الإسلام بالتوحيد، أعطى هو الآخر دورا في التأثير الذي بدأ على سلوك الأوائل.

(انظر: الصوفية معتقدا ومسلكا د. صابر طعيمة ص ١٧).

كذلك فإن للعقائد الهندية أثر في ذلك يقول المستشرق جولد تسهير: "ومما يدل أيضاً على أثر العقائد الهندية أن المريد عندما يتم قبوله في الجماعة الصوفية يمنح خرقة تعتبر رمزاً إلى الفقر واعتزال الدنيا، وقد أوجدت القصص الصوفية تبعاً لأسلوبها ومنهاجها أصلاً للخرقة في السيرة النبوية، وربطت موضوعها بالنبي ﷺ نفسه"، ثم قال: "ولكن لا نستطيع أن نتجاهل أن الخرقة كرمز للاندماج في الجماعة الصوفية تشبه طريقة الاندماج في جماعة (البيكشو) الهندية الذي يتم بتسلم الثوب ومعرفة القواعد والآداب التي يتحتم على المريد اتباعها".

العقيدة والشريعة في الإسلام/ أجناس جولد تسهير نقله إلى العربية وعلق عليه/ محمد يوسف موسى، ط١ (القاهرة: دار الكتاب المصري-١٩٤٦م) ص١٤٥-١٤٦.



الفصل الرابع

ردود العلماء في القرن السادس على الرموز والغموض عند الصوفية

ويشتمل على ومبحثين:

المبحث الأول: الرموز والغموض عند الصوفية.

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الرموز والغموض عند الصوفية.

تعريف الرمز والغمض لغةً واصطلاحاً.

الرمز في اللغة:

- قال ابن فارس: "الراء والميم والزاء أصل واحد يدل على حركة واضطراب"[1].
- والرمز: الإيماء والإشارة وجمعه رموز[2].

وفي اصطلاح الصوفية:

- يقول الطوسي: الرمز هو "معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله"[3].
- ويقول ابن عجيبة: الرموز: هي الإيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم"[4].

(١) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس/ تحقيق شهاب الدين أبو عمر ط١(بيروت: دار الفكر – ١٤١٥هـ) ص ٤٢٢.

(٢) أنظر: مختار الصحاح ص ٢٥٦، والمعجم الوسيط ١/ ٣٧٢.

(٣) اللمع ص ٤١٤.

(٤) إيقاظ الهمم ص ١٥٣.



والغمض:

- قال ابن فارس: "الغين والميم والضاد أصل صحيح يدل على تضامن في شيء وتداخل، فالغمض ما تطامن من الأرض وجمعه غموض".
- ويقال: "غمض الشيء من العلم وغيره، فهو غامض"[1].
- والغمض: "كلام غامض غير واضح"[2].

(١) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٨١٥.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٢.



المبحث الأول
الرموز والغموض عند الصوفية

عند استقصاء وتتبع أحوال أوائل الصوفية ؛ نجد طابع التشدد والتقعر هو الغالب عليهم، حتى جاء القرن الخامس الهجري واختلط التصوّف بالفلسفة فنتج عن ذلك أن تبنت الصوفية مصطلحات خاصة بها يغلب عليها طابع الرمز والغمض والإشارات والألغاز مما يسوغ تفسيرها كل حسب ما يحلو له.

والمطلع على مصنّفات الصوفية وأقوال غلاتهم، يجد استخدامهم للغة الرموز والغموض في التعبير عن عباراتهم وإشاراتهم وأفكارهم، إذ أن استخدام هذا النوع من اللغة أمر تحتمه طبيعة التجربة الصوفية، ولا يمكن التعبير بذلك بألفاظ اللغة العادية.

لهذا قيل عن التصوّف "أنه علم الإشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ؛ بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحلّ تلك المقامات"[1].

---

(١) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٠٣.



ويقول الكلاباذي: "اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها، تعارفوها بينهم ورمزوا بها، فأدركه صاحبه، وخفي على السامع الذي لم يحل مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها لقصور فهمه عنه، أو لسوء ظنه به فيهوس قائله وينسبه إلى الهذيان"[١].

وتشير المصادر الصوفية، أن أول من استخدم الرمزية أبو سعيد بن أبي الخير (ت ٤٤١هـ)[٢]، بل أن البعض يشير إلى أن ذا النون المصري (ت٢٤٥هـ) هو أول من لجأ إلى هذا الأسلوب في التعبير[٣].

وحِرْص الصوفية على استخدام الرمزية في التعبير عن ما يصلون إليه من أحوال ومعارف؛ ناتج عن غيرتهم على طريقتهم من أن تكشف لغيرهم فيساء فهمها ويحصل الانحراف في التأويل مما يوقع في الضلال وهو ما ادّعى أصحاب هذا الاتجاه إلى القول بضرورة الستر.

يقول القشيري: "نعم ما فعل القوم من الرموز، فإنهم إنما فعلوا ذلك غيرة على طريقة أهل الله ﷻ أن تظهر لغيرهم فيفهموها على

(١) ن.م ص ١٠٥.

(٢) انظر: الموسوعة الصوفية للحفني ص ١٠.

(٣) انظر: من قضايا التصوّف في ضوء التكاب والسنة ص ٦٤.

خلاف الصواب، فيضلوا في أنفسهم ويضلوا غيرهم"[١].

واستخدام الصوفية للرمزية كما هو واضح مقصور عليهم دون من سواهم، هدفهم بذلك أن تكون غامضة على غيرهم يقول في ذلك القشيري: "وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجماع والستر على من باينهم، في طريقتهم، لتكون من معاني ألفاظهم مستبهمة عن الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة لضرب تصرّف، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم"[٢].

وقال بذلك المعنى الكلاباذي: "إن للقوم عبارات تفردوا بها واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم...، وأما كنه أحوالهم، فإن العبارة عنها مقصورة وهي لأربابها مشهورة"[٣].

وأوضح الغزالي أسباب استخدام الصوفية للرمزية في التعبير قائلا:

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - ١٣٧٨هـ) ١/ ١٩.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١١٧.

(٣) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٣٠.



" الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ولا يشاركهم الأكثرون في عملها ويمتنعون عن إفشائها إليهم، ترجع إلى خمسة أقسام:

١ - أن يكون الشيء في نفسه دقيقا، تكل الأفهام عن دركه، فيختص بدركه الخواص -الصوفية- وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله، فيصير ذلك فتنة عليهم، حيث يقصر أفهامهم عن الدرك.

٢ - من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه، ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين.

٣ - أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا يفهم، ولم يكن منه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعة في قلب المستمع أغلب.

٤ - أن يدرك الإنسان الشيء جملة، ثم يدركه مفصلا، بالتحقيق والذوق، بأن يصير حالا فلا يسأله، فيتفاوت القلمان، ويكون الأول كالقشرة والثاني كاللباب، والأول كالظاهر، والثاني كالباطن.

٥ - أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا، والبصير بالحقائق يدرك الرقية"[١].

(١) الإحياء / ١٠٠-١٠٣.

ويزعم الصوفية أنهم دوّنوا علومهم وجعلوا لها رموزا مصلحة للناس وغيرة على أسرار الله، أن تذاع بين المحجوبين[١] -العامة- وأنشدوا في ذلك شعرا قالوا فيه:

ألا أن الرموز دليل صدق ... على المعنى المغيب في الفؤاد

وكل العارفين لها رموز ... وألغاز تدق على الأعادي

ولو لا اللغز كان القول كفرا ... وأدى العاملين إلى الفسادي[٢]

ونقل الكلاباذي عن بعض المتكلّمين أنه قال لأبي العباس بن عطاء على سبيل التندر:

ما بالكم أيها المتصوّفة قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها عن السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد؟! هل هذا إلا طلب للتمويه، أو ستر لعوار المذهب؟!.

فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلاّ لغيرتنا عليه لعزته علينا، كي لا يشر بها غير طائفتنا"[٣]. لذا فهم يحرمون النظر في كتبهم على من لم يكن من أهل طريقتهم.

(١) المحجوبين: يقصد بهم أهل السنة والجماعة!!.

(٢) اليواقيت والجواهر ١/ ١٩.

(٣) التعرّف على مذهب أهل التصوّف ص ١٠٥.

وقد حكموا على من نقل كلامهم إلى غيرهم بجهنم هو والمنقول إليه، بل قالوا من باح بالسر استحق القتل[1].

وقد قال الشبلي: "كنت أنا والحسين بن منصور (أي: الحلاّج) شيئا واحداً، إلا أنه أظهر وكتمت"[2].

وهذا فيه دلاله قاطعة على وجوب المحافظة على أسرر علوم الصوفية، وأن إفشائها خطر على الصوفية أنفسهم!!.

فالشبلي هنا يلوم صاحبه على إظهار ما كان يجب أن يخفيه، ولكنه يقر بأنه كان أحرص على كتمان الأسرار التي إن ظهرت فإنها تلحق الضرر بالمذهب الصوفي وأتباعه.

ويروى عن الجنيد أنه قال للشبلي: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ"[3].

وقالوا:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح[4]

---

(١) اليواقيت والجواهر ١/١٧.

(٢) شطحات الصوفية ص ٢٤، ومتصوّفة بغداد ص ٢٠٥.

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٧٠ .

(٤) التصوف في الإسلام / عمر فروخ ص١١٥ .

ومن جوانب الرموز والغموض في مصطلحات الصوفية وهو ما يتضح من خلال أقوالهم.

عندما سئل ذو النون المصري عن أول درجة العارف، قال: "التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم التحير"[1].

وفي تعريفهم لليقين بأنه "اتصال البين وانفصال ما بين البين"[2].

وانظر إلى جوانب الرموز والغموض في كلام الغزالي كما يبدو واضحا:

" وكما لا إله إلا هو. فإن (هو) عبارة عما إليه إشارة: كيفما كان، فلا إشارة إلا إليه. بل كلّما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[3].

ويقول الصوفية أن علمهم هذا يقوم على الإشارة، فإذا صار عبارة خفي كما يقول الروذباري[4].

---

(١) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص١٥٥.

(٢) ن.م ص ١٢١.

(٣) مشكاة الأنوار للغزالي شرح ودراسة وتحقيق عبد العزيز عز الدين ط١(بيروت: عالم الكتب – ١٤٠٧هـ) ص ١٤٤.

(٤) انظر: إيقاظ الهمم أحمد بن محمد بن عجيبة (القاهرة: مكتبة زهران) ص ٤٥، واللمع ص ٤١٤.

ويقصد الروذباري بذلك أن علوم الصوفية لا يمكن التعبير عنها بألفاظ اللغة العربية، وإذا اضطر الصوفي إلى التعبير عنها بهذه الألفاظ خفي معناها على الغير.

لذا استخدم الصوفية نوعا آخر من الرمز والغموض، ذلك هو التفسير الإشاري لآي الذكر الحكيم.

يقولون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾[١]. المراد به قلب آدم عليه السلام، لأنه أول بيت وضع للرب في البشر، وهو أيضاً بجسده مدفون تحت عتبة هذا البيت، كما أعطاه الكشف وأما بنية الكعبة فهو مثال مضروب للقاصرين ليتذكروا به المعنى عند رؤية مثاله، فافهم"[٢].

كذلك من صور تفسيرهم الإشاري للقرآن الكريم، ما نقله ابن عطاء بن الإسكندري عن بعض مشايخه الذي فسّر قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾[٣] أي الحسنات، وقوله تعالى: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ

(١) سورة آل عمران آية.٩٦.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/٣١.

(٣) سورة الشورى آية ٤٩.

ٱلذُّكُورَ﴾[١] أي العلوم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[٢] أي علوما وحسنات وفي قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[٣] لا علم له ولا حسنة"[٤].

وتحت هذا العلم أعني، علم الإشارة، تكون الخواطر والمشاهدات والمكاشفات للصوفية الذين يزعمون تفرّدهم بذلك ويحصل جل ذلك بالمنازلات والمواجيد. كما يقول الكلاباذي[٥].

ومن مصطلحات الصوفية الغامضة (الجمع والتفرقة) وقد شرح الجرجاني هذه المصطلحات فزادها غموضا، حيث قال: "الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك"[٦].

(١) سورة الشورى آية ٤٩.

(٢) سورة الشورى آية ٥٠.

(٣) سورة الشورى آية ٥٠.

(٤) لطائف المنن لابن عطاء ابن السكندري، ط٢(القاهرة: مطبعة عالم الفكر ١٤١٣هـ) ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) أنظر التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٠٣.

(٦) أنظر التعريفات للجرجاني ص ٧٧.

وبعد أن تكلّم الكلاباذي عن بعض المصطلحات الصوفية كالفناء والبقاء والغيبة والسكر...الخ قال: "ومن يتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم، علم أن قولهم ما حكيناه عنهم، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات ولا مفردات، بل يعرف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم"[١].

وبعد أن تكلّم الهجويري عن بعض مصطلحات الصوفية قال:

" ولكل من المشايخ... في هذا المعنى -الفناء والبقاء- لطيفه بالرمز"[٢].

وهذا فيه تأكيد على استخدامهم للرمزية في عباراتهم.

ومما سبق بيانه تبين كيف استخدم الصوفية العبارات والمصطلحات التي يكتنفها الغموض والرمزية بهدف التمويه والتلبيس على غيرهم وحرصهم على كتمانها وإنزالهم أشد العقوبات على من يقوم بإفشائها.

---

(١) التعرّف لمذهب أهل التصوّف ص ١٥٥.

(٢) كشف المحجوب للهجويري، دراسة د. إسعاد عبد الهادي قنديل، راجع الترجمة د. أمين عبد المجيد، (بيروت: دار النهضة العربية للطابعة والنشر – ١٩٨٠م) ص ٤٨٥ بدون رقم الطبعة.



المبحث الثاني
ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الرموز والغموض عند الصوفية

إن أي انحراف عن السنة ولو كان قليلا لابد له أن يزداد مع مرور الزمن، ثم تأتي الروافد له من هنا وهناك، إمّا عن عمد أو عن اجتهادات خاطئة وتصوّرات باطلة حتى تتسع رقعة الباطل. وفي الحقيقة هذا هو ما لمسناه عند الصوفية.

فأوائل الصوفية اتصفوا بالتشدد وهو الغالب عليهم، وبعد مرور الزمن واختلاط علوم التصوّف بعلوم الفلسفة نتج عن ذلك تبني مصطلحات وألفاظ اختصت بها الصوفية، كلها رموز وغموض غريبة.

إن استخدام الصوفية للرموز والغموض والإشارة في عباراتهم، يُعدّ من البدع في الدين لم تكن معروفة عند السلف الصالح الذين كانوا رحمهم الله أشد وضوحا في عباراتهم التي تشربوها من منهج الكتاب والسنة في اللغة والتعبير.

لذا فقد أنكر العلماء استخدام الصوفية للرموز والغموض والإشارات لما تحمله من قلب المعاني عن حقائقها وتفسير آي القرآن الكريم عن مرادها الشرعي، وتحليل الحرام وتحريم الحلال.

فأنكر عليهم ذلك ابن عقيل رحمه الله بقوله: "عبّرت الصوفية عن الحرام بعبارات غيروا لها الأسماء مع حصول المعنى فقالوا في الاجتماع على الطيب والغناء والحنكرة أوقات. وقالوا في المردان شب وفي المعشوقة أخت وفي المحبة مريده وفي الرقص والطرب وجد، وفي مناخ اللهو والبطالة رباط.

ثم قال: وهذا التغيير للأسماء لا يباح"[1].

ونقل ابن الجوزي رحمه الله إنكار أبي العبّاس أحمد الدينوري[2] للصوفية بقوله: "قد نقضوا أركان التصوّف، وهدموا سبلها، وغيّروا معانيها بأسامي أحدثوها، سموا الطبع زيادة، وسوء الخلق صوله، والبخل جلادة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولا، والسؤال عملا، وبذأ اللسان ملامة، والخروج عن الحق شطحا،

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) الدينوري: أبو العبّاس أحمد بن محمد الدينوري، صحب يوسف بن الحسين وابن عطاء الجريري والخراز وأبا العبّاس بن عطاء، ولقي رويما، مات بنيسابور بعد الأربعين وثلاثمائة.

(انظر: طبقات الصوفية ص ١١٦، والطبقات الكبرى ١/ ١٢٢، والرسالة القشيرية ص ١١٣).

والتلذذ بالمذموم طيبة، وما هذا طريق القوم"[1].

كما انتقد العلماء مصنفي الصوفية الذين ملئوا مصنفاتهم بعلوم الإشارة، وبهذه الألفاظ والعبارات الرمزية الغامضة التي تصادم اللغة العربية بمعانيها الواضحة.

فقال ابن العربي المالكي منتقدا الغزالي في انغماسه في أوحال الصوفية، قائلا:

"وقد كان أبو حامد تاجا في هامة الليالي وعقدا في لبة المعالي حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرّف، فخرج على الحقيقة وحاد في أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق"[2].

وانتقد رحمه الله الصوفية أصحاب الإشارات، الذين جاءوا بألفاظ الشريعة، من بابها، وأقرّوها على نصابها، لكنهم زعموا أن وراءها معاني غامضة خفية، وقعت الإشارة إليها من ظواهر هذه الألفاظ، فعبروا إليها بالفكر واعتبروا منها في سبيل الذكر، فقالوا في قوله تعالى:

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤٩، وانظر: كلام الدينوري في الطبقات الكبرى ١/ ١٢٢.

(٢) العواصم من القواصم لابن العربي المالكي، تحقيق د. عمّار الطالبي ط١ (الدوحة: دار الثقافة -١٤١٣هـ) ص ٧٨-٧٩.

﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾[١]، الإشارة فيه إلى خلع الدنيا والآخرة من قلبه، وقالوا في قوله تعالى: ﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَ ﴾[٢]، أي لا يكون لك معتمد ومستند غيري.

قال القاضي ابن العربي: هذه إشارة بعيدة او قل معدومة، فإنها إلى غير مشار، وهذه خرافة، فدع عنك نهبا صيح في حجراته، وعوّل على كتاب الله.

واعتبر رحمه الله تلك التفسيرات الصوفية لآي القرآن وأحاديث السنة قدحة خاطر ولمحة ناظر، لا يحتاج إليها، وأصلها إنما هو من هؤلاء القوم الذين اشتهروا بتعطيل الشرائع، وإن كل ما جاء منها وجرى في ألفاظها، ليس على ظاهره وإنما هو كله مبني على التعبير عن باطن سواه، وغرض آخر غيره، على معنى الكتابة والرموز[٣].

كما انتقد ابن الجوزي أبا عبد الرحمن السلمي وما تضمنه تفسيره للقرآن من تفسير إشاري يصادم المراد الشرعي له الذي عليه عامة المفسّرين من أهل السنة والجماعة.

(١) سورة طه آية ١٢.

(٢) سورة النمل آية ١٠.

(٣) أنظر: العواصم من القواصم ص ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٠.

فقال: وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنّف لهم كتاب السنن وجمع لهم فيه ما زعم لهم أنه حقائق التفسير، فذكر لهم فيه العجب في تفسير القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن"[١].

وكفّر القاضي عياض بعض الصوفية الذين استخدموا الألفاظ الباطنية لمسائل العقيدة وصرفها عن معناها الشرعي إلى معان غير مفهومة تفضي إلى إنكارها، فقال رحمه الله:

"... وكذلك من أنكر الجنة والنار والبعث أو الحساب أو القيامة، فهو كافر بإجماع النص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواترا، وكذلك من اعترف بذلك؛ ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب معنى غير ظاهرة وإنها لذّات روحانية ومعان باطنة كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوّفة"[٢].

وعندما حصل لبعض الصوفية غلو في أمور ابتدعوها وعقائد اخترعوها، ووقفوا مع ألفاظ ورموز مزخرفة جمعوها، انتقدهم

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٤.

(٢) الشفاء ٢/١٠٧٧.

القاضي عياض باستحواذ الشيطان عليهم، وعدّهم من الخاسرين في الدنيا والآخرة قائلا:

" وقسم غلب عليهم الجهل، والوقوف على ما أحدث من رسوم، وتركوا النظر في المعارف والعوارف والعوام، فاستحوذ عليهم الشيطان وغلب عليهم الطغيان والعصيان، فاحتفلوا بالرقص والسماع والشهوات التي تثيرها الطباع لا يقتفون شرعا ولا يجتنبون أمرا بدعا، فهم الأخسرون أعمالا: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]"[2].

وذمّ ابن عقيل الصوفية لاستخدامهم ألفاظا معسولة ذات رموز وغموض قائلا:

"كفى الله الشريعة شرّ هذه الطائفة الجامعة بين دهمثة[3] في اللباس وطيبه في العيش وخداع بألفاظ معسولة ليس تحتها سوى إهمال التكليف

(١) سورة الكهف آية ١٠٤.

(٢) الموفي بمعرفة التصوّف والصوفي، كمال الدين ابن الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي، تحقيق وتقديم وتعليق د. محمد عيسى صالحية، ط١ (الكويت: مكتبة دار العروبة –١٤٠٨هـ) ص ٧٠-٧١.

(٣) الدهموث: الكريم؛ كما في القاموس المحيط ١/ ٣٠١.

وهجران الشرع، ولذلك خفّوا على القلوب، ولا دلالة على أنهم أرباب باطل أفضح من محبة طباع الدنيا لهم؛ كمحبتهم أرباب اللهو والمغنيات"[1].

وبهذه الردود من العلماء يتبيّن أن مصطلحات الصوفية وما شابهها من رموز وغموض وإشارات غير مفهومة؛ هي بعيدة عن اللسان العربي ودخيلة عليه من الثقافات الأجنبية[2] ومبتدعة لا أصل لها في الدين، وترهات وخزعبلات، دخل من بابها كل ملحد وزنديق، وقد حذّر الله سبحانه من اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو ما يسعى إليه أعداء الإسلام من الكفرة والمبتدعة الذين يريدون التلبيس على الناس بألفاظ معسولة.

(١) تلبيس إبليس ص ٣٧٤.

(٢) يقول د. عبد الرحمن بدوي: "وأما قضية المصطلحات التي روّجوها بين الناس، واستعملوها فيما بينهم، فلا يشك أحد في كونها أجنبية في الإسلام، ولغة الإسلام العربية، ومقتبسة مأخوذة من المسيحية بحروفها وألفاظها، معانيها ومدلولاتها".

(تاريخ التصوّف الإسلامي د. عبد الرحمن بدوي. ط١ (الكويت: وكالة المطبوعات –١٩٧٨م) ص ٣٣)



قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾[1].

كذلك فإن استخدام الصوفية للرمزية والتفسير الإشاري للقرآن فيه خلط الحق بالباطل فتلبس الأمور على الناس ويحصل الزيغ والهلاك، وقد نهانا الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾[2].

إذ لا ضابط ولا رابط لهذا النوع من التفسير الذي أسموه التفسير الإشاري الذي مكّنهم من تأويل كل نص قرآني وكل حديث ليوائم ما قرّروه ورأوه.

(١) سورة آل عمران آية ٧.

(٢) سورة البقرة آية ٤٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على أشرف خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه خاتمة البحث تتضمن أهم النتائج والتوصيات:

أ- أهم النتائج: في التمهيد عرفت الصوفية في اللغة واتضح لي أن الراجح هو النسبة إلى لبس التصوف، أما في الاصطلاح فما يراه ابن تيمية من أنهم قوم مجتهدون في طاعة الله ولكن انتسب إليهم من هو ظالم لنفسه كما انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة.

ثم بينت نشأة التصوف ومراحل تطوره واتضح لي أن الراجح ظهوره في القرن الثاني من الهجرة وأنه مر بمراحل كان في بدايته ظهور للعباد والزهاد والنساك، ثم أخذ المتصوفة بتصنيف الكتب وتدوينها في مرحلته الثانية وظهور الطرق الصوفية، أما في مرحلته الثالثة فانتشرت فيها الطرق الصوفية بكثرة وبدأت الانحرافات الفكرية مثل القول بوحدة الوجود لذا اعتبرت هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوف.

أما الباب الأول فبينت فيه منهج الصوفية في التلقي الذي اعتمد على الكشف وعلى الإلهام والخواطر، والتلقي عن الخضر -عليه السلام-

وغيرها، ثم أعقبت ذلك بردود العلماء على هذه المناهج وكان أبرز من رد على الصوفية في هذه المسائل ابن الجوزي إضافة إلى غيره من العلماء.

وفي هذا الباب بينت منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة الذي اعتمدوا فيه على سرد أحاديث ضعيفة وموضوعة كذلك استدلالهم بأقوال وأفعال مشايخهم وكان ابن الجوزي وابن عقيل من أبرز العلماء الذين ردوا على الصوفية في هذه المسائل.

أما الباب الثاني فبينت فيه اعتقاد الصوفية بالحلول ووحدة الوجود وأعقبتها بردود العلماء على هذه الاعتقادات الفاسدة، وكان القاضي عياض من أبرز العلماء الذين ردوا على الصوفية في هذه المسائل. إضافة إلى الفخر الرازي.

كذلك بينت في هذا الباب مفهوم نظرية الفناء عند الصوفية وردود العلماء عليها وبيان فسادها وبطلانها.

أيضاً بينت فيه البدع في العبادات في الصلوات والصيام والدعاء والذكر والخلوة والعزلة ودعوى إسقاط التكاليف، وبينت ردود العلماء على الصوفية في هذه المسائل وكان من أبرز العلماء الذين دحضوا حجج وأباطيل الصوفية ابن الجوزي وابن عقيل والقاضي عياض وابن العربي المالكي.

أيضاً بينت فيه غلو الصوفية في أوليائهم ومشايخهم باعتقادهم



الكرامات لهم وادعائهم علم الغيب وتقديس قبورهم والتبرك بها، وتفضيل أوليائهم على الأنبياء وأعقبت ذلك بإنكار العلماء لهم في هذه المسائل وكان من أبرز العلماء ابن الجوزي وابن عقيل والقاضي عياض.

أما الباب الثالث فعرضت فيه الأحوال والمقامات عند الصوفية ومنها الزهد والتوكل والمحبة، وأعقبت ذلك بردود العلماء عليهم في كل مسألة وكان من أبرز هؤلاء ابن الجوزي، وابن عقيل، ومحمد العامري، والقاضي عياض، وابن العربي المالكي، والزمخشري.

ثم عرضت ظاهرة السماع عند الصوفية وما فيها من أخطاء وبدع كالصعق والزعق والضرب، وأعقبت ذلك بردود العلماء الذين أنكروا هذه البدعة وما أفضت إليه من إفرازات خطيرة، وكان من أبرز العلماء الذين دحضوا هذه البدعة ابن عقيل، وابن الجوزي، والقاضي عياض.

ثم بينت في هذا الباب اللباس والشعار عند الصوفية وما اعتراه من بدع فيما يسمى بالخرقة ولبس المرقعات والمصبغات من الثياب المخرقة، وأعقبت ذلك بردود وإنكار العلماء عليهم في هذه المسألة وكان من أبرز العلماء ابن الجوزي، وابن عقيل.

وأخيراً بينت منهج الصوفية في استخدام الرموز والغموض في أقوالهم وأفعالهم بهدف كتمانها عن غيرهم، وأعقبت ذلك بردود

العلماء عليهم ومن هؤلاء: ابن عقيل، وابن الجوزي، وابن العربي المالكي، والقاضي عياض.

وفي الجملة فإن ابن الجوزي وابن عقيل، وابن العربي المالكي، والقاضي عياض اليحصبي في نظري من أشد المنكرين على جهلة وغلاة الصوفية.

أما توصياتي في هذا البحث فأوجزها بما يلي:

١- يجب المحافظة على تراث أمتنا الإسلامية بإبراز جهود العلماء في الرد على أهل البدع عموماً.

٢- تكريس تدريس مادة التوحيد في مراحل التعليم لتحصين الشباب وتحذيرهم من مغبة الوقوع في شراك أهل الأهواء والبدع.

٣- ضرورة بيان ما عليه أهل البدع والأهواء من انحرافات عقدية.

٤- تكثيف نشاط الدعوة إلى الإسلام على هدى وبصيرة وخاصة في المجتمعات التي يكثر فيها أهل البدع كالمتصوفة.

٥- الوقوف في وجه النشاط المتزايد في تحقيق وتصنيف التراث الصوفي وتحذير العامة من الاطلاع عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



فهرس الموضوعات

الموضوع — **الصفحة**

المقدمة ٥

التمهيد ١٩

التعريف بالصوفية ٢٠

نشأة التصوف ومراحل تطوره ٢٦

الباب الأول

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في التلقي والاستدلال ٦٧

الفصل الأول: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في التلقي ٦٩

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الكشف ٧٣

المطلب الأول: منهج الصوفية في الكشف ٧٥

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الكشف ١٠١

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الوجد ١٤٥

الموضـــــوع	الصفحة

المطلب الأول: منهج الصوفية في الوجد ١٤٧

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الوجد ١٥١

الفصل الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على منهج الصوفية في الاستدلال........... ١٥٧

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن الكريم......... ١٥٩

المطلب الأول: منهج الصوفية بالاستدلال بالقرآن ١٦٠

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالقرآن ١٧٣

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة ١٩٣

المطلب الأول: منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة ١٩٥

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بالسنة ٢٠١

المبحث الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال الشيوخ ومصنفاتهم .. ٢١٥



الموضـــــوع	الصفحة

المطلب الأول: منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال مشايخهم ومصنفاتهم ٢١٧

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على منهج الصوفية في الاستدلال بأقوال وأفعال مشايخ الصوفية ومصنفاتهم. ٢٢٥

الباب الثاني

ردود العلماء في القرن السادس على البدع الاعتقادية عند الصوفية. ٢٥٥

الفصل الأول: ردود العلماء في القرن السادس على الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية ٢٦١

المبحث الأول: الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية........... ٢٦٥

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على أهل الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية ٢٨٣

الفصل الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على عقيدة الفناء عند الصوفية........................... ٣٠٥

المبحث الأول: الفناء عند الصوفية ٣٠٧

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على عقيدة الفناء عند الصوفية........................... ٣١٩

الفصل الثالث: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في العبادات عند الصوفية........................... ٣٣١

الموضــــوع **الصفحة**

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصلوات عند الصوفية ٣٣٥

المطلب الأول: البدع في الصلوات عند الصوفية ٣٣٧

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس على البدع في الصلوات عند الصوفية........................ ٣٤٥

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصيام عند الصوفية ٣٥٩

المطلب الأول: البدع في الصيام عند الصوفية ٣٦١

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الصيام عند الصوفية ٣٦٧

المبحث الثالث: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية.......... ٣٧٣

المطلب الأول: البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية ٣٧٧

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الدعاء والذكر عند الصوفية.......... ٣٨٥

المبحث الرابع: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية ٤٠٣



الموضــــوع **الصفحة**

المطلب الأول: البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية ٤٠٩

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في الخلوة والعزلة عند الصوفية........... ٤١٧

المبحث الخامس: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على دعوى إسقاط التكاليف عند الصوفية........... ٤٢٥

المطلب الأول: دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية .٤٢٧

المطلب الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على دعوى إسقاط التكاليف الشرعية عند الصوفية ...٤٣٧

الفصل الرابع: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الغلو في الأولياء عند الصوفية............... ٤٥١

المبحث الأول: الغلو في الأولياء عند الصوفية................. ٤٥٥

المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الغلو في الأولياء عند الصوفية ٤٧٣

الباب الثالث

ردود العلماء في القرن السادس الهجري على البدع في السلوك والأحوال ٥٠٣

الفصل الأول: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على الأحوال والمقامات عند الصوفية ٥٠٥



الموضـــوع | **الصفحة**

المبحث الأول: ردود العلماء في القرن السادس الهجري
على الزهد عند الصوفية ٥١٣
المطلب الأول : الزهد عند الصوفية ٥١٧
المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
الزهد عند الصوفية ٥٤١
المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
التوكل عند الصوفية ٥٨١
المطلب الأول : التوكل عند الصوفية............................ ٥٨٥
المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
التوكل عند الصوفية ٥٩٣
المبحث الثالث : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
المحبة عند الصوفية................................. ٦٠٧
المطلب الأول : المحبة عند الصوفية ٦١٣
المطلب الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
المحبة عند الصوفية................................. ٦٢١
**الفصل الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
السماع عند الصوفية** ٦٣١



الموضـــوع | **الصفحة**

المبحث الأول : السماع عند الصوفية ٦٣٣
المبحث الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
السماع عند الصوفية................................. ٦٤٣
**الفصل الثالث : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
اللباس والشعار** ٦٦١
المبحث الأول : اللباس والشعار عند الصوفية ٦٦٣
المبحث الثاني : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
اللباس والشعار عند الصوفية ٦٦٩
**الفصل الرابع : ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
الرموز والغموض عند الصوفية**................. ٦٨١
المبحث الأول : الرموز والغموض عند الصوفية ٦٨٥
المبحث الثاني: ردود العلماء في القرن السادس الهجري على
الرموز والغموض عند الصوفية.................. ٦٩٥
الخاتمة ٧٠٣
فهرس الموضوعات ٧٠٧

